PAGES MISSING WITHIN THE BOOK ONLY.

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190627

UNIVERSAL
LIBRARY

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. ٨٩٢٣٥٠٧٣ ع ر ق

Name of Book فتاة عثمان

Name of Author جرجي زيدان

**OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY**

Call No ع ٨٩٢٥-٤٣ ف ر Accession No ٤٣٠

Author فتاح عثمان

Title حرحی زندان

This book should be returned on or before the date last marked below.

# فتاة غسان

رواية تاريخية غرامية

نشرح حال الاسلام من أول ظهوره
الى فتوح العراق والشام مع بسط عوائد العرب
في آخر جاهليتهم واول اسلامهم ووصف
أخلاقهم وازيائهم وسائر احوالهم

تأليف

جرجي زيدان

« منشىء الهلال بمصر »

الجزء الأول

طبعت بمطبعة ( الهلال ) باول شارع الفجالة بمصر سنة ١٨٩٧م



# المملوك الشريد

## ✻ الطبعة الثانية ✻

« تأليف جرجي افندي زيدان منشيء الهلال »

ان شهرة هذه الرواية تغني عن وصفها فقد رأى حضرة مؤلفها من اقبال الادباء على مطالعتها ما اضطره الى اعادة طبعها وقد ترجمت الى الروسية والانكليزية وهي رواية تاريخية ادبية تتضمن الحوادث التي وقعت في اوائل القرن التاسع عشر وفيها اهم الوقائع التي رافقت حياة المغفور له محمد علي باشا فيدخل في ذلك تفصيل مذبحة المماليك وحرب المورة وفتوح الشام وفتوح السودان كل ذلك على سبيل الحكاية فيستفيد المطالع الحقائق التاريخية وهو لا يشعر بملل ولا ضجر لاندراجها على اسلوب القصة الفكاهية

عدد صفحاتها مائتا صفحة وفيها رسم الامير بشير وثمن النسخة ثمانية غروش صاغ او فرنكان واجرة البوسطة غرش ونصف وتطلب من ادارة الهلال او مكتبتو بمصر و وكلاء الهلال بالجهات ومن ارسل القيمة طوابع بوسطة نصله الرواية حالاً

# الفصل الأوّل

## ملوك غسّان

بنو غسّان عرب متنصرة كانوا عمّالاً لقياصرة الرُّوم في الشام وأصلهم يمنيون من بني قحطان هاجروا اليمن بعد سيل العرِم والعرم سدٌّ كان بجوار مدينة مأرب باليمن يعرف بسد مأرب تهدّم في القرن الاوّل للميلاد وطافت مياههُ على ما جاورهُ من البلاد والقرى فقلّ سبيل الناس الى الاستقاء فنزح أهلها التماسًا للرزق ومنهم الغساسنة نزلوا ضواحي الشام بقرب ماء اسمهُ غسان فسموا اليهِ [١] واعتنقوا الديانة المسيحية و يسميهم مؤرخوا الاسلام العرب المتنصرة و يعرفون أيضًا بملوك غسّان . واوّل من عُرف منهم جفنة عاش في القرن الثاني للميلاد واتصل الملك بعده بنسلهِ فحكم منهم نحو ٢٧ ملكًا آخرهم جبلة بن الايهم و في ايامهِ ظهر الاسلام وفتحت الشام على عهد الخليفة أبي بكر الصديق وانقرضت دولتهم كما ستري . ولكن منهم الآن بقية متعثرة في ضواحي البلقاء واليرموك وحمص [٢]

ومن العرب المتنصرة ملوك الحيرة و يقال لهم المناذرة ( جمع المنذر ) أو الملوك اللخميون نسبة الى لخم بن عدي وهم من عرب اليمن نزحوا أيضًا بعد السيل واقاموا في العراق وكانوا عمالاً للفرس هناك ونسبتهم الى ملوك الفرس كنسبة ملوك غسان الى قياصرة الرُّوم اي ان كلاً من الفريقين كانوا عمالاً لاحدى هاتين الدولتين

فالغساسيون كانوا يقيمون في حوران والبلقاء وما جاورها وكانوا اشبه شيء بالولاة المستقلين تحت رعاية الرُّومانيين فيمتازون عن ولاة الرُّوم باستقلالهم في حكومتهم الداخلية تحت شروط معلومة فيؤدون الجزية ويمدون الرُّومانيين بالجند من قبيلتهم عند الحاجة وخصوصًا في حروبهم مع الفرس [٣] . او لعلهم كانوا من قبيل أصحاب الاقطاعات والمتعهدين

وكان العالم قبيل الاسلام تتنازعه دولتان عظيمتان الفرس في الشرق والرُّومان

---

(١) أبو الفداء (٢) غاية الأرب في معرفة قبائل العرب (٣) تاريخ العرب لنويل دسفرجة

في الغرب لا يكاد يفتر النزاع بينهما فيستعين الفرس بالمناذرة ويستعين قياصرة الرُّوم بالغساسنة فتولد بين تينك القبيلتين العربيتين المسيحيتين ضغائن توارثها الابناء عن الآباء وكثيرًا ما كانت تقوم الحرب بينهما حتى يكاد يبيد أحدهما الآخر

والنزاع بين الفرس والرُّوم قديم وكأنهُ طبيعي بين المشرق والمغرب فقد كانت الحروب متواصلة قبلاً بين الفرس واليونان ثم بين الفرس والرُّومان وكانت عاصمة الفرس المدائن بالعراق وعاصمة الرُّومان القسطنطينية فقضوا اجيالاً متوالية وهم بين حرب وصلح تارة يجردون الجند وطورًا يعقدون الصلح . ففي النصف الثاني من القرن السادس للميلاد كان ملك الفرس كسرى برويز وامبراطور الرُّوم موريسيوس ( والعرب تسميهِ موريق ) فثارت في بلاد الفرس ثورة داخلية آلت الى خلع كسرى فالتجأ الى موريسيوس فساعده وأعاده الى ملكه وكان ذلك داعيًا الى مصالحة وهدنة . وفي سنة ٦٠٢ م قتل موريسيوس هذا قتلهُ فوكاس ( فوقا ) وتولى هو الملك مكانهُ وكان على الفرس كسرى برويز المذكور وكان صهرًا لموريسيوس قد تزوّج ابنتهُ ماريا فلما سمع بقتل حميهِ اعتبر معاهدة الصلح بينهما لاغية وحمل بجيشهِ على القسطنطينية متظاهرًا بالانتقام من قاتل حميهِ وهو يضمر الاستيلاء على مملكة الرُّوم فظلّت القسطنطينية أثناء حكم هذا الامبراطور في حصار دائم فملَّ الناس حكومتهُ فثاروا عليهِ وارادوا خلعهُ فاستدعوا هراكليوس ( هرقل ) ابن والي القيروان عن الرُّوم فجاء سنة ٦١٠ م بعمارة بحرية ودخل القسطنطينية عنوة وقتل فوقا وتولى مكانهُ والفرس قد قاموا على الرُّوم قومة واحدة فكان كسرى محاصرًا القسطنطينية بنفسهِ وكان قائد من قوادهِ محاصرًا بيت المقدس وآخر محاصرًا الاسكندرية والناس يفرُّون من وجه الفرس من كل صوب فلم تأتِ السنة الخامسة من حكم هرقل حتى استولى الفرس على القدس وفي الثامنة ( سنة ٦١٨ ) دخلوا الاسكندرية واستولوا على مصر السفلى فلاقوا من أهل الشام ومصر ترحابًا وارتياحًا لارتباطهم معهم ومع جندهم اللخميين برابطة الوطن الشرقي والعوائد الشرقية فلبثوا تحت نيرهم عشر سنوات ثم اشتغل الفرس بعصيان بعض ولاياتهم فضعف أمرهم فاغتنم هرقل تلك الفرصة وحمل عليهم بجنده فاخرجهم من الشام ومصر واعاد المملكتين الى حوزة الرُّوم ولم يكد يستريح هرقل من هذه الحروب حتى جاءه المسلمون في اوائل الهجرة مفتتحين وهولا يزال في سوريا

وحصونهُ لا تزال منهدمة وجيوشهُ متبعثرة وسائر قوانهِ منضعضعة (١)

وكان بنو غسان تحت سيطرة الوالي الرّوماني المقيم بدمشق بأمر امبراطور المملكة الرُّومانية الشرقية المقيم في القسطنطينية فترد الاوامر الامبراطورية من الامبراطور الى والي دمشق وهو يبلغها الى ملك غسان

وكان كرسي حكومة الغسانيين تارة في عمّان بالبلقاء وطورًا في تدمر واحيانًا في الجولان وتارة في بصرى عاصمة حوران في ذلك العهد

ففي نحو السنة السابعة للهجرة ( ٦٢٩ م ) كان على الغسانيين في الشام ملكان في وقت واحد أحدهما الحارث بن ابي شمر والآخر جبلة بن الايهم (٢) وكان الحارث يقيم في بصرى وفي مكانها الآن قرية صغيرة اسمها اسكي شام أي الشام القديمة (٣) وسيأتي ذكرها وبجوار بصرى هذه دير بحيراء الذي نزل عنده أبو طالب ومعهُ ابن أخيهِ صاحب الشريعة الاسلامية يوم قدموا الشام للتجارة قبل ظهور الدعوة الاسلامية ببضع وعشرين سنة (٤)

وأما جبلة فهو ابن عم الحارث المشار اليهِ وكان يقيم بالبلقاء

# الفصل الثاني

## فتاة غسّان

وكان لجبلة هذا ابنة بارعة في الجمال مع تعقل ورزانة اسمها هند ربيت منذ حداثتها على ظهور الخيل فشبّت مولعة بركوبها ومجاراة اعاظم الفرسان في حلبة السباق حتى طار صيتها في القبائل واصبحت حديث القوم ومضرب أمثالهم قبل ان بلغت العشرين من عمرها

وكانت تقيم غالبًا في صرح الغدير وهو قصرٌ بديعٌ شاهقٌ بناه ثعلبة بن عمرو أحد ملوك غسان في القرن الرّابع للميلاد (٥) في أطراف حوران مما يلي البلقاء من

(١) صموئيل شارب (٢) الأغاني جزء ١٤ (٣) دائرة المعارف (٤) ابن الأثير (٥) ياقوت

حجارة ضخمة فيهِ غرف واسعة تحدق بها الحدائق والبساتين تجري من تحتها الجداول والسواقي معظم ايام السنة

وكان بجوار القصر سهل واسع الارجاء خصصوه لسباق الخيل في مواقيت معينة من العام يخرط في سلكهِ امهر فرسان الملقاء وحوران وقد يقصده اهل البلاد الاخرى وكانت هند تنزل السباق بنفسها وكثيرًا ما احرزت قصب السبق . وكان ذلك السباق تحت رعاية والدها جبلة فيخلع على السابقين خلعًا يعينها قبل الشروع في السباق فمن نال قصب السبق احتفلوا بالباسهِ الخلعة في مساء يوم السباق احتفالاً يحضره الشعراء ينظمون القصائد في مدح السابق ثم تحمل هند الخلعة بيدها وتلبسها للسابق فاذا جاء يوم السباق تقاطر الفرسان من انحاء الشام وحوران والبلقاء وغيرها يتسابقون الى احراز تلك الجائزة

ففي سنة ٦٢٩ م ( سنة ٧ الهجرة ) سكّ جبلة المادين ينبئون الناس بسباق ذلك الفصل وهو فصل الربيع وعين لهُ الجائزة درعًا سليمانية كاملة وامر باعداد حاجيات الاحتفال بجوار صرح الغدير حتى اذا دنا اليوم المعين تقاطر الفرسان الى تلك الساحة زرافات ووحدانًا بخيولهم وسياسهم وفيهم جماعة كبيرة من الامراء الغسانيين وغيرهم بعضهم بالعمامة وبعضهم بالكوفية والعقال وبعضهم بالقلانس تشبهًا بالرُّوم

ففي صباح يوم الموعد كانت الخيول مصفوفة بجانب السهل صفوفًا غير منتظمة والخيام منصوبة ليأوي اليها الفرسان اثناء السباق في صدرها خيمة جبلة وهي فسطاط كبير مبطن بالحرير الاحمر ارضهُ مكسوة بالبسط والسجاد وقد علقت تلك الدرع في بعض أعمدتهِ ليراها الفرسان ويشتاقوا الى احرازها

فلما اشرقت الغزالة واعدت الخيول شاعت اعين الفرسان نحو القصر في انتظار هند وابيها فاذا بالابواب قد فتحت وخرج جبلة وكان قد جاء من مساء الامس وبات في القصر استعدادًا لحضور السباق فلما أُنبئ الناس بخروجه تأدبوا في موقفهم فمرَّ بالحديقة ثم فتحت ابوابها فخرج جبلة وحاشيتهُ وعلى رأسهِ تاج مرصع تنعكس أشعة الشمس عن جواهره فتبهر الابصار [1] وكان طويل القامة أصهب ( اي يخالط بياض

(١) ابن الأثير

وجهه حمرة ) ذو سال وعثنون (١) عليه ازار من الديباج المركش يغطي اثوابه ويديه ويجر وراءه . فمشى والخدم تقود أفراسه وراءه معقودة اذنابها وعليها القلائد من الذهب والفضة حتى جاء فسطاطه فجلس في صدره على سرير من خشب العرعر محلى بالذهب وساقوا خيله الى مرابطها في خيمة خاصة بها ووقف في باب الفسطاط الحاجب وراءه جماعة من الحاشية بعضهم يحمل سيف جبلة وآخر يحمل قوسه ولم يكد يستوي على سريره حتى استأذن الشعراء بالدخول عليه فاذن لبعضهم فدخلوا والقوا التحية وتربعوا على البساط في ارض الفسطاط فلما رآهم جبلة تذكر حسانا بن ثابت وكان يخلف اليه كثيرًا ويمتدحه فيصله بالهبات الوافرة (٢) ولكن حسانا لما اعتنق الاسلام أقام في المدينة وانقطع عن الغساسنة وغيرهم

وبعد هنيهة خرجت هند بنت جبلة من قصرها تخف بها جواريها وقد يعرف الناس خروجها برائحة طيبها قبل ان يروها فمرّت بحديقة القصر حتى خرجت من بابها واعين الفرسان شائعة نحوها واكثرهم انما يأتي السباق ليتمتع بمنظرة منها . ومشت من باب الحديقة مشية تدل على صحة ورزانة وكانت ممشوقة القوام ممتلئة الجسم مستديرة الوجه فصحيحة اللون مشربة بالحمرة سوداء العينين مع كحل طبيعي لا يكاد يصدق الناظر اليها الاّ انها مكحلة بالاثمد وكان شعرها اسود مضفورًا قد أُرسلت ضفائرُه خصلة واحدة على ظهرها وفي اطراف الضفائر قطع من النقود الذهبية أو الحلى وفي أُذنيها قرطان في كل منهما لؤلؤة كبيرة وجعلت على رأسها تاجا صغيرًا مرصعًا وضعته مائلاً نحو اليمين . وفي عنقها عقد من المرجان وفي احد معصميها دملج من الذهب عريض مرصع بالياقوت وفي اصابعها الخواتم من العقيق والزمرد وقد أرخت من كتفها رداء حريريًا مخططًا بالوان بديعة يغطيها الى الرسغ فلا يظهر من اثوابها الاّ اسفل الحذاء . فتخلف بعض جواريها في الحديقة ورافقتها اثنتان منهنّ الى الفسطاط وعيون الناس شاخصة اليها عن بعد وهي تنظر اليهم بطرف عينها حياء ورفعة حتى دخلت الفسطاط فترحب بها والدها واجلسها الى جانبه وكان كثير الولع بها حتى تسلطت على عقله ورأيه فلا يكاد يبرم امرًا الاّ بعد مشورتها ثم وقف الاتباع والخدم خارج الفسطاط ومعهنّ خادمتاها وكان مقعد جبلة وهند هناك بحيث يشرفان

(١) الأغاني جزء ٢ (٢) الاغاني جزء ٤ و ٢

على ساحة السباق و بريان المتسابقين في اوّل الشوط

ثم سمعوا جلنة وقيل ان ثعلبة بن الحارث بن أبي شمر صاحب بصرى قد جاء بحاشيتهِ فلما سمعت هند بقدومهِ غلب عليها الانقباض حتى كاد يظهر على وجهها . أما جلنة فنهض عن سريرهِ الى باب الفسطاط لاستقبال ثعلبة وكان ثعلبة شاباً قصير القامة خفيف العضل نحيف الوجه كبير العينين والأُذنين ليس عليهِ من مهابة الملوك الاَّ ملابسهُ الفاخرة فقد كان لابساً طيلسانًا من الحرير مزركشًا يجر وراءه على عادة الرُّومان وسيفهُ أعقفٌ مرصعٌ يتدلى من حمائلهِ الى يساره وقد اوقف طرفي شاربيهِ انفة وكبرا واعتدادًا بمنصب والده

وكان الغسانيون يتحدثون بهند وثعلبة ويزعمون انهما لا بدَّ من تزوجهما نظرا لما بينهما من النسبة والنسب ولكن ذلك لم يخرج الى حيز الوجود ولا تخاطب الوالدان بشأنهِ على ان ثعلبة كان كثير الاعتداد بنفسهِ وربما حدثتهُ خيلاؤُه ان يترفع عن هند لو خوطب بشأنها . أما هي فكانت خالية الذهن من أمر الزواج والحب على الاطلاق ولكنها كانت تستنكف من اخلاق ابن عمها ولا تميل اليهِ ولولا رابطة القرابة ما خاطبتهُ ولا جالستهُ مطلقًا

فلما وصل ثعلبة استقبلهُ جبلة وعانقهُ ورحب بهِ وادخلهُ الفسطاط واجلسهُ على سرير بجانب سريرهِ واخذ يسألهُ عن والده وسبب تخلفهِ عن ذلك السباق فاعتذر عنهُ انهُ في شاغل خصوصي حال بينهُ وبين ما يريد وكان جبلة انما يكرم ثعلبة اكرامًا لمنزلة والده ومراعاة لآداب الملوك فيما بينهم

أما هند فسلمت على ثعلبة سلامًا اعتياديًا وجلست تتشاغل بالتفرج بمنظر ذلك السهل الواسع وما يتراءى وراءه من الجبال وتتظاهر انها مهتمة بمنظر الخيول المتزاحمة هناك

أما ثعلبة فكان يخاطب عمهُ وعيناه على هند لا لحبهِ لها بل رغبة في اعجابها بهِ وهي كلما التمس اعجابها زادتهُ ازدراء فلما أتمَّ حديثهُ مع عمهِ تحوَّل نحوها فسألها عن عزمها هذه المرة على النزول في ساحة السباق فاجابت وهي تنظر الى الميدان انها لا تنوي النزول الآن ولكنها ربما نزلت اذا رأت ما يشوق الى ذلك

فلما اقترب الضحى خرج بعض امراء جبلة واخذوا يهيئون معدات السباق

ويرتبونها فنصبوا حبلاً يقف الفرسان عنده اذا عزموا على السباق فيكونون صفاً واحداً على استواء واحد ثم تناول احدهم قصبة طويلة اعدت لذلك اليوم وسار بها الى آخر الساحة فنصبها هناك فمن سبق اقتلعها واخذها ليعلم الحاضرون انهُ السابق من غير نزاع فيقال لمن اقتلع تلك القصبة انهُ احرز قصب السبق (١)

# الفصل الثالث

## السباق

فلما تمت المعدات على هذه الصورة بودي في الناس ان يتهيأوا للسباق فركبوا جميعاً وجاؤوا واحداً واحداً يلقون التحية على ملكهم جبلة فاذا وصل أحدهم امام البساط ترجل ودخل فقبل يد جبلة ويد ثعلبة وخرج وكانت هند أثناء ذلك تنظر في وجوه الداخلين كأنها تتوقع رؤية فارس تعرفهُ وكانت تفعل ذلك وتحاذر أن يشعر بها أحد فوقع نظرها على أحدهم وكان أحسنهم وجهاً في نحو العشرين من عمره يظهر من لباسهِ وملامح وجههِ انهُ ليس من بني غسان وكان ربيع القامة أسود العينين حادها لابساً قباء عربياً وعلى رأسهِ كوفية من الحرير المزركش شد فوقها العقال فحالما رأتهُ ظهرت عليها الغبطة وعلا وجهها بعض الاحمرار ولكنها تجاهلت وتشاغلت ببعض الشؤون فتقدم الشاب الى جبلة فقبل يده وخرج ولم يتمه الى ثعلبة اما سهواً او عمداً فعظم ذلك على ثعلبة ونظر الى هند فاذا هي تشيّع ذلك الشاب بنظرها حتى خرج من البساط فاستيقظت عوامل الغيرة في قلبهِ ولا داعي لتلك الغيرة غير ما فطر عليهِ من الحسد والكبرياء لكنهُ لم يفه بكلمة

ثم مرّ باقي الفرسان حتى تكامل عددهم وركبوا خيولهم واصطفوا الى الحبل فلم تكن تسمع الاّ قرقعة اللجم وصهيل الخيل واصوات حوافرها تخمص بها الارض كأنها تلح في طلب السباق ليُطلق لها العنان فتجري في ذلك السهل الواسع الارجاء وفيها الادهم والاشقر والمحجل والمجنب والمجبب واليعسوب والكميت وغير ذلك من أشكال الخيل

(١) صناجة العرب

وفيما كان الفرسان يتهيأون للسباق كان جبلة وهند وثعلبة يتداولون في من عسى ان يكون السابق في ذلك اليوم فقال جبلة ما ظنكما ان يكون السابق من هؤلاء الفرسان اليوم فيفوز بهذه الدرع فلم يجب ثعلبة بشيء ولكنه اعتدل في مجلسه واخذ يلاعب شاربيه ولسان حاله يقول أنا هو السابق ولا أحد سواي وكان كثيرًا ما يحرز قصب السبق في مثل هذا السباق ولكنه قلما احرزه عن استحقاق لان المتسابقين اذا عرفوه وعرفوا منزلته من جبلة تساهلوا في الجري معه فيسبقهم ويظن انه انما سبق لمهارته وسرعة فرسه . فلما لم يجب ثعلبة قال جبلة ما ظنك براكب ذلك الجواد المحجل اني أراه يكاد يطير عن ظهره وهو الذي نال الجائزة في السباق الماضي

فخفق قلب هند عند ذكر أما ثعلبة فهزّ رأسه مستهزئًا وقال هذا غلام غرٌّ يدعي الفروسية وهي براء منه ولولا الصدفة العمياء ما استطاع نيل تلك الجائزة ولو كنت في مقام ملك البلقاء ( يريد جبلة ) وكان هذا السباق تحت رعايتي ما اذنت بأن يكون بين فرسانه غريب لا نعرف أصله ولا يليق بنا ان ندخله فسطاط الملك وابنته جالسة لأنه لا يعرف مقام الملوك . فادركت هند ان كلام ثعلبة صادر عن غيرة لأنه لا يطيق ان يُمدح أحدٌ في مجلسه وخصوصًا ان المدح من ابنة عمه لرجل غريب

أما جبلة فاتخذ كلامه مأخذ التوبيخ ولكنه حمله محمل الاجلال لمقامه مع ما تقتضيه حدة الشباب وقلة اختبارهم فاجابه بلطف « وما يمنع ان يكون غريبًا ويدخل علينا ونحن بنو غسان يضرب المثل بحسن وفادتنا واكرامنا للغريب » فخجل ثعلبة وسكت فاستأنف جبلة الحديث قائلاً ولكني مع ذلك استغرب أمر هذا الشاب لسكناه بيننا مسكن الغرباء وكثيرًا ما شاهدته وقد خرج للصيد ومعه حاشية كأنه من أبناء الامراء فمن اي القبائل يمكن ان يكون على اني اراه مبالغًا في اخفاء أمره وقد سألت عنه بعض امرائنا غير مرة فلم ينبئوني بشيء عن أصله ولا يعلم أحدٌ ما مقامه بيننا ولكنني سمعتهم ينادونه حمّادًا

فظن ثعلبة ذلك حجة للفوز في جداله فقال وهذا مما يحقره في عيني يا عمّاه فانه لا يبعد ان يكون جاسوسًا مرسلاً من ملوك الحيرة فهم ما انفكوا يناوئوننا ويريدون بنا شرًّا وخصوصًا بعد أن نالهم ونال الفرس من حملات جنودنا وجنود الرُّوم هذين العامين

فأغضى جبلة عن الجواب ثم جاءهُ مخبرٌ ان الخيول معدة فكيف يرى الملك أن يكون سباقها . قال ينقسم الخيالة خمسات يتسابق كل خمسة منهم في شوط على حدة فمن سبق أُفرد جانبًا حتى لا يبقى احد لم يجرِ في حلبة السباق ثم يتسابق السابقون جميعًا فمن احرز قصب السبق منهم فهو صاحب الجائزة . فعاد المخبر وأبلغ الامراء الموط بهم أمر السباق وترتيبهِ فقسموا الخيالة خمسات فجرت اوَّل خمسة منهم حتى توارت عن النظر لأن مجال السباق يزيد على الميلين فعاد واحد منهم يحمل القصبة فتناولها رجل خفيف العضل سريع الجري أُعدَّ لمثل ذلك فاسرع بها وغرسها مكانها واجلسوا السابق الى جانب وهكذا كل خمسة على حدة

أما هند فكانت عيناها شائعتين نحو حمَّاد فلما جاء دوره تبعتهُ ببصرها حتى توارى ورفاقهُ ولبثت تنتظر عودتهم فعادوا والقصبة في قبضتهِ فافرد مع السابقين . فقال جبلة لثعلبة أرى الرجل قد سبق فاجاب والحسد ملء صدره أبعدُ من يسبق هؤلاء الخمسة سابقًا بمثل لمرى سباقهُ مع السابقين . فالتفتت هند وقالت برزانة وهدوءٍ كمن لا يهمهُ سبق حماد اولم يسبق« وما يمنع ان يكون سابقًا لهم جميعًا كيف نحكم عليهِ ونحن لا نعلم شيئًا من ضعفهِ او قوتهِ . نعم يسوءنا ان يكون السابق غريبًا ولكن ما الحيلة اذا سبق أنقبل هذا العار على بني غسان »

فكان لكلام هند وقع السهام على قلب ثعلبة وانقدت الغيرة في صدره فتبسم كأنهُ يستخف بقولها وقال « لا يكون لهُ مسابق سواي ولاعلمنَّهُ الفروسية من هذا اليوم » قال ذلك وملامح الغدر وسوء القصد ظاهرة على وجههِ فخافت ان يكون قد نوى بالرجل سوءًا فلا يزيده دفاعها الاَّ غضبًا وحقدًا فسكتت

وعند الظهيرة اونحوها انقضت الاشواط الصغيرة فاجتمع عشرون سابقًا فامر جبلة بالاستراحة لتناول الطعام وعلف الخيل

وكانوا قد أعدوا الاسمطة في قصر الغدير وذبحوا الذبائح فجاءت الاخونة يحملها الرجال الى الخيم على كل خوان منها جفنات وفيها الالوان العربية والرُّومية وبعض الخمور

وأمر جبلة ان يجلس الفرسان السابقون معهُ على خوانهِ وكان خوانهُ من ذهب

خالص وجفنانهُ من فضة [1] فجاؤوا ومعهم حماد فلما وقع نظر ثعلبة عليهِ جعل يتأملهُ بعين النقد وحماد لا يلتفت اليهِ فجلسوا على الابسطة حول السماط ركَّعًا على ركبة واحدة واخذوا في الاكل واراد جبلة أن يقف في خدمتهم على عادة كرام العرب مع ضيوفهم فاستحلفوه ان لا يفعل او يكفوا عن الطعام فاطاع وجلس معهم والى يمينهِ ابنتهُ هند والى يسارهِ ابن عمهِ ثعلبة ولما اتموا الطعام وتناولوا الحلوى وبعض الخمر تلا بعض الشعراء قصيدة ذكر فيها كرم الغسانيين وحسن ضيافتهم فاطرق جبلة خجلاً لانهُ يستنكف من ان يسمع مدحه بأُذنهِ فلما رأى الشعراء منهُ ذلك نهض أحدهم وقال مهما بالغنا في مدح ملوك غسان لن نأتي بشيء مما قالهُ فيهم حسان بن ثابت القائل

لله در عصابة نادمتهم * يومًا بجلَّق في الزمان الاوَّل
أولاد جفنة عند قبر أبيهم * قبر ابن مارية الكريم المفضل
بيض الوجوه كريمة احسابهم * شمُّ الانوف من الطراز الاوَّل
يسقون من ورد البريص عليهم * كأسًا يصفق بالرحيق السلسل
يغشون حتى ما تهر كلابهم * لا يسألون عن السواد المقبل

فأمر جبلة حاجبهُ فاعطى كل شاعر صرة فيها مائتا دينار وخمسة أقمصة [2] وكانت الشمس قد دنت من الاصيل والخيل استراحت واستراح فرسانها فنودي في الناس ان هيَّا الى السباق وكان حديث القوم « من يا ترى سيسال قصب السبق من هؤلاء العشرين » وكان حماد أقلَّهم كلامًا واكثرهم تأملاً كأن في نفسهِ شيئًا يكتمهُ ونضت هند ساعة الغداء وما بعدها تتأمل وجههُ خلسة فاعجبت فيهِ جمالاً وكمالاً ورزانة وضعة وكان ثعلبة يراقب حركاتها ونظراتها وينظر الى حماد نظر الازدراء وكان حديثهُ قاصرًا على الاطناب بما فعلهُ والدهُ أو ما مرَّ بهِ هو من غرائب الوقائع كقولهِ مثلاً انهُ ذهب للصيد فلقيهُ أسدٌ فلم يفرَّ منهُ بل هجم عليهِ وضربهُ فقتلهُ او ما شاكل ذلك من الاحاديث الملفقة وكان الحضور يصغون الى حديثهِ ويؤمنون اقوالهُ اجلالاً لمقام والدهِ واكثرهم لا يصدقونهُ وهو يسرد الحكاية وينظر الى هند يلتمس اعجابها او استغرابها وهي لا تكترث . أما حماد فلم يكن يظهر اكتراثًا

(١) الاغاني ٢ (٢) الاغاني جزء ١٦

به ولا انتباهًا له لأنه كان حرًّا لا يطيق التلبيق

فلما نودي في العود الى السباق خرج الفرسان العشرون فقال جبلة أرى ان ينقسموا الى اربعة اقسام فيتسابق كل خمسة منهم في شوط فمن سبق افرد ثم يتسابق السابقون وهم اربعة فمن سبق فله الجائزة فتسابقوا خمسات فانفرد اربعة وحماد منهم

كل ذلك وثعلبة لم يركب فرسه ولا زال للسباق انفة واستكبارًا وهو يرجو ان لا يكون حماد من السابقين فلما رآه بينهم اوجس خيفة ولو علم انه سيسبق ما عرض نفسه لمسابقته ولكنه كان لا يزال آملا ان يسبقه مسابقوه فيحوهو من خطر الفشل

ثم اصطف الاربعة امراء الخيل ووقف الناس على جانبي الميدان ينتظرون نهاية هذا الشوط فاعتدل الفرسان على صهوات افراسهم ووقف جبلة وهند وثعلبة بباب الخيمة ينظرون اليهم وقلوبهم تخفق في انتظار عاقبة ذلك السباق فاطلق الفرسان اعنة خيولهم والناس يشجعونهم بانظارهم وكان جواد حماد متأخرًا عنهم فسرَّ ثعلبة بتأخره ظانًا انه سيفشل ولكن هندًا علمت ان تأخره لم يكن الا ضربًا من الفروسية فلما توارى عن انصارهم وقفوا ينتظرون رجوعهم فاذا بحماد قد عاد يحمل القصبة حتى اذا دنا من خيمة جبلة سلمها الى هند فصاح الناس صيحة التبشير بالسبق فتناولت هند القصبة وترجل حماد وقبل جواده بين عينيه وكان عند باب الخيمة رجل يحمل وعاء فيه صبغ احمر من دم الصيد ليخضب به صدر الفرس اشارة الى سبقه (١) فلما تقدم ليصبغه اعترضه ثعلبة وقال تمهل ان السباق لم يتم بعد فعجب حماد وظهرت على وجهه ملامح الاستغراب فقال جبلة قد وعدنا ان عمنا ثعلبة ان ينازل السابق فلم يجب حماد بل عاد الى صهوة فرسه ووقف ينتظر ثعلبة فجيء اليه بفرسه وكان من احاسن الخيل عليه قلادة من الذهب الخالص وسرج مرصع بالحجارة الكريمة فركب وهو يكاد يتميز غيظًا وكانت هند في أثناء تلك البرهة فرحة بفوز حماد فشق عليها مبازلة ابن عمها له ولكنها علمت نفسها نفسل الباغي وهي تزداد تعجبًا بما تشاهده من حقد ثعلبة على حماد وليس بينهما ما يستدعي ذلك ولكن كبير النفس لا يستطيع تصور هذه الدنايا . ثم أمر جبلة فنودي في الناس ان السباق الآن بين حماد والامير ثعلبة بن الحارث فوقفوا ينتظرون نهاية هذا الشوط وكان بعض الذين فاز حماد

(١) صناجة الطرب

عليهم بودون ان يكون نعلة السابق وبعضهم يتمنون السبق لحماد ليكون لهم اسوة بابن الحارث صاحب بصرى

فسار الفرسان في عرض ذلك السهل وقلب هند يخفق لعلمها ان فرس حماد قد تعب وفرس نعلة لا يزال نشيطا فلم ينض القليل حتى عاد حماد وفي يده القصبة ووراءه نعلة قد ساق جواده الى الشاطئ واتدر منه قائلا انه لم يستبق هو بل فرسه فانه من خيل الحي او هو من صافن الخيل وسرقيس من رهيو ولو ركبته انا ما استطاع احد سبقي فسمعه حماد يقول ذلك نزل عن فرسه وقال له اليك فرسي فاركبه واعطني فرسك وكانت هند تنظر اليهما فخامت ان تعود العائفة على حماد وقد شعرت ان حبه تمكن من قلبها في تلك الساعات القليلة ما لا يكاد يتأتى باعوام

أما نعلة فقال ما قاله انخلا لعذر يتعلق به خجلا وهو لا يظن حمادا يعطيه فرسه فلما تحقق انه عنه لم يرد عن اركوب فركبها وولى الى ساحة السباق حتى توارى عن الابصار وظل الناس ينتظرون عودتهما وكل على رؤوسهم الطير وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب فارسلت نعلة اسعفها الارجوانية على تلك السهول وما وراءها من الجبال والاودية وقد هدأت الطبيعة وسكن حاشى النهار

فلما اطل الفارسان شاعت انظار الناس نحو حلبة السباق وملوا الانتظار حتى هم بعضهم بأن يلحق بهما ليرى سبب ذلك التأخر وكثر الهرج والمرج وكان اكثر الناس قلقا هند فقد شاعت عيناها وخامت خدر نعلة ثم ما لبثت ان شاهدت الغبار وبان من ورائه فارسان هما حماد ونعلة والقصبة في يد حماد فما صدقت ان رأته وقد كاد قلبها يطير من الفرح أما أبوها فشق عليه ان يكون السابق رجلاً غريباً يفوز عليهم جميعاً ولكنه ترحب به فترجل الفارسان وولا الى الخيمة فاراد حماد ان يعتذر عن نعلة فقال « والله اني لم اسبق الامير نعلة الا قصداً وقدر لأنه فارس مقدر يحق لفرسه الافتخار به ولو تعود ركوب فرسي قبل الآن لسبقني » فلم يحب نعلة ذلك شكة ثم ناول حماد القصبة الى هند فرأتها قصيرة فتأملتها فاذا هي مقطوعة بمصال براها بري القلم فارادت السؤال عن سبب ذلك فنظر حماد اليها نظرة خفية كأنه يقول لها لا تسألي فسكتت وفي نفسها ان تعرف سبب بريها

ثم تقدم حامل الصنج الاحمر فخضب به صدر فرس حماد وكان الظلام قد سدل

فغابة او كاد فأمر جبلة ان يحتفلوا بالناس الدرع في باحة القصر فأديرت المشاعل وسار الناس مشاة وقد غادروا خيولهم مع سياسها بقرب الخيام ودخلوا الحديقة ونيها الازهار والرياحين فنزلوا في بقعة واسعة انتدت لمثل ذلك الاحتفال قد ضرب فيها سرادق كبير وفرشت ارضها بالسجاد المعتق صورة في حدرانها وجلس جبلة في صدرها على وسادة من الحرير الاحمر المرقش وجلست امنة الى جانبه وتعلبة الى الجانب الآخر واجلسوا الناس على مرتفع ليراه الجميع ثم أحدقت الجواري يسدلن اذيال النهضة وجاء بعض رجال حملة يحمل الدرع ثم وقفت هند وامارات السرور ظاهرة على وجهها فمشت الى مقعد حماد فوقفت لها وركباه ترتعشان لعظم تأثير لانه علم انها جاءت لتلبسه الدرع فنزع عن رأسه الكوفية والعقال ولاح ملامح وجهه جيدا فارتدت هيابة له ولكنها استعرت فيه امرا اشعرته كل من سيد الاحتمال وذلك ان حمادا لما نزع كوفيته ظهر شعر رأسه طويلا منفوشا حتى على ظهره فلم يفهموا معنى ارسال شعره على هذه الصورة

فتناولت هند الخوذة اولا فوضعتها على رأسه ثم تناولت بقية اجزاء الدرع فألبسته اياها والشعراء ينشدون والجواري يغنين وكلهم مرحون الا تعلبة فانه لبث صامتا مقطب الوجه وخصوصا لما رأى ابنة عمه تلبس تلك الدرع لحماد بدلها وهي فرحة مسرورة اما هي فاغتنمت الفرصة باشغال الناس وهمست في اذن حماد قائلة « سألتقي عندي في دير مجيراء » فحملت تلك الالفاظ ردا وسلاما على قلبه

فلما تم الناس الدرع عادت هند الى مجلسها والناس وقوف وبعد قليل جاءت الاسمطة ومدت الموائد وجلس الناس للطعام فاذا كان العشاء تفرقوا فذهب كل الى سبيله وهم يتحدثون بساق ذلك اليوم وما كان من امر حماد وفي تعلبة عند عمه وقد أعمل فكرته في طريقة يخرج بها مما وقع فيه من الخجل

أما هند فتظاهرت بالتعب واستأذنت في الذهاب الى خيمتها فودعت والدها وتعلبة ومضت وفي جبلة وتعلبة على انفراد

فقال تعلبة لم يسؤني مسرق هذا الرجل لي بمقدار ما ساءني انه نال الجائزة وهو غريب لا يعرف له نسب وقد حرم منها امراء غسان وفرسانهم

فقال جبلة اما انا فلم يسؤني نيله الجائزة اذ قد ساءها سواه في سباق آخر

ولكني اعجب لتستره وقد فاتني ان اسأله عن اصله على انني سأرسل اليه واسأله في فرصة اخرى

فقال ثعلبة لا بد من البحث عنه لئلاَّ يكون جاسوسا او عيناً علينا من قبل اللخميين ملوك الحيرة وكأنني ارى في لهجته ما يدل على ذلك

قال جبلة ولكن ملك العراق قد خرج من ايدي اللخميين لما علمت من مقتل النعمان بن المنذر وولاية اياس بن قبيصة من قبيلة طي وزد على ذلك ان هذا الشاب لا يظهر في هيئته وشكله ما يدل على جاسوسيته فهو أقرب الى اولاد الامراء منه الى السوقة فاذا كان من أهل الحيرة فهو من امرائهم لان الهيبة ظاهرة على وجهه فشق ذلك المدح على ثعلبة فعمد الى الروعان فقال وهل يؤخذ الناس بمظاهرهم فكم من رجل تظنه ملاكًا فاذا خبرته ظهرت لك عيوبه فتجده من اسافل السوقة فأرى ان نحمله على الاقرار بحقيقة حاله قسرًا فاذا كان من اهل الحيرة اخرجناه الى بلاده واذا كنت تستنكف من اخراجه فوالدي يخرجه لانه مقيم بقرب بصرى

فقال سنظر في ذلك غدًا فلا نحرم وسيلة نستريح بها وقضيا بقية تلك الليلة بالاحاديث المتنوّعة ثم ذهب كل منهما الى مسامه في غرفة خاصة بالقصر

# الفصل الرابع

## ﴿ هند في غرفتها ﴾

أما هند فدخلت القصر فلاقتها والدتها وكانت شديدة الولع بها لانها رزقت اولادًا كثيرين لم تهنأ منهم بسواها فقبلتها وصعدت بها الى طابق علوي ودخلت بها الغرفة وامرت الخدم فاعدوا لها الفراش ثم جاءتها الماشطة بثياب النوم فنزعت حليها والبستها جلبابًا واسعًا من الحرير الناعم الشفاف ثم حلَّت خصلة شعرها ونزعت ما في ضفائرها وعلى صدرها وفي اذنيها ومعصميها من الحلي واستخرجت خلاخلها واعدت لها السرير وهو من خشب الارز في اجمل ما صنع الصانعون عليه الوسائد الحريرية الملوّنة غطاؤها من ابدع انواع النسيج صنع القسطنطينية وكان في الغرفة مخمعة فيها

بضع عشرة شمعة تفوح منها رائحة العنبر فقد كان من ضروب البذخ عندهم ان يمزجوا الشمع بشيء من الاطياب فاذا اثير تصاعدت عند احراقهِ رائحة الطيب وكان في جدران الغرفة صورٌ جميلة اكثرها من رسوم القديسين صنع بيت المقدس كصورة ولادة المسيح وصلبهِ وصعوده وكلها متقنة التصوير ملوَّنة بالوان طبيعية وفي بعض جدران الغرفة مرآة هي عبارة عن صفيحة مستديرة من الفضة مصقولة صقلاً خصوصياً حتى صارت كالزجاج تعكس النور وتري الاشياح كمرآة هذه الايام لان الناس لم يكونوا يعرفون المرآة الزجاجية بعد

فبعد ان لبست هند جلبابها وقفت امام المرآة فاصلحت شعرها وثوبها وذهبت الى السرير فجلست عليهِ وهي الى تلك الساعة لم تنبس ببنت شفة وكانت والدتها منذ دخلتا الغرفة جالسة على وسادة تتأمل بجمال ابنتها وقوامها وبما وهبتها العناية من الصحة والعقل وفي نفسها شيء تنتظر فرصة لتبوح بهِ وكانت هند اثناء تبديلها ثيابها غارقة في بحار الافكار تراجع ما مرَّ بها في ذلك النهار من الغرائب وكلما تذكرت حمادًا وسقطهُ لتغلبهِ وما اظهرهُ هذا من الحسد وما ادعاه من الفروسية وكيف انهُ عاد فشلا ازدادت احتقارا لهُ وشعورًا منهُ وحباً لحماد ولكنها كانت مع ذلك شديدة الحرص على منزلة والدها وشرف قبيلتها وخافت ان يتعلق قلبها بحماد ثم تحقق انهُ من اصل دنيء فيحول ذلك دون ارضاء والدها وسائر اهلها فتقع في الشقاء وكانت كلما تصوَّرت ذلك اقشعرَّ جسمها فتعلل نفسها بان من كان في مثل هذه الشهامة وهذه الاخلاق مع ما يتجلى في وجههِ من الهيبة والوقار لا يمكن ان يكون دنيَّ الاصل ثم تعد نفسها بكشف حقيقة حالهِ عند ما يلتقيان في دير بحيراء

وكانت والدتها واسمها سعدى في الخامسة والاربعين من عمرها لا يزال الجمال ظاهرًا في وجهها فقد كانت من اجمل بنات غسان وكثيرًا ما تغزَّل بها شعراؤهم ولما تزوجها حبلة حسدهُ كل اهل عشيرتهِ عليها

ثم جلست هند الى السرير بجلبابها وقد ارخت شعرها وحسرت عن زنديها وكانا مستديرين ممتلئين مشرقين بزينتهما الوشم على اليمين منهما صورة الصليب وعليهِ السيد المسيح مصلوبًا وعلى اليسار صورة مريم العذراء تحمل طفلها . ولو رآها حماد في تلك الحال لنطق بقول الشاعر

نالت على يدها ما لم تنلهُ يدي * فقتُّ على معصم اوهت به جلدي
كأنهُ طرق نمل في انامِلها * او روضة رصعتها السحب بالبرد
خافت على يدها من سل مقلتها * فألبست ربدها درعاً من الرود

فاتكأت الى وسادة من ريش النعام اهدتها اياها امرأة والي دمشق وألقت رأسها على كفها التماساً للراحة وقد ضايقها اجلوس معتدلة بين الرجال طول ذلك النهار فلبثت لا تتكلم وافكارها تائهة فتذكرت القصة التي سلمها اليها حماد عند سفرهِ الاخير وكيف انها مبهمة مع ما احاطت على وجه تعلبة من دلائل السوء والحقد فارتابت في امرهِ وودت السؤال عن سبب ذلك فمنعها حماد كما تقدم

ثم ابتدأت والدتها بالحديث قائلة لمادا لم تري اليوم للسباق يا هند

قالت لم ارَ مسوعا لان الفرسان كانوا كثيرين وطال الجدال بين المتسابقين حتى غابت الشمس فلم يبق وقت لركوبي

قالت وما الذي دعا الى هذا الجدال

قالت بعد ان تم السباق اراد تعلبة مسابقة السابق فعاد فتلأ فرادنا فجلا فتبسمت تبسما حيياً وقالت رايت الفرسان عديدين فمن نال قصب السبق منهم . قالت وقد ارهفت اسرتها رغبة عنها بالله تباً لعربي اسمهُ حماد لا يعرف احد حسبهُ فشق ذلك على والدتها وقالت اني اذ لا ابغي ان يكون السابق سوى حمادنا ويفوز بقصب السبق غريب

قالت ومن هم الفارسان اللذان تسابقا آخر النهار

قالت هما ابن عمي ثعلبة وحماد

قالت رأيتهما عادا مرتين

قالت تسابقا اولاً فسبق حماد فانكر ثعلبة ذلك على نفسهِ ونسب السبق الى الفرس فتنازل لهُ حماد عن فرسهِ وركب هو فرس ثعلبة وباريناً فيما على العار الاوّل لأن ثعلبة عاد محمولاً هذه المرة ايضاً ومما استغربتهُ ان حمادًا جاء بالقصبة مبتورة كأنها ضربت بسيف

فضحكت سعدى وقالت ألم يخبركم بسبب ربحها . قالت لا وكنت عازمة على البحث عن سبب ذلك فرأيت حمادًا لا يريد فكففت

فقالت بورك فيهِ انهُ بالحقيقة شهمٌ كريم الاخلاق ولا ريب عندي في انهُ رفيع النسب

فطربت هند لامتداح والدتها حمادًا وقالت ما معنى ذلك يا أُمّاه هل تعلمين من أمر هذه القصة شيئًا

فهمست في أُذنها قائلة نعم اعلم يا هند ان تلك القصبة قد قطعت بسيف ابن عمك ثعلبة . فبغتت هند واشتاقت الى معرفة تفصيل الخبر فاعتدلت على سريرها وقالت كيف وقع ذلك

قالت ان ابن عمك كان عازمًا على التنكيل بذلك الشاب سامحهُ الله ووالله لو فعل ذلك لالبسها عارًا لا تمحوه الايام

فازدادت هند استغرابًا وقالت لها وما ادراك بذلك يا أُمّاه

قالت رأيتهما رأي العين

فقالت وكيف تيسر لك رؤيتهما ونحن أقرب اليهما منك ولم نرهما

قالت تمهلي لأقص عليك الواقع فاصغت هند بكل جوارحها فهمست سعدى الى الباب فاغلقتهُ وجلست تقص الخبر وتحاذر ان يسمعها احد فقالت : لما خرجتم جميعًا الى الحمام وخرج اكثر من في القصر اليكم بقيت انا وسليمة المولّدة وبعض الخدم وكنا نرى المتسابقين يبدأُون بالشوط ولكننا لا نرى آخرهم فخرجنا وفي نفسي ان ارى حلبة السباق وكيف يقتلع السابق القصبة فانهُ منظر يفرح القلب اذ ليس الدُ من النصر . فخرجنا من بعض ابواب الحديقة الى البساتين المجاورة ومررنا بقصبة الغدير لا يرانا أحدٌ حتى وصلنا الى مكان تحت شجرة اشرفنا منهُ على حلبة السباق ونحن على مرمى حجر منها نرى ولا نُرى فلما كان السباق الاخير شاهدت ان عمك متأخرًا عن حماد لا لعجز فرسهِ لأنا رأينا الفرس يستحث فارسهُ ليطلق لهُ العنان وهو ممسكهُ كأنهُ خائف الوقوع عن ظهره ولولا ذلك لكان هو السابق والسبق في الميدان للافراس اذا احسن فرسانها ركوبها واستطاعوا الثبات على ظهورها لخوف ثعلبة الوقوع عن فرس حماد اكثر عارًا عليهِ من تأخره عنهُ أما حماد فاطلق لفرسهِ العنان وكان يستقبل عرض الفلاة كما تستقبل الام رضيعها حتى وصل القصبة وفيما هو يقتلعها رأينا ثعلبة

هاجمًا عليهِ وقد تبين سيئة وهمّ بقتلهِ فاستلق حماد السيف بالقصبة فقطعت ثم رأينا حمادًا اقتلع نعلة من صهوة جواده ورمى بهِ الارض وجثا على صدره فحسبنا ان يقتلهُ ثم سمعنا نعلة يستجير بهِ ويستعطفهُ فنهض عنهُ وتصالحا وتعانقا وعادا

فما اتمت سعدى حديثها حتى اختلج قلب هند اعجابًا بشهامة حماد وازدادت احتقارًا لنعلة وقالت لوالدتها اهذا هو نعلة ابن الحارث ايليق بغسان ان يكون ابن ملكها خسيسًا الى هذا الحد أيليق بهِ ان يغدر بشاب في ريعان الشباب ولا ذنب لهُ الاَّ انهُ افرس منهُ وزد على ذلك انهُ دخيل في بلادنا والهٌ علينا حق الجوار

فرأت والدتها في كلامها خطأً ولكنها لم تشأ ان تمكّن البغض في قلبها وحسبت بنفسها الف حساب من حملتها ان نعلة ارفع بني غسان مقامًا وليس اقرب منهُ للرواح بهند ولعل جملة يرغب في ذلك فاذا نفرت منهُ كان نفورها سببًا لتنغيص عيش ابنتها فقالت لها لا بد لنا من تأييدهِ ولومهِ حتى يرجع الى الاخلاق بهِ وبمن كان في مقامهِ وسنه

فسكتت هند لا عن اقتناع ولكنها سكتت لتسمع ما يكون من امر حماد عدا وهي تعلم ان ذهابها الى الدير قد لا يتيسر بغير موافقة والدتها فلا يجدي ان تحظ امر اجماعها جماد فاذا تقول لها لو سألتها عنهُ وتعلم ايضا ان والدتها حادة الذهن سريعة الخاطر دقيقة الملاحظة ففكرت في الامر قليلا فرأت ان لا بد لها من استطلاع والدتها والاستعانة بها على نيل حماد وقد ارتاحت الى هذا الرأي لما عاينت من انصاف والدتها وامتداحها شهامتهُ ولكنها ودّت قبل كل شيء ان تجتمع بهِ على انفراد لتطلع منهُ على حقيقة حالهِ وتستطلع افكاره ثم تطلع والدتها على الامر بالاسلوب الذي تختاره

فقالت لها مصت عني مدة طويلة يا أماه وقد نذرت نذرًا لدير بحيراء لم افهِ بعد ويلوح لي ان ما رأيناه في هذا النهار من السوء انما كان لتأخرنا عن وفاء النذر

قالت لعلهُ ذلك فان لهذا الدير كرامات كثيرة ولا صبر لهُ على تأجيل النذور فاسرعي في ايفائهِ . قالت ارى ان اذهب اليهِ غدًا ان شاء الله

قالت ولكني لا استطيع الذهاب معك في الغد لاني ذاهبة مع والدك الى البلقاء فاذا أجلتِ الذهاب الى بضعة ايام سرنا معًا

فسرّت هند لهذا الحلّ الذي جاء من تلقاء نفسه فقالت لا أراني قادرة على التأجيل واخشى ان يزيد غضب الله علينا واما لا أرى موجبًا لذهابك معي فقد اذهب مع بعض الخدم متنكرة اقضي نهارًا هناك ثم اعود

قالت افعلي ما بدا لك ثم ذهب كل الى فراشه اما هند فلم يكد يغمض لها جفن وهي تتذكر ما مرّ بها بالامس وتفكر في ماذا تتكلم حمادا اذا اجتمعت به في الغد

# الفصل الخامس

## حمـاد

أما حماد فانه عاد من صرح الغدير تلك الليلة وهو كاد يطير بأذياله لانشغال بالهِ بهند وما برحت الناظها ترنُّ في اذنيه وهي قولها « سنلتقي غدا في دير مريماء » فلما خرج من الصرح لقيه خادمه وكان يتظره والفرس بقرب الخيام فمرع الدرع عنه وجعلها في خرج على الفرس وركب وسار يطلب منزله وكان مقيما في قرية عربي مدينة بصرى وعلى ستة اميال منها يقال لها عسام (١) . ولم يأت حماد الشام الا منذ بضعة أشهر جاءه لامر لا يعلمه الا والده . فاقام في منزل المسار الذي يقضي بعض نهاره في البيت وبعضه في الصيد فصاحب رجالاً يعلمه والده ومعه بعض الخدم فيخرجون للصيد في ضواحي البلقاء فيعودون وقد اصطادوا بعض الغزلان او غيرها

وكان قد تعوّد ركوب الخيل منذ صباه ومارس الفروسية وفرسة من احود خيول العرب . وكان قد سمع بهند وقرأ شعرها في وصفها قبل خروجه من بلاده فعلق بها عن بعد ثم دعاه والده ان يصحبه الى الشام فعوّل في باطن سره على السعي في التقرّب منها لانه يظن نفسه دونها مقامًا . فاخذ منذ قدومه الشام يتردد الى جهات صرح الغدير راكبًا او ماشيا يتعلل بالمرور هناك لعلّه يشاهدها وكان ينزل الغدير احيانًا فتراه ويراها وهي لا تفقه لمراده وكلما سمع باحتفال عمومي جاءه هند — في الكنائس او غيرها اسرع اليه وسعى في استطلاع اخبارها فكانت اذا رأته ارتاحت

(١) مرى

الى رؤيته لجماله وهيبته ورزانته . فلما كان السباق الماضي حضرهُ لاوّل مرة فاظهر من الفروسية والشهامة وكرم الاخلاق ما زادها ارتياحًا الى مشاهدته واتفق انها نزلت ذلك السباق هي بنفسها فتخاطبا وتبادلا رموزًا لا غنى عنها في اوائل الحب فنزل من قلبها منزلاً رفيعًا وصارت تشعر بشوق الى رؤيته اذا غاب عنها على ان ميلها هذا لم يكن يتجاوز حدَّ الارتياح ولا خطر ببالها امر الاقتران به على انها فهمت من اشاراته وحركاته وسائر احواله انهُ طامع بها ولكنها كانت تجهل الحب وسلطانهُ فلم يذق قلبها طعمهُ على انها آنست في حماد اخلاقًا واطوارًا تنطبق على اخلاقها واطوارها من حيث التعقل والرزانة والميل الى الشهامة والحرية

فلما شاهدتْ ما شاهدتهُ في السباق الاخير من شهامتهِ وحريتهِ تقرَّر في ذهنها انها خلقت لهُ وخلق لها وهذه اوّل مرة خطر ببالها امر الاقتران بهِ وساعدها على ذلك ما آنست من ارتياح والدتها اليهِ وامتداحها شهامتهُ والثناء على مروءتهِ ولكن امرًا واحدًا كان يعارضها فيوقفها عن عزمها وهو تستّر حماد وكتمان اصلهِ فخافت ان لا يكون ذا حسب يضاهي حسبها او يقرب منهُ او ان يكون على مذهب غير مذهبها فان العرب كانوا اذ ذاك على مذاهب شتى وفيهم النصارى واليهود والوثنيون والمجوس وظهر في اثناء ذلك الاسلام لكنهُ لم يكن قد ادرك الشام بعد . على ان الوثنية والمجوسية واليهودية كانت محصورة في جزيرة العرب فكانت المجوسية في بني تميم واليهودية في نمير وبني كنانة وكندة وغيرهم وكان كثير من اليهود في يثرب ناهيك عن خيبر والاوس والخزرج الذين قدموا يثرب بعد سيل العرم وفيهم بنو قريظة والنضير وبنو قينقاع وما هم بالحقيقة من العرب بل هم حلفاؤهم [1] وكانت عرب تلك الجزيرة يقدمون الشام وبصرى وفيهم الوثني والمجوسي واليهودي والنصراني وغيرهم وهم انما يقدمون للتجارة فيمكثون ببصرى او في دمشق الشام او غيرها بضعة اسابيع او بضعة اشهر ويعودون [2]

فخافت هند ان يكون حماد وثنياً او مجوسياً فيمتنع الاقتران بينهما فطلبت الاجتماع بهِ في الدير لتتحرّى ذلك كلهُ

فلنعد الى حماد ليلة خروجه من القصر فانهُ ساق جواده زميلاً وخادمهُ يجري الى

(١) ابن الأثير (٢) ملطبرن

جانبهِ وهو يريد ان يدرك منزلهُ قبل ان يغلق والده لغيابهِ لانهُ فارقهُ من فجر ذلك اليوم ولم يعد يراه

وفيما هو في ذلك سمع وقع اقدام جواد مسرع نحوه وصوتًا يناديهِ ( حماد ) فقال نعم يا أبتي ألعلكم خرجتم للتفتيش عني

قال كيف لا نخرج وقد ابطأت علينا في العود وها قد مضى هزيع من الليل ونحن كما تعلم في ديار الغربة

فسكت حماد وسارا معًا على فرسيهما حتى مرّا بمساتين القرية بين اشجارها والناس نيام فوصلا المنزل في اطراف تلك القرية فدخلاه وقد أُنير غرفهُ بالمصابيح فأسرع حماد الى غرفتهِ فجاؤوه بالماء والثياب فغسل وجههُ ويديهِ ورجليهِ وبدّل ثيابهُ واتكأ الى وسادة ووالده الى جانبهِ واسمهُ عبد الله وهو امير من امراء العراق اللخميين ذوي اليسار وقد بلغ الخامسة والاربعين من عمره قضى معظمها في الاسفار والحروب في الشام ومصر والحجاز واليمن والعراق فحنكتهُ التجارب وعلمتهُ الايام ولكنهُ انقطع في ذلك العام الى حماد لقضاء مهمة جاء من اجلها الى بلاد الشام

فلما جلسا قال عبد الله ما الذي أخر مجيئك الى الآن يا ولدي

قال ألم اقل لك في مساء الامس اني سائر في هذا الصباح الى صرح الغدير

قال بلى ولكن هل طال مقامكم في السباق الى الآن وهل كان المتسابقون كثيرين

قال نعم يا أبتاه ان السباق لم ينتهِ الى الغروب ثم احتفلوا بالناس الدرع للسابق أما المتسابقون فكانوا عديدين وفيهم جماعة كبيرة من امراء غسان وفي مقدمتهم ثعلبة ابن الحارث صاحب بصرى

فقال ومن هو السابق يا ترى

قال ولدك حماد

فقال لا شلت يمينك هكذا تكون الفروسية فقد سبقت امراء غسان وانت غريب بينهم فهل لبست الدرع واين هي

قال وقد نلت قصب السبق ولبست الدرع بعد جدال طويل ولكنني عاينت من كرم اخلاق جبلة ورجالهِ ما حقق لنا ما نسمعهُ عن حسن وفادة الغسانيين أما الدرع فهي في الخرج

فقال عبد الله وهل نزلت فتاة غسان للسباق هذه المرة فقد اخبرتني المرة الماضية وسمعتُ من كثيرين انها تحسن الفروسية وكثيرًا ما تنزل ميدان السباق لمسابقة الفرسان

فلما ذكرتْ هند خفق قلب حماد وظهرت عليهِ ملامح البغتة ولبث برهة يفكر فأدرك عبد الله انهُ يفكر في امر هامّ

فقال ما بالك لا تجيب يا ولدي

فانتبه حماد وخجل لما ظهر عليهِ فقال لم افهم مرادك

قال سألتك عن هند بنت الملك جبلة هل نزلت للسباق هذه المرة

قال لا يا ابتاه لم تنزل ولكنها شهدت السباق وحلبتهُ بالماس الدرع للسابق . قال ذلك وامارات السرور والهيام ظاهرة على وجههِ

فلحظ عبد الله ان حمادًا يحوم حول الشراك فاراد تحقق ذلك فقال لهُ وكيف رايت فتاة غسان هل هي كما تسمع عنها من الجمال واللطف

فارقت أسرة حماد وطفق يصف جمالها ولطفها وصفًا يدلُّ على تعلقهِ بها فكان يتكلم وعيناه مشرقتان وقلبهُ يخفق وكثيرًا ما كانت تخونهُ الالفاظ في التعبير عن اوصافها فخاف عبد الله على حماد ان يقع في الشراك فاطرق وظهرت عليهِ مظاهر الانقباض والاسف معًا فاتم حماد كلامهُ وعبد الله مطرق كأن امرًا ذا بال اعترضهُ

فنظر حماد اليهِ وقد عجب لحالهِ وما طرأ عليهِ من التغيير بغتة فقال لهُ ما بالك يا ابتاه اراك قد وقعت فيما انّبتني عليهِ فهل ساءك من امري شيء

قال حاشا يا ولدي ولكني افكر في هذه الفتاة وما خصها الله بهِ من المواهب والخصال وكذلك تكون بنات ملوك

فسرَّ حماد لاستحسان عبد الله لها ولكنهُ خاف التصريح باكثر من ذلك لئلاَّ ينكر عليهِ الامل بالحصول عليها وهي من بنات الملوك وهو لا يعرف عن نفسهِ الاَّ انهُ من اولاد بعض الامراء

وكان عبد الله من الجهة الثانية راغبًا في تحقق ما اذا كانت هند تحب حمادًا مثل حبهِ لها فقال ارى هندًا قد وقعت من قلبك موقعًا عظيمًا فهل هي عالمة بذلك وهل خطر حماد ببالها

فأثر هذا الكلام في قلبهِ تأثير السهام وعدَّه اهانةً له حتى كاد يصرح بكل ما في قلبهِ ولكنهُ عاد الى تعقلهِ وحكمتهِ فقال لا اعلم منزلتي عندها ولكني رأيت منها ميلاً وارتياحًا لي

فقال يظهر ان قلبك خدعك فاتخذت لطفها الاعتيادي الذي تظهرهُ لدى سائر الناس دليلاً على حبٍّ خصوصي لك

قال لا أظن قلبي يخونني ولا يخدعني فقد علمت من قرائن عديدة انها تحبني

فقال وكيف تحبك وانت غريب ولا نسب ولا نسبة بينك وبينها

قال اعلم انها تحبني .... وسكت

فقال عبد الله افصح يا ولدي ولا تخفِ عني شيئًا فانت تعلم اني منقطع عن العالم كلهِ من اجلك فاشرح ما يخطر ببالك ولا تخف فان ما يسرُّك يسرُّني

فقال قلت لك انها تحبني

قال اذًا انت طامع بها

قال لا ادري وكل شيء بقضاء وقدر

فتحقق عبد الله وقوع حماد في شرك الهوى فسغت وصمت وجعل يلاطف بنفسهِ عشونهِ وقد همهُ ذلك الامر كثيرًا

فلما عاين حماد منهُ ذلك ظنهُ استعظم عليهِ الطمع بنت ملك غسان فقال ما بالك لا تتكلم هل ساءك ما ظهر لك مني

فابتدره عبد الله قائلاً لا يا ولدي لم يسئني ذلك ولكنني افكر في أمر عظيم يهمني كما يهمك وقد قطعنا الصحاري والقفار من اجلهِ واراك قد شغلت عنهُ بامر آخر

فقال وما تعني بذلك الامر العظيم وما الذي شغلني عنهُ لم افهم مرادك

فقال ألم تأت من العراق الى مصرى لمعي نذرًا نذرناه لك منذ ٢١ سنة ولم يبق من أجل انتظاره الاَّ بضعة ايام

قال بلى . فقال ما بالي اراك قد شغلت عنهُ بالحب والغرام

فخجل حماد عند سماع ذلك التوبيخ من والدهِ فقال وهل يؤخذ من كلامي انني مشتغل بالحب والغرام . فقال عبد الله أوتظن انني غافل أو تحسب دلائل الحب تخفى على البصير

فتحير حماد ولم يدر كيف يدفع قول ابيهِ ولكنهُ رأى الافضل ان يبوح لهُ اذ لا غنى لهُ عنهُ في اتمام قصده فقال وهبْ اني احببتها واحبتني فما علاقة ذلك بالنذر ونحن انما جئنا لقص شعر رأسي في دير بحيراء فما يمع ان نفعل ذلك وان نفعل شيئًا آخر

قال عبد الله ان هناك علاقة كبرى لا يمكني التصريح بها الاَّ في اليوم الذي تقص شعرك فيهِ وستعلم اذ ذاك امورًا أنت غافلٌ عنها الآن فلا تلومني على ترددي في أمر حبك لبنت ملك غسان . أنا اعلم ان حبك لها شرف وخصوصًا اذا كانت هي تحبك ولكني لا استطيع التصريح بشيء الاَّ في اليوم المعين لوفاء النذر وهو يوم احد الشعانين فنحن الآن في اواسط الصوم الكبير ولم يبق للموعد الاَّ بضعة ايام فتتم السنة الحادية والعشرون من ولادتك فنقص لك شعرك ونكشف حقيقة أمرك فتدخل عالمًا جديدًا وتطلع على اسرار ربما كان فيها ما يحول بينك وبين هند

فعجب حماد لذلك واشتاق الى مجيء يوم الشعانين شوقًا زائدًا واخذ يفكر في كلام عبد الله ولكنهُ قال لهُ وماذا عسى ان يحول بيني وبينها

قال قلت لك اني لا اقدر على التصريح باكثر من ذلك فأرى ان تتبصر وتتأنى ففي التأني سلامة

وكان في عزم حماد ان يطلعهُ على ما تواعدا عليهِ من الالتقاء في دير بحيراء فلما رأى منهُ هذا التهويل كتم امره وسكت ليرى ما يكون بعد اجتماعه بها ثم يكاشف والده بكل شيء على انهُ حسب تهويل والده حيلة في ترغيبهِ عن هند

وكان قد مرَّ نصف الليل وغلب التعب والنعاس على حماد ولحظ عبد الله منهُ ذلك فقال هلمَّ بنا الى الفراش يا ولدي الى ان يقضي الله بما يشاء ولكنني اوصيك ان لا تقطع امرًا او تصلهُ الاَّ بعد يوم الشعانين فانك اذا فعلت شيئًا بعد ذلك انما تفعلهُ عن بصيرة

فسار حماد الى فراشهِ وقد همَّهُ امر يوم الشعانين حتى كاد ينسيهِ هندًا وموعدها وودَّ ان يفعل ما امره بهِ والده ولكن عواطفهُ غلبت عليهِ فبات ينتظر صباح الغد انتظار الظآن للماء فقضى معظم الليل ولم يغمض لهُ جفن وهو يتردد بين حديث الشعانين وحديث هند حتى كان آخر الليل فنام قليلاً

# الفصل السادس

## ﴿ مدينة بصرى ﴾

واصبح حمّاد في الفجر فهرول الى ثيابه فلبسها وعند الله لا يزال نائمًا فاراد ان يوقظه ليستأذنه في الذهاب الى بصرى على سبيل التفرّج فخاف ان يطلب الذهاب معه فعوّل على الذهاب بنفسه خفية

فركب جواده وقد لبس الكوفية والعقال وجعل عليه القباء كالعباءة وسار شرقًا قاصدًا مدينة بصرى ولم يصطحب احدًا من الخدم اخفاء لما سار من اجله وكانت الطريق بين غسام وبصرى على استقامة واحدة كأنها هندمت بالمسطرة والفادن والبركار مرصفة بالحجارة الصلدة على نظام سائر طرق الرومان وقد نأكلت الحجارة من مسير عجلات مركباتهم (١) بحيث صار في الجانبين حائطان صخمان ارتفاع كل منهما ذراع . ولم يسر ساعة حتى اطلّ على بصرى واوّل ما شاهده منها حوضها الكبير الغربي الواقع خارج السور وهو عبارة عن خزّان للماء كبير طوله ١٣٥٠ قدمًا وعرضه ٦٥٠ قدمًا وكان لبصرى احواض اخرى في الشرق والشمال لخزن الماء خوفًا من الجدب لبعدها عن الانهر والغدران (٢)

فلما دنا من ذلك الحوض عرج نحوه وتأمل اتساعه حتى كاد يحسبه بحيرة كبيرة لأنه كان على معظم امتلائه في اوائل الربيع ثم تحوّل عنه الى مرتفع من الارض ليرى بصرى منه وهو لم يدخلها بعد ولكنه قرأ عنها في كتب الفرس والكلدان وعرف انها واقعة في جنوبي حوران شرقي نهر الاردن تبعد ٩٠ كيلومترًا عن دمشق جنوبًا شرقيًا و ١٣٠ كيلومترًا من بيت المقدس شمالاً شرقيًا وانها قديمة العهد عاصرت دول اليهود ثم اليونان والرومان (٣) فلما دنا منها صعد الى مرتفع فاشرف عليها وقد اشرقت الشمس فاذا هي مربعة الشكل تقريبًا مائلة قمعة كبيرة من الارض المنبسطة وحولها سور بزيد محيطه على اربعة اميال وشاهد خارج السور البساتين والاشجار والكروم وسائر

(١) جون مري وغيره (٢) ميريل (٣) الانسيكلوبيذية البريطانية

اصناف الغرس و رأى من و راء ذلك سلاسل جبال حوران في عرض الافق وقد أعجبهُ منظرُ المياه في الاحواض حول المدينة تتلألأ بانكسار الاشعة عنها وشاهد في المدينة بنايات هائلة كان منظرها بوجه الاجمال مغبرًا لان حجرها من الصنف الحوراني الاسمر المشهور فاشتاقت نفسهُ الى مشاهدة اسواقها فسار نحو بابها الغربي فرأى عدة القوافل وفيها الجمال والبغال والحمير بعضها قادم من العراق يحمل الاقمشة الفارسية و بعضها من اليمن تحمل الاطياب والمر واللبان وشاهد قوافل اخرى تحمل البضائع الرُّومانية وسائر مصنوعات الشام (١) وتأمل الباب فاذا هو مرتفع هائل الكبر مصنوع على النمط الروماني وفيهِ العضائد والاعمدة والنقوش على عتبتهِ من الاعلى نقش باللغة اللاتينية لم يستطع قراءتهُ فهمَّ بالدخول من ذلك الباب فرأى الشارع مرصفًا بالحجارة والناس يتزاحمون ذهابًا وإيابًا ففضل الترجل والمسير ماشيًا فدخل وقاد الجواد و راءهُ في شارع المدينة الاكبر وهو يقطعها من الغرب الى الشرق و يقطعهُ شارع آخر مثلهُ من الشمال الى الجنوب وهما اكبر شوارع المدينة ومنهما تتفرَّع الشوارع الصغيرة والدروب والازقة والحارات على زوايا قائمة فعجب لانتظام تلك الشوارع وحسن هندامها لانهُ لم يشاهد على نظامها ولا في المدائن عاصمة الفرس في ذلك العهد

ولم يكد يخطو في ذلك الشارع بضع خطوات حتى تراءى لهُ عن بعد قنطرة قائمة في عرض الطريق فعلم انها قوس نصر اعتاد الرومانيون بناءها تذكارًا للنصر او لاحتفال يحق بهِ الفخر فلما دنا من القنطرة رآها مؤلفة من ثلاث اقواس قوس متوسطة كبيرة وقوسين جانبيتين صغيرتين وعلو القنطرة اربعون قدمًا وعرضها اربعون وسماكتها عشرون وكلها مبنية باحجار ضخمة قائمة على عضائد مهندمة وفي اعلى القوس كتابة باللاتينية تشوَّق حماد الى استطلاع معناها (٢) فالتفت الى احد اصحاب الحوانيت وقد عرف من شكل لبسهِ انهُ روماني وكلمهُ باللغة الكلدانية الممزوجة بالعبرانية فاشار الى رجل جالس بالقرب منهُ كأنهُ يطلب اليهِ ان يترجم لهُ فجاء فسألهُ حماد عن تلك الكتابة فقال معناها ان بوليوس بوليانوس قائد الفرقة الاولى البرطية بناها (٣) فاعجب بفخر الرومان وايقن انهم اقرب الى العظمة والترف من ملوك فارس وقال في نفسهِ اذا كانت هذه حالهم وهم في دور الانحطاط فما هو مقدار عظمتهم و بذخهم

(١) بوركهارت (٢) مريل (٣) موجيه

في ابان مجدهم . فمرَّ من تحت تلك القوس وسار في جهة واحدة فوصل الى مزدحم من الناس عظيم فاذا هو في متصالب الطرق حيث يلتقي الشارعان الكبيران وهناك الحوانيت الكبيرة و باعة الاقمشة الثمينة ولكنهُ رأى على احد اركان ذلك المتصالب بناء شاهقًا ذا اروقة وسوافذ واعمدة ونقوش بديعة فسأل عنهُ فقيل لهُ انهُ هيكل بناهُ الرومان لعبادة الاوثان قبل نصر قياصرتهم واما الآن فقد اتخذوا بعضهُ معبدًا والبعض الآخر يسكنهُ كبار حامية الروم في بصرى (١) و وقف في ذلك المكان والتفت الى ما حولهُ فاذا هو في منتصف المدينة ومن هناك تمتد اربعة شوارع كبيرة تنتهي عند السور باربعة ابواب غربي وشرقي وشمالي وجنوبي ثم تحوَّل الى الشوارع الاخرى ليتعهدها ثم يخرج من الباب الشرقي ومنهُ يصل الى الدير فشاهد بين ابنية بصرى قصورًا شاهقة معظمها من الكنائس وبعضها من الهياكل الوثنية بنيت على عهد الرُّوم قبل نصرهم وفي جملتها مرسح بديع كانوا يلعبون فيهِ العاب السباق والمصارعة

وشاهد على تلك الابنية كتابة بعضها نقوش وبعضها اصبغة واكثرها مكتوب باللغة اليونانية واللاتينية وبعضها باللغة النبطية

واخذ يتأمل ما هنالك من الرساتيق والاسواق وفيها التجار واكثرهم من الغرباء وبينهم الدمشقي والحلبي والبدوي والرومي والفارسي والعراقي ثم وصل سوق الصناع فوجد اكثر الصناعة من الفرس والروم وصناع الاقمشة الحريرية من الدمشقيين ومرَّ بسوق الاسلحة وفيها صناع السيوف الدمشقية الشهيرة واكثرهم من اهل دمشق ولاحظ ان ابنية بصرى على اختلاف اشكالها مسقوفة بالحجر عقدًا على شكل القبو ورأى الناس تتزاحم في الاسواق رجالاً ونساء وفيهم الوطنيون ولغتهم الآرامية او النبطية وبينهم الروم ولغتهم اللاتينية وبعضهم يتكلم اليونانية وشاهد جماعة كبيرة من العرب الغساسنة لا زالوا على بداوتهم لانهم يقيمون خارج المدينة ولا يدخلونها الاَّ لحاجة فعرفهم من لباسهم البدوي وأعجب لما رآه هناك حتى كاد ينسى موعدهُ مع هند ثم انتبه فاذا بالشمس قد كادت تبلغ الضحى فهرول حتى خرج من الباب الشرقي قاصدًا الدير وقد عادت اليهِ هواجسهُ وشواغلهُ

(١) مربل ووادنتن

# الفصل السابع

## ﴿ دير بحيراء ﴾

فركب جواده وما سار قليلاً حتى وصل الى مرتفع اشرف منهُ على بناء كبير شاهدهُ عن بعد وحولهُ الاشجار والبساتين [1] وشاهد رجلاً على حمار يظهر من لباسهِ انهُ من اهل بصرى فسألهُ عن ذلك البناء فقال هو دير بحيراء يا سيدي

فساق جواده حتى دنا من الدير وهو يخاف ان تكون هند قد سبقتهُ اليهِ على انهُ يعلم ان المسافة بين الدير وقصر الغدير لا يتيسر قطعها باقل من بضع ساعات فلا يتيسر لها المجيء قبل الظهر فأخذ يتأمل الدير فاذا هو ساعان احدهما كبير وفيهِ قبة فوقها صليب علم انها كنيسة والآخر صومعة على رابية فترجَّل وشد جواده الى شجرة ولو تركه مطلقًا ماخاف فراره لانهُ اصيل ومشى نحو الكنيسة فاذا هي مبنية على النمط الروماني واسمها كنيسة بحيراء فدخل صحنها حتى جاء البيعة فرأى المكان ديرًا وفيهِ كنيسة وشاهد الرهبان والقسس وكلهم من الروم يتكلمون اللغة اللاتينية و بعضهم يتكلم اللغة السريانية الممزوجة بالعبرانية وهي لغة اهل تلك البلاد بعد السبي وشاهد بعضًا آخر يتكلم لغات اخرى فسأل عن سبب هذا الاختلاط فقال لهُ بعضهم ان مدينة بصرى مركز اسقفية بلاد العرب الكبرى وفيها يقيم رئيس الاساقفة ومنها يرسل الاساقفة الى ما تحتها من الاسقفيات [2] فدخل البيعة فرار هيكلها وقبل صورها ثم سأل عن دير بحيراء فقيل لهُ هو صومعة بالقرب من هذا الدير

فسار اليهِ فاذا هو على رابيهِ ولكنهُ عجب لنوع بنائهِ ولم يكد يصدق انهُ بيت لانهُ عبارة عن خمسة احجار ضخمة اربعة منها للجدران و واحد للسقف والباب حجر واحد مرتكز على مصراع و رأى الناس يفتحونهُ و يغلقونهُ بكل سهولة [3] فسأل رجلاً واقفًا الى جانبهِ يظهر من هيأتهِ ولباسهِ انهُ من اهل دمشق فقال لهُ ما هذا البناء وكيف يصنعون الابواب من الحجارة فأجابهُ ان هذا النمط من البناء كثير في بلاد حوران لان ارضهم صخرية والاخشاب فيها قليلة فيصنعون مصاريع ابوابهم ونوافذ بيوتهم

(١) السيرة الحلبية (٢) اسبكلوبيدية الآثار الدينية (٣) دائرة المعارف

من الحجر وقد يبنون منزلاً كثير الغرف وفيهِ الموافذ والابواب والارزقة والسقوف ولا يدخلون في بنائهِ شيئاً من الخشب قط (١)

فوقف هناك ينظر الى ذلك البناء الغريب ولم يكد يعرف الباب لو لم ير الناس يخرجون منهُ فصعد الى الصومعة حتى وقف عند بابها فاذا هي غرفة مظلمة اشبهُ شيء بالمغارة لخلوها من الموافذ الاَّ نافذة ضيقة في بعض جوانبها فدخل فرأى ارض الغرفة حجرًا واحدًا ايضًا وفي جدرانها صورٌ امام كل صورة مصباح ضعيف النور وفي بعض جوانب المكان راهب هرم قد أرسل لحيتهُ على صدره وتجعد جلد وجههِ الاَّ انهُ فانهُ ما زال نارزًا كبيرًا وقد تناول بيدهِ سبحة طويلة وجلس الارتعاء على حجر مجوت كالمقعد ملتفاً بثوبهِ الرهباني والسبحة في يدهِ والناس يدخلون اليهِ يتبركون بتقبيل كمّهِ وهو يحرّك شفتيهِ كأنهُ يدعو لهم فمن زاره سار الى الدير لزيارة الكنيسة وبجوار الكنيسة غرف لمن اراد الاستراحة او الاقامة

فتأثر حماد لمنظر ذلك الراهب الهرم اذ تمثلت لهُ فيهِ مظاهر الشيخوخة واضحة وضوحًا تامًا ولكنهُ لاحظ امرًا واحدًا استلفت انظاره وذلك انهُ رأى لباس هذا الراهب كلباس رهبان الساطرة في العراق وكان قد شاهد كثيرين منهم هناك فتقدم نحوهُ وقبل يدهِ فنظر اليهِ الراهب وتأملهُ كأنهُ عرفهُ وامرهُ بالجلوس فجلس وهو اكثر رغبة منهُ في مجالستهِ لانهُ ودَّ كثيرًا ان يعرف قصة ذلك البناء وكان حماد قد تعلم كل علوم تلك الايام في مدرسة الرها الشهيرة بالعراق فتثقف عقلهُ وصار مهيأً للاطلاع فلما رأى في ذلك الراهب ارتياحًا الى مجالستهِ سرَّ سرورًا عظيماً وتربع حالاً فقال لهُ الراهب . ألعلك من عرب العراق يا ولدي

فتعجب حماد لسؤالهِ فقال نعم يا سيدي وكيف عرفت ذلك قال عرفتهُ من ملامح وجهك لاني عاشرت عرب العراق زمنًا . وهل انت مقيم هنا ام جئت مسافرًا

قال جئت لأفي نذرًا عليَّ لهذا الدير

قال وما هو نذرك

قال نذرني والدي ان لا يقصَّ شعري اولاً الاَّ في هذا الدير وانهُ لا يقصهُ الاَّ بعد مضي السنة الحادية والعشرين من عمري وسيكون ذلك في احد الشعانين القادم

(١) توجيه

فجئت اليوم لنيل البركة والتمتع بمنظر هذه الصومعة اذ كثيرًا ما حدثنا اهل بصرى عن الراهب بحيراء . ألعلك انت هو يا سيدي

قال لا يا ولدي ان الذي تطلبهُ قد قتلهُ بعض الاشرار غيلة

قال كيف قتلوه ولماذا فاني كثير الميل الى استطلاع خبره . وقد اراد حماد الانشغال بالحديث لتمضية الوقت ريثما تأتي هند لان الانتظار صعب

# الفصل الثامن

## ﴿ الراهب بحيرا ﴾

فتنهد الشيخ تنهدًا عميقا وحملق عينيهِ وقد نسي شيخوختهُ وكأن شبابهُ عاد اليهِ واخذ يمشط لحيتهُ باصابعهِ وقال اما بحيراء فهو من نعم الله على بني الانسان ولا اظن الارض تجود بعد بمثلهِ اما حكايتهُ فقد وقعتَ على خبير فاعلم ان اسمهُ الحقيقي ليس بحيراء بل بوحنا (١) واما بحيرا فهو لفظ كلداني معناه العالِم المدقق او المحقق لقبوه بهِ لطول باعه في سائر العلوم (٢)

فقال حماد وهل عرفتهُ قداستكم معرفة شخصية قال اني احد تلامذتهِ وقد تتلمذ لهُ كثيرون غيري من جملتهم سلمان الفارسي (٣) اما انا فقد رافقتهُ من اوّل ظهوره الى أواخر أيامهِ

فارداد حماد ميلاً الى معرفة حقيقة بحيراء فقال وما هي حكايتهُ فقد شوقتني الى معرفتها

فقال اعلم يا ولدي ان المرحوم وحبا بحيراء كان راهبًا نسطورياً على مذهب آريوس ونسطور ولا اطالك نجهل هذا المذهب وان يكن اتباعه قليلين لمخالفتهِ مذهب القياصرة

قال حماد نعم اعرف كل شيء عنهُ وقد اطلعت على دقائقهِ في المدرسة على احسن عارفيهِ

(١) اسحق الكندي (٢) الدائرة (٣) مذهب تلميذ بحيراء

فقال الراهب فلا حاجة بنا الى شرحهِ اذًا فانت تعلم ان اساس هذا المذهب انكار الوهية السيد المسيح وان تسميتهُ الهًا غير جائزة وانهم انتحلوا لهُ اسمًا فقالوا يجب ان يسمى كلمة الله وان والدتهُ مريم يجب ان تدعى مظهر الناسوت لا والدة الله (١) . قلت لك اني تلميذ بحيرا واعترف لك اني تلميذهِ في كل شيء ما خلا هذا المذهب فقد قضيت اكثر ايام صحبتي لهُ واما في جدال دائم معهُ فلم يقنع احدنا الآخر اما في العلوم الاخرى فلهُ عليَّ الفضل الاكبر فقد اخذت عنهُ علم الفلك والحساب وعلم الطوالع وسائر علوم هذه الايام وكان لهراستهِ وحسن نظرهِ يظنهُ الناس ساحرًا . وكان يقيم اولاً بدير في ما بين النهرين بالعراق وكنت اختلف اليهِ هناك اتلقى بعض العلوم ولم اكن اعرف ما يذهب اليهِ . فلما اطلع رئيس الدير على انتحالهِ الاريوسية غضب عليهِ واخرجهُ من الدير فسار قاصدًا دير طور سيناء في العقبة على حدود مصر فسرت انا معهُ للانتفاع بعلمهِ وحبأ في خبزهِ لعلي اقنعهُ واردهُ الى مذهب الكنيسة فرحب بنا رهبان طور سيناء واعجبوا بعلمهِ وفضلهِ فاقمنا هناك مدة ثم ورد كتاب من رئيس ديرهِ الاوَّل الى رئيس دير طور سيناء ان يخرجهُ من ديرهِ فأمرهُ بذلك او يتحوَّل عن مذهبهِ فخرج وخرجتُ انا معهُ واتيا هذا الدير واقمنا في هذه الصومعة معًا الى أمد غير بعيد فانهُ ذهب الى مكان في جزيرة العرب لم يسمّهِ ولم اعد اراهُ من ذلك الحين ثم علمت ان بعض اليهود قتلوهُ غيلة (٢)

فقال حماد ألا تعلم اسم المكان الذي ذهب اليهِ

قال كلاَّ ولكني ظننتهُ سار الى الحجاز لحادثة جرت معهُ على مشهد مني منذ نيف وار بعين سنة

قال حماد وما هي

قال جرت عادة القوافل القادمة من بلاد العرب او غيرها ان تقف هنا للاستراحة من حرّ الصحراء والاستقاء فيجلس بحيرا بينهم وخصوصًا اذا كانوا من الوثنيين او المجوس وقد اجلسُ انا معهُ ايضًا فيأخذ في تعليمهم عبادة الله ولا يريد بهم الاَّ خيرًا . وكان يعتقد ان الله ظهر لهُ في الرؤيا واسرَّ اليهِ سيكون واسطة لهداية بني اسماعيل سكان جزيرة العرب لان هؤلاء العرب كانوا يعبدون الكواكب او الاوثان الاَّ جماعة

(١) دائرة المعارف (٢) مذهب تلميذ بحيرا

منهم كانوا نصارى او يهودًا وجماعة اخرى كانت تقرّ بالخالق وتصدق بالبعث والنشور والثواب والعقاب وفئة قليلة كانت تقرُّ بالخالق وتنكر البعث [١] فكان بحيرا يفكر ليلاً ونهارًا في مصير تلك الجزيرة واهلها فرأى مرة رؤيا قصها عليها قال « رأيت فتى جميل المنظر شهماً مولده ببرج الثور والزهرة مع قران المشتري و زحل علمت انهُ هو الذي سيهدي ابناء جلدتهِ بني اسماعيل الى معرفة الله وان بهِ يقوى امرهم و يشتد ازرهم وتجتمع كلمتهم فيذللون ابناء عمهم بني اسحاق و يتسلطون عليهم مدة توافق ما اشار اليهِ دانيال في سوتهِ وانهُ يخرج من العرب اثنا عشرة دولة » [٢]

فاتفق منذ بضع وار بعين سنة اي في نحو سنة ٤٨٠ بصرو بة [٣] ان قافلة من قوافل الحجاز وصلت هذه الساحة وفيها جماعة كبيرة من عرب قريش الذين يقيمون في مكة وعندهم مقام شهير يأمهُ الناس من سائر انحاء جزيرة العرب وغيرها يسمى الكعبة وعرب قريش هؤلاء كانوا حجاب الكعبة ولهم نسب وشرف يتصل باسماعيل فنزلت القافلة تحت تلك الشجرة الكبيرة التي تراها شرقي هذه الصومعة فظللتهم جميعًا [٤] وعقلوا جمالهم وربطوا حميرهم وارلوا الاحمال التماسًا للراحة ثم قدموا للاستقاء فخرج بحيرا لمخاطبتهم وتعليمهم فشاهد بينهم غلامًا جميلاً تلوح عليهِ ملامح المهابة والنجابة والذكاء فحالما رآه بغت والتفت فقال لي انظر الى هذا الغلام فانهُ مولود في البرج الذي قلت لكم عنهُ وهو الذي سيهدي بني اسماعيل ثم سأل كبير التجار عنهُ فتقدم رجل كهل تتجلى في وجههِ دلائل الجلال والوقار فخاطبهُ بشأنهِ فقال من يكون هذا الغلام فقال هو ابن اخي فأنبأه بحيرا بمستقبلهِ وقال لهُ احذر عليهِ من اليهود فانهم اذا عرفوه كادوا لهُ كيدًا [٥] وسألهُ عن اسمهِ فقال اسمهُ محمد واسم عمهِ ابو طالب . واقام اولئك الركب عندنا مدة وقد آنست ببحيرا اكرامًا لهم وترحابًا بهم لم اعهدهُ مع غيرهم ثم ساروا الى بصرى فالشام وعادوا بعد ذلك الى مكة

---

(١) المسعودي (٢) دائرة المعارف (٣) التاريخ البصروي يبتدئ سنة ١٠٥ بعد الميلاد وهي السنة التي اتخذ الرومان بصرى عاصمة لولاية حوران ودعوها تروحانا الحديدة وهو تاريخ مشهور كانوا يؤرخون منهُ فيقولون ان البناء القلاني بني سنة ٥٢٠ صرو بة مثلاً ويريدون انهُ بني سنة ٥٢٠ بعد صيرورة بصرى عاصمة (٤) ابن هشام (٥) السيرة الحلبية

فقال حماد وهل صحّت نبوة بحيرا

قال نعم لأن ذلك الغلام القريشي أصبح نبياً كبيرًا نسي ديانتهُ الاسلام وقد انتشرت سطوتهُ في كل جزيرة العرب ويسعى اتباعه المسلمين و يحدثنا التجار القادمون من الحجاز عن أعمالهِ وحروبهِ وانتصاره ما يفوق طور التصديق فسكان جزيرة العرب بعد ان كانوا قبائل متشتتة يغزو بعضها بعضًا اتحدت كلها قلبًا وقالبًا تحت لوائهِ ولا يبعد ان يحمل بهم على الشام والعراق

فقال حماد واظنني سمعت شيئًا عن هذا النبي يوم كنت في العراق فما رأيك اذا حمل على الشام والعراق

فبهت الشيخ وفكر برهة ثم اغرورقت عيناه بالدموع وقال آه يا ولدي لا أظنهُ ألا يستولي عليهما جميعًا لما نعلمهُ من اختلال الاحوال فان قيصر الرّوم لم يكد ينهم حروبهُ مع الفرس وهذه قلاعنا وحصوننا لا تزال منهدمة وحكامنا في شاغل عن ترميمها بالانقسامات الدينية التي هي أصل هذا الشقاء ألا ترى بطاركتنا في جدال دائم على أمور ما أنزل الله بها من سلطان فبطريرك الاسكندرية يقاوم بطريرك القسطنطينية ويخذلهما بطريرك انطاكية . وقد كانت ديانتنا واحدة لأن السيد المسيح واحد علّم تعليماً واحدًا فأبت مطامع بني الانسان الاّ الانقسام فتعددت الفرق المسيحية واشهرها ثلاث الآن وهي (١) الملكية القائلون مركيانوس الملك على عهد الشقاق الواقع بين نسطوريوس وكرللس وهم الرّوم (٢) اليعقوبية القائلون بمقالة كيرللس الاسكندراني ويعقوب البردعاني وساورس صاحب كرسي انطاكية (٣) النسطورية القائلون بقول نسطوريوس [1] وترى الشعوب منقسمة ايضًا مثل هذا الانقسام حتى تمكن العداء بينها حمانا الله من عواقب الغرور

وما أتم الراهب الشيخ كلامهُ حتى انهكه التعب لما أثر فيهِ من حال الرّوم وما خافهُ عليهم من سطوة العرب فتململ وتنفس الصعداء وتزحزح من مكانهِ كأنهُ يطلب الاتكاء فنهض حماد وقد علم امورًا لم يكن عالمًا بها قبلاً ومال ميلاً كثيرًا الى معرفة التفصيل ولكنهُ خاف التثقيل على الشيخ بعد ما آنس من تعبهِ ومللهِ وشغل عن ذلك

(١) الكندي

باستبطاء هند عن المجيء فودع الراهب وقبل يده وطلب رضاه وخرج فاذا بالشمس قد مالت عن خط الهاجرة فجلس على حجر منحوت قائم تحت شجرة كبيرة لعب النسيم في اوراقها وتطايرت الطيور بين اغصانها فالقى ظهره على جزعها واخذ يفكر بما سمعهُ من ذلك الراهب فغلب عليهِ الملل وهو لم ينم بالامس الاَّ قليلاً فغمضت عيناه لحظة رأى فيها حلمًا من قبيل ما سمعهُ من الراهب فخيل لهُ انهُ سار الى المدينة بالحجاز وشاهد المسلمين عاكفين على صلواتهم وان نبيهم قال لهُ « انت لست حمادًا وستلاقي عذابًا ولكنك تجد بعد العسر يسرًا »

ثم أفاق من صوت صهيل الخيل فالتفت فاذا بفارسين بلباس اميرات البلقاء وراءها خادمان وقد وقف الفارسان تحت شجرة بالقرب منهُ فنهض للحال فرآهما نتلثمان ولكنهُ عرف من الفرسين انهما هند واحدى خادماتها فتشاغل ببعض الشؤون لئلاَّ يتنبه احد لحالهِ ولبث ينتظر اشارتها وقلبهُ يخفق فمشت نحو الصومعة وهو واقف لا يبدي حراكًا حتى صعدت اليها ودخلت الباب فانتظر هنيهة فلم تعد فمشى نحو الصومعة يتردد بين الصعود والبقاء فاذا باحدى الملثمتين قد عادت نحوه فعرف من مشيتها انها ليست هندًا فلما دنت منهُ قالت لهُ أتعرف تاجرًا يبيع الحلى كان واقفًا هنا . فادرك ان هندًا تسأل عنهُ باسم أحد باعة الحلى لتخفي أمرها عن الخادمة فاجاب على الفور انما هو ذلك التاجر فما غرضك

فقالت ان سيدتي تفتش عنك

قال وهل تريد ابتياع شيء الآن

قالت نعم فاين بضاعتك

قال هي في مخزني على مقربة من هذا المكان ولكن الحلى التي ابيعها غالية الثمن لا يستطيع اقتناءها الاَّ الاغنياء فاذ كانت سيدتك من أهل اليسار أتيتها بما تريد

فتبسمت المرأة تبسم الاستخفاف وقالت نعم انها أقدر نساء حوران والبلقاء على ذلك

فقال أين هي

قالت في الصومعة فتنفضل

فصعد وركبتاه ترتجفان حتى دخل الصومعة فرأى هندًا جالسة على مقعد من الحجر فالقى التحية وتجاهل قائلاً أين التي تريد الحلى

فقالت هند هي اما فاين حلاك

قال هي في المخزن على مقربة من هذا المكان هل أذهب لاستجلابها

قالت لا ندري ما نحتاج اليهِ منها فربما أتيت بما لا حاجة لنا بهِ وتركتَ ما كانت اليهِ حاجتنا

فقال قولي ما هي انواع الحلى التي تحتاجين اليها فآتيك بأحسن ضروبها واعود حالاً ولا سبيل لنا غير ذلك

قالت حسنًا تفعل فنحن نحتاج الى اقراط من اللؤلؤ واساور من الذهب المرصع فأت بما تصل اليهِ من احسن انواعها

# الفصل التاسع

## لقاء الحبيبين

فقال سمعًا وطاعة وعاد فركب فرسهُ وسار باسرع من لمح البصر حتى دخل بصرى وهرول الى سوق الصاغة وكان لا يخلو جيبهُ من بدرة لما قد يحتاج اليهِ في غربتهِ فابتاع بضعة اساور وبضعة اقراط من اجمل الازياء الشائعة اذ ذاك وعاد حالاً فلما دخل الصومعة لاقاه بعض الخدم وقال لهُ العلك بائع الحلى قال نعم قال ان مولاتنا تنتظرك في بعض غرف دير بصرى [1] فعاد الى الدير فلاقتهُ الخادمة ودخلت بهِ على سيدتها وهي في الغرفة على انفراد وكانت قبل مجيئهِ مضطربة استعدادًا لساعة اللقاء فلا تسل عن خفقان قلبها واصطكاك ركبتاها ولكنها تجلدت لئلاَّ تلحظ خادمتها منها شيئًا يكشف حقيقة امرها فلما دخل استقبلتهُ استقبالها رجلاً غريبًا فامرت لهُ بوسادة جلس عليها وجلست هي على وسادة اخرى

فجعل حماد الاساور والاقراط بين يديها فقلبت شيئًا منها وتظاهرت انها اعجبت باحدها فقالت ما رأيك بهذه الاساور قال هي من صنع القسطنطينية وصناعتها دقيقة يفضلها العارفون على هذا النوع فانهُ صنع خراسان

(١) دير بصرى اسم من اسماء دير بحيراء ويقال لهُ ايضًا دير نجران ودير الباعقي (المجم)

فقالت له بأي ثمن تبيعها . قال انها غالية الثمن يا مولاتي فهي تساوي خمسمئة دينار ( ولم تكن تساوي حقيقة الاَّ عشرة دنانير )

قالت لا بأس من غلائها ولكنني لا استطيع ابتياعها ما لم أُرها لوالدتي

فقال حماد حسنًا تفعلين وإين هي والدتك

قالت في منزلنا على بعض غلوات من هذا المكان ولكنك لا تعرف من نحن فلا تأمن ان نسير بها جميعًا فسأرسلها مع هذه المرأة وابقى انا هنا رهينًا تعود فاذا استحسنتها والدتي ارسلتُ الثمن معها فاشتريتها ودفعت الثمن والاَّ فاني اعيدها اليك كما هي

فقال ولكنني لا استطيع البقاء هنا طويلاً

قالت لا تخف فان هذه المرأة سنسير على جواد سريع الجري واذا ابطأت عوَّضنا عليك الخسارة كن مطمئناً

فقال ارجو اذن ان تحتفظ بالاساور لئلاَّ يقع شيء من أحجارها اثناء التقليب

قالت لا تخف انني احرص منك عليها ولولا ذلك لارسلتها مع سواها من الخدمة وهي ايضًا متى عادت نالت حظها من بضاعتك . قال حسنًا

فتناولت الاساور ولفتها في منديل وناولتها الى الخادمة وقالت لها اركبي الفرس وخذي معك الخادمين واسرعي الى والدتي واعرضي هذه الاساور عليها واخبريها عن الثمن كما سمعتِ وعودي بالجواب حالاً

قالت سمعًا وطاعة وركبت وسارت وقد أملت ان تحظى من مولاتها بهدية من تلك الحلى

أما هند وحماد فبقيا في الغرفة على انفراد فقضيا برهة صامتين مطرقين والهوى يتكلم ثم خاطبته هي قائلة

لقد احسنت فهم مرادي يا حماد

فنظر اليها وتنهد وقال كيف لا افهم مرادك وانت اذا نطقت انما تنطقين بلساني او افتكرت انما تفتكرين بجناني فاطرقت حياء برهة تنتش بين الحلى الملقاة امامها كأنها تريد التكلم ويمنعها الحياء ولبث هو ينظر الى وجهها وقد هام بحسنها وانبهر لما يتجلى في محياها من نضارة الشباب وما ينبعث من عينيها من اشعة الذكاء وما زال صامتًا يرجو ان تفوه بكلمة تجر الحديث ليشكو ما في فؤاده

فقالت اظنك تستخف بي وتحسب جسارتي هذه وقاحة

فتنهد وقال حاشا لي ان ابخس فتاة غسّان حقها او ان اجحد النعمة التي اولتني اياها بهذا الاجتماع وكيف احظى بمشاهدة ست الملك غسّان ولا اعد نفسي اسعد خلق الله

قالت ان هذه الملكة اصبحت اسيرة بكماء لا تعرف ما نقول فقل انت لعلك تعبر عن بعض ما بي

قال اذا سمحت مولاتي اقول اني اسيرها وعبدها ولا احسب تنازلها الاّ منّة وكرمًا

قالت اتعلم يا حماد لماذا اجتمعنا في هذا البيت وهو من بيوت الله

قال لا ادري يا سيدتي فلعلكِ أمرتِ باجتماعنا لتوبيخي على جسارتي لاني تطاولت على مقام الملوك

قالت كلاّ فانك لم تفهم مرادي ولا أنت تتكلم بلساني ولا تفتكر بجناني

قال ماذا اذن

قالت وقد تورّدت وجناها جئتُ لأهنئك بتلك الدرع التي دلّت على سبقك فانت السابق وفي الاشارة غنى

قال اما تلك الدرع فانها اثمن ما نلت وسأنال من خيرات هذا العالم فهي واقيتي من نوائب الزمان وتعويذة انقي بها حبائل الشيطان ولكن من أين لي ان اكون السابق وانا رجل غريب لا تعرفون من أمري شيئًا والمقام مقام ملوك

فنظرت اليهِ بطرف عينها وقد ذبل جفناها وارقت حدقتاها وقالت ولكن لكل مجتهد نصيب وما الملك يا حماد الامن ملك القلوب وتسلط على العواطف لا من جمع الاموال وحاز على حطام الدنيا الفانية وما السابق الفائز الاّ من حاز جائزة السباق ولبس الدرع على مشهد من الناس

فالتفت اليها وقد تحقق رسوخها في حبهِ وقال ذلك سخاء عهدناه سني غسان فهل نتعطفين على عبدكِ بكلمةٍ تشفي غليلهُ وتبرد لظاه

فتنهدت وقد اشتد بها الهيام وقالت ماذا اقول وكل جارحة من جوارحي تنطق بما في هذا القلب ( واشارت الى قلبها ) ولكنني ما لي ارى حمادًا يبخل علينا بكلمة

قال بماذا يبخل حماد ولم يبقَ لهُ ما يجود بهِ ولا يرى حاجة الى القول وليس

جارحة من جوارحه الاَّ وقد كتب عليها انهُ اسير هواك

فنظرت اليهِ وقد أخذ الحياء منها مأخذًا عظيماً وقالت اعذرني يا حماد على ضعفي فجنس النساء مهما بلغت قوتهُ فهو ضعيف فاشفق وقل كلمة

فمد يده الى يدها فاذا هي باردة كالثلج وخيل لهُ انها ذائبة بين أناملهِ وما لمسها حتى شعر بقشعريرة اشبهَ بجرى كهربائي سرى في سائر اعضائهِ ولا ريب انها شعرت هي بمثل ذلك ايضًا فجعل يدها بين يديهِ وقال أقول كلمة وارجو ان لا تكون ثقيلة عليك

فاطرقت ثم قالت قل قل لقد نفد صبري واخشى ان يخوننا الوقت

قال اعلمي اني اسير حبك ولا ابغي من هذا العالم الاَّ رضاك فما ذا تقولين

قالت انك تعبر عن عواطفي

فادرك حماد انها تحبهُ وتميل اليهِ ولكنهُ ما زال خائفًا من ان يسبقهُ ثعلبة اليها مع علمهِ انها غير مخطوبة لهُ ولا هي تحبهُ ولكنهُ خاف ان تحلو في عينيهِ حسدًا فيطلبها ويتراضى والداها جلة والحارث ويتغلبا على رأيها فاراد اختبارها من هذا القبيل فقال لها وما شأن ابن الحارث

قالت لا شأن لهُ فهو حارث غير حاصد . فقال وما شأن من لم يحرث او يغرس

قالت ان الغرس غرس الله واذا لم يبنِ ربُّ البيت باطلاً يتعب البناؤون

فضغط على أناملها وهم بتقبيل يدها فمنعهُ الحياء فاعادها وهو يرنو اليها وقال ولكن كيف ترضين بمن لا تعرفين نسبهُ فلا بأس من ان يطالبنا ابن الحارث غدًا بحقوق القرابة

قالت ان من القلب الى القلب دليل ولا نعرف لنا قرابة توجب مطالبة ولا نحن نرضى بالتقرب منهُ بعد ما عرفناه من خساستهِ

فقال وما الذي دلَّك على خساستهِ

قالت لقد دلتني تلك القصبة فانها جماد ناطق

فعجب لاشارتها الى القصبة وظهر لهُ انها عالمة بامر ثعلبة بالامس فاراد تحقق ظنهِ فقال وماذا قالت لك القصبة

قالت لقد نطقت نطقًا صريحًا ان ابن الحارث جبان دنيء

فقال وقد ملّ الالغاز فما قولك بمن لا تعرفين حسبهُ ولا نسبهُ

قالت فمن كان قلبهُ دليلهُ لا يخش العطب فحماد لا يمكن ان يكون من السوقة لان اخلاقهُ جديرة بالملوك فاذا لم يكن ملكًا فهو امير جليل

قال ولعلهُ كان من قوم بينهم و بين والدك عداوة

فجذبت يدها من بين يديهِ بلطف وتنفست الصعداء ولسان حالها يقول

أحبك ما لو كان بين عشائرٍ * وقد كانوا أعداء لجرَّ التصافيا

فلم يبق عندهُ ريب بصدق حبها لهُ فاعتدل في مجلسهِ وقال لها ان اسيرك يا حبيبتي ليس من طبقات الملوك ولا هو من السوقة بل هو امير ابن امير ولكنهُ دون مقام جبلة ابن الايهم ملك غسّان

فاطمأنّ بالها بانهُ ليس من السوقة فارادت انْ تعرف من اية القبائل هو وكانت قد لحظت من لهجتهِ انهُ من امراء العراق ففالت أالعلك من امراء العراق

قال نعم يا سيدتي فهل غيَّر ذلك شيئًا من شعورك

قالت كلاَّ بل انت فوق ما تمنيت فانكم بنو لخم اصحاب نسب وحسب ومنكم بنو ماء السماء (١)

فالتفت اليها وقال اما وقد تنازلتِ الى حبي فاني طوع اشارتك فهل ترين لهذا الاسير حظاً من قربك

قالت لقد ابنتُ لك مرادي وكشفت لك عواطفي وانت على ما رأيتهُ فيك من الحزم والدراية فلا تعدم وسيلة في استرضاء والدي

فعظم عليهِ الامر لعلمهِ ان استرضاء والدها من اصعب الامور عليهِ وهو يعلم منزلتهُ منها فضلاً عن الضغائن بين لخم وغسّان فبهت برهة ولم يتكلم

فابتدرتهُ قائلة ما بالك تتردد فهل خفتَ الطريق

قال لا اخاف شيئًا في سبيل قربك ولكني ارى الطريق وعرًا لما اسسهُ اجدادنا من الضغائن بين لخم وغسان . فتبسمت وقالت لا تخف يا حماد ان ما يصعب عليك يهون عليَّ فكن مطمئناً اني معك وهذا يكفي

(١) ابو الفداء

قال قد رضيت بذلك فان رضاك من رضى المولى وها اني قد كرست حياتي في خدمتك

وكانت الشمس قد توارت وراء الحجاب واظلمت الدنيا ولم تعد تتعارف الوجوه فهمّ بالخروج من الغرفة وفيما هما يودعان والقلبان يخفقان ويودان البقاء هناك طول العمر اذ سمعا صهيل الخيل خارج الدير ورأيا الرهبان في جلبة فوقفت هند بغتة

فقال حماد ما الذي راعك يا حبيبتي

قالت اظن ثعلبة قادمًا للدير فلعلهُ علم باجتماعنا فجاء يريد بنا سوءًا فالاولى ان نفترق لئلاَّ نفتح بابًا للكلام

وما أتمت كلامها حتى دخل عليهما رجل عليهِ ملابس الباعة ببصرى ومدَّ يده فالقى قطعة من الحلى في جيب حماد ثم استخرجها مدعيًا انها كانت في جيبهِ وان حمادًا كان قد سرقها فتناولها الرجل وقال هذه الاساور لي فمن اين جئت بها انها مسروقة من مخزني فلم يجبهُ حماد ولكنهُ صفعهُ على وجههِ فقلبهُ على قفاه خارج الغرفة واذا بجماعة من جند بصرى قد هموا بحماد فامسكه احدهم بذراعه وقال لهُ انك سارق فنفر حماد منهُ وصاح بهِ قائلاً اخسأ يا كلب العرب وصاحت بهم هند دعوه فهمس هو في اذنها « احذري ان تخبر بهم من انت لئلاَّ يفتضح امرنا » فتجمهروا حولهُ وهموا بالقبض عليهِ ثم سمعوا صوتًا يقول « امسكوا هذا اللص واتتوني بهِ حيًا او ميتًا انهُ جاسوس ذميم » فعرف حماد صوت ثعلبة فخرج نحو الصوت والجند يغرون من امامهِ ويتفرَّقون حولهُ ولم يستطع احد القبض عليهِ فصاح بهِ تقدم انت يا جبان لنرى من هو الخائن واستل حماد خنجره وهجم على الجموع يبحث عن ثعلبة فلم يعرفهُ بينهم فاعترضهُ احدهم وهمَّ بالقبض عليهِ فطعنهُ حماد طعنة أصابت كتفهُ فصاح من شدة الالم فتفرَّق الناس فاراد حماد الفرار خوف الفضيحة فتذكر هندًا فخاف ان يفتك بها ذلك الخائن فعاد اليها وقال لها انجي بنفسك لئلاَّ نقع كلانا في وقوعك عار علينا . فقالت حاشا لي ان اتركك بين ايدي هؤلاء اللئام والله لن يظفروا منك بطائل وهمَّت باحدهم فاستلت حسامهُ وهجمت على الجند وكانوا عديدين فتفرقوا ايدي سبا فقالت خمسة الانذال هلمَّ اليَّ وخرجا معًا والليل قد سدل نقابهُ فاسرعا الى فرسيهما فركباهما وسارا

وكان ثعلبة قد بات تلك الليلة في صرح الغدير كما قدمنا فبات ليلته هاجساً في امر حماد وما نالهُ من السبق في ذلك اليوم وكيف تظاهرت ابنة عمهِ بميلها اليهِ واستخفافها بثعلبة وكان كلما تصوّر هندًا تلبس حمادًا الدرع والناس يرتلون وينشدون انقدت نيران الغيرة والحسد في صدره وهاجت فيهِ حاسة الغدر وشعر بميل نحو هند حتى أصبح شديد الرغبة في خطبتها بعد ان كان يترفع عنها وكل ذلك من عوامل الحسد فان الرجل قد يرى فتاة فلا يعتدُّ بها ولا يظن بها نعماً فاذا سابقهُ اليها احد وآنس منها ميلاً الى هذا واستخفافاً بهِ حسنت في عينيهِ وخصوصاً اذا وقع بينهما تناظر او تسابق فكان ثعلبة يتوقع من خطبتهِ هندًا انتقامًا من حماد وتشفياً من هند لانهُ لحظ منها شماتة بهِ ففي حرمانها من حبيبها شفاء لما ثار في قلبهِ من عوامل الغيرة . فبات ليلته تلك في قصر الغدير يفكر في ذلك فلما اصبح أخذ يتجسس لعلهُ يعلم شيئاً من اخبار هند فسار الى المطابخ وتظاهر بالتفرّج بمناظر الاطعمة وكيفية ذبح الذبائح فسمع بعض الخدم يتحدثون بعزم هند الى دير بحيراء في ذلك اليوم

أما هند فلم تستطع الخروج قبل ذهاب ثعلبة فلما علمت انهُ سار مع والدها ووالدتها تنكرت وسارت كما قدمنا

أما هو فاضطر لمرافقة جبلة وامرأتهِ الى قرب البلقاء استجلاباً لاعجابها ثم عرج الى بصرى فلم يصلها الاَّ عند الغروب فدبر حيلة للقبض على حماد بتهمة اللصوصية والجاسوسية حتى اذا نفيت الواحدة ثبتت الاخرى فجاء باحد خماري بصرى واوعز اليهِ ان يتحمل حيلة يتهم بها حمادًا بالسرقة ليكون لهُ بذلك ذريعة للقبض عليهِ فاذا قبض عليهِ اتهمهُ بالجاسوسية او فتك بهِ بلا تهمة . ولتمام حيلتهِ كان ابوهُ الحارث قد سار الى بيت المقدس في عصارى الامس اثناء غياب ثعلبة في السباق وسبب ذهابهِ ان هرقل امبراطور الرومان ويسميهِ العرب قيصر الروم كان قد تغلب على الفرس واخرجهم من الشام وانتهى من حروبهِ معهم في تلك السنة وكان قد نذر انهُ اذا كشف الله عنهُ جنود الفرس سار ماشياً على قدميهِ من حمص الى بيت المقدس[1] فلما نصره الله بعث الى الحارث ابن ابي شمر ان يوافيهُ الى بيت المقدس ليعد لهُ الانزال ويرمم ما

(١) السيرة الحلبية جزء ٣

تهدّم من الاسوار والحصون في اثناء الفتح . فاستغنم ثعلبة غياب والده واستخدم الجند كما شاء فجاء بشرذمة منهم الى الدير وفعل ما فعلهُ كما قدمنا

فلما سمع صوت حماد ورأى السيف بيد هند فرّ هو ورجالهُ على ان يكمنوا لهم في بعض الطريق

# الفصل العاشر

## ﴿ النجـــاة ﴾

أما حماد وهند فساقا جوادهما نحو صرح الغدير ولكنهما سارا في طريق غير الذي ظنّا الخادمة تعود منهُ لئلاّ تلتقي بهما فينكشف امرهما فلما خلوَا في الصحراء وأمنا من العيون قال حماد تباً لذلك الخائن والله لوددت ان تكون تلك الطعنة في صدره فنتخلص من شره

فقالت يا ليتها كانت كذلك ولكن هذا الخائن سينال جزاء فعلتهِ هذه على انني اخشى ان يكون قد كمن لنا في بعض الطريق

فقال حماد طيبي نفسًا يا حبيبتي فان جنود غسان كلها وجنود قيصر وكسرى لا تستطيع ان تمس شعرة منك ما دمت حياً مقبلاً الى جانبك ولقد شهدت منك اليوم شجاعة حقرتني في عيني نفسي فسبحان من جمع فيك شجاعة الرجال ورقة النساء واراني ساعة وقفت وذلك الحسام بيدك حسبت الجنود تفرُّ من امامك وشعرت بقوة فوق العادة ولو اجتمعت حولي جيوش مجيشة ما حسبت لها حسابًا

قالت تلك دوافع المحبة قد تذهب برشد صاحبها فيقتحم الاهوال ولا يبالي بحياتهِ ولعلي اتيت بما اواخذ عليهِ ولكنني فعلت ذلك مدفوعة بحب حماد

فقال لا تكرهي امرًا لعلهُ خيرٌ لكم فقد شعرت بعد هذه الواقعة ان ربط المحبة بيننا قد زادت متانة ولا ارى في السماء او الارض ما يمكن ان يحول بيني وبينك

فاوقفت هند فرسها كأنها تريد التصريح بأمر ذي بال فاوقف حماد فرسهُ فمدت يدها اليهِ فمد يدهُ وتصافحا وقالت أُعاهدك عهدًا مقدسًا اني باقية على حبك الى آخر نسمة من حياتي ولو حال دون ذلك كل مصاعب بني الانسان

فنسي حماد موقفه لعظم غرامه بها وسروره بما شاهده من حبها وقال لها ان هذا العهد يا هند لينسيني كل اسباب الشقاء ووالله لافتحمنّ اعظم الاخطار واجوب الفيافي والقفار في سبيل حبك يشهد علينا سهيل والميزان وسائر نجوم السماء والله اكبر الشاهدين

فأطرقت هند وقد غلب عليها الحياء ولسان حالها يقول وانا اعاهدك بذلك ايضًا

فقال لها حماد اما وقد تعاهدنا على الحب فلنكن تلك الاساور عربون المحبة وقد قدمتها لك عن غير قصد وهي تقدمة حقيرة بجانب مقام بنت ملك غسان فهل تقبلين بها تذكارًا

فنظرت اليه وفرسها يشاغلها بالاقدام والاحجام كأنه شعر بما يتقد فونة من لواعج الغرام وقالت ذلك يدلك على ان حبنا مقدر منذ الازل وقد اراد الله ان تكون هذه الاساور عربونًا لذلك الحب فسأحافظ عليها ما بقيت ولكن اتعلم ما هو تذكاري عندك قال كيف لا اعلم وصلصلة تلك الدرع لا تزال ترن في اذني فهي ستقيني غائلات الزمان باذن الله

قالت لقد احسنت فهم المراد حرسك الله ووقاك

فلما تبادلا العهد وخزا الفرسين ولم تمض برهة حتى صارا على مقربة من صرح الغدير وقد عرفاه من النيران الموقدة بالقرب منه وهي نار القرى كان يوقدها الغسانيون لاهداء المارة ممن يريدون طعامًا او مبيتًا (١)

فوقف حماد وقال هذا قصرك فسيري اليه فاني عائد الى منزلي

فقالت اخاف عليك ذلك الخائن واخشى ان يكون كامنًا برجاله في بعض المكامن والليل بهيم فربما اراد بك سوءًا

فهزّ رأسه استخفافًا وقال ذريه وكل جند ابيه ولا تخافي عليّ بأسًا باذن الله فالحّت عليه ان يدخل القصر بجملة الضيافة منفردًا فقال انك لتزيدني رغبة في المسير منفردًا واني لاستحي من نفسي ان اخاف ابن الحارث ورجاله ولو كانوا الوفًا . فلما لم تجد سبيلاً الى اقناعه ودعته فقبض على يدها وضغط عليها وجدّدا الوعد وعدًا ظاهرًا وقالت سر بحراسة المولى وكلاءته وسارت هي نحو القصر فلبث هو واقفًا حتى تحقق

(١) صناجة الطرب

دخولها الحديقة فتحوّل نحو منزلو وهو على مسافة بعيدة عنهُ فوخز جواده وجدّ في المسير زميلاً وقد ترك قلبهُ في صرح الغدير ونسي نفسهُ فلم يشعر الاّ وهو في مكان لم يعرفهُ فاوقف جواده ونظر الى ما حولهُ فاذا هو في ارض قفر لم يعهدها قبلاً ففكر برهة لعلهُ يفقه اين هو فلم يستطع فنظر الى النجوم وابراجها وكان خبيرًا بعلم الفلك فرأى انهُ أخطأ الطريق وان منزلهُ في جهة غير التي كان سائرًا فيها فشكر علم الفلك لانهُ كان وسيلة في اهدائهِ الى سواء السبيل وحوّل عنان جواده نحو الجهة التي ظن انها تؤدّيهِ الى منزلهِ حتى وصل الى البساتين والمغارس

وفيما هو سائر زميلاً بين الاشجار والطريق كثيرة الحصى اذ سمع وقع حوافر جواد مسرع نحوه فاصاخ بسمعهِ واحدق بعينيهِ لجهة الصوت فاذا بهِ يقترب نحوه فامسك بعنان جواده حتى مشى خببًا ينظر الى جهة الصوت والظلام حالك فاذا بالفارس يدنو منهُ ثم سمع صوتًا ينادي حماد فعرف انهُ صوت احد خدمتهِ فاجابهُ ( سلمان ) وهو اسم ذلك الخادم قال نعم يا سيدي قف عندك فوقف حتى تقابلا فقال حماد ما الذي جاء بك الآن

قال ادر عنان جوادك واتبعني لاخبرك الخبر واسرع فتبعهُ وسارا اهاجاً وهما لا يتكلمان وقد انشغل بال حماد لذلك حتى بعدا عن مساكن الناس وانفردا في الصحراء فامسكا عنانيَ الفرسين فقال حماد قل يا سلمان ما سبب هذا العدو وما الذي جئت من اجلهِ

قال جئت بامر من سيدي والدك ان نفرّ من غسام الى عمان

قال ولماذا . قال لان صاحب بصرى بعث شرذمة من رجالهِ فقبض على سيدي والدك واستولى على كل ما في البيت

فبغت حماد وقد علم السبب ولكنهُ تجاهل وقال ولماذا فعلوا ذلك

قال زعموا انهُ جاسوس من ملك العراق فساقوهُ مخفورًا الى بصرى وسمعت الرجال يسألون عنك في بادئ الرأي فلما لم يروك قبضوا على سيدي والدك ونهبوا المنزل ولم يغادروا شيئًا فاسرّ اليّ والدك ان اقتفي أثرك وافرّ بك الى عمان ننتظره هناك شهرًا فان ابطأ علينا بحثنا عنهُ في بصرى

قال وهل اصابوهُ بسوء

قال كلاَّ يا سيدي ولكنهم اوثقوه وسافروه الي بصرى ولا بد من ان يفصل اثرك للقبض عليك وهذا ما حمل سيدي على تحذيرك فنحن ذاهبون الى جهات عمان نقيم فيها متنكرين شهرًا ثم يقضي الله بما يشاء

فانقبضت نفس حماد عند ذلك وكادت تخنقه العبرات وعلم ان الذين قبضوا على والده هم ثعلبة و رجاله فحدثته نفسه ان يثني عنان جواده الى بصرى وقد كبر عليه الفرار ولكنه اطاع والده وسار مع سلمان صامتًا يفكر في حاله مع هند وكيف ساقه الحب الى هذه العاقبة فبعد ان مشيا مدة صامتين قال حماد اتعرف هذا الطريق يا سلمان

قال نعم يا سيدي اعرفها جيدًا فقد طرقتها مرارًا مع سيدي والدك منذ بضعة اعوام . وكان سلمان شابًّا في الثلاثين من عمره رافق عبد الله في اكثر اسفاره حتى حنكته التجارب وعلمته الايام وكان نبيهًا فطنًا يستهلك في خدمة مولاه وكان عبد الله يركن اليه في مهماته ويثق به في معظم اعماله فلما تحقق وقوعه في الاسر عهد اليه العناية بحماد وهو يؤمل ان يتخلص من اسره فيجتمع به فامره ان يسير به الى عمان وهي مدينة قديمة واقعة على نحو ستين ميلاً من بصرى جنوبًا من انحراف نحو الغرب كانت تسمى في عصر الاسرائيليين ( ربّاث عمون ) وكانت عاصمة العمونيين الذين تضافروا هم الموابيون واخرجوا سكان شرقي البحر الميت والاردن واحتلوا مكانهم ولهذه المدينة ذكر كثير في التوراة وقد تخرّبت مرارًا حتى بناها بطليموس فيلاذلفوس ملك الاسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد وسماها فيلاذلفيا [1] ثم صارت في اوائل الميلاد اسقفية ذات اهمية كبرى يقيم بها اسقف تحت ادارة اسقف بصرى الاكبر فيها كثير من الابنية الرومانية كالقلاع والهياكل والكنائس [2]

وما زال حماد وسلمان يسيران زميلاً حتى انتصف الليل وبعدا عن بصرى كثيرًا فوقفا وقد تعبا وتعب الجوادان وطلع القمر وكان في ربعه الاخير فارسل أشعته على تلك السهول والجبال والارض خالية لا أثر للآدميين فيها ولكنها مكسوة بالغابات واكثرها من شجر الزيتون والجوز فسارا حينئذٍ وحماد غارق في بحار التأمل تتقاذفه الهواجس وقلبه يخفق تارة حنوًّا لهند وطورًا خوفًا على والده فاذا تصوّر ثعلبة انقدت نيران الانتقام في جسمه وود لو يلقاه ليقطعه اربًا اربًا ولكنه كظم ما في

---

(١) مري (٢) معجم الآثار الدينية

نفسه وعاد الى الحديث مع سلمان والجوادان يجريان على الرمل لا يسمع لحوافرها صوت والجوّ هادئ وضوء القمر ضعيف . فقال حماد اخبرني يا سلمان كيف فعل هؤلاء الطغام بوالدي و بالمنزل

قال كنا في غفلة ومولاي في قلق لغيابك من الصباح وهو لا يدري الى اين سرت فلما غابت الشمس ولم تأت ازداد قلقه فهمّ بالركوب للتفتيش عنك وفيما نحن في ذلك وقد اسرجت جوادي لارافقه اذ سمعنا صهيل الخيول و وقع حوافرها ونقاطر الرجال عشرات فأحاطوا بالمنزل فسألناهم عن الخبر فقالوا ابن الامير حماد واغلظوا بالمقال فسألنا عن أمرهم فلم يجيبونا الا بالشتم والسباب فأجبناهم بمثل مقالهم فهموا بسلاحهم وخيلهم وقبضوا على سيدي الامير بعد ان دافع دفاعاً حسناً وكان اعزل فأوثقوه وسقطوا على المنزل فنهبوه فاغتنمت فرصة اشتغالهم في النهب ودنوت من سيدي فاوصاني ان اقتني أثرك واحذرك من المجيء كما اخبرتك ولولا التقادير لقبضوا عليّ ولكنني بحمد الله تمكنت من الفرار وجئت اليك

فقال وهل أخذوا متاعنا واموالنا

قال انت تعلم يا سيدي ان المثمنات من الذهب والفضة مكنوزة في مكان لا يعرفه احد سوانا ولكنهم اخذوا ما عثروا عليه من الاثاث

فتذكر حماد الدرع فقال وهل اخذوا الدرع التي جئت بها بالامس

قال كلاّ فانها في هذا الخرج على فرسي وقد حفظها الله صدفة لوجودها في هذا الخرج

فسرّ حماد لبقاء الدرع لانها تذكار من حبيبته هند

وفيما هما في الحديث آنسا ناراً عن بعد فقال حماد وما هذه النار أَلعلنا على مقربة من القرى

فوقف سلمان ونظر الى ما حوله وفكر قليلاً ثم قال ان النور الذي تراه هو في بلدة يسمونها بيت الخيال او ام الجمال [1] فاذا شئت ان نتحوّل اليها فعلنا والاّ فاننا سننصرف على جدول فيه ماء نشرب منه ونسقي جوادينا ونبيت فيه بقية ليلتنا

قال دعنا من البيوت لئلاّ ينكشف امرنا

---

(١) ميريل

# الفصل الحادي عشر

## مسبعة الزرقاء

وسارا حتى أشرفا على واد فيه ماء جار من الشرق الى الغرب وقد غطتهُ الاشجار من الجانبين فوقفا في اعلاه ونظرا الى اسفله فهالهما منظره لسكون الطبيعة وهدو الليل وضعف الاظلال لا يسمعان سوى نقيق الضفادع وقرقرة حبل القر وحفيف الشجر حفيفًا بمرور النسيم وشعرا ببرد خفيف فترجلا ونزلا الوادي يقودان الجوادين وراءهما وضوء القمر لضعفهِ لم يكن نريهما الطريق الاَّ بصيصًا وكانا يسمعان لوقع حوافر الخيل دويًّا يردده الصدى من جوانب الوادي حتى يخال لهما ان فرسانًا آخرين قادمون اليهما ثم لا يلبثان ان ينتبها الى الصدى على ان هيئة المكان كانت متسلطة عليهما وخصوصًا سلمان فقد كان اكثر وجلاً من حماد ليس لضعف فيهِ بل لعلمهِ انهما على مقربة من الزرقاء وهي مسبعة مشهورة بالصراوة وفيها السباع (١) ولكنهُ كتم ذلك عن حماد لئلاَّ يثير هواجسهُ ويتخذ التدابير اللازمة للدفاع عند الحاجة فظلاَّ سائرين حتى اقتربا من الماء ونظرا الى موقفها فاذا هما في واد بين جبلين والوادي تكسوهُ النباتات وبينها اشجار هائلة

فشد سلمان الفرسين الى شجرة على مسافة من الماء ريثما يستريحان قبل الشرب وسار مع حماد الى الماء فغسلا وشربا فنزع حماد كوفيتهُ وعقص شعرهُ لئلاَّ يرف على كتفيهِ ووجههِ ثم افترش سلمان عباءتهُ على منبسط من الارض تحت شجرة جلسا عليها والجوادان يصهلان وينحصان الارض في طلب الماء

ثم اتكأ حماد وجلس سلمان الى جانبهِ يحادثهُ وحماد ساكت وذهنهُ مشتغل بنقيق الضفادع ونعيق الغربان على تلك الاشجار وحفيف الورق والاغصان وخرير الماء ولولا شواغلهُ بهواجسهِ في والدهِ وهدهِ وتعاليم الخوف بمنظر ذلك الوادي ولكنهُ كان لا يزال مشهجًا تتقاذفهُ الشواغل فلبث صامتًا لا يتكلم فتركهُ سلمان وسار الى الجوادين فحلها وجاء بهما الى الماء ووقف بهما على منحدر بالقرب من مجلس حماد وضم العنانين وربطهما ووقف بجانبهما يتلاهى ببند حسامهِ وعيناه شاخصتان الى قمم تلك الجبال كأنهُ يتوقع

(١) المعجم والمشترك

معذورًا وحماد غافل عن كل ذلك بهواجسهِ فلما روي الفرسان اعادها الى مربطها وجاء الى مجلس سيدهِ واسند ظهرهِ الى جزع الشجرة وكان التعب قد أخذ من حماد مأخذًا عظيماً فالتف بعباءتهِ وغلب النعاس عليهِ فنام اما سلمان فلم يستطع رقادًا خوفًا من غائلة السباع وجعل يتوسل الى الله ان يمضي ذلك الليل بسلام فما زال كذلك الى قبيل الفجر فذبلت عيناه وهو جالس ولم يكد يغمضهما حتى سمع صهيل الجوادين معًا وقرقعة اللجامين فانتبه ونظر اليهما فاذا بهما قد اجفلا فخفق قلبهُ واستعاذ بالله ونهض لساعتهِ والتفت يمنة و يسرة فلم ير شيئًا ثم سمع قرقعة حجارة تتدحرج من قمة الجبل المقابل لها حتى وصل بعضها الى الماء على مقربة منهُ واجفل الجوادان واكثر ولا من الصهيل فانتبه حماد وصاح ما هذا يا سلمان

فقال انهض يا سيدي اننا في خطر فنهض حماد واسرع سلمان اليهِ قائلاً نحن على مقربة من الزرقاء فلعل بعض السباع جاءت ترد الماء ولا خوف علينا منها لان الماء يفصل بيننا و بينها فهلمَّ الى جوادك ولنعد من حيث جئنا فيها بالجوادين وما كادا يركبان حتى رأيا اسدًا منحدرًا نحو الماء ينايل عجمًا بمشيتهِ المعهودة والاحجار تتدحرج امامهُ وعيناه تتلألآن كأنهما سراجان متقدان فاثنيا العنانين نحو الجبل فسمعا صوتًا كالرعد القاصف ارتجت لهُ جوانب الوادي فقال سلمان هذا هو زئير الاسد يا سيدي فاسرع بنا ولا تخف فان الماء حائل بيننا و بينهُ

فوخزا الجوادين وصعدا حتى وصلا الى مرتفع والاسد يزأر عن بعد وهما بحسبانهِ وراءهما لهول صوتهِ ومجاوبة الصدى فلما وصلا قمة الجبل التفتا الى الوادي وكان النور قد لاح فشاهدا الاسد عند الماء يشرب

فقال حماد ما فعلت بنا يا سلمان وكيف جئت بنا الى هذا المكان

قال جئتهُ مضطرًا وعهدي بهِ بعيدًا عن مسبعة الزرقاء والظاهر ان هذا الاسد قد بعد عن عرينهِ كثيرًا فورد الماء ولا يلبث ان يعود ولا خوف علينا باذن الله . فوقفا برهة ينظران الى مجرى الغدير في اسفل الوادي فاذا بالاسد بعد ان شرب التفت يمينًا وشمالاً و زأر زأرة اصطكت لها مسامعهما وكان ذلك اوَّل عهد حماد بالزاير اما سلمان فكان قد شاهد الاسد وسمع زايرهُ في بعض حدائق كسرى بالمدائن ورآها تتقالب وتتصارع

أما حماد فما زال يراعي الاسد في صعوده الجبل وهو يقابل بمشيته تيهًا وقد ارسل ذنبهُ فوق ظهره حتى توارى عن نظرها وكانت الشمس قد اشرفت او كادت واحسّ حماد بالجوع فضلاً عن التعب فقال ما عهدك بالطعام هنا قال خلِّ عنك الاهتمام بو فاني كافل كل اسباب الراحة فسر بنا قليلاً فاننا لا نلبث ان نصل الى دير على مقربة منا نقيم فيو يومنا ضيوفاً ونبيت ليلتنا ثم نصبح مسافرين . قال حسنًا ومشيا برهة فاشرفا على بناء فوقهُ قبَّة عليها صليب فعلما انهُ دير وفيو كنيسة فنزلا هناك فاستقبلها الرهبان بالترحاب وانزلوهما على الرحب والسعة فقضيا ذلك النهار في الراحة والطعام وكان طعامهم قاصرًا على الوان بسيطة لكنها لذيذة وفي جملتها انواع من الجبن والفشدة واللبن واللحم المثلي مع البيض وانواع التين المجفف والزبيب والجوز والمشمش المجفف فضلاً عن الخمر المعتقة فان خمر الاديرة مشهورة بجودتها ولاقيا من حسن وفادة اهل الدير ما شغلها عن هواجسها على ان حمادًا لم يهدأ لهُ بال ولا برحت صورة هند من مخيلتهِ كما كانت لما فارقها المرة الاخيرة ليلاً راكبة الى قصر الغدير وهو ينتظر وصولها اليو

فباتا تلك الليلة في الاحاديث المتنوعة وأكثرها مما حرَّ البو حديثها عن ذلك الاسد فعلما ان المسبعة بعيدة عن الدير ولكنها في طريقها الى عمان ولا بد للسائر الى عمان من المرور فيها الاَّ اذا دار في طريق طويل بعيد

ولما اصبحا تزوَّدا وصليا وسارا على بركة الله وسلمان يفضل المسير في الطريق البعيد خوفًا من السباع وحماد يأنف من خوفهِ ويثنيهِ عن عزمهِ

## الفصل الثاني عشر

### عبد الله في السجن

فلنتركهما سائرين الى عمان ولنعد الى عبد الله وما كان من امرهِ فقد تقدَّم انهُ سار الى بصرى بتهمة الجاسوسية مخفورًا وهو يعجب للعنف الذي اتخذهُ الرجال في القبض

عليهِ ونظرًا لعلمهِ ببراءة ساحتهِ تحقق انهُ لا يليق ان يقف امام الحارث حتى يثبت براءتهُ فيفرج عنهُ فيذهب الى عمان حيث يلتقي بحماد ثم يأتين لوفاء النذر بدير بحيراء وهذا ما حملهُ على ضرب الاجل شهرًا وقد فاتهُ السبب الحقيقي للقبض عليهِ

أما الجند فساروا بهِ الى بصرى وحجروا عليهِ في غرفة من غرف قلعتها جنوبي السور [1] فبات بقية ليلتهِ قلق البال على حماد لئلاَّ يأتي المنزل وهو لم يلتق بسلمان فيقع في الفخ فلما مضى الليل ولم يأتوا بهِ ترجح عندهُ نجاتهُ . وفي الضحى جاءهُ رجلان عليهما لباس الجند الروماني وهو المخوذة من النحاس الاصفر يتدلى منها خصل من شعر اذناب الخيل والادراع من الفولاذ تحتها اثواب حمراء لا تجاوز الركبة وكان هذان الجنديان يحمل كل منهما حربة صغيرة وترسًا من الفولاذ وعلى صدر كل منهما شرائط من الحرير مزركشة بالذهب على شكل حرفين احدهما H عرف انهُ الحرف الاوَّل من اسم الامبراطور هرقل والثاني لم يعرف تفسيرهُ ولكنهُ الحرف الاوَّل من اسم الفرقة التي ينتمي اليها الجنديان ولكن هذه العلامة قلما كان يتقلدها غير الخيالة منهم [2] وكان مع الجنديين رجلان من جند ثعلبة بلباسهما العربي فاشاروا الى عبد الله فتقدم وصعدوا بهِ الى طابق علوي في القلعة حتى وصلوا قاعة مفروشة باحسن الاثاث الروماني وفي صدرها رجل عظيم روماني علم من لباسهِ ومقعدهُ انهُ رئيس الحامية الرومانية كان جالسًا في صدر القاعة على كرسي مذهب يصعد اليهِ بدرجتين متشحًا بقميص مدرَّع بحراشف من نحاس محلاَّة بالذهب تحتهُ ثوب ضيق لا يتجاوز الساقين الا قليلاً [3] وكان ضخمًا كثير العضل والدهن وشاهد بين يديهِ رجلاً اكثرهم في مثل لباسهِ وهم اهل مجلسهِ من الروم الا رجلاً جالسًا بالقرب منهُ عليهِ لباس العرب عرف انهُ ثعلبة بن الحارث فتحقق عبد الله انهم يسوقونهُ الى قائد جند الروم ببصرى فدخلوا بهِ اليهِ فوقف متأدبًا وهو موثق فخاطبهُ القائد وكان اسمهُ رومانوس [4] بواسطة الترجمان قائلاً . ما اسمك

قال عبد الله

قال من أي البلاد انت

---

(١) ودنتن (٢) تاريخ الرومانيين (٣) تاريخ المملكة الرومانية الشرقية
(٤) السيرة الحلبية جزء ٣

قال من العراق

« وما هي مهنتك

« اني من امراء العراق اعيش من ريع املاكي او اتجر ببعض اصناف التجارة

« وما الذي جاء بك الى هذه الديار

« جئت لأفي بذرًا نذرتهُ لدير بحيراء

« وما هو نذرك

« ان اقص شعر ولدي في العشرين من عمره

فالتفت رومانوس الى ثعلبة وتخاطباسرًا ثم نظر ثعلبة الى عبد الله واستقدمهُ حتى دنا منهُ فقال لهُ كيف تدَّعي انك جئت لقص شعر ابنك وانت مقيم هنا منذ اشهر ولم تقصهُ

قال لاني نذرت ان لا اقصهُ الاَّ في يوم احد الشعانين القادم

فضحك استخفافًا بتلك الحجة وقال تلك حجج واهية لا ترد عنكم تهمة فانتم جواسيس من قِبل ملوك الحيرة ولو لاذلك ما اقمتم في قرية بعيدة وتسترتم عنا وحاولتم اخفاء أمركم فمن كان في مثل ما انتم فيهِ من اليسار لا يترك مدينة بصري بمتنزهاتها وشوارعها ومراسحها وملاعبها ويقيم في قرية حقيرة مثل قرية غسام فاعترف بالحقيقة لئلاَّ يزداد العقاب عليك

قال قد قلت لكم الصدق كل الصدق

فقال ليس للصدق نصيب من مقالك وزد على ذلك انكم تدَّعون بالانتساب الى امراء العراق وقد امسكنا غلامك امس بسرقة

فلم يفهم عبد الله معنى هذا القول وظنهُ يقولهُ ليستطلع شيئًا جديدًا عنهُ فقال لعلكم أسأتم الفهم فاننا لا نعرف مثل هذه الاعمال ولدينا من نعم الله ما يكفينا مؤونة السرقة او غيرها

فهزَّ ثعلبة رأسهُ استهزاء ثم اخذ يلاعب شاربهُ عجبًا وقال قد تحققت الآن جاسوسيتك وسنكشف ذلك عيانًا ثم قام اليهِ واخذ يفتش ثيابهُ وجيوبهُ بدعوى البحث عن اوراق او اشياء اخرى تؤيد تهمتهُ فوجد في بعضها حقًا ففتحهُ فاذا فيهِ خاتم فيهِ فصٌّ كبير من العقيق الاحمر فتأملهُ ثعلبة فاذا عليهِ كتابة بالحرف السطرنجيلي وهو من الاقلام التي

كانت مستعملة في العراق فحالما قبض ثعلبة على الخاتم ظهرت البغتة على عبدالله ولكنه تجلد

فجعل ثعلبة يقلب الخاتم بين يديه ويتأمله فلم يستطع قراءته فالتفت الى رجل من التراجمة حوله وقال له هل تستطيع قراءة ما على هذا الخاتم

فأخذه وقرأه وجعل ينظر الى عبدالله تارة والى الخاتم اخرى فظهرت على وجه عبدالله ملامح الخوف والحضور ينتظرون ما يقوله الترجمان حتى ملّ ثعلبة الانتظار فقال له قل ماذا قرأت

قال ان على هذا الفص اسم « النعمان بن المنذر » وعليه شارة الملك فبهت الجميع وجعلوا يتأملون ذلك الخاتم واحدًا واحدًا وينظرون الى عبد الله واخيرًا خاطبه رومانوس قائلاً كيف اتصل هذا الخاتم اليك

فاجاب وهو يحاول ان لا يتلجلج وقال ابتعته من بعض الصاغة

فانتهره ثعلبة قائلاً اتقول بعد هذا انك لست جاسوسًا وانت تدعي انك ابتعت خاتم النعمان بن المنذر ملك العراق من بعض الصاغة . متى كانت خواتم الملوك تباع في الاسواق قل ما الذي اوصل هذا الخاتم اليك . فلم يجب

فاعاد السؤال عليه ثانية وثالثة فاصر على الصمت

فتفاوض ثعلبة ورومانوس سرًّا ثم قال لعبد الله ان وجود هذا الخاتم معك مما يزيد الشبهة بخيانتك الاّ اذا اخبرتنا كيف وصل اليك وما هي حكايته

فسكت ولم يجب . فازداد حنق ثعلبة وقال له قل أجب

فقال عبد الله قلت لك اني لا اعرف عنه غير ما قلته لك وهو انه وصل اليّ بالعرض في سوق الصاغة فالظاهر ان حضرة المترجم لم يحسن القراءة او لعل ما قرأه اسم رجل يشبه اسم الملك النعمان

فضحك ثعلبة وقال هذه دعوى فاسقولوكان والدي الحارث هنا الآن لاثبت نسبة هذا الخاتم الى النعمان ملك العراق لانه شاهد ختمه على كتبه مرارًا وعلى كلٍّ فانك ستبقى في السجن حتى تعترف بالحقيقة والاّ فانت مقتول شرّ قتلة

قال عبد الله افعل ما بدا لك فما انا ممن يخافون القتل لاني بريء

قال سترى عاقبة وقاحتك هذه عند ما نأتي بابنك الغلام الغر ونريك خيانته رأي العين

ثم التفت ثعلبة الى الحراس الاربعة وكانوا لا يزالون وقوفًا على الباب وقال خذوه بعد امر البطريق ( القائد رومانوس ) الى برج القلعة وابقوه محفورًا ريثما ننظر في امره

وكان لقلعة بصرى برج متشامخ يستحيل الفرار منه لان المسجون اذا حاول الفرار لا طريق له الاَّ النافذة فاذا وثب منها لا يدرك الارض الاَّ ميتًا

فصعدوا به طابقين آخرين وادخلوه البرج وهو غرفة صغيرة ذات نافذتين وباب صغير فاقفلوا الباب عليه وتركوه وشأنه فلما خلا بنفسه اخذ يتأمل في ما مرَّ به في الليل الماضي وذلك الصباح ويراجع ما سمعه عن ابنه فلم يفهم معنى اتهامه بالخصوصية ولكنه شكر الله لوقوعه هو ونجاة حماد لانه ما زال مخفقًا تخلصه من تلك الشراك على ان ظهور ذلك الخاتم عرقل مساعيه ولبث برهة يفكر ثم نهض الى نافذة البرج الشرقية فاشرف منها على مدينة بصرى كلها ببنایاتها وشوارعها واسوارها وحولها الاحواض المائية الكبيرة وأشعة الشمس تنعكس عن اسطحها وكان الجو صافيًا فنظر الى ما وراء ذلك فشاهد في عرض الافق جبلاً عليه بناء يكاد البعد يحجبه عن نظره ولكنه عرف انه قلعة سرخد ( صلخد ) الشهيرة وبينها وبين بصرى طريق حجري على استقامة واحدة مرصف بالحجارة الضخمة كسائر الشوارع الرومانية الكبرى وخيل له ان بصرى وضواحيها حديقة يانعة في وسط صحراء قاحلة لأن بلاد حوران جبلية جرداء غبراء اللون (١)

وتحوَّل من هناك الى نافذة جنوبية فاشرف على ارض اكثر خصبًا من تلك بتراءى فيها عن بعد قرية ام الجمال لا يتميز شيء من ابنيتها لبعدها فتذكر حمادًا ومسيرهُ الى عمان فقال في نفسه لعله الآن بقرب ذلك المكان مع سلمان . ثم هاجت به هواجسه وتذكر ما مرَّ به منذ شبوبيته وخاف ان يقتل قبل ان يبوح لحماد بسره وقد كتمه عنه وعن سائر اهل الارض نيفًا وعشرين سنة فتراكمت عليه الهواجس حتى نسي موقفه وما هو من الخطر الشديد

فقضى نهارهُ في مثل ذلك فجاءوهُ ببعض الطعام فلم يتناول منه شيئًا وبات تلك الليلة وعاد في صباح اليوم التالي الى النافذة فحدثته نفسه ان يثب من ذلك البرج

(١) فوجيه ومبريل

لعلهُ يجو فنظر الى اسفلو فاذا هناك هوة عميقة لا يمكن ان يصل الى قاعها حيًّا فصبر نفسهُ ينتظر ما يجيءُ بهِ القدر

وفي اليوم الثالث افاق على اصوات النواقيس من الاديرة والكنائس فاطلَّ من النافذة المشرفة على المدينة فرأى الناس في هرج ومرج وقد زينت الشوارع بسعف النخل واغصان الزيتون وخرج الناس زرافات ووحدانًا يحملون الشموع واغصان الزيتون يأمون الديور والكنائس[1] وفيهم الرجال والنساء واولادهم بين ايديهم يحملون الازهار والشموع وقد تزيوا باحسن ما لديهم من اللباس وانواع الزينة فعرف انهُ يوم احد الشعانين والناس يحتفلون بهِ على جاري العادة فهاجت هواجسهُ وتذكر حمادًا وموعدهُ بنذره فعظم عليهِ الامر واشتد بهِ ذلك حتى بكى وأكبَّ ما لبث ان عاد الى صوابهِ وتجلد تجلد الرجال المحنكين الذين خبروا الدهر وعرفوا تقلبات الزمان فقال في نفسهِ ان الدهر لا يستقرُّ على حال فلا بد لهذه الازمة من انفراج

فنقضي ذلك اليوم وبضعة ايام اخرى لا يا كل الاَّ قليلاً وقد هدأ روعهُ وجعل يفكر في وسيلة ينجو بها من تلك الورطة وهو في كل ذلك يحمد الله لنجاة حماد من ذلك لانهُ لا يصبر على الاذى ولا تعوَّد مشاق الزمان وكوارث الحدثان . ففي ذات صباح جاءهُ الحراس وامروهُ بالنزول الى المجلس فنزل وقد استعد للدفاع فلما وقف بين يدي روماوس وثعلبة قال لهُ كيف ترى نفسك

قال ارى اني اسير بين يدي حضرة المطربق

« لماذا لا تعرف بحقيقة امرك ونحن نعدك بالافراج

« قلت لكم الحقيقة فلم تصدقوني

« انبئنا ابن هو ابنك فنعفو عنك

« من ابن لي ان اعلم ذلك وقد اخذتموني على غرة وهو خارج البيت فلا اعلم مقرهُ

ثم ناداه روماوس قائلاً انظر يا هذا اذا انت اصررت على الانكار لا نرى بدًا من ارسالك الى مولانا الامبراطور في حمص فهو اولى بالاقتصاص منك واذا

(١) المقريزي

وصلت اليوم لا يخيلك من بين يديه حيلة فالافضل ان تعترف بالحقيقة هنا . وتنجو بنفسك

قال قلت لكم الحقيقة فلم تصدقوني فافعلوا ما بدا لكم

فامر روماتوس باعداد خفر يسير بعبد الله والحاتم الى حمص فيدفعهما الى الامبراطور هرقل فقال عبد الله بنفسه لعل في ذلك بابًا للفرج فان الامبراطور اكثر رأفة وتعقلاً من هؤلاء فاركبوه فرسًا وهو موثق وحولهُ عشرة خفراء بينهم خمسة من جند الروم بلباسهم المتقدم ذكرهُ وقد ركبوا الخيل بلا ركاب على جاري عادتهم

# الفصل الثالث عشر

## هرقل

وكان هرقل اذ ذاك في حمص جاءها على اثر انتصاره على الفرس انتصارًا لم يكن يتوقعهُ فنذر ان يسير الى بيت المقدس ماشيًا (١) فوصل عبد الله الى حمص وقد خرج هرقل منها على قدميهِ وفاء لنذرهِ والحارث بن ابي شمر الغساني قد جاء حمص ليتولى تدبير ما يلزم لذلك المسير فكان هرقل يسير ماشيًا والبطاركة والاساقفة بين يديهِ وقد لبس التاج وتوكأ على الصولجان متزلا بوشاح ارجواني مزركش (٢) وامامهُ الحارث ورجالهُ يفرشون لهُ البسط في الطرق ليمشي عليها فسار عبد الله محفورًا وراء الموكب من حمص الى بيت المقدس ورأى الجند يحف بالموكب وكلهم مشاة يتقدم كل فرقة منهم علمٌ في اعلاه نسرٌ من الفضة اوصليب الا سرية صليبها من الذهب مرصع بالياقوت والالماس كانت تحيط بالموكب عن قرب . وكان الناس في اثناء الطريق يخرجون من القرى والمدن لمشاهدة الامبراطور ماشيًا وحاشيتهُ حولهُ يسيرون جميعًا على البسط والسجاد والناس يلقون الازهار على الطرق وبعضهم ينثرها على الامبراطور ورجالهِ وآخرون يرشون الطرق والمارة بالاروائح العطرية على انواعها (٣) حتى وصلوا بيت المقدس وقد زينها اهلها وخرج البطريرك

(١) السيرة الحلبية (٢) الوافدي (٣) الاغاني جزء ٦

الاساقفة بالصلبان والمباخر يحرقون فيها البخور والند والعنبر ويسيرون بالمشاعل امامهم فاستقبلوا الامبراطور على مسافة خارج المدينة وعادوا به بالتراتيل والاناشيد والصلوات والناس يزاحم بعضهم بعضًا يتسابقون لمشاهدة الامبراطور وكانت شوارع بيت المقدس تعج عجيجًا بالمارّة فضلاً عن المطلين من النوافذ والشرفات والاسطحة حتى وصل الموكب الى كنيسة القيامة والنواقيس تدق والقسس يرتلون ويسبحون ثم اقيمت الصلاة شكرًا لله على ما اولاهم من النصر على اعدائهم الفرس

كل ذلك وعبد الله وحراسه يرافقون الجماهير فلاحظ عند اشرافهم على اسوار المدينة انها متهدمة وآثار مخيمق الفرس والروم لا تزال ظاهرة فيها حتى لحق معظمها بالارض وما زالوا سائرين حتى اتوا دار الحكومة فساقوا عبد الله الى السجن فلما اصبحوا ساروا الى الحارث بن ابي شمر فبلغوه الرسالة وسلموا اليه عبد الله واحكموا له حكايته ودفعوا اليه الخاتم فحفظه حتى يعوضه على هرقل فبقي عبد الله في محبسه شهرًا لم يتمكنوا في اثنائه من تقديمه الى هرقل لتزاحم الوفود من سائر الانحاء يهنئون الامبراطور بما اوتيه من النصر

فلما تمت مهمة الحارث وهمّ بالرجوع الى بصرى تذكر عبد الله فاستأذن هرقل ان يدخل به عليه فاذن له فساقوه مخفورًا الى قاعة كبيرة بالقرب من الكنيسة اعدت لجلوس الامبراطور ورجال دولته قد احدق بها الخفر باسلحتهم وملابسهم الرسمية وقوفًا اجلالاً للامبراطور فدخل اولاً الحارث ثم استدعى عبد الله فدخل القاعة وقد هاله ما فيها من مظاهر الابهة والعظمة فشاهد الامبراطور جالسًا في صدر القاعة على سرير من الذهب الخالص يكاد لمعانه يبهر الناظرين وعلى رأسه تاج مرصع بثلاثة كالمصابيح وعلى منكبيه وشاح من الخز سماوي اللون مزركش بالذهب وفي يده صولجان الملك وهي عصا طويلة من الذهب المرصع في اعلاها رسم النسر الروماني مرصع بالجواهر الكريمة . وكان هرقل كبير الجثة عظيم الهيبة زاد المشهد وقارًا والى يمينه بطريرك اورشليم بملابسه الرسمية وعصاه والى يساره سرجيوس بطريرك القسطنطينية والى كل من الجانبين القواد والاساقفة وسائر رجال الدولة على كراسي من الذهب وكانت ارض القاعة مكسوّة بالسجاد والبسطة الثمينة

و رأى بين الاساقفة اسقفًا شاهده مرة في الحيرة وهو كيروس اسقف فاسيس في بلاد الاكراد وكان يسمع بسعة علمهِ ودهائهِ فعجب لوجوده هناك وازداد عجبًا لما رآه جالسًا بجانب البطريرك الاورشليمي في منزلة البطاركة و رأى بجانب البطريرك القسطنطيني بطريركًا لم يعرفهُ

فلما دخل عبد الله هالهُ الموقف ولكنهُ تجلد وقد علمتهُ الايام ان ما يراه من مظاهر الأبهة ليس الاَّ اعراضًا زائلة وان الحق سلطان يعلو ولا يعلى عليهِ . و لم يكن من شأن الامبراطور النظر في مثل هذه الدعوى الجزئية لولا ما همَّهُ من امر الخاتم فاحب استطلاع امره بنفسهِ فلما مثل عبدالله بين يديهِ خاطبهُ والحارث يترجم بينهما فتناول الامبراطور الخاتم بيده وقال لعبدالله

من أين اتيت بهذا الخاتم

فاجابهُ عبد الله مطرقًا قد جاء في بطريق العرض يا مولاي فاشتريتهُ بالثمن

قال لا يعقل ان مثل هذا الخاتم يباع بالاسواق او يلقى على الطرق وهبْ انك وجدتهُ على قارعة الطريق ألم يكن الاجدر بك تسليمهُ الى صاحبهِ

فقال عبد الله مولاي يعلم ان صاحب هذا الخاتم اذا صح انهُ النعمان بن المنذر عامل كسرى على الحيرة فهو في عداد الاموات منذ نيف وعشرين سنة

قال الامبراطور اليس من ابنائهِ احد حيًا تسلمهُ اليهِ

فسكت عبد الله

فقال الامبراطور ما بالك لا تجيب . أجب ولا تخف وهبْ انك جاسوس او شبه جاسوس فنحن لا نخاف الجاسوسية بعد ان مكنتنا العناية الصمدانية اكاليل النصر على اكاسرتكم

فقال عبد الله لقد نطق مولاي ببراءتي من الجاسوسية من تلقاء نفسهِ والحمد لله اذ لم يبق ثمَّ حاجة اليها والصلح قد عقد بين جلالتهِ وكسرى ملك الفرس بعد ان كان ما كان من ظهوره عليهِ

قال هرقل نعلم ذلك ولكنا شديدو الرغبة في معرفة كيفية وصول هذا الخاتم اليك وسبب اقامتك بجوار بصرى كل هذه المدة متنكرًا على ما علمت من عاملنا هناك

فظلّ عبد الله مطرقًا ولم يجب

فقال الامبراطور قل يا رجل قل فان هرقل امبراطور الروم يخاطبك

فجثا عبد الله عند قدمي الامبراطور كأنه يحاول تقبيلها وقال اما اعلم ذلك يا سيدي ولكنني لا استطيع التصريح باكثر مما فهتُ به بين يديك

قال اذن انت تكتم امرًا تحاذر ان تبوح به

قال أجل لقد صدق مولاي

قال أتكتم ذلك عن امبراطور الروم ما بين ألا تخاف بطشهُ او تخشى الحكم عليك بالاعدام

قال لا اظن احدًا لا يخاف الموت ولكنني افضلهُ على التصريح بهذا السر وها اني بين يديك فأمر بما تشاء

فعجب هرقل لهذا الاصرار وقال يا للعجب اتقول ذلك ولا تخاف

قال اني على يقين يا مولاي بان موتي وحياتي بين شفتيك ولكنني لا استطيع غير ذلك

فالتفت هرقل الى من حولهُ من البطاركة والاساقفة والقواد وقال ما قولكم بهذه الجسارة فاني اراني ارداد ميلًا لمعرفة سرّ هذا الخاتم . فالتفت البطريرك الاورشليمي الى عبدالله وحرضهُ على الاقرار عبثًا وفعل مثل ذلك ايضًا البطريرك الانطاكي وغيرهما بلا جدوى

فاراد هرقل تهديده فأمر بالجلاد فجاء والسيف بيمينهِ فقال له إئتني برأس هذا الرجل فقاده الى باحة الكنيسة وعبدالله يسرع امامهُ لا يتردد لحظة فربط عينيهِ واركعهُ على نطع ودار حولهُ دورة والامبراطور يراه من داخل فلما دار الدورة الثانية استقدمهُ هرقل وامر بحل رباط عينيهِ وقال له ألا تزال مصرًّا على الكتمان

فقال عبد الله اقسم برأس مولانا الامبراطور وسر التثليث المقدس ان ليس في أمر هذا الخاتم ما يمس جلالتكم بوجه من الوجوه ولكن كتمانهُ فرض عليَّ واجب لا استطيع التحوّل عنهُ

فازداد الامبراطور استغرابًا وقال لمن حولهُ وكيف العمل اذًا

فقال عبدالله اذا أذن مولاي في امر يكون فيهِ راحة لخاطره فعلتهُ

قال وما هو

قال اننا معشر النصارى نحترم سرّ الاعتراف فاذا شئتم ان اوح بسري هذا لغبطة البطريرك الاورشليمي على شرط ان يشير الى جلالتكم في علاقة هذا السرّ بكم او عدمها بغير ان يصرح بتفاصيل قصتي فاذا قال لكم ان لا علاقة لها بكم تحققتم صدق قولي وعذرتموني على كتمانه

قال لا بأس من ذلك واشار الى البطريرك فحلا بعبد الله في الكنيسة ساعة اطلعه فيها على سرّ ذلك الخاتم

ولما همّا بالرجوع الى القاعة قال عبدالله ارجو من مولاي البطريرك ان يخبرني عن البطريرك الجالس بجانب البطريرك سرجيوس من هو

قال هو اثناسيوس بطريرك اليعاقبة ومقامه في الاسكندرية وقد جاء لمقابلة الامبراطور ولعله يغتنم الفرصة للمداولة معه بما هو جار من الاختلاف المذهبي بين الملكية واليعاقبة في القطر المصري

فقال وهل ذلك الاختلاف لا يزال متمكنا فقد بلغنا انه كاد يزول

فتنهد البطريرك وقال ظننا انه كاد يزول ولكنه لم يزل فان مولانا الامبراطور رجل حازم ذو رأي سديد وقد علم بعاقبة هذا الانقسام فلاح له ان يختلق وسيلة للتوفيق بين القائلين بالطبيعتين والمشيئتين والطبيعة والمشيئة فاستعان بالبطريرك سرجيوس القسطنطيني فاستنبط منذ بضع سنوات عقيدة متوسطة وهي الاعتراف بطبيعتين في المسيح لهما مشيئة واحدة وفعل واحد وعرض عقيدته هذه على البطاركة والاساقفة فقبلها اكثرهم . وفي عزمه ان يحمل البطريرك اثناسيوس الى كرسي انطاكية ويرسل الاسقف كيراس الى الاسكندرية فيجعله بطريركاً ووالياً عليها ولعله يقصد بذلك التوفيق بين الكرسيين الانطاكي والاسكندري ولكني لا اظنهما يتفقان (١) فان التعصب متمكن من الجانبين وليست هذه الاختلافات في اعتقادي الاّ مماحكات لفظية يتمسك بها بطاركتنا اليأسا للسلطة الدنيوية ولكن هذه ارادة الله فما اجمل المملكة المسيحية ان تكون مذهباً واحداً تقول قولاً واحداً تأييداً للدولة الروم العظمى فقد كفانا ما نحن عن هذه الاختلافات من الاحن والمصائب ولا نزال نتوقع ما هو فوق ذلك فنطلب الى الله ان يلطف بعباده

(١) تاريخ الاشقاق جزء ١

فعجب عبدالله لهذه الاختلافات واعجب برغبة هرقل في جمع كلمة رعيته وتحقق ما سمعهُ عن تأنيهِ وحزمهِ ولكنهُ لم يكن يرجو لهُ الفوز بغيتهِ لما يعلمهُ من تمكن الشحناء بين الاحزاب ثم قبّل يد البطريرك وخرجا

وفيما هما عائدان نحو القاعة شاهدا الحرس في هرج و بينهم رجل غريب بلباس اهل البادية ليس عليهِ غير الشملة والعمامة نقلد حساماً اعقف وحمل رمحاً وحربة وقد علاه الغبار ولوحتهُ الشمس وظهرت على وجههِ آثار الاسفار وكان عبدالله خبيراً بقبائل العرب لكثرة اختلاطهِ بهم فلاح لهُ ان الرجل من اهل الحجاز فعجب لمجيئهِ وليس في بيت المقدس كلهِ احد في مثل لباسهِ وشكلهِ ولولا اشتغالهُ بامر نفسهِ لخلا بهِ وسألهُ عن حالهِ ولكنهُ اضطر لمرافقة البطريرك الى قاعة الامبراطور فدخلا وجلس البطريرك في مجلسهِ و وقف عبدالله في موقفهِ

فقال هرقل للبطريرك كيف رأيت الرجل قال رأيتهُ صادقاً في لهجتهِ وهو معذور في كتمان امرهِ وامر هذا الخاتم وقد اطلعني على خلاصة حكايتهِ فاذا هي مستقلة عن جلالتكم ولا علاقة لها بالروم قاطبة ولكنهُ سرٌّ مقدس اقسم على كتمانهِ فلا يستطيع التصريح بهِ الاّ في حينهِ

# الفصل الرابع عشر

## ﴿ دعوة الملوك الى الاسلام ﴾

فاقتنع هرقل والتفت الى عبدالله وعبدالله مطرق اجلالاً ووقاراً وقال قد اخبرنا غبطة البطريرك بعذرك في الكتمان فصفحنا عنك فكن مطمئناً آمناً وناولهُ الخاتم بيده ونادى الحارث فوقف بين يديهِ فبلغهُ عفوهُ وامرهُ ان يدفع اليهِ كتاب الأمان فتقدم عبدالله وجثا امام الامبراطور وشكر نعمتهُ وتهيّأ يريد الخروج فرافقهُ الحارث الى باب القاعة ثم رأى ذلك البدوي قد اذن لهُ بالدخول وفي يدهِ رقٌّ من جلد يريد تقديمهُ الى الامبراطور فاعترضهُ الحارث فقال البدوي بيدي كتاب الى جلالة الامبراطور اريد تسليمهُ اليهِ فاخذ الحارث الكتاب فاذا هو مختوم بالطين[1] فقدمهُ

(١) ابن خلدون

الى هرقل فاغتنم عبدالله اشغال الحارث وانزوى في بعض جهات القاعة بين الجمع ووقف ينظر الى ما يكون من امر ذلك الكتاب

فرأى هرقل قد فضهُ وتأملهُ فلم يستطع قراءتهُ فناولهُ الى ترجمانهِ فنظر اليهِ ثم قال انهُ مكتوب بالحرف الكوفي باللغة العربية

فقال هرقل ائتهُ عليَّ فقرأه فاذا فيهِ

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم والسلام على من اتبع الهدى اسلم تسلم يؤتك الله اجرك مرتين وان توليت فان اثم الاكارين عليك [1] ( الختم ) محمد رسول الله [2]

فلما أتم قراءتهُ ترجمهُ فغمت كل من في الجلسة لشدة لهجتهِ فالتفت هرقل الى من حولهُ كأنهُ يستشيرهم في شأنهِ وهو لم يفهم المراد منهُ لانهُ لم يكن يسمع بتلك الدعوة الاَّ همسًا فقال ومن ينبئني بحكاية هذا الرجل فلم يستطع احدٌ ايضاحًا كافيًا فنظر الى اطراف القاعة فشاهد عبدالله فاشار اليهِ فهرول نحوهُ متأدبًا فقال لهُ هل سمعت شيئًا عن صاحب هذا الكتاب وامر بالكتاب فدفع اليهِ فقرأه وقال نعم يامولاي ان صاحبهُ نبيٌّ ظهر في مكة من بلاد الحجاز من قبيلة يقال لها قريش دعا الناس الى عبادة الله وكان اكثر العرب يعبدون الاوثان فاجابهُ جماعة كبيرة منهم بعد ان قاسى مشقات جسيمة من اضطهاد بعض اقاربهِ واعمامهِ واهل وطنهِ فهاجر الى يثرب فنصره اهلها وشدوا ازره وانتشرت دعوتهُ في اقاصي بلاد العرب ويظهر من كتابهِ هذا انهُ يدعو مولاي الامبراطور الى التصديق بهِ

فلما سمع ارباب المجلس قولهُ كثر اللغط فيما بينهم واظهروا الاستخفاف فالتفت هرقل اليهم كأنهُ يستطلع رأيهم فقالوا لهُ ان في كتاب هذا الرجل جرأة كبيرة اذ لا يرى مسوغًا ان يحتقر الامبراطور الى هذا الحد فاشار هرقل اشارة فهم الحاضرون منها انهُ يلتمس سكوتهم فسكتوا والتفت الى البطريرك عن يمينهِ فاختصهُ بالسؤال

(١) الاغاني جزء ٦ (٢) الواقدي

فقال البطريك اني ارى في هذا الكتاب جرأة لم يسبق لها مثيل لان كاتبهُ يبدأ في خطابهِ بذكر اسمهِ ثم يذكر اسم جلالتكم فقد قال « من محمد رسول الله الى عظيم الروم » والعادة في خطاب الامبراطور ان يكون الاستهلال باسمهِ ثم اسم مخاطبهِ (١) فارى بعد امركم ان لا تغيروا هذا الكتاب التفاتًا

فقال هرقل ولكن علينا ان نبحث عن سيرة هذا النبي وصفاتهِ ثم نحن مخيرون في ما نفعلهُ فهل تعرفون احدًا من قريش نسألهُ عنهُ

فقال الحارث اعرف اميرًا من امراء مكة عظيماً اسمهُ ابو سفيان قدم في هذه الاثناء لتجارة في غزة وهو اقدر من يخبرنا عن صفات هذا النبي

فقال هرقل ايتني بهِ

فقال الحارث سمعًا وطاعة فسيكون هذا الرجل هنا بعد بضعة ايام ان شاء الله

قال الامبراطور فلنعقد مجلسًا اذ ذاك يحضر هذا العراقي لانهُ يعرف العربية فلعلهُ يفيدنا شيئًا

## الفصل الخامس عشر

### ﴿ ابو سفيان ﴾

فقبل الحارث الارض بين يدي هرقل و وقف متأدبًا ثم ارفصت الجلسة

فخرج عبد الله في جملة من خرج وقد أسف لتأخره هناك و ود الاسراع الى حماد وقد داهمهُ الوقت ولكنهُ كان قد شاهد ابا سفيان في بعض اسفاره الى مكة ولم يكلمهُ فاحب ان يراه ثانية ويسمع حديثهُ عن صاحب هذه الدعوة فسار توًّا الى دار الضيافة بالدير فاقام على الرحب والسعة وخرج في اثناء ذلك الى المدينة فطاف احياءها وتفرج بمشاهدها فرأى فيها اخلاطًا من اليهود ولغتهم جميعًا العبرانية المشوهة بالالفاظ الكلدانية وفيهم جماعة من السريان و رأى جماعة كبيرة من الروم و في ايديهم اعظم متاجر البلاد وارفع مناصبها وما منزلة الوطنيين بينهم الاَّ منزلة الخدمة

(١) السيرة الحلبية

ولم يسمع في احاديث الناس الاَّ الجدال بين القائلين بالطبيعة والقائلين بالطبيعتين فتيقن ان ذلك الخصام سيكون سبباً لسقوط هذه الدولة

فلما كان الوقت المعين للاجتماع اجتمع بالحارث وسارا معا الى كنيسة القيامة فدخلا صحنها فشاهدا جماعة من البدو عرف عبد الله من لباسهم انهم من عرب الحجاز فظن انهم رجال ابي سفيان ونظر فيما بينهم فرأى رجلاً يمتاز عنهم جميعاً بحسن زيه وكبر عمامته (١) وانساع عينيه عليه العباءة المزركشة وقد تقلد الحسام بخلاف سائر رجاله فقد كانوا يتقلدون الرماح ومعظمهم مكشوفو الرؤوس وفيهم من قد شدّ رباطاً حول شعره من الاعلى

فلم يتكلم عبدالله ولكن الحارث تقدم الى ابي سفيان فوقف له هذا وقد عرفه انه الحارث بن ابي شمر فالقى اليه التحية واخبره انه جاء انقياداً لامر الامبراطور فقال له تربص ريثما ندخل على مولانا ثم نبعث اليك

ثم وصل الحارث وعبدالله الى القاعة فعلما من وقوف الحرس عند الباب ان الامبراطور هناك فدخلا وتأدبا فامر هرقل باستقدام ذلك القرشي فخرج الحارث ثم عاد وحده واخبر الامبراطور ان الرجل ابى الدخول الاَّ بحسامه . قال هرقل فليدخل ولم تمضِ لحظة حتى دخل ابو سفيان ومعهُ بعض رجاله فبهرهم ما في القاعة من انواع الزينة ودلائل الفخر فوقف ابو سفيان امام الامبراطور ثم قبل الارض بين يديه وحياه قائلاً « ابيتَ اللعن » وهي تحية الملوك في الجاهلية (٢) فتلطف معهُ وامره بالجلوس فتربع على الارض وجعل سيفهُ عرضاً على فخذيه وجلس رجاله وراءه فعلم هرقل انها عادتهم في الجلوس فلم يعترضه ثم خاطبهُ بواسطة الترجمان قائلاً

من اي القبائل انت

قال من قريش حماة الكعبة

« وما تعني بالكعبة

« هي حجّ الناس الى الآلهة

« انعرف رجلاً اسمهُ محمد ظهر فيكم يدعو الناس الى دين جديد

« نعم اعرفهُ وهو من ذوي قرابتي لكنني لست على دعوته فقد جاءنا بدعوة

(١) الاغاني جزء ٦ (٢) صناعة الطرب

جديدة ونحن على دين آبائنا وطالما نهيناهُ عن ذلك فلم ينتهِ

قال هرقل لقد هُمَّني امر هذا الرجل واود ان اعرف حقيقة حالهِ فهل تنبئني عنهُ وعن دعوتهِ وما يدعو الناس اليهِ

فاصلح ابو سفيان مجلسهُ في تربعهِ كانهُ يعد نفسهُ لجلوس طويل ومشط لحيتهُ باصابعهِ واطرق قليلاً يفكر في امر ذي بال

فابتدره هرقل قائلاً ما بالك لا تجيب وقد افترحنا عليك امرًا يهمنا الاطلاع عليهِ العلك تجهلهُ

قال كلاَّ يا سيدي ولكنني تذكرت بدء امر محمد هذا وتذكرت والله ثم ما كان من دعوتهِ وانتشارها فتجدد استغرابي لهُ فاذا اذنتَ بان اقص عليك خبره فعلتهُ

قال ذلك ما اقترحتهُ عليك فقل

# الفصل السادس عشر

## ﴿ سيرة صاحب الشريعة الاسلامية ﴾

فاسند ابو سفيان كوعيهِ على ركبتيهِ ليستريح في جلوسهِ والتفت الى من حولهُ فاذا هو محاط بجماعة كبيرة من البطاركة والامراء والقواد فعلم انهُ يقص حكايتهُ على اعظم رجال الروم والترجمان يترجم كلامهُ للحضور الاَّ من كان عارفًا العربية منهم كالحارث وعبدالله فقال

اعلم ايها الملك ابيت اللعن ان محمدًا صاحب هذه الدعوة الذي توصل الى مخاطبة جلالتكم قد ربي يتيم الابوين صغير اليدين على انهُ من اصل عريق في الشرف والسؤدد من قبيلة قريش التي انا منها و يتصل نسبها بعدنان ونسب عدنان يتصل باسماعيل بن ابراهيم فنحن من اشرف العرب نسبًا واطيبهم طينة . وكان جدنا اسماعيل قد بنى لنا بيتًا نحج اليهِ الناس من اقطار العالم اسمهُ الكعبة بناه في مكة بالحجاز وهي مسقط رأسي ومحل اقامتي ومركز تجارتي ومقام اهلي

وكانت ولاية هذا البيت تارة في قريش وطورًا في سواهم حتى اغتصبها منهم منذ قرنين او اكثر بنو خزاعة وهم قبيلة من عرب اليمن القحطانية اذ لا يخفى على مولاي الفيصر ان العرب كافة يرجعون في انسابهم الى ابوين هما ( ١ ) اسماعيل الذي قدمت ذكره ومنه قبيلتنا وسائر قبائل الحجاز ( ٢ ) قحطان ومنه بنو حمير وسائر قبائل اليمن .

ولم تستطع خزاعة الاستبداد بولاية الكعبة الاَّ لما كان من تفرق امر قريش وضعفهم حتى ظهر جدنا قصيٌّ فبذل الدم والمال حتى ظهر على خزاعة واسترجع ولاية البيت الى قريش وتولى هو كل اعمال الكعبة وهي الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء

فلم يستطع الترجمان فهم هذه الالفاظ واشكل عليه تفسيرها فقال هرقل افهمنا ما معنى هذه الاعمال

فقال ابو سفيان اعلم يا سيدي ان مكة لا حكومة فيها مستقلة كحكومة جلالتكم بل هي مكان عبادة لان الكعبة حجٌّ يزوره الناس كما يزور النصارى دير من الديور ولكنها اعظم من ذلك كثيرًا فمن تولى اعمالها كانت اليه حكومة مكة وولاية امرها على نسبة ما يتولى من تلك الاعمال فمن تولى الحجابة كانت له حجابة الكعبة اي ان مفاتيحها تكون بيده يفتحها لمن اراد ويمنعها عمن اراد واما السقاية فهي ان في داخل الكعبة بئرًا قديمة يقال لها بئر زمزم احتفرها جدنا اسماعيل ( ١ ) فمن يتولى السقاية تكون تلك البئر في عهدته يسقي الحجاج منها . اما الرفادة فهي خرج او مالٌ تدفعه قريش الى من يتولى الرفادة ليصنع منه طعامًا للحجاج الذين يزورون الكعبة من اقطار الارض لانهم ضيوف عليه . واما اللواء فهو العلم الذي يعقد به للحرب وصاحب اللواء يعقد الالوية للجند الذاهبين الى القتال وهو بمنزلة قائد الجند عندكم . أما الندوة فهي مجلس القضاء ولها بيت في الكعبة يجتمع فيه رجال قريش للمشورة والمداولة وصاحب هذه الدار هو صاحب الشورى والرأي ( ٢ ) واليه يرجع الامر . ففي هذه الامور الخمسة تجتمع السلطة المطلقة لمن يتولاها للدين والدنيا فيكون القضاء والجند والكعبة والمال في قبضته فقد حاز جدُّنا قصي شرف مكة كلها ( ٣ ) وقطع مكة اربًا بين قومه وبه اجتمعت كلمة قبيلتنا وعادت اليها سطوتها وتلا نجم سعدها فتيممت بامره حتى

(١) ابن خلدون (٢) ابن الاثير (٣) ابن هشام والسيرة الحلبية

صارت لا تزوّج امرأة لرجل من قريش الاّ في داره ولا يتشاورون في امر نزل بهم او يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم الاّ في داره يعقدها لهم بعض ولده ولا تدرّع جارية اذا بلغت ان تدرّع الاّ في داره يشق عليها فيها درعها . وجملة القول كان امره في قومه من قريش في حياته ومن بعد موته كالدين المتبع لا يعمل بغيره (١)

وكان لقصي هذا أربعة اولاد وهم عبد الدار وعبد مناف جدّنا وعبد العزى وعبد فلما شاخ قصيّ كان عبد مناف قد شرف في زمان ابيه وعظم امره وكذلك عبد العزي وعبد (٢) فاراد قصي ان يشرّف عبد الدار وكان بكره فدعاه اليه واوصى له بمناصب الكعبة الخمسة المتقدم ذكرها فصار شرف مكة كله الى عبد الدار و بنيه من بعده

فخلف عبد الدار اولادًا وخلف عبد مناف اولادًا آخرين وهم عبد شمس وهاشم وعبد المطلب ونوفل وكانوا رجالاً أشداء وعبد شمس هو جدي فغبط بنو عبد مناف بني عمهم عبد الدار على ما في ايديهم من امر الكعبة ونازعوهم عليه حتى كاد يفضي امرهم الى الحرب ثم تداعوا الى الصلح واقتسموا ذلك الشرف فيما بينهم فأعطيت السقاية والرفادة الى بني عبد مناف واعطيت الحجابة واللواء والندوة الى بني عبد الدار وتم الصلح على ذلك وانحسم الخلاف . ولا تظنوا اني اطلت الكلام على غير طائل او انيّ دخلت فيما لم اسأل عنه فان لما قلته علاقة كبرى فيما سألتموني عنه

فتولى السقاية والرفادة اولاً عبد شمس ولكنه كان كثير الاسفار لا يقيم في مكة الاّ قليلاً فعهد بهما الى اخيه هاشم وهاشم هو جدُّ محمد الذي تسألونني عنه اي ابو جده ثم مات هاشم فوليهما اخوه المطلب وكان سمحًا سمحًا سمته قريش الفيض لسماحته (٣)

وولد لهاشم ولد سماه شيبة ثم سمي عبد المطلب لحكاية طويلة لا محل لها هنا وهو جد محمد ابو أبيه فلما مات المطلب تولى الرفادة والسقاية ابن اخيه هذا اي عبد المطلب وولد لعبد المطلب عشرة اولاد ذكور منهم عبدالله والد محمد

وكان عبد المطلب قد اراد حفر بئر زمزم فمنعه اقاربه من ذلك فلاقى منهم امورًا صعابًا ولكنه فاز اخيرًا بحفرها فنذر انه اذا ولد له عشرة اولاد ثم بلغوا منعه حتى يمنعوه من مثل ذلك ليخرنّ احدهم عند الكعبة فلما بلغوا ومنعوه جاء الكعبة ليفي نذره ولم يكن يدري من ينحر من اولاده فاستخار هبل الصنم الاكبر القائم في الكعبة (٤)

(١) السيرة الحلبية (٢) ابن اسحاق (٣) ابن هشام (٤) ابن الاثير

بواسطة القداح

فاشكل امر هذه الاقداح على الترجمان ولم يستطع تفسيرها فاستفسره عنها فقال ابو سفيان ان لنا في الكعبة اصناماً كثيرة اتخذناها وسيلة بيننا وبين من نعبد واعظمها صنم اسمه هبل عنده سبعة قداح ( اي اسهم بلا ريش ) كل قدح عليه كتابة بمعنى قدحٌ قد كتب عليه ( العقل ) وقدح عليه ( نعم ) وقدح عليه ( لا ) فاذا ارادوا امراً ضربوا به في القداح فاذا خرج ( نعم ) فعلوا ما جاؤا من اجله او ( لا ) لم يفعلوه وقدح فيه ( منكم ) وقدح فيه ( ملصق ) وقدح فيه ( من غيركم ) وقدح فيه ( المياه ) اذا ارادوا ان يحفروا للماء ضربوا بالقداح وفيها ذلك القدح فحيثما خرج عملوا به (١)

فجاء عبد المطلب الى هبل وقال لصاحب القداح اضرب على بني هؤلاء بقداحهم هذه واخبره بنذره فاصطفع لاولاده عشرة قداح واعطى كل رجل منهم قدحه وقد كتب عليه اسمه وكان عبدالله والد محمد الذي نحن في صدده اصغر بني عبد المطلب وكان احبهم اليه فلما ضربت القداح طلع القدح ان يذبح هو فهمّ عبد المطلب بذبحه فمنعته قريش من ذلك وقالوا لا بل يجب ان تعذر فيه فانطلق به الى عرّافة في المدينة ( يثرب ) فوجدوها بخيبر فجاؤها فسألوها عذراً فسألتهم كم دية الرجل عندكم قالوا عشرة من الابل قالت فتخذوا الغلام وعشرة من الابل واضربوا عليه وعليها بالقداح فان خرجت عليه فزيدوا من الابل عشرة فعشرة حتى يرضى ربكم وتخرج القداح عليها فتنحروها (٢) فخرجوا وضربوا بالقداح فما زالت تخرج على عبدالله حتى بلغ عدد الابل مائة فخرجت عليها فذبحوها وتجا عبدالله وبقي حيا وتزوّج فولد له محمد

ولم اطل عليكم الكلام الاّ لتعلموا مقدار ما نحن فيه من تعظيم الكعبة واصنامها فانها ضالتنا وغايتنا في تشهيرها وتسخيرها واليها تحج الناس من سائر اقطار الارض ولنا بها منفعة من حيث الاتجار لما ياتيها واسطتها من اصناف الناس عربها وعجمها وقد ذكرت لكم كم سفكنا من الدماء في سبيل استبقائها فهي مصدر نعمتنا ومنبع اقواتنا ومرجع آمالنا وقد مضى عليها القرون الطوال قائمة والناس يكرمونها ويعظمونها ويذبحون عند اصنامها الذبائح ويقدمون اليها بالهدايا الى اليوم فهذه

(١) ابن هشام وغيره (٢) السيرة الحلبية

كلها قام صاحب هذا الكتاب ( واشار الى الرق امام هرقل ) يدعو الناس الى ازالتها وهدم ما بناه اجداده فيها

فلما بلغ ابو سفيان من كلامهِ الى هذا الحد ظهرت على وجه هرقل مظاهر الاستغراب وخاطب البطريرك الى يمينهِ باليونانية قائلاً ازى هذا الرجل يشكو ممن يريد هداية قومهِ عن عبادة الاصنام فاذا كانت هذه هي غاية هذا النبي فنعمت الغاية فتداول الحضور هذا الحديث برهة على نحو ما قال الامبراطور وازداد شوقهم لمعرفة بقية الحكاية وكيف استطاع القيام بهذا المشروع على خطارتهِ مع ما ذكر ابو سفيان من يتمهِ وضعفهِ فالتفت هرقل الى ابي سفيان وقال له لقد افصحت فيما قلت فهل لك ان تحكي لنا حكاية هذا النبي وكيف نوصل الى ان يدعوكم الى ذلك

فقال ابو سفيان قد رأيت ايتَ اللعن كيف نجا عبدالله بن عبد المطلب من الموت وكان ابوه بحمهِ فاز وجه امرأة من قريش اسمها امينة ولم يمكث عبدالله مع امرأتهِ الاَّ برهة يسيرة ثم قضت عليهِ الاحوال بالسفر الى غزة التي انا آتٍ منها الآن ولكنهُ مرض في سفرتهِ هذه فعاد ولما الى مكة فمات قبل ان يدركها وهو بجوار يثرب فدفن هناك وامرأتهُ لم تره

وكانت امينة حبلى مات عبدالله حاملاً (١) ولم يترك لها الاَّ اربعة من الابل وقطيعاً من الماشية وجارية اسمها بركة . وكانت امينة تقيم في بيت بضواحي مكة عند جبل شرقي مكة اسمهُ جبل ابي قبيس وهناك ولدت ابنها هذا في عام الفيل الذي جاء بو ابرهة الاشرم من قبل الحبشة لفتح مكة ( سنة ٥٧٠ م ) فلما ولدتهُ كان جده عبد المطلب في الكعبة فحملوه اليهِ فباركهُ وسماه محمداً ومن عادتنا ايها الملك ان نرضع اولادنا من المراضع ويندر ان يعيش لنا ولد على ابن امهِ وتختار المراضع من اهل البادية لصحة اجسامهن فاختارت لهُ امهُ مرضعاً من اهل الطائف اسمها حليمة فارضعتهُ حولين قضاهما في سهول الطائف ولوديانهِ فنشأ نشيطاً وسمعت الناس يتحدثون عن طفولتهِ اخباراً غريبة لم يسمع بمثلها من ذي قبل منها ان مرضعتهُ تركتهُ يلعب مع ولدها ذات يوم خلف البيوت فاذا بولدها قد جاء يقول ان اخي القرشي اخذهُ رجلان عليهما ثياب بيض فشقا بطنهُ فخرجت هي تلتمسهُ فوجدتهُ منفرداً فسألتهُ

(١) ابن هشام

عن امره فقال جاء في رجلان عليهما ثياب بيض فاضجعاني وشقا بطني فالتمسا فيه شيئا لا ادري ما هو وغسلاه بالثاج (١) فخافت حليمة على الغلام فحملته الى امه بمكة فقضى فيها مدة يرعى الغنم و يطوف الاحياء مع الاولاد (٢) وكان كل من رآه اعجب بذكائه وجماله ونور محياه ولكنه لم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفيت والدته في الابواء بين مكة والمدينة فدفنت هناك فاصبح الغلام يتيم الابوين فاحتاطه جده عبد المطلب واحبه اكثر من جميع اولاده فكان الناس يكرمونه من اجل جده وكان على صغر سنه يجالس الحجاج القادمين لزيارة الكعبة وفيهم العلماء والشيوخ و يجادثهم بما يجتذب به قلوبهم وعواطفهم و بعد سنتين توفي عبد المطلب فولى السقاية ابنه العباس اما الرفادة فانيطت ببني نوفل من ولد عبد شمس جدنا فاصبح محمد يتيماً غريباً فكفله ابو طالب احد اعمامه وكان ابو طالب اقل من العباس مالاً ولكنه كان وجيهاً مقدماً في قريش فاحتضن الغلام وتولى تربيته والسبب في احتضانه اياه دون سائر اعمامه ان ابا طالب وعبد الله والد محمد كانا اخوين من ام واحدة (٣)

وأعترف لك ايها الملك العظيم ان كفالة ابي طالب هذه كانت سبباً عظيماً في نجاح دعوة محمد و بقائه حياً لأن ابا طالب كان وجيهاً في قريش محترماً مكرماً فاقام محمد في بيته كأحد اولاده . وكان ابو طالب اذا خرج الى تجارة او سفر اصطحب محمداً فينزل الديور و يجالس الرهبان والعلماء واشهر حادثة سمعتها عنه نزوله في دير بحيراء قرب بصرى فقد اخبرنا بعض الذين رافقوه في رحلته تلك ان الراهب بحيراء انبأ بامور كثيرة من مستقبل حياته واوصى عمه ابا طالب ان يعتني به و يخاف عليه اليهود . وكان محمد اذا عاد من سفر قضى معظم ساعات نهاره في الكعبة يحادث الناس و يجادلهم و يطارحهم وهم يعجبون لذكائه وقوة برهانه فقد كان على صغر سنه ذكي الفؤاد فصيحاً واسع الاطلاع بما اكتسبه من مجالسة عمه ومخالطة الناس في اسفاره مع انه كان اميًّا لا يعرف القراءة وهو لا يزال كذلك الى الآن وكان مع ذلك مخلصاً حسن الطوية حتى لقبوه بالامين فاذا جاء او ذهب قالوا جاء الامين او ذهب الامين

واهل مكة ايها الملك اهل تجارة يحملون الاموال من مشارف الشام واليمن وفارس والعراق الى مكة وغيرها وهم مشهورون بالتجارة كثيراً حتى ان اسماءهم كنّ

(١) ابن الاثير وابن جلدون (٢) ابن هشام (٣) السيرة الحلبية

يتعاطينها وكان في مكة امرأة مشهورة بالغنى اسمها خديجة بنت خويلد من سلالة عبد العزى بن قصي الذي قدمت ذكره وكانت لشرفها وغناها تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم اياه بشيء تجعله لهم فسمعت بمحمد وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره واشتهر بالاستقامة والنشاط [١] فعرضت عليه ان يخرج في مال لها الى الشام تاجرًا وتعطيه افضل ما كانت تعطي غيره فسار في تجارتها مع غلام لها اسمه ميسرة وعاد وقد اكسبها مالاً طائلاً فاحبته وعرضت عليه ان يتزوجها ففعل فولدت له اولادًا وهم القاسم وهو بكنيه ( فيقال ابو القاسم ) والطاهر والطيب وزينب ورقية وام كلثوم وفاطمة اما القاسم والطاهر فماتا قبل ان ظهر بدعوته

واتفق اذ بلغ الخامسة والثلاثين من عمره ونحن لا نعرف من امره غير ما عرفناه من حسن خصاله ومهارته واستقامته ان قريشًا اجتمعت لبناء الكعبة وكنت في جملتهم وسبب اهتمامنا بذلك ان نفرًا سرقوا كنزًا للكعبة كان في بئر في جوفها ووجدنا تلك السرقة عند رجل من خزاعة فقطعنا يده وعمدنا الى بناء الكعبة وتسقيفها وكان البحر قد رمى بسفينة عند جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت فاخذنا خشبها واعددناه لتسقيفها وكان بمكة رجل قبطي يحسن صناعة النجارة فاغتنمنا هذه الفرصة لبنائها واقتسمنا العمل فيها لكيلا يحوز احدنا من الشرف في ذلك اكثر مما يحوزه الآخر فجئنا بالحجارة والاخشاب حتى تم البناء ولم يبق الاَّ الركن فاختصم الناس في من يرفعه منهم وكانت كل قبيلة تدعي الاحقية في رفعه حتى تعاظم الخصام وهموا بالقتال فاتفق رأي عقلائنا اخيرًا ان يحكموا فيما بينهم اوّل داخل من باب المسجد في ذلك اليوم فكان اوّل داخل محمدًا فقالوا هذا هو الامين قد رضينا بحكمه فاخبروه الخبر فرأى رأيًا حسنًا لم يخطر على قلب احد منا وذلك انه اتى بثوب واسع جعل ذلك الركن فيه وقال لتأخذ كل قبيلة بناحية منه فرفعناه جميعًا حتى بلغنا به موضعه فوضعه هو بيده وانحسم الخلاف [٢] وقد حدث هذا بعد حرب الفجار بخمس عشرة سنة وحدث حرب الفجار بعد العام الفيل بعشرين سنة [٣] وكان لعمله هذا اثر حسن جدًّا في اذهاننا فخرج الناس من الكعبة وهم يتحدثون بفطنته وتعقله وكنت في جملة المعجبين به ولا ازال اعترف بفضله لولا ما اراد من تحقير آلهتنا وتعييب اصنامنا كما سأقصه عليكم

(١) السيرة الحلبية (٢) ابن هشام (٣) الطبري

وفيما نحن نتحدث بحسناته ونعجب باخلاقه حتى بلغ الاربعين من عمره فسمعنا بانقطاعه عن الناس واعتزاله في الشعب والجبال حتى صار يأوي الى الكهوف و يقول ان الملاك جبريل ظهر له وعلمه الصلاة فعلمها لامرأته خديجة ولزيد بن حارثة مولاه ولعلي بن عمه ابي طالب وكان عليٌّ غلامًا صغيرًا وعلمها ايضًا لعبد الله بن أبي قحافة الذي يسمونه الآن ابا بكر وتبعه آخرون وهو يتلو عليهم آيات يقول ان ربه علمه اياها ونحن لا نعبأ بذلك لانه لم يمس آلهتنا بعيب ولكنه ما لبث ان جمع عمومته واهل عشيرته الاقربين الى وليمة ودعاهم الى ترك الآلهة فاجابه عمه عبد العزى ( ابو لهب ) منكرًا عليه جرأته هذه ونصح له ان يرجع عن ذلك (١) فأبى ولم يزدد الاَّ تمسكًا ثم بلغنا انه سبَّ آلهتنا وعاب اصنامنا فشق ذلك علينا فاجتمعنا وفينا نخبة من اشراف قريش وتداولنا في امره وما جاء به فتهيأ لبعضنا ان نقتله فقال البعض الآخر اننا اذا قتلناه انما نسيء عمه ابا طالب وهو رجل جليل القدر فالافضل لنا ان نحاطبه بشان ابن اخيه وخصوصًا ان ابا طالب هذا ظلَّ على دين آبائنا حتى مات ولم يؤمن بدعوة ابن اخيه فسرنا جميعًا الى ابي طالب في منزاله فتلقانا على الرحب والسعة واكرم وفادتنا على جاري عادته فلما استقر بنا المقام قلنا « يا ابا طالب ان ابن اخيك قد سبَّ آلهتنا وعاب ديننا وسفه احلامنا وضلل آباءنا فاما ان تكفه عنا او ان تخلي بيننا وبينه فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه فتكفيكه » فاجابنا ابو طالب جوابًا لطيفًا و وعدنا وعدًا حسنًا وردنا ردًّا جميلاً فانصرفنا عنه على أمل ان يدع ابن اخيه عن عماه (٢) فاذا هو باق على ما كان عليه وما زلنا نسمع مثل ما كنا نسمعه عنه قبلاً وكان ممن أبَّد دعوته من قريش ابن عم امرأته خديجة وكان اسمه ورقة بن نوفل وكان نصرانيا مثلكم فاشتد غضبنا وهممنا بان نفتك به ثم رجعنا الى مجاملة عمه فاجتمعنا اليه مرة اخرى وقلنا له « يا ابا طالب ان لك سنا وشرفًا ومنزلة فينا وانا قد استنهيناك من ابن اخيك فلم تنهه عنا وانا لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه احلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا او ننازله واياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين » (٣) فاتسنا هذه المرة من ابي طالب انصياعًا وكأنه عوَّل على اجابة سؤلنا اذ لا طاقة له على فراق قومه وعشيرته ومعاداتهم وبلغني انه لما

(١) الطبري (٢) السيرة الحلبية (٣) ابن اسحاق

خرجنا من منزله بعث الى ابن اخيه فقال له « يا ابن أخي ان قومك قد جاؤا الي فقالوا كذا وكذا فابق علي وعلى نفسك ولا تحملني من الامر ما لا أطيق » فآنس من اصراره على معتقده وبقائه على عزمه ما كاد ان يغضبه لولا ان محمدًا قال له « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر حتى يظهره الله او اهلك فيه ما تركته » ثم بكى فرق له قلب عمه وتذكر ان ابن أخيه في منزله وله عليه حق الجوار فعاد الى نصرته وطمأن قلبه ووعده ان لن يسلمه ابدًا

ثم علمنا ذات يوم ان محمدًا ذكر آلهتنا فيما نزل عليه من كتابه فقال « أفرأيتم اللات والعزى ومنات الثالثة الاخرى تلك الغرانيق العلى ان شفاعتهن لترتضى » (١) وذلك ما كنا نعتقده فسررنا سرورًا لا مزيد عليه وقلنا ها قد تم الوفاق ثم ما لبث ان رجع عن ذلك وابدل هذه الفقرة بفقرة تزيدنا نفرة منه فقال ان تلك انما القاها الشيطان على لسانه ثم ذكر آلهتنا بكل سوء فقال انها اسماء سميتموها انتم وآباؤكم الى غير ذلك مما زادنا نفورًا وبعدًا

فحرنا في امرنا مع هذا الرجل ولبثنا نتوقع فرصة نتخلص بها منه ونرجو رجوعه فاذا هو باق على عزمه وكثيرًا ما كان بعض رجالنا اذا التقوا به يهددونه وهو لا يبالي وفيما نحن في ذلك اذ سمعنا ان عمه حمزة بن عبد المطلب قد آمن بدعوته واخذ يناصره وحمزة هذا رجل شديد تهابه قريش فاشتد به ازره وازداد ثباتًا في دعوته فقلنا لمدعونّ محمدًا الينا بكلمة ونخاصمه حتى نعذر فيه فاجتمعنا في الكعبة وفينا كل أشراف قريش واستقدمناه فجاء فقلنا له « قد بعثنا اليك لنكلمك فاننا لا نعرف رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما ادخلت على قومك لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفهت الاحلام وفرقت الجماعة فما في امر قبيح الا قد جئته فيما بيننا وبينك فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من اموالنا حتى تكون اكثرنا مالاً وان كنت انما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا وان كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا وان كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه قد غلب عليك ( والرئي التابع من الجن ) بذلنا لك اموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه او نعذر فيك »

(١) الطبري

فاجابنا بقلب لا يهاب الموت قائلاً « ما بي ما تقولون ما جئت بما جئتكم به اطلب اموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني اليكم رسولاً وانزل عليَّ كتاباً وامرني ان اكون لكم بشيرًا ونذيرًا فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فان تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه عليَّ أصبر لحكم الله حتى يحكم الله بيني و بينكم » فاردنا ان نمتحن اعتقاده فقلنا له « ان كنت غير قابل شيئًا مما عرضناه عليك فانك قد علمت انه ليس من الناس احد اضيق بلدًا ولا اقل ماء ولا اشد عيشًا منا فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فيسير عنا هذه الحال التي قد ضيقت علينا ويبسط لنا بلادنا وليفجر لنا فيها انهارًا كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصيٌّ بن كلاب فانه كان شيخ صدق فنسألهم عما نقول أحقٌّ هو ام باطل فان صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله وانه بعثك رسولاً كما تقول » فاجابنا وهو لا يتلجلج ولا يتردد قائلاً « ما بهذا بعثت اليكم انما جئتكم من الله بما بعثني به وقد بلغتكم ما ارسلت به اليكم فان تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه عليَّ أصبر ان الله تعالى يحكم بيني وبينكم »(١) وطال الجدال بيننا في مثل ذلك وهو باقٍ على قوله حتى خرج ونحن لا نرى سبيلاً الى الانتفاع به

وكان ابو سفيان يتكلم والجميع صامتون يتطاولون باعناقهم فلما وصل الى هذا الحد جعلوا ينظرون بعضهم الى بعض وهم يعجبون لما سمعوه فقال بطريرك القسطنطينية لهرقل اني لا أرى هذا الرجل الاَّ قد جاءهم بالحق وهم انما يشكون من دعوته اياهم الى دين الله . ثم عادوا الى استماع بقية الحديث فقال هرقل وما جرى بعد ذلك

قال ابو سفيان وما زال امر هذا الرجل يستفحل حتى كثر انصاره ومن غريب ما رأينا منهم انهم كانوا يحتملون منا الامور الصعاب والاضطهاد الشديد على ان يكفروا به فلم ينفعلوا حتى اذا ضيقنا عليهم فرَّ جماعة منهم الى بلاد الحبشة فحماهم ملكها واخذ بناصرهم أما محمد فبقي في مكة يدعو الناس بالحسنى والصبر ونحن غافلون حتى

(١) السيرة الحلبية

سمعنا باسلام عمر بن الخطاب وهو من أعظم رجال قريش فنأيدت دعوته بو كما تأيدت بحمزة فعظم امره واشتد ازره فصار دعاته يتكاثرون يومًا بعد يوم بما ينضم اليهم من القبائل فجمعنا عاقبة ذلك فاجتمعنا وائتمرنا على ان نكتب كتابًا نتعاقد فيهِ على بني هاشم و بني عبد المطلب ان لا نبيع اليهم ولا نبتاعهم شيئًا ولا يبتاعوا منا شيئًا فكتبنا صحيفة تعاهدنا عليها وتواثقنا وعلقناها في جوف الكعبة ولكنها ما لبثت ان نقضت لاننا تعهدناها يومًا فاذا هي قد اكلتها الارضة فتشاءمنا بذلك واسقط في يدنا فلبثنا ننتظر ما يأتي بهِ الزمان

فمنذ عشر سنوات تقريبًا [1] توفي ابو طالب وخديجة فذهب الذي كنا نهابهُ ونجل مقامهُ فنلنا من محمد ما لم ننلهُ قبلاً فسمناه انواع العذاب والاضطهاد حتى كثيرًا ما كنا ننثر التراب على رأسهِ فخرج من مكة الى الطائف يلتمس النصر من قبيلة ثقيف التي قضى زمن رضاعهِ بينهم فلم يلق خيرًا بل كانوا يسبونهُ و يؤذونهُ ويعترضون لهُ في الطريق و يسومونهُ الوان العذاب حتى ظنناه يرتجع و يترك دعوته ولكنهُ لم يزدد الاَّ ثباتًا وكان يذهب الى المواسم حيث تجتمع القبائل اميع والشراء كموسم عكاظ وغيره و يعرض نفسهُ عليهم و يدعوهم الى دينهِ فكان اكثرهم اقبالاً عليهِ قبائل الخزرج من اهل المدينة ( يثرب ) فانهم بايعوهُ بيعات تعرف بيعات العقبة لوقوعها في مكان اسمهُ العقبة بقرب مكة

فقال الترجمان عند ذلك وما معنى المبايعة عندكم قال هي ان يتراضى الفريقان على امر كالبيع والشراء وسمعت ان لهذا الرجل مبايعة يؤخذ منها تعهد المبايعين ان يكونوا على دعوتهِ ومن أمثلة ذلك قولهم لهُ « بايعناك على ان لا نشرك بالله شيئًا ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل اولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريهِ من بين ايدينا وارجلنا ولا نعصيهُ في معروف » [2] وقد كانت بيعة العقبة هذه اوّل امر الانصار وهم اهل المدينة وقد سماهم الانصار لان امره ضعف بعد وفاة عمهِ وخديجة كما قدمت فجاء الخزرج و بايعوهُ ونصروهُ فسماهم الانصار وهؤلاء ساروا الى المدينة ونشروا دعوتهُ بين اهلها فتبعهُ منهم كثيرون فلما رأى تضييقنا عليهِ بمكة أمر اصحابهُ بالهجرة الى المدينة وسماهم المهاجرين تمييزًا لهم عن الانصار المتقدم ذكرهم

(١) الطبري (٢) ابن هشام

فلما علما بذلك وتبيّن لما انهُ اذا سار هو الى المدينة سيمتنع بانصاره واصحابهِ وربما عادوا الى مناوأتنا فاجتمعا في دار الندوة التي ذكرت لكم ان قصياً جعلها في الكعبة للمشورة وتفاوضا في ماذا نفعل بهذا الرجل فقال بعضنا نفيهِ وقال آخرون ان نفيهُ لا يمنع اجتماعه باصحابهِ وانصاره

فقال آخرون فلنقتلهُ ونجعل دمهُ متفرقًا بين القبائل لئلاَّ يجتمع أعمامهُ بنو عبد مناف على المطالبة بدمهِ فجئنا رجال من كل القبائل وسرنا جميعًا خلسة حتى أتينا منزلهُ وتربصنا لهُ رشنا يسام فلما ظنناه نام وقد شاهدنا رجلاً ملتفاً ببردة حمراء هو ثم خرج هو الينا ونحن نظنهُ سواه فكلمنا وحثا التراب على عيوننا وفرَّ من امامنا فتركناه ودخلنا على النائم فاذا هو عليٌّ ابن عمهِ ففرَّ الآخر من امامنا ونجا الجميع وتبعهُ من بقي من اتباعه في مكة الى المدينة (١) وهناك نصره المهاجرون والانصار وهم جندهُ الى هذا اليوم مع ما انضم اليهم من القبائل على أثر الحروب التي حاربها والغزوات التي غزاها فانهُ لم يدع قافلة لنا تمرُّ بالمدينة الاَّ غزاها وفرَّق أسلابها واموالها بين رجالهِ حتى كانت بيننا وبينهُ واقعة بدر الكبرى والصغرى وواقعة أحد وغير ذلك مما يطول شرحه

فعجب هرقل لحديث أبي سفيان ورآه لم يفرغ من حديثهِ حتى تلا وجههُ الاكتئاب والاسف فقال لهُ وكيف حال صاحبك اليوم

قال قد انتشر أمره بين القبائل في سائر بلاد العرب الاَّ مكة فانها لا تزال ممتنعة عليهِ وبظنها ستمتنع برجالها وقد بلغني انهُ سيقدم لفتحها ولكنهُ سيلقى منَّا غير ما لاقاه في وقائعهِ الاخرى ومما يدلك على اغتراره بنفسهِ انهُ خاطب الامبراطور هرقل قيصر الرُّوم بمثل هذا الخطاب على اننا ما رحنا نسمعهُ من بدء دعوتهِ يقول ان كنوز كسرى وقيصر ستفتح لهُ (٢)

فقال هرقل يؤخذ من كلامك ان الرجل جاءكم بالقول الحق فان عبادة الله اولى من عبادة الاصنام وانتم انما قاومتموه ظلمًا

فقال أبو سفيان ان اكثرنا ايها القيصر يعتقد بالله ولكننا نتخذ الاصنام « ليقربونا الى الله زلفى » (٣) ونعترف بالبعث والاعادة ولكننا لا نؤمن بالرسل (٤)

(١) السيرة الحلبية (٢) الطبري (٣) القرآن (٤) المسعودي

فاعترضهُ أحد البطاركة قائلاً فلا نظنكم قاومتموه الاَّ خوفًا على تجارتكم ان تبور اذا هدمت كعبتكم وقلَّ توارد الناس اليها فهي مصالح دنيوية آثرتموها على مصلحة الاخرة

ثم اشار هرقل اشارة فهم الحضور منها انهُ اكتفى من حديث ابي سفيان فتقدم الحارث الى ابي سفيان وأومأ اليهِ فوقف وقبل الارض بين يدي هرقل فقال لهُ الامبراطور لقد سرَّنا لقاؤك واستفدنا من حديثك ولكنك تكبدت المشقة بالقدوم الينا جزاك الله خيرًا فقبل ابو سفيان الارض ثانية وقال ابيت اللعن ايها الملك العظيم فاني بالمثول بين يديكم افاخر اهل الحجاز كافة اذ قلما تيسر لاحد منهم ان يخاطب قيصر الروم . قال ذلك وخرج ورجالهُ معهُ فامر لهُ هرقل بخلعة من الحرير المركش

ثم التفت هرقل وتناول الكتاب وهو من الرق وامر ان يحفظ في قصبة من ذهب (١) وامر بهدية الى دحية حامل الكتاب وسلم اليهِ الكتاب وصرفهُ

## الفصل السابع عشر

### ﴿ عود عبد الله ﴾

أما عبد الله فما صدق ان فرغ ابو سفيان من حديثهِ وخرج حتى خرج هو معهُ فلما التقيا في صحن الدار سلما وكان ابو سفيان لا يذكر وجه عبد الله ولكن عبد الله رآهُ بمكة في بعض السنين على انهما تعارفا وتصافحا حالاً لما بينهما من رابطة اللغة في ارض قلَّ فيها العرب فسألهُ ابو سفيان عن مسيره واقامتهِ فقال اني مسافر الى عمان فقال ابو سفيان لكن في طريقك اليها اودية وعقبات فهل انت معتاد السفر فيها

قال قد سرت اليها من غير هذه الطريق منذ بضعة اعوام

فقال ابو سفيان أما وقد تعارفنا وترابطنا فلنسر معًا لاننا عازمون على الحجاز وقد يسهل علينا المرور بعمان فاذا اقمت هناك ودعناك وسرنا في سبيلنا ولكن قافلتنا لا تزال في غزة وفيها جمالنا واثقالنا وخيولنا فلنقم هنا يومًا او يومين ريثما نستقدم القافلة ونسير جميعًا

(١) السيرة الحلبية

قال عبد الله حسنًا تفعل فها اني ذاهب لوداع الحارث ثم اقضي بعض المهام ونلتقي الليلة في الساحة بقرب الكنيسة

قال ابو سفيان نعمّ الرأي رأيت

وافترقا فعاد عبد الله الى القاعة وكانت الجلسة قد ارفضت فالتقى بالحارث خارجًا يبحث عنهُ فلما لقيهُ سألهُ الحارث عن غيابهِ فاعتذر بانهُ كان في شاغل

فقال لهُ هل تسير الى بصرى فتكون بمعيتي

فتحير عبد الله بماذا يجيبهُ وخاف اذا ابى الذهاب معهُ ان يحمل ذلك محملاً سيئًا وهو بالحقيقة لا يريد الذهاب الى بصرى قبل ان يلتقي بحماد وخاف ان يخبره عن عزمهِ على عمان مع ابي سفيان لئلاَّ يستغشهُ فوقع في حيرة ولكنهُ ثنى على تلطفهِ في استصحابهِ وشكر عنايتهُ في انقاذه وقال لهُ ان مجيئي الى بيت المقدس قد حبب اليَّ الاقامة فيها مدة قبل ان اسير الى بصرى على اني حيثما كنت انما اكون في ظل حمايتكم وحماية مولانا الامبراطور

فوافقهُ على ذلك وسلم اليهِ كتاب الامان وودعه فسار عبد الله حتى التقى بابي سفيان فقضيا بضعة ايام في القدس حتى جاءت القافلة فتهيأ ولِلسفر وكانت القافلة تنتظرهم خارج المدينة وفي صباح اليوم الثالث أُعدت الخيول لركوب ابي سفيان وحاشيتهِ

فقال ابو سفيان لعبد الله هل عندك جواد لركوبك

قال كلاَّ لاني تركت فرسي في بصرى

فأمر ان يعطى لهُ فرسٌ من افراس حاشيتهِ وقال لهُ اركب هذا الجواد الآن فاذا وصلنا القافلة اعطيناك فرسًا يليق بك

## الفصل الثامن عشر

### جواد حمّاد

فركبوا حتى جاؤُوا القافلة خارج المدينة فجلسوا للاستراحة قليلاً وعبد الله لا يرتاح الاَّ الى السفر استعجالاً لملاقاة حماد ولكنهُ اطاعهم فجاؤُوهُ بفرس عليهِ سرج ثمين

فلما وقع نظره عليهِ اختلج قلبهُ في صدره لانهُ يشبهُ فرس حماد ثم تأملهُ جيدًا فاذا هو هو بعينهِ فاعاد نظره على السرج فاذا هو سرج فرس حماد فدنا منهُ ولمسهُ بين عينيهِ فآنس بالفرس حنوًّا اليهِ وارتياحًا الى لمسهِ فتحقق انهُ هو فرس حماد بعينهِ فبغت وكان ابو سفيان واقفًا على مقربة منهُ يراعيهِ فلما رأى ذلك منهُ سألهُ عن امره

فقال اني في ريب من أمر هذا الفرس لانهُ فرس ولدي

فقال ابو سفيان وكيف عرفتهُ

قال عرفتهُ من لونهِ وقدهِ وسرجه وقد ربيتهُ مذ كان مهرًا رضيعًا واعرف امهُ قبلهُ

فعجب ابو سفيان لهذا الاتفاق الغريب وقال لهُ واين كان ولدك

قال كان راكبًا من بصرى الى عمان فاين ظفرتم بهذا الفرس

قال ظفرنا بهِ نائمًا بالقرب من الزرقاء

فخاف عبد الله ان يكون لضياع هذا الفرس سبب يوجب قلقًا فاعاد السؤال ثانية عن كيفية عثورهم عليهِ

فقال ابو سفيان كنا قادمين من الحجاز الى الشام منذ بضعة اسابيع وفيما نحن بالقرب من الزرقاء نحاذر ان نقترب من مسبعتها اذ شاهدنا هذا الفرس نائمًا في الصحراء فارسلت بعض رجالي في اثرهِ وبعد العناء والمشقة قبض عليهِ فجاء بهِ اليَّ فسقناه معنا الى غزة ثم جئنا بهِ الى هنا كما ترى

فبهت عبد الله ولبث صامتًا لا يتكلم وقد غلبت الهواجس عليهِ مخافة ان يكون حماد قد ذهب فريسة السباع وفرَّ جواده منهُ وهو يعلم ان الفرس اصيل لا يترك صاحبهُ الاَّ اذا مات اواُسر أو غاب عنهُ فترقرقت الدموع في عينيهِ رغماً عنهُ ولكنهُ تجلد وقال أراني كثير القلق على ولدي ولا يهدأ لي بال حتى انتقد المكان الذي وجدتم الفرس فيهِ

فقال ابو سفيان هو قريب من طريقنا الى عمان فاذا شئت عرجنا اليهِ وبحثنا معك عما تريد فان أمر ولدك يهمنا كما يهمك

ثم ركبوا أما عبد الله فلم يشأ ان يركب فرس ابنهِ بعد ما رآهُ من أمره فاركبوه غيره وساروا وهو لا ينبس ببنت شفة لاشتغالهِ بالهواجس فقضوا يومين سائرين وعبد الله

لا يأكل ولا ينام الاَّ قليلاً حتى صاروا على مقربة من الزرقاء فقال ابو سفيان ها اننا بقرب المسبعة فلنترك القافلة وجمالها واحمالها ولنصطحب بعض الفرسان الى ذلك السهل حيث عثرنا على الفرس بركض فيهِ

فعرجوا وهم عشرة رجال وفيهم ابو سفيان وعبد الله وساروا يحاذرون ان يلقاهم اسد او وحش آخر على انهم لم يكونوا يخافون ذلك والوقت نهار وهم كثار . فلم يسيروا الاَّ قليلاً حتى وقف ابو سفيان وقال هذا هو المكان الذي عثرنا فيهِ على الفرس فقد رأيتهُ بركض في هذا السهل

فقال عبد الله واين هي المسبعة

قال هي الى يميننا فاذا رأيت ان نعرج نحوها فعلنا

فقال عبد الله لا اراني قادرًا على العود قبل ان اقتفي اثر حوافر الجواد لعلي اقف على اثر ولدي فاني اخاف ان يكون قد ذهب فريسة الوحوش والعياذ بالله فقال ابو سفيان مر بما تشاء فاننا بين يديك وامر رجالهُ فتفرقوا بين التلال يبحثون عن آثار الآدميين وبعد برهة عاد احدهم يسوق جواده زميلاً حتى دنا منهم فقال رأيت آثار اناس بالقرب من شجرة هناك

فهمز عبد الله جواده وتبعهُ ابو سفيان في أثر الرجل حتى دنوا من المكان . فاذا هناك شجرة كبيرة تحتها آثار جواد مقتول لم يبق منهُ الاَّ جمجمتهُ وسرجه وبعض عظامهِ فعرف عبد الله من السرج انهُ جواد سلمان خادمهِ فصاح قائلاً هذا هو جواد سلمان فأين حماد وسلمان واخذ يبحث حول الشجرة وبالقرب منها فرأى آثار نسيج عرف بالتأمل فيهِ أنها عباءة فظنها عباءة حماد قد مزقتها انياب الوحوش فلطم كفاً بكفٍّ وقال وهذه هي عباءتهُ فأين بقاياه أكلهُ الاسود اكلتهُ كلهُ قال ذلك وتناول قطع العباءة وجعل يقبلها ويذرف الدموع ويصيح واولداه قد اكلتك السباع آه اين انت . ولم يعد يستطيع الوقوف

فتأثر ابو سفيان وكل من حضر من حالهِ ولولا خشونة البداوة وتعودهم القتل والنهب لبكوا معهُ أما ابو سفيان فقال لهُ هون عليكَ يا اخا الحزم فاننا لم نتحقق موت الغلام بعد وانت لم تعثر بأثر من آثار جثتهِ واخذ يخفف عنهُ ويطمئنهُ بمثل هذا الكلام وهو لا يهدأ لهُ بال ولا ينفك عن البكاء بل جعل يلطم كفاً بكف ويقول أهذه هي

آخرة حيانك يا حماد آه من لي بالانياب التي نهشت جلدك الناعم فاحطمها واين تلك المخالب التي غرست اظافرها في لحمك فأُمزقها كما مزقتهُ آه واولداه أهذا هو وفاء النذر أهذه عاقبة الاصطبار عشرين عامًا لنقص لك شعرك

فلما رأى ابو سفيان شدة اضطراب عبد الله وعظم بكائهِ رقَّ لهُ وخاف عليهِ فجلس الى جانبهِ وامسكهُ بيدهِ واخذ يخفف عنهُ بما يؤمّلهُ بقاء ابنهِ حيًّا وقال لهُ ان ما رأيناه من الآثار لا يدل على شيء مما خفتهُ فلو كان الاسد فتك بالغلام لرأيت شيئًا من بقاياه وهب ان الاسد اكل ثيابهُ فهو لا يستطيع ان يزدرد سيفهُ ورمحهُ فلو كان ما نظنهُ صحيحًا لرأيت سلاحه باقية هنا على الاقل فلعلهُ فرَّ ونجا ولم يفتك الاسد بغير هذا الفرس ارجع الى صوابك وتبصر في الامر فانك رجل عاقل خبير وزد على ذلك ان البكاء لا يجديك نفعًا هلمَّ بنا نبحث في هذا الجوار لعلنا نقف على ما يكشف لنا الغامض

فقال عبد الله صدقت يا أخا قريش ان البكاء لا يجديني نفعًا ولكنني اخاف اذا بحثت ان لا أزداد الاَّ فشلاً ويأسًا فدعني ابكي ولدي واقبل عباءتهُ في هذه الصحراء حتى يلقاني الاسد الذي افترسهُ فاما ان أنتقم لهُ منهُ او ان يفترسني فنموت جميعًا فان ذلك خير لي وابقى

فما زال ابو سفيان يدافعهُ حتى سكن روعهُ فنهض وسار ماشيًا بين التلال والصخور وابو سفيان يصحبهُ ورجالهُ منبثون في انحاء السهل يساعدونهما في التفتيش فوصل عبد الله وابو سفيان الى غدير صغير اشرفا عليهِ من اكمة فآنس عبد الله عند الغدير شجرًا فهرول نحوهُ فاذا بهِ ثياب وسلاح فتأملها فاذا هي عباءة حماد ورمحهُ وسيفهُ فضم السيف الى صدره وصاح هذا هو سلاحه وهذه هي عباءتهُ لا تلك فاين هو فاخذوا يبحثون في ذلك الجوار حتى ملوا التفتيش وكادت الشمس تميل الى الاصيل ولم يجدوا شيئًا فحقق عبد الله ان حمادًا قد ذهب فريسة الاسد فعاد الى البكاء والنوح حتى انفطر قلب ابي سفيان لهُ واشفق عليهِ فاخذ يعزيهِ ويخفف احزانهُ وهو لا يزداد الاَّ بكاء

فقال أبو سفيان ما يجدينا البكاء يا أخا العرب اننا لا نستطيع رد الضائع و والله لو كان ابنك اسيرًا في ايوان كسرى او قصر قيصر لبذلنا انفسنا في سبيل انقاذه لأن لك علينا حق الجوار وزد على ذلك انك رجل قد وقعت من نفسي موقعًا عظيماً فسررت بلقائك وها انني بين يديك فافعل ما تراه فاني اطوع لك من بنانك

فسكت عبد الله ولم يجب ولبث برهة غارقًا في بحار الهواجس يراجع في ذهنه تاريخ حياته وما جاء من أجله الى بصرى وما كان من أمر النذر ثم رجع الى صوابه وتجلد تجلد الرجال المدرّبين فعلم ان البكاء لا يجديه نفعًا فرأى من الحزم ان يتدبر الامر بالصبر والتروي فلاح له ان يسير الى عمان يفتش فيها عن حماد فلعلّ أحدًا ينبئه بحاله ونظر الى الشمس وقد قاربت الزوال و بينهم و بين الطريق بضعة اميال ورأى ابا سفيان ورجاله واقفين في خدمته ينتظرون امرًا يطيعونه فهو يخاف ان يسبب لهم بالبقاء هناك اذية فقال لابي سفيان اني يا اخا قريش شاكر لحسن صنيعك واخشى ان اكون سببًا لضرر ينالك على يدي ونحن في هذه الصحراء التي شربت دم ولدي فسيروا الى مقصدكم بحراسة الله ودعوني اسير في طريقي

فاجابه ابو سفيان قائلاً دع عنك الهواجس واعلم اننا لا نبرح هذا المكان الاّ وانت في مقدمتنا فلسنا بتاركيك وحدك فاذا رافقتنا فاننا في خدمتك حتى تصل مأمنك واذا شئت المسير معنا الى مكة فانك تنزل بيننا على الرحب والسعة فاختر لنفسك .

فهمّ عبد الله بابي سفيان وضمه و بكى لما آنسه من تعزيته وقال لقد وفيتم الكيل واجزلتم الجميل أما المسير معكم ففير مستطاع ولا بد لي من النظر في الامر فاما ان اسير الى عمان او اعود الى منزلي بقرب بصرى حتى يحكم الله بما يشاء

قال اننا اذن في ركابك الى عمان ثم الى حيث تشاء قال ذلك وامسك بيده وسار به فمشى عبد الله وسيف حماد بيده يتنسم منه رائحته وعادوا جميعًا الى القافلة

وكان عبد الله في اثناء عودته صامتًا يفكر في حاله و يتردد بين ان يسير الى عمان وهو لا يدري ما يلقى هناك بعد ما داخله من الريب في أمر حماد وهو يرجح مونه على انه لما نظر في الامر طويلاً وراجع ما مرّ به من اهوال ذلك اليوم اعترضه أمل رأى

من خلالهِ بصيصًا هيأً لهُ حمادًا حياً وذلك انهُ فكر في أمر ما عثر عليهِ من بقاياه فلم يجد دليلاً قاطعًا بموتهِ وهو لم يعثر بشيء من جثتهِ فقال في نفسهِ لو اكلتهُ السباع لبقيت منهُ بقية مثل بقية ذلك الجواد من جمجمة او عظام اخرى او قطع من ثوبهِ ممزقة ثم فكر في ما وجده من السلاح فاذا بهِ لم يرَه في الموضع الذي رأى فيهِ بقايا الجواد فقضى مدة يتردد بين اليأس والرجاء حتى وصلوا القافلة

فقال ابو سفيان ما ترى يا اخا لخم هل تسير معنا الى الحجاز او تزمع الى مكان نوصلك اليهِ في انحاء الشام أم تريد أمرًا نقضيهِ لك

فقال عبد الله اني والله لا ادري ماذا اقول ولا أعلم ماذا أعمل فارى ان تتركوني في هذا المكان افكر في امري حتى الهم أمرًا اعملهُ فاني لا افقهُ من أمري شيئًا

فقال أبو سفيان لسنا تاركيك وانت في هذه الحال

فقال عبد الله لقد غمرتوني بفضلكم وانسيتموني حزني بتعزيتكم أما وقد اصررتم على ذلك فاني أود الذهاب الى عمان لعلي استطلع خبرًا جديدًا

وكانت الشمس قد آذنت بالزوال فباتوا ليلتهم هناك واصبحوا باكرًا يريدون عمان فدنوا منها والشمس قد دنت من مغيبها فقال عبد الله استودعكم الله فاني معرج الى عمان انتظر ما يأتي بهِ القضاء

# الفصل التاسع عشر

## ﴿ عمّان ﴾

فودعوه وانصرفوا وقد تركوا عنده فرس حماد وبعض الزاد فلما انفرد عبدالله بنفسهِ نظر الى عمان وقد أشرف عليها من مرتفع فاذا هي مدينة خربة لم يبق من ابنيتها الرومانية الاَّ بضعة متهدمة أعظمها هيكل خرب على تل بالقرب من غدير كاد ماءه ان يجف ورأى على مقربة من ذلك المكان بيوتًا حقيرة يسكنها بعض الفقراء لا تكاد تزيد على قرية حقيرة فسار نحو الهيكل وقطع اليهِ على جسر يظهر من منظره انهُ كان

عظيماً وتهدّم (١) فوصل الهيكل ماشيًا يقود الفرس وراءه وهو يحرص عليهِ حرصهُ على ابنهِ لأنهُ من آثاره

فما وصل ذلك البناء حتى غابت الشمس واغبرَّ وجهُ الافق فجلس على حجر من احجار الهيكل ملقى عند بابهِ وامسك بزمام الفرس ونظر اليهِ فرآه هادئًا كئيبًا كأنهُ شعر بما يخامر قلب عبد الله من الهواجس فشاركه في الاسف على فقيده ثم نظر عبد الله الى ما حولهُ فاذا هو في ارض خالية من انفاس الناس لا يسمع فيها صوتٌ ولا يرى فيها الاَّ اشباح بعض التلال او الاحجار او الاشجار والتفت الى ذلك البناء على عظمهِ فرأى الذلة والمسكنة قد ضربتا عليهِ لما يتجلى فيهِ من آثار الخراب فكان لهُ بذلك عبرة عن مصير الانسان فتذكر حالهُ مع حماد وما مرَّ بهِ في ذلك اليوم من الاهوال فغلب عليهِ القلق واشتد بهِ الحزن حتى ترقرقت الدموع في عينيهِ ثم حانت منهُ التفاتة فرأى بيوت القرية عن بعد فحدثتهُ هواجسهُ انهُ سيجد حمادًا بين اهلها فنهض بغتة يريد الذهاب اليها ثم عاد الى صوابهِ فقال في نفسهِ لا اراني الاَّ في اضغاث احلام ان حمادًا قد اصبح في عداد الاموات فعادت اليهِ احزانهُ فجلس على ذلك الحجر وعاد الى البكاء

وقضى مدة في مثل هذه الحال يتردد بين اليأس والرجاء والليل قد سدل نقابهُ وعلا نعيق الغربان وضجت اصوات الضفادع في ذلك الغدير القليل الماء فخاف ان يكون في بقائهِ هناك خطر على حياتهِ من وحش يفترسهُ او لصوص تسطو عليهِ فيقضي نحبهُ قبل ان يحقق امر حماد فعاد الى ذكرى احزانهِ فامسك بحسامهِ وقبلهُ وأجهش في البكاء

وما زال في مثل ذلك حتى شعر بالبرد والنعاس على اثر ما قاساه من تعب المشي فاسند رأسهُ الى جدار الهيكل وهو بين اليقظة والمنام وعنان الفرس في يمينهِ فما شعر الاَّ والجواد يصهل وينهض الارض بحوافره فعلم ان هناك أمرًا ذا بال فوقف واصاخ بسمعهِ وحدق بعينيهِ فلم يرَ شيئًا ولا سمع صوتًا فعاد الى متكاهُ وهو لا يستطيع الرقاد لشدة هواجسهِ فالقى باذنهِ الى الارض ليستطلع سبب اضطراب الجواد لعلهُ يسمع اصواتًا او يستنبىء نبأ جديدًا فسمع وقع اقدام كثيرة فعلم ان الجواد لم يجفل عبثًا وان جماعة قادمون الى ذلك المكان فهيأ نفسهُ للدفاع وصعد الى ربوة بالقرب منهُ

(١) قاموس التوراة لسميث

لعلهُ يرى اشباحًا عن بعد فلم يرَ شيئًا لان الظلام كان شديدًا فعاد الى مكانهِ وهو يتوقع أمرًا خطيرًا فشغلهُ ذلك عن هواجسهِ برهة فقضى بقية ذلك الليل في مثل هذه الحال حتى دنا الفجر وكان قد غمض جفنهُ قليلاً فافاق على صهيل الجواد فرأى بالقرب منهُ جماعة كبيرة من الرجال في لباس البدو فظنهم لاوَّل وهلة من رجال ابي سفيان لأنهم في مثل زيهم وقيافتهم ولكنهُ ما لبث ان سمع بعضهم ينادي منتهرًا ثم هموا بهِ يريدون القبض عليهِ فهمَّ بالركوب على الجواد للدفاع عن نفسهِ فتجمهروا حولهُ وهم كثار فلم يستطع دفاعًا فقبضوا عليهِ واوثقوهُ وساقوهُ وهو يكاد يتمزق غيظًا فقال لهم ما تريدون مني ولا ثأر بيني و بينكم فناداه أحدهم قائلاً كيف لا ترى ثأرًا بيننا و بينك وانت من رجال غسان وقد قتلتم رسولنا واهنتم نبينا

فقال لقد أخطأتم المرمى فما انا من غسان وانما انا غريب في هذه الديار

فقالوا اذا كنت صادقًا فيما تقول فبرئ نفسك امام اميرنا قالوا ذلك وساقوهُ موثقًا واخذوا سلاحهُ وفرسهُ فمشى معهم برهة فأشرف على خيام مضروبة ورأى جموعًا كثيرة من عرب الحجاز ومعهم الاحمال والاثقال والخيول والجمال فساروا بهِ الى فسطاط كبير علم من العلم المنصوب امامهُ انهُ فسطاط الامير وكان العلَم ابيض (١) ولم يكد يدنو من الخيمة حتى تقاطر الرجال زرافات ووحدانًا وكلهم من اهل البادية مكشوفو الرؤوس تغطي ابدانهم تمزقات يلتحفونها الاَّ قليلين منهم وقد لوحت وجوههم الشمس وظهرت عليهم آثار الاسفار ومعظم سلاحهم من الرماح والنبال

فلما وصل الفسطاط اوقفوهُ خارجًا ودخل بعضهم ثم عاد فقاده الى داخل فرأى في صدر المجلس رجلاً بعمامة وجبة جالسًا على بساط و بين يديهِ بضعة من رجال في مثل لباسهِ فعرف انهم امراء ذلك الجيش فاستعاذ بالله مما هو مساق اليهِ فخاطبهُ الامير قائلاً

من انت يا اخا العرب أتعلك من رجال الحارث بن ابي شمر

قال لست من اهل هذه الديار

فقال أألست من غسَّان

قال كلاَّ

(١) السيرة الحلبية

قال ومن انت

قال من لخم

قال وما جاء بك الى هذا المكان ولخم تقيم في العراق . ألعلك ممن جاؤوا لنجدة الرُّوم من لخم وجذام وبلقين فقد علمنا ان هرقل قد جند جندًا فيهِ اخلاط من العرب المتنصرة (١)

قال لست من اولئك بل جئت في حاجة ولا ألبث ان اعود

قال أصدقنا الخبر فانك اسير بين ايدينا

قال قلت لكم الصدق

قال وما دليلك على ذلك

وكان عبد الله قد عرف من لغتهم ولباسهم انهم من قريش فتذكر ابا سفيان فظن استشهاده بهِ ينجيهِ من الخطر فقال ودليلي انني كنت في الامس مع أبي سفيان امير قريش وهو صديق لي حميم فاذا كان بينكم اسأ لوه

فما أتمَّ كلامهُ حتى قطب الامير وجههُ وقال لهُ أأنت صديق لذلك الكافر فانك لم تردنا في شأنك الاَّ شكاً وما الذي جرَّك الى صداقة هذا الزنيم

فارتبك عبد الله في امره ولم يدر كيف يخلص نفسهُ من ذلك الاقرار ولكنهُ تجلد وقال عرفتهُ منذ بضعة ايام فقط وقد جاء لتجارة الى هذه الانحاء فاصطحبتهُ زمنًا يسيرًا ثم افترقنا بالامس

قال ذلك وقد تذكر حكاية ابي سفيان وعداوتهُ لصاحب دعوة الاسلام فأدرك انهُ بين يدي رجال صاحب الدعوة الاسلامية فلم يزد شيئًا

فقال لهُ الامير لو اقتصرت على كونك من لخم لكان الامر سهلاً ولكنك أقررت بانك صديق لعدونا فانت مقيم في اسرنا حتى نرى ما يكون من امرك ثم امر فاخرجوه مخمورًا الى خيمة منفردة جعلوه فيها



(١) السيرة الحلبية

# الفصل العشرون

## ﴿ غزوة مؤتة ﴾

ولو كان عبد الله ممن لم يتعودوا الاخطار لاستعظم الامر كثيرًا ولكنهُ لعلمهِ ببراءة صبر نفسهُ حتى يتمكن من اظهار حقيقة حالهِ على انهُ ما زال في ريب من امر هذا الجيش ومجيئهِ من الحجاز الى الشام فاحب الاطلاع على مهمتهِ حتى يعرف كيف يخلص نفسهُ فلما وصل الخيمة جاءه بعض الحفر واخذ يسألهُ عن أبي سفيان وكيف لقيهُ وابن فارقهُ فاغتنم تلك الفرصة فقال للرجل الى اين تقصدون بهذا الجند

قال نقصد مشارف الشام لحرب الروم

قال وما الذي دعاكم الى حربهم

قال دعانا الى حربهم ما رأيناه من وقاحتهم

فقال وما اوجب ذلك وانتم من قريش على ما يظهر ومقامكم في الحجاز وليس بينكم وبينهم علاقة

فقال ان نبينا محمدًا الذي ارسلهُ الله نذيرًا للناس كافة انذرهم بكتاب يدعوهم فيهِ الى الاسلام فما وصل الكتاب الى الغسّاني امير العرب المتنصرة حتى مزقهُ وقتل رسولنا (١) فاشتد الامر على نبينا فبعث مولاه زيد بن حارثة في هذا الجند لقتال الروم

فقال عبد الله قد رأيت رسولكم الى هرقل بمثل هذا الكتاب فلم يفعل بهِ مثل ذلك

قال ذلك كتاب غير الذي ذكرتهُ لك ارسلهُ قبلهُ أما قولك ان هرقل لم يفعل مثل فعل الغساني فلأنهُ هاب ملكنا واما الغساني فقد غرَّهُ جهلهُ وسوف يلقى منا ما لقيهُ عرب الحجاز واليمن ممن أبوا الاسلام

فقال عبد الله ومن هو الامير الجالس في صدر الخيمة ومن هم الامراء الذين حولهُ

قال هو زيد بن حارثة مولى رسول الله أما الامراء الآخرون فالجالس منهم عن يمينهِ هو جعفر بن ابي طالب ابن عمّ نبينا والجالس عن يسارهِ عبد الله بن رواحة

---

(١) السيرة الحلبية

وقد اوصي لها بالامارة على هذا الجيش لكل منهما عند الحاجة (١) وقد امرنا نبينا ان نأتي المكان الذي قتل فيهِ رسولنا وهي قرية يقال لها مؤتة فندعو اهلهُ الى الاسلام فان ابوا قاتلناهم حتى نفيهم عن آخرهم او يحكم الله بيننا وبينهم

فأدرك عبد الله سرّ الامر . فقال للرجل وما الذي جيئتهُ انا حتى ستموتي اسيرًا وما انا من الروم ولا من غسان

قال لا اظن عليك بأسًا من هذا الامر ولولم تتظاهر بصداقتك لابي سفيان لكان ذنبك خفيفًا ولكنك ستبقى في اسرنا لعلنا نحتاج اليك في أثناء الحرب

فسكت عبد الله وقد هان عليهِ ما خافهُ ولبث ينتظر ما يأتي بهِ القدر ولكنهُ ما لبث ان هدأ روعه من قبيل الخطر عليهِ حتى عاد الى هواجسهِ بشأن حماد وكلما ترجح لهُ موتهُ تمنى ان يقتل فيلحق بهِ

وبعد يومين من دخولهِ في الاسر تهيأت تلك الحملة للمسير الى مؤتة فلنتركهم في طريقهم ولنعد الى حماد وما تمّ لهُ مع سلمان

# الفصل الحادي والعشرون

## حمّاد وسلمان

تركنا حمادًا وسلمان وقد خرجا من الدير وسلمان يفضل العدول عن ذلك الطريق لما خافهُ من مسبعة الزرقاء وحماد يحسب اليوم المسير فيهِ خوفًا من طول المسافة اذا عدلا عنهُ

فلما رأى سلمان اصرار حماد اطاعه وسارا في اقرب الطرق ولكنهُ ما لبث خائفًا غائلة ذلك السبيل فعوّل على الاحتراس واتخاذ وسائل الوقاية فاوعز الى حماد فلبس درعه تحت ثوابهِ وسارا حتى امسيا بالقرب من غدير نزلا على ضفتهِ فما لبثا ان تناولا شيئًا من الزاد حتى تعاظمت هواجس سلمان وكأن نفسهُ حدثتهُ بخطر قريب فهمّ بتجسس المكان قبل اشتداد الظلام . وكان حماد قد نزع عباءتهُ وسلاحهُ وجعلها الى

(١) ابن هشام

جانبهِ على ضفة الغدير فلما نهض سلمان نهض حماد معهُ وقادا فرسيهما وراءهما وصعد الى اكمة أطلاً منها على السهل المحدق بهما وجعلا ينظران الى ما حولها من السهول وفيها بعض الآكام تتراءى كأنها جماعات من الناس او اسراب من الوحوش فهالها ذلك المنظر ثم سمعا زئيرًا عن بعد فأجفل الجوادان واخذا يقصان الارض بحوافرهما

فقال سلمان ها قد احدق الخطر بنا وهذا ما كنت اتخوفهُ يا سيدي فهلمَّ بنا الى النجاة . فقال حماد وماذا ينجينا فالتفت سلمان فرأى شجرة فقال عليك بهذه الشجرة نتسلق اغصانها فان الاسد لا يقوى على الوثوب اليها فاسرعا وقد نسي حماد سلاحه وعباءتهُ فشدا الجوادين اليها وتسلقا اغصانها والجوادان لا ينفكان عن الصهيل

ثم سمعا صوت الزئير يدنو منهما فتمسكا بالاغصان وهما يحاذران ان يراهما الاسد مع علمهما بامتناعهما عليهِ ثم ما لبثا ان رأياه واتيًا عن اكمة بالقرب منهما اما الجوادان فانهما اجفلا وصهلا صهيلاً طويلاً ونفرا يريدان الفرار فانقطع زمام فرس حماد فطلب عرض الصحراء واما فرس سلمان فلم يستطع التخلص قبل ان ظفر بهِ الاسد فقبض على صدره بمخالبهِ فوقع الفرس الى الارض فهمَّ بهِ الاسد فمزَّق عنقهُ بنابهِ فسال دمهُ فاخذ ينهش في لحمهِ

ثم وقف الاسد ونظر الى ما حولهُ فرأى عباءة سلمان فهمَّ بها كأنهُ ظنها رجلاً فمزقها بين انيابهِ ومخالبهِ اي ممزق واخذ يتمايل بمشيتهِ المعهودة حول الشجرة وقد تسم رائحة الرجلين في اعلاها مع عجزه عن ادراكهما فجعل يحك جلده بجذعها ويزأر أي زئير حتى مالت الشجرة بهما وخافا السقوط فتمسكا بالاغصان وتثبتا في مكانيهما وقلباهما يخفقان خوفًا وحذرًا والاسد لا ينفك عن الزئير والمسير ذهابًا وايابًا وعيناه تتلألآن في الظلام كأنهما سراجان منيران والفرس يخور خوار الثور حتى ملَّ الاسد فزأر زأرة دوى لها ذلك السهل الواسع ورددت صداها تلك الآكام وارسل ذنبهُ فوق ظهره وعاد من حيث أتى فلبثا يراعيانهِ في مسيره وهو يخطر الهويا متبخترًا تيهًا وعجبًا حتى واراه الظلام عنهما ولكنهما ما زالا يسمعان زئيره عن بعد وهما صامتان لا ينبسان ببنت شفة فلما تحققا النجاة منهُ وهما لا يصدقان انهما نجوا قال سلمان أرأيت يا سيدي ما كنت اخافهُ فشكرًا لله الذي انبت هذه الشجرة في هذه الصحراء لتكون سببًا لنجاتنا من الموت بين مخالب الاسد

فتحقق حماد عظم الخطر الذي نجوا منهُ ولكنهُ اسف لذهاب فرسهِ . فقضيا معظم الليل مستترين في تلك الشجرة يخافان الانحدار منها حتى انبلج الصبح فنزلا ونظرا الى فرس سلمان فاذا هو مضرج بدمائهِ ولا حياة فيهِ فقال سلمان هلمَّ بنا نطلب عمان على اقدامنا وقد كان في طاقتنا ان نذهب اليها راكبين ولكن هذه ارادة المولى فنشكرهُ لنجاتنا من مخالب الاسد وما خسرناهُ انما هو متاع يسهل التعويض منهُ

فقال حماد ان الفرس عزيز عندي كما تعلم فهل تظننا نظفر بهِ بعد

فقال دعنا والافراس فان منها شيئًا كثيرًا حيثما حللنا فسر بنا حالاً لنقطع هذه المسبعة قبل ان يدركنا الظلام

فقال ولكنني اعزل وقد تركت السيف والرمح والعباءة على الغدير فعد بنا للبحث عنها

فقال لا أراني قادرًا على تعيين المكان الذي كنا فيهِ لان الطرق تشابهت عليَّ واخشى اذا اطلنا البحث ان تفوتنا الفرصة للنجاة وقد نجونا من الاسد مرتين فلا نأمن ان نجو منهُ في المرة الثالثة ونحن على اقدامنا فهلم بنا

فاطاعهُ حماد وسارا الى عمان فوصلاها واقاما فيها بقية الشهر المعين فلم يأت عبدالله فقضيا اسبوعًا آخر وهما على احرّ من الجمر فلم يأت احدٌ فابتاعا جوادين آخرين عادا عليهما نحو بصرى عن طريق غير التي جاءا بها خوفًا من غائلة الاسود وهما في هاجس على عبدالله وغيابهِ واخذا يدبران وسيلة يدخلان بها المدينة او ما جاورها ولا يعلم بهما ثعلبة او احد من رجالهِ

اما حماد فكان بين هاجسين عظيمين هدَّ من جهة وعبد الله من جهة اخرى ولكنهُ شكر الله لبقاء الدرع لانها تذكار ثمين عندهُ

فلندعهما في حيرتهما ولنذهب بالقارئ الى بصرى وما كان من امر ثعلبة بعد ان تمَّ لهُ القبض على عبدالله وارسالهِ مخفورًا الى بيت المقدس كما قد رأيت



# الفصل الثاني والعشرون

## ﴿ عوامل الغيرة ﴾

تركنا ثعلبة بعد ذهاب عبد الله في بصرى وفي نفسهِ غلٌّ على هند لا يهدأ لهُ بال الاَّ بالايقاع بحماد فبثَّ رجالهُ في ضواحي المدينة للبحث عنهُ فلم يقف لهُ على خبر فانفذ نفرًا من خاصتهِ سرًّا يتجسسون حال عبد الله بعد ذهابهِ الى هرقل فانبأوهُ بما كان من عفو الامبراطور عنهُ ومسيرهِ مع ابي سفيان ولكنهم لم يعرفوا عنهُ شيئًا بعد ذلك لانهم لم يتجرأوا على مرافقة القافلة خوفًا من انكشاف امرهم

اما ثعلبة فانهُ اندفع بعوامل الغيرة على الانتقام من حماد وإيقاع الاذى بهند وشعر بانعطاف اليها لا حبًا بها بل رغبة منهُ في ان يحرمها من حبيبها وقد تكون تلك الغيرة سببًا للحب الحقيقي على ما نراه عادة في الناس فقد يعاشر الشاب فتاة اعوامًا لا يهمهُ من امرها شيئًا ولا يخطر لهُ الاقتران بها وربما كان في نفسهِ ترفع عنها وقد يزعم انها لو عرضت عليهِ لا يرضاها فاذا آنس منها ميلاً الى غيرهِ او رأى غيرهُ ميالاً اليها وخصوصًا اذا كان الحب متبادلاً بينهما فان عوامل الغيرة تثور في قلبهِ ويتحول حبهُ الفاتر الى شغف شديد ولا يرتاح لهُ بال الاَّ ببيلها ولا يقتصر ذلك على هذا النوع من الحب ولكنهُ يتناول سائر انواعهِ فقد ترى عقارًا او متاعًا معروضًا للبيع ولا يهمك ابتياعهُ فاذا رأيت الناس يقبلون عليهِ آنست في نفسك ميلاً الى شرائهِ والظاهر ان ذلك غريزي في الناس على اختلاف ادوار حياتهم فاذا اردت ان تطعم الطفل شيئًا لا يحبهُ نفر منهُ فاذا تظاهرت باعطاء ذلك الشيء الى سواهُ رأيتهُ يطلبهُ بلجاجة ويتناولهُ بلذة

فثعلبة لم يكن يهمهُ امر الزواج بهند ولا هو احبها حب الزواج الاَّ بعد ما آنس من ميلها الى حماد فدفعتهُ عوامل الغيرة الى الاقتران بها ولكن خبث فطرتهِ جعل ذلك الميل مقرونًا بالانتقام ولما لم يجد سبيلاً الى ذلك بالقوة عمد الى الحيلة فحدثتهُ نفسهُ ان يشكوها الى والديها ويكشف لهما ما كان من انفرادها بحماد في الدير ولكنهُ خاف ان تكون تلك الوشاية سببًا لغضب عمهِ حتى ينقلب عليهِ لعلمهِ بمنزلة هند عندهُ وربما صدقها وكذبهُ ورغب في حماد عنهُ . فلم يرَ سبيلاً الى شفاء غلهِ الاَّ بخطبتها من

ايها وهو يعلم ان والدها لا يردهُ فلما عاد ابوه من بيت المقدس بسط لهُ عزمهُ على الاقتران بها لما بينهما من رابطة القرابة فسرَّ ابوه بذلك ووعده ان يخاطب جبلة في الامر

فركب ذات يوم الى البلقاء في موكبهِ وحاشيتهِ فاستقبلهُ جبلة بالتجلة والاكرام وان يكن في نفسهِ منهُ غيرة لاحرازه الوجاهة عليهِ لدى هرقل فلما التقيا ودار الحديث بينهما ذكر الحارث رغبتهُ بمصاهرتهِ فابدى لهُ ارتياحًا ووعده بتمام الامر قريبًا وهو غافل عما تضمره هند من البغض لثعلبة والاشتغال بحب حماد

فلما رجع الحارث الى بصرى خلا جبلة بامرأتهِ تلك الليلة وذكر لها حديث الحارث فلم يسمع منها ايجابًا ولا سلبًا لعلمها بما في نفس ابنتها من الاحتقار لثعلبة ولكنها استمهلتهُ ريثما تطارح الفتاة وتطلع على رأيها وان تكن عوائدهم لا تبيح للبنات حق الاختيار في مثل هذا الشأن ولكن هندًا كانت متغلبة على عواطف والديها حائزة على نفوذ يؤذن بمراجعتها واستشارتها

# الفصل الثالث والعشرون

## ﴿ هند وأُمها ﴾

اما هند فقد تركناها ليلة الدير عائدة الى القصر وقد تمكنت من حب حماد والاعجاب بشهامتهِ الى درجة لم تعد تراعي معها حقوق الوالدية وخصوصًا بعد ما عاينتهُ من غيرة ثعلبة وغدره ولكنها وصلت القصر وقلبها لا يزال مشيعًا حمادًا في عودتهِ وهي تدبر حيلة تتخلص بها من لوم والدتها على غيابها فلما دخلت القصر رأت والدتها في قلق لغيابها فبادأتها بالعتب على تأخير الخادمة بالاساور فقالت الوالدة اننا استحسنَّا الاساور واعدنا الخادمة بها لتعجيل حضورك فادَّعت هند انها انتظرت رجوعها حتى حلك الظلام فلما ابطأت استصحبت بعض خدمة الدير حتى اوصلها الى ذلك المكان فاستغربت والدتها ذلك الاتفاق وجعلت تعتذر لها عما حمَّلتها من المشقة وقالت لعل الخادمة سارت اليك من طريق غير الذي جئت بهِ ولا تلبث ان تعود

فتظاهرت هند بالتعب وسارت الى غرفتها وهي غارقة في بحار الهواجس وقلبها واجس على حماد من غدر ثعلبة لما تعلمهُ من لؤمهِ وخيانتهِ

فقضت تلك الليلة بمثل هذه الهواجس لم يغمض لها جفن الى قبيل الصباح فنامت قليلاً فلما اصبحت جعلت تتنسم الاخبار ممن يذهب من خدمة صرح الغدير الى بصرى لابتياع حاجيات القصر

فما لبثت ان علمت بالقبض على عبد الله وفرار حماد فشكرت الله على نجاتهِ ولكنها ظلت في خوف عليهِ وهي لا تستطيع سبيلاً الى الوقوف على خبره فقضت بضعة ايام منقبضة النفس لا يلذ لها طعام ولا يهنأ لها عيش حتى ظهر أثر ذلك على وجهها ووالدتها تبالغ في تسليتها وتستغرب ما ألمّ بها وهند تعتذر بانحراف صحتها على أثر التعب من ليلة الدير

فجعلت تصطحبها في أثناء النهار الى ضواحي القصر نقضيان الساعات معًا في البساتين على ضفاف الغدير وهند لا تزداد الاَّ انقباضًا وضعفًا حتى امتنع لونها وقلّ طعامها فارتابت والدتها في امرها وازدادت حنوًّا لها وميلاً لاستطلاع حقيقة حالها فلم تجد الى ذلك سبيلاً . وقد قدمنا ان سعدى كانت من الذكاء والفطنة على جانب عظيم فأساءت في ابنتها ظناً وخيل لها ان لذلك التغيير سببًا مهمًّا فعولت على اغتنام الفرص لكشف ذلك السبب فلما خاطبها زوجها بأمر ثعلبة ورغبتهِ في هند اتخذت ذلك الامر وسيلة لاستطلاع ما في ضميرها فدعتها ذات يوم للخروج معًا الى الغدير على حدة فأمرت بعض الخدم فأعدوا لها وسائل الراحة فخرجتا حتى أتتا ضفة الغدير وكان الجو صافيًا والنسيم عليلاً والماء يجري امامها وكانت هند بلباس البيت وقد ضفرت شعرها ضفيرة واحدة ارسلتها على ظهرها وشدت عصابة حول رأسها كمن يشكو الصداع فقضت مسافة الطريق من القصر الى المكان المقصود تسير الهوينا صامة تجر ذيل ردائها وراءها وتتشاغل تارة في رفعهِ عن الارض لئلاَّ يعلق ببعض الاشواك النابتة في ذلك البستان وطورًا تلهو بالتأمل في ما يتطاير عن اشجاره من الطيور فلما وصلت المكان اتكأت على وسادة من الحرير المزركش صنع دمشق فوق بساط ثمين تحت شجرة ظللتها ساعة العصر وكانت والدتها قد جمعت بعض الازهار في ضمة واحدة جاءت بها اليها فتناولتها هند وهي لا تتكلم فهمّت بمازحتها فقالت اليك هذه

الازهار فان لتقديها معنى هل تفقهينهُ

فتناولت هند الازهار وهي لا تفهم المراد

فقالت لها والدتها ما بالك لا تجيبيني على سؤالي

قالت اسألِيني فاجيبك

قالت قد سألتك فأجبتِ

قالت لم تسألِيني ولا اجبتك

قالت بلى قد أجبت

قالت كيف ذلك وانا لم أفه بكلمة

قالت ان تناولك هذه الازهار من يدي جواب على سؤالي

قالت لم أفهم مرادك يا أُماه فافصحي

قالت اضمرت في باطن سرّي وانا أُقدم هذه الازهار اليك انك اذا قبلتها من يدي كان أخذها جوابًا على ما في نفسي

قالت ما لي اراكِ تخاطبينني بالرموز فاني لم اقل شيئًا

قالت ما لنا ولهذا فاني اسألك سؤالاً آخر فهل تصدقينني فيهِ

قالت قولي فاني طوع امرك

قالت أتحبين ابن عمك ثعلبة

فلما سمعت اسمهُ بغتت وعلا وجهها الاحمرار ثم عقبهُ الاصفرار بغتةً وظهر الانقباض عليهِ ولم تجب

فقالت والدتها قد وعدتِ بالجواب ولا اراك تجيبين

قالت لاني لم أرَ مسوغًا لهذا السؤال ولم افهم مرادك منهُ وانت تعلمين منزلة هذا الشاب عندي

قالت ما لنا وللمزاح فاني اسألك سؤالاً صريحًا فأرجو الجواب عليهِ صريحًا فهل تحبين ثعلبة . فتجلدت هند وتجاهلت قائلة أليس هو ابن عمي فأحبهُ محبة الاعمام وان يكن لا يستحق هذه المحبة

قالت ولكنني أسألك هل تحبينهُ محبة غير هذه . فادركت هند مغمز كلام والدتها فنفرت ولم تجب

فاقتربت سعدى منها حتى احنك جنباها وقالت ما بالك لا تجيبيني فان والدك كلفني بالسؤال عن ذلك فماذا اجيبه

فسكتت هند ولبثت برهة تفكر في مراد امها فتوسمت من وراء هذا الكلام شيئًا قرأته على ملامح وجهها ولكنها تجاهلت واظهرت عدم الاكتراث فظلت متكئة تنظر الى والدتها شذرًا كأنها تقول لها كفي المزاح في هذا الموضوع

فكرّرت والدتها السؤال بهذا المعنى فاعتدلت هند في مجلسها ونظرت الى والدتها والاستغراب ظاهر على وجهها وقالت افصحي يا اماه فان لسؤالك معنى انقبضت له نفسي فما تعنين بحبي لهذا النذل السافل غير الحب الذى اوجدته القرابة رغماً عني

ففهمت والدتها ما في قلب هند من الحقد على ثعلبة وكانت قد لاحظت منها ذلك قبلاً فارادت المبالغة في التجاهل حتى تستطلع افكارها فقالت لا تسارعي الى الطعن في ابن عمك فانهُ سيكون أقرب اليك من ذلك

فنفرت هند حتى وقعت الازهار من يدها ونظرت الى والدتها نظرة العتب وقالت لها ارجو ان لا اسمع منك يا أُماه ما يكدر عواطفي فاني لا أرى مسوغًا لتكديري بهذه الالغاز فليس لثعلبة وطر عندي ولا هو ممن يطمع بقرابة فوق هذه فوحبك لو استطعت التبرؤ منهُ لفعلت وانت أعلم الناس بمنزلتهِ عندي واظنك اقدر مني على الجواب عن هذا السؤال أم أنت تمازحيني

قالت بل اقول الجد فان عمك الحارث خاطب والدك بشأنك فماذا تجيبه

فالتفتت هند الى والدتها باستخفاف كأنها تقول لا اصدق ما تقولين

فاجابتها بملامح عينيها وابتسامها انها تريد الجد وقالت لا بل اسألك سؤالاً صريحًا هل تحبين ثعلبة

فنهضت هند عند ذلك وتظاهرت بجمع الازهار التي كانت قد وقعت من يدها وازداد وجهها امتقاعًا وظنت سكوتها جوابًا كافيًا وظنُّها في محلهِ ولكن سعدى كانت تبالغ في التجاهل لعل الحديث يجرها الى معرفة سبب انقباض ابنتها بعد ليلة الدبر فقالت لها ما بالي اخاطبك فتتشاغلين عن جوابي ألعل خطابي لا يستحق الجواب عندك

فترامت هند على صدر والدتها بدالة الوالدية وقبلت يدها وقد خجلت لهذا التوبيخ

وقالت حاشاي ان افعل ذلك يا اماه ولكنني أعجب لسؤالك واصرارك على طلب الجواب وانتِ تعلمين اني اريد التبرئ من القرابة القديمة فهل اجرُّ عليَّ عيبًا آخر فليس لثعلبة وطر عندي

فقالت أظنكِ شغلت عنهُ بغيره . قالت ذلك وتظاهرت بالمزاح ولكنها آنست في وجه هند تغيرًا سريعًا فعلاه الاحمرار بغتة وسكتت

فقالت سعدى ما بالك لا تجيبينني واري وجهك يتكلم وعيناك تعترفان فما بال لسانك لا ينطق

فتذكرت هند حبيبها واشتغالها به عن كل شيء وتصوَّرت ما أتاه ثعلبة من الاذى لهُ فاشتد بها الامر حتى ترقرقت الدموع في عينيها فحوَّلت وجهها عن والدتها اخفاء لما كاد يظهر من عواطفها وتشاغلت بمراقبة غزالٍ نافرٍ رأتهُ يثب على التلال عن بعد وظلت صامتة ويكاد الدمع يتناثر من عينيها

فازدادت والدتها ارتيابًا في شأنها فقالت في نفسها هذه هي الفرصة المناسبة لكشف المخبأ فقالت لها ما بالك تحولين وجهك عني يا هند ألعلك تخفين شيئًا

فظلت هند ملتفتة وتمنت ان تكون في خلوة لتطلق لدموعها العنان

فأمسكتها والدتها بيدها وحاولت تحويل وجهها نحوها فافلتت هند وغطت وجهها بكمها لئلاَّ يظهر بكاؤها فتحققت سعدى ان هندًا تبكي فكاد قلبها ينفطر عليها فقالت ما بالك يا هند ما الذي يبكيك ألعلي اصبت ظني وهل انت تخفين شيئًا عني

فاوغلت هند في البكاء وهي تحاذر ان تسمع والدتها شهيقها حتى بلَّلت كمها ولم تستطع التسلط على عواطفها فتحققت سعدى ان هندًا قد وقعت في الشراك وان قلبها في شاغل ولكنها لم تقفه لحقيقة الحال فحاولت استطلاع السرّ فقالت اذن انت في شاغل عن ثعلبة

فظلت هند صامتة خجلاً وقد سترت وجهها بكمها بين يديها

فسكتت سعدى واخذت تفكر في من عسى ان يكون ذلك الشاغل وخافت ان تلح على ابنتها بالسؤال فتزيدها خجلاً فلا تعترف لها بالواقع

فمضت بضع دقائق وهما صامتتان واخيرًا تظاهرت سعدى بالجد ونادت هندًا قائلة أما وقد ظهر منك ما ظهر فلم يعد ثمَّ داعٍ الى الاخفاء فقد تحقق لديَّ انكِ في

شاغل ذي بال فافصحي يا ابنتي وقولي ما في ضميرك فاني والدتك وانت تعلمين حبي لك فاجعليني مكان سرّك واتخذيني صديقة لا والدة واطلعيني على مكنونات قلبك فنحن الآن في خلوة لا يرانا احد وقد قضيتُ اياماً افكر في ما غيّرك وقبض نفسك وانت تخفين عني حقيقة حالك . أما ابن عمك ثعلبة فانهُ لن ينال منك شعرة وانا أعلم الناس بهِ وهبي ان والدك رضي بهِ فانا لا ارضاه لك

ثم ضمّت بها وضمتها الى صدرها وقبلتها وهند تبالغ في تغطية وجهها حياء فقالت لها سعدى افصحي يا ابنتي واخبريني فقد نفد صبري قولي ما في نفسك فاني معينة لك على مرادك

فلما سمعت هند كلام والدتها رفعت رأسها من بين يديها فنظرت الى والدتها بعينين قد اذبلتها الدموع وغيرها الهيام وحاولت الكلام فمنعها الحياء فاعادت وجهها الى ما بين يديها والقت نفسها على صدر والدتها وقد اخذ الهيام منها مأخذاً عظيماً

فرفعت سعدى رأس هند بين ذراعيها وقالت قولي يا ولداه لا تخافي فاننا في خلوة لا يرانا احد هل تحبين احداً

فتنهدت هند تنهداً عميقاً ولم تجب فاتخذت والدتها التنهد جواباً شافياً فقالت ومن ذا الذي تمكن حبهُ منك حتى تسلط على قلبك ونحن نحسبك اثبت جاشاً من الرجال وما عهدي بك مسترسلة لعواطفك الى هذا الحد

فاطرقت هند وقالت لا باس بي ولا انا احب احداً ولكنني احب التخلص من هذا العالم فاني تعيسة قد كتب عليّ العذاب من يوم ولدت . قالت ذلك وعادت الى البكاء

فانصدع قلب والدتها لذلك وجعلت تقبلها وتضمها الى صدرها وتقول ما هذا الكلام يا هند أَلعلك يئسة ممن تحبين

فنبذت هند الحياء عند ذلك وقالت نعم يا اماه اني يئسة فابكي على ابنتك واندبيها فانها تعيسة شقية . فتحققت سعدى ظنها فارادت معرفة الباقي

فقالت وما سبب تعاستك وانت فتاة غسّان وزهرة هذه البلاد والناس يتحدثون بتعقلك وبحسدك اترابك على مقامك

فقالت على اي شيء يحسدونني

هم يحسدوني على موتي فوا اسفي * حتى على الموت لا اخلو من الحسد

فازدادت سعدى تحرقًا وتساقط الدمع من عينيها وهي تحاول التجلد خوفًا على هند وقد ادركت انها عالقة بحب رجل لا سبيل لها اليه فقالت لها لا تذكري التعاسة واستحضري الاسرة الماضية ولا تخشي بأسًا وانا الآخذة بيدك العاملة على رضاك فافصحي عن ضميرك فقد كفانا بكاء واعلمي ان ثعلبة سيرتد خائبًا ولو كان مستهلكًا في هواك

فحرّقت هند اسنانها عند ذكر ثعلبة وقالت ان الشركله من هذا الخائن وهو وحده سبب هذا الشقاء وهل تظنين رغبته في خطبتي من عظم حبه لي

قالت وكيف اذن

قالت انه فعل ذلك انتقامًا من ذلك الشهم الذي ابقى على حياته كرمًا وانفة

فتذكرت سعدى حكاية السباق وما كان من شهامة حماد واحست كأن غشاوة انقشعت عن عينيها فايقنت ان الفتاة مغرمة بحماد فبغتت ولم تبد جوابًا لعلمها ان الرجل غريب في تلك الديار وكانت قد سمعت بفراره والقبض على والده بتهمة الجاسوسية فوقعت في حيرة على انها لم تنفر من ذكر هذا الشاب في عرض الحديث بل كانت ترتاح الى ذكره والتحدث عنه لما ظهر لها من شهامته وكرم اخلاقه ولكنها استغربت وقوع هند في هواه مع انفتها وعلمها بغموض حسبه وعدم سنوح الفرصة لها للاجتماع به وحسبت وقوع ذلك من قبيل التقادير الالهية

فنظرت هند اليها لتستطلع ما يظهر منها بعد هذا التلميح فلما رأتها صامتة قالت ألم أقل لك اني تعيسة فها ان مجرد الاشارة الى سبب بلائي اضاع حنوّك والقاك في حيرة

فقالت كلاّ يا ولدي فقد وعدتك بالانتصار لك ولا ازال على الوعد ولكن الخبر جاءني على حين غفلة فبغتُّ له فهل انت تحبين ذلك الشاب انه بالحقيقة شهمٌ كريم النفس وانت تعلمين منزلته عندي من يوم السباق

فسكتت هند وكان سكوتها جوابًا صريحًا

فعادت سعدى الى استغرابها واستعظمت زفاف ابنتها الى رجلٍ لا يعرف له حسب ولا نسب فضلاً عن اتهامه بالجاسوسية والقبض على والده وغضب الحارث وثعلبة عليه فلاح لها ان بقاء هند على عزمها سيكون سببًا لنفور بين زوجها وابن عمه

ولكنها لم تستطع مكاشفة هند بذلك خوفًا عليها من سلطان الغرام بعد ما عاينت من شغفها وشدة تعلقها بحماد فعمدت الى الملاينة فسايرتها في مجرى عواطفها ريثما ترى ما يكون من أمر ثعلبة وقبضهِ على حماد فقالت لابنتها ان حمادًا أهل لحبك ولكن كيف بلغت الى هذه الدرجة من الحب والرجل غريب عنّا

فقطعت هند الكلام وقالت ألم اقل لك اني صائرة الى الهلاك لاني علمت بما بخامر ذهنك ولكن ما الفائدة من كل ذلك وحماد في مكان لا نعرفهُ ولعلهُ ذهب فريسة غدر ذلك اللئيم قالت ذلك وعادت الى البكاء

فقالت والدتها لا تجزعي يا هند ان الله على الباغي ولكني استغرب تعمد ثعلبة الايقاع بهذا الشاب وليس بينهما علاقة

قالت هو الحسد والغيرة ولؤم الطبع فوالله ان هذا الخائن لا يساوي قذة من نعل حماد قالت ذلك وهي تشرق بدموعها

فاخذت سعدى تخفف عنها وتطيب قلبها حتى سكن روعها فاحبّت الاطلاع على تاريخ ذلك الحب وكيفية وقوعه فقالت لها كيف تسلمين قلبك الى رجل لا تعرفين حسبهُ ولا نسبهُ وانت في ما نعلمهُ من تعقلك ودقة نظرك وحسن رويتك

قالت انهُ حسيب نسيب وسيماء في وجههِ

فقالت ان الوجوه لا تدل على الاحساب يا ولدي

فقالت قد علمت انهُ من امراء العراق وهذا يكفي وهبي انهُ اقل من ذلك فقد تسلط على عواطفي بقوة من الله تجد اسمهُ فيها قد اطلعتك على مكنونات قلبي . قالت ذلك واطرقت حياء وقلبها يرقص فرحًا لما آنستهُ من مجاراة والدتها ووعدها بالمساعدة

فقالت سعدى وكيف عرفت حسبهُ

فانتبهت هند لما ارتكبتهُ من الكذب في ذهابها الى دير بحيراء فهمت بيدي والدتها وجعلت تقبلها وتقول اصفحي عن زلتي فقد ارتكبت ذنبًا يوجب غضبك

فقالت وما ذا تعنين

فاحكت لها حكاية دير بحيراء واعترفت بكل ما دار بينها وبين حماد باختصار وحشمة وهي تطرق تارة وتبتسم اخرى ووالدتها مصغية تتطاول بعنقها حتى اتت على آخر الحكاية فاحسّت كأنها افاقت من غفلة فسايرتها وطأنت قلبها ولكنها صبرتها

لتدبير وسيلة لا تشين شرفها او شرف عائلتها

فاطمأن بال هند من قبيل رضاء والدتها ولكنها ما زالت قلقة لفرار حماد بل صارت بعد ما آنسته من تلك الملاطفة اكثر قلقًا عليهِ كأن خوفها من المعارضة كان شاغلاً لها عن التفكر بما وقع فيهِ حماد من الخطر فلما فرغت من ذلك الخوف تعاظم قلقها . وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب وهما لا تعلمان لو لم تريا الرعاة عائدين بالماشية من المراعي الى الزرائب بالقرب من الصرح فهمتا بالنهوض ومشتا الهوينا وكل منهما في شاغل فكانت هند في هاجس عظيم على حماد وما هو فيهِ وهمّها كثيرًا البحث عنهُ فرأت ان تغتنم تلك الفرصة للاستعانة بوالدتها على ذلك فدنت منها واسندت يدها على كتفها وهما ماشيتان وخاطبتها بدالة البنوّة قائلة ما الحيلة يا اماه لكف سعاية ثعلبة عن حماد أيحلُّ في شرع الله ان يذهب هذا الشهم فريسة الحسد والغدر

قالت خففي عنك يا ولدي وكوني مطمئنة فاني كافلة نجاتهُ باذن الله ولا بد من الصبر والتؤدة لنرى ماذا تمّ من امر حماد وفراره

قالت ذلك وهي ترتاب ببقائهِ حياً وكانت تحدثها نفسها باعظام عمل ابنتها وتنازلها الى حب رجل غريب وعدّت نفسها مخطئة بمسايرتها في ذلك ولكن ضعف املها ببقاء حماد في قيد الحياة كان يهون عليها ذلك فبالغت في طمأنتها حتى وصلت الى صرح الغدير وقضتا بعض تلك الليلة في مثل هذه الاحاديث وفي الصباح التالي بدأت سعدى تشتغل باستطلاع خبر حماد فعلمت بعد ايام ان هرقل عنا عن عبد الله وامر لهُ بكتاب الامان فاخبرت هندًا بذلك فاطمأن بالها لعلمها انهُ انما فرّ خوفًا من ثعلبة واتهامهِ بالجاسوسية فغدت تترقب من يعلمها بمقر حماد لتبلغهُ ذلك فلم تجد اليهِ سبيلاً فلما طال غيابهُ زاد قلقها عليهِ فصبرت نفسها تنتظر ما يأتي بهِ القدر وهي تنذر النذور سرًّا لدير بحيرا .

# الفصل الرابع والعشرون

## منادي دير نجران ﴿

فنيما هي ذات يوم جالسة في غرفتها تفكر في امره سمعت منادياً بجوار القصر يقول « من نذر نذرًا لنجران المبارك » (١) فاطلت من النافذة فرأت فارسًا متزملاً بعباءة وعلى رأسهِ قلنسوة الرهبان وفي يدهِ صليب من الفضة فعلمت انهُ منادي دير بحيراء يطوف البلاد والقرى بجمع النذور على جاري عادتهِ في كل عام

فلما سمعت اسم ذلك الدير هاجت عواطفها وتذكرت حبيبها وما دار بينها و بينهُ هناك فتوسمت في ذلك المنادي خيرًا لعلها انهُ كثير التجوال فاحبت محادثتهُ لعلها تستطلع منهُ خبرًا سمعهُ عن حماد اثناء تجوالهِ فامرت بعض الخدم ان يستقدمهُ ففعل فتحوّل الرجل ودخل القصر حاملاً خرجًا فجاء بهِ الى هند فحياها تحية الملوك وناولها الصليب فقبلتهُ وقبلت يدهُ وقدمت لهُ وسادة جلس عليها ووضع الخرج الى جانبهِ

وكانت امها في شاغل ببعض مهام القصر وليس في الغرفة سوى هند فتأملت وجه الرجل فاذا هو غير الراهب الذي كان يمرُّ بهم عادة فخافت ان يكون قد جاء بحيلة للسرقة او نحوها فسألتهُ اذا كان يريد الذهاب الى قاعة الطعام فاثنى على كرم الغسانيين واعتذر بانهُ لا يحتاج الى طعام

فقالت من اين اتيت يا حضرة الاب

قال اتيت من تجوالي في جهات البلقاء اجمع النذور

فقالت هل جمعت شيئًا كثيرًا

قال نعم يا سيدتي ان المسيحيين في هذا العام اكثروا من النذور حتى ملأت خرجي هذا من خيراتهم وتناول الخرج بيدهِ وهزهُ فسمعت لهُ صوتًا يشبه صليل الحديد

فقالت ما هي انواع النذور التي جمعتها هذا العام اني اسمع لها صليلاً

---

(١) معجم ياقوت (ونجران اسم من اسماء دير بحيراء)

قال ان في خرجي هذا نذورًا كثيرة لم يدخل دير بحيراء مثلها منذ عمر حتى العام

قال ذلك وتبسم فارتابت هند بقولهِ وادركت ان وراء تبسمهِ معنى خفياً

فقالت وكيف تأتى لك ذلك والنذور تحمل الى هذا الدير ذهبًا وفضة وحجارة كريمة من اقاصي البلاد

قال لم اخرج لهذه المهمة الاَّ في هذا العام فجئت بالعجائب الغرائب

فرأت في كلامهِ لهجة غريبة فلم تستغرب ذلك لعلمها ان الرهبان في دير بحيراء اخلاط من امم كثيرة ولغات شتىّ ولكنها ازدادت شبهه في مغزى كلامهِ

فقالت وما هي الغرائب التي اتفقت لك دون سواك

قال جئت الدير بنذر لم يسبق لهُ مثيل لا لغلاء ثمنهِ بل لغرابتهِ قال ذلك وحلّ رباط الخرج ومد يده اليهِ وحاول اخراج ما فيهِ فسمعت صليلاً كصليل الدرع فتذكرت درع حماد فاختلج قلبها في صدرها وعلا وجهها الاحمرار فقالت هات ما عندك فاستخرج يده وفيها قطعة من درع لم يقع نظر هند عليها حتى امتقع لونها وغلبت عليها البغتة لما آنست من المشابهة بينها وبين درع حماد فتناولتها وتأملتها فاذا هي هي بعينها فالتفتت الى الراهب فرأتهُ يتغافل عنها ولكنها قرأت على وجههِ سرًّا يحاول اخفاءه والابتسام يكاد يظهره فابتدرتهُ قائلة من اين اتتك هذه الدرع ومن هو الذي اعطاكها

قال اعطانيها صاحبها

فقالت هل تعرف مكانهُ فانها مسروقة من عندنا

فالتفت اليها قائلاً لا اظن صاحبها سارقًا بل هو رجل امين وقد ابتاعها بثمن غالٍ جدًّا

فقالت ربما كان ذلك كما تقول ولكنني اعلم ان هذه الدرع كانت عندنا فلا بدّ لي من رؤية الذي اعطاكها فهل هو قريب من هذا المكان

قال هو قريب جدًّا واذا صدق ظني فهو في اقرب مكان منك وانت تعلمين انهُ ليس سارقًا

فادركت انهُ يلغز بحماد وانهُ عالم بشيء ما بينهما فتجاهلت ولكن الحياء والبغتة غلبا عليها فقالت ما تعني بهذا الكلام أراك تقول جزافًا

قال كلاَّ ياسيدتي اني اتكلم عن ثقة ولكنك تتجاهلين والحقيقة ظاهرة على وجهك

فتحققت عند ذلك انهُ رسول من حماد ولكن سوء الظن سبق الى ذهنها مخافة ان يكون قادمًا بدسيسة من ثعلبة فتجاهلت ايضًا وقالت اراك تقول كلامًا لا افهمهُ او لعلك مخطىء في ظنك

قال لست مخطئًا لاني اتكلم عن ثقة وان شككت بمقالي سلي الاساور تصدقك الخبر

فقالت وأي الاساور تعني

قال الاساور التي بيعت هذه الدرع بها واذا بالغت في التجاهل جئتك بتاجر الحلى عينهِ

فايقنت عند ذلك انهُ رسول حماد اليها وحدثتها نفسها ان تسألهُ عنهُ صريحًا ولكنها تجلدت ريثما تخبر والدتها بذلك فنهضت للحال ولم تنهُ بكلمة وسارت الى غرفة والدتها وخلت بها واخبرتها بما كان فقالت والدتها اخشى ان يكون الرجل جاسوسًا من ثعلبة فلا تبوحي لهُ بشيء قبل ان تحقق رسالتهُ

فجاءت سعدى وهند تتبعها فلما دنت من الراهب وقف لها وحياها فتظاهرت بالجفاء قائلة . ألعلك قادم من دير بحيراء الآن

قال كلاَّ يا سيدتي بل انا آتٍ من البلقاء

قالت أرني الدرع فاراها اياها فتحققت انها الدرع التي نالها حماد جائزة سبقهِ يوم السباق فتناولتها من يدهِ وقالت لهُ ان هذه الدرع مأخوذة من عندنا ولعلها مسروقة فهل تعرف الذي اعطاك اياها

فتبسم الراهب تبسماً يمازجهُ ريبٌ وقال أظنني اعرفهُ

فقالت وابن تركتهُ

قال تركتهُ في بعض قرى البلقاء على بضع ساعات من هذا القصر

قالت هل هو مقيم هناك ام راحل

قال هو مقيم ينتظر عودتي

قالت ( وقد استغربت ذلك ) وماذا يتوقع من رجوعك وانت تقول انهُ دفع اليك هذه الدرع نذرًا نذره الى الدبر فما معنى رجوعك اليهِ اني أرى في كلامك تناقضًا

قال لا منافضة في ما اقول لان صاحب هذه الدرع شرط في نذره انها لا يكون نذرًا الاَّ بعد ان اعود اليهِ بخبر عن امر يهمهُ قال ذلك وهو ينظر الى هند بطرف عينهِ كأنهُ ينتظر اشارة منها فآنس في وجهها اشراقًا فتبسم واومأ بجفنيهِ نحو والدتها كأنهُ يقول لها هل ابوح بالسر امامها

فتحققت هند ان الرجل مرسل من حماد اليها ولكنها تجلدت ولم تجبهُ فجلس والدرع في يدهِ ينتظر ما تأمر بهِ هند

أما هي فأومأت الى والدتها وخرجتا معًا وتركتا الراهب في الغرفة فلما خلتا قالت هند وقلبها يرقص فرحًا لا ريب عندي يا اماه ان الرجل رسول من حماد ويظهر من اساليب كلامهِ انهُ آت ببشرى خير ولكنهُ لم يتجرأ على الصريح بذلك امامك لظنهِ انك لا تعلمين بما بيني وبين حماد ولا ريب عندي باخلاصهِ فاسمحي لي بمخاطبتهِ صريحًا فنسمع منهُ الخبر الصحيح فاجابتها والدتها الى ما ارادت فجلستا في غرفة منفردة وارسلتا الى الراهب فجاءهما والخرج على ذراعه فلما جلس قالت لهُ سعدى عزمت عليك ان تخبرنا بحقيقة حالك ومن هو صاحب هذه الدرع وكان لعزمة الامراء عند العرب حق ان تطاع فنظر الراهب الى هند كأنهُ يستشيرها في الجواب فقالت لهُ قل ولا تخف

فمد يدهُ الى الخرج واستخرج الخوذة وقال اذا كنتِ لا تعلمين الذي البستهِ هذه الخوذة بيدك فمن العبث ان اخبرك عنهُ

فخفق قلب هند وعلا وجهها الاحمرار وقالت نعم نعرفهُ فقل انت ما اسمهُ قال اسمهُ حماد يا سيدتي فابرقت اسرة الفتاة اي اشراق ولولا حجاب التعقل والرزانة لرقصت طربًا لذكره ولكنها امسكت نفسها فاكتفى الرجل بما قرأه في عينيها من آيات البشر فشاركها في ذلك وانتظر جوابها فقالت لهُ صدقت هو حماد فاين هو الآن

قال هو في خلوة لا يجسر على القدوم الى هذه الديار لاسباب لا يجهلها عامة غسان فضلاً عن خاصتهم

فقالت سعدى قل لنا اذن من انت فاني لا اظنك راهبًا فرفع القلنسوة عن رأسهِ وقال لا اظنكما تعرفانني ولكنني اعرفكما بنفسي فاني عبدكما سلمان خادم سيدي الامير حماد

فاستأنستا به كثيرًا واخذت هند تسأله عن حال حماد وما مرّ به فقص عليها الخبر منذ خروجها فرارًا من غسان الى ان نجوا من الاسد وسارا الى عمان وعادا منها الى ان قال وقد جئت متنكرًا بهذا اللباس وتركت سيدي حمادًا في بعض القرى في قلق شديد على والده وفي شوق ولهفة لمولاتي ( واشار الى هند )

فقالت سعدى ألم يبلغكما خبر سيدك الامير عبد الله بعد

قال ( وقد حملق عينيه ومال بكليته لاستماع خبره ) كلاَّ يا سيدتي فما هو خبره

قالت قد علما ان الامبراطور هرقل عما عنه وامر بصرفه معصوبًا بكتاب الامان

فانبسط وجه سلمان عند سماعه الخبر وود لو يكون طيرًا فيسرع الى حماد يبشره بذلك ولكنه استشار سعدى في الامر فقالت ارى ان تسرع الى مولاك بالخبر وطمئنه عن هند وقل له ان والدتها تهديك السلام ولكن احذر ان يعلم احد في الارض انك جئت هذا المكان او نطقت بهذا الكلام فليبحث هو عن والده وستتصل الاخبار بيننا عند الحاجة على مقتضى الاحوال وليكن هو مطمئن البال والايام بيننا .

وكانت هند تسمع كلام والدتها فلا تبدي ملاحظة ولم تكتف بهذه المواعيد البعيدة بل كانت تود ان تضرب أجلاً للقاء ولكن الحشمة امسكتها عن الكلام . اما سلمان فسرّ كثيرًا لما آنسه في سعدى من الرضاء عن حماد ولكنه رأى قولها مختصرًا مقتضبًا لا يشفي غليلاً على انه اقتنع بما لقيه وما سمعه فلبس قلسوته وودعها وخرج الى فرسه وسار قاصدًا حمادًا . اما سعدى فلما تحققت بقاء حماد حيًّا ورأت هندًا قد انبعثت قولها وزال امتقاع لونها الذي كان السبب الاول في تحريك حنوها حتى سايرتها في ما دار بينهما بشأن حماد مع ما كانت تظنه من موته او انقطاع خبره فلما تحققت بقاءه تمثل لها الامر مجسماً وندمت على ما فرط منها من مجاراة هند بشأن حبها حمادًا على غموض حسبه مع ما تخشاه من ايقاظ الفتنة بين زوجها والحارث اذا منعت ثعلبة من ابنتها ثم تذكرت غدر ثعلبة وكره هند له فصوبت ردها طلبة ولكنها احست بصعوبة ذلك فلبثت برهة صامتة تفكر في الامر وهند تتأمل في ملامح وجهها وتنتظر ما يبدو منها فلما طال سكوتها توسمت فيها التردد فانقبضت نفسها وعادت هواجسها اليها فتركت والدتها وسارت الى غرفتها والقت نفسها على السرير حزينة تراجع في ذهنها حكاية سلمان وما قالت والدتها له فلم ترَ في قولها ما يشفي غليلاً فاحست ان والدتها انما كانت تسايرها ظاهرًا فعظم عليها الامر

## فتاة غسان ( تابع ما قبلهُ )

وفيما هند في ذلك جاءت والدتها وكانت لا تزال منقبضة النفس فرأت الدموع تتلألأ في عيني ابنتها فهاج حنوُّها ونسيت هواجسها ودنت منها وهي تبتسم وأخفت ما في نفسها وهند تنظر الى وجهها لعلها تستطلع شيئًا جديدًا فلما رأتها تبتسم اطمأن بالها ولكنها ادركت انها انما فعلت ذلك حنوًّا فعمدت الى اثارة شفقتها التماسًا لمساعدتها فتظاهرت بالغضب دلالاً وتيهًا واطرقت هنيهة لا تتكلم

فقالت سعدى ما لي أرى الهواجس قد عادت اليك ألم يكفك ما سمعتهُ عن حماد

فلم تجب

فازدادت سعدى حنوًّا والفت يدها على كتف ابنتها وقالت لها ما بالك ساكتة يا هند الم تشكري الله على انعامهِ

قالت شكرتهُ كثيرًا ولكني اراه لم يأذن بانقضاء زمن تعاستي لاني لم اكد اسمع ما سرَّني حتى رأيت ما كدرني

قالت وما الذي يكدرك بعد ذلك

قالت يكدرني ان ارى حبل المساعدة كاد ينقطع

قالت وماذا تعنين بذلك

قالت اعني ما أقرأهُ على وجهك من آيات التردد ولا لوم عليك فقد عاملتني بما استحقهُ . قالت ذلك وقد وقفت تتشاغل بحل ضفيرتها وعنصها امام المرآة فرافقتها سعدى وهي تنظر اليها وتتوقع منها ابتسامًا فرأتها لا تزال منقبضة فخافت ان تعود الى حالها من الضعف فهان عليها كل ما تريده وصممت على مساعدتها فعلاً فتظاهرت بالاستغراب وهمَّت بها فقبلتها وضمتها الى صدرها قائلة انزعي عنك الظنون يا هند فاني على ما تريدين واسوف ترين مني ما يسرُّك

فانتعشت هند لما سمعتهُ ولكنها تظاهرت بانكار ذلك وقالت يكفيني املاً بلا عمل فاني اراك تسخرين بي

فضحكت سعدى حتى قهقهت واظهرت المزاح قائلة ذلك خلق المحبين فانهم لا يستقرون على حال

فنظرت هند اليها شذرًا وشعرها لا يزال محلولاً واصابعها تخللهُ فلما رأت والدتها تضحك انبسط وجهها وعادت اليها الآمال فتبسمت ولكنها حوّلت وجهها نحو المرآة وتشاغلت بضفر شعرها

فمدت سعدى يدها الى الضفيرة وتناولتها وقالت وهي تتمُّ ضفرها دعينا من ضفر الشعور فاننا في ما هو ادعى الى الاهتمام

فقالت هند لا ارى الاهتمام بشيء آخر الاَّ عبثًا

فقالت أمن العبث ان نتخلص من مطالب ثعلبة

فلما سمعت اسمهُ نفرت وانقبض قلبها ولكنها توسمت بابًا للفرج فقالت يا حبذا ذلك لو صح

وكانت سعدى قد فرغت من ضفر الشعر فامسكتها بيدها واجلستها الى السرير ونظرت اليها نظرة فهمت هند منها انها تريد الجد فاصغت اليها فقالت دعينا من الهواجس يا هند ولنبحث في الامر بالتروي

فقالت قولي ما تريدين واذكري وعدك

قالت لا اقول الاَّ ما يرضيك ولكنني اعلم انك عاقلة رزينة ولا اظنك ترتابين من حبي لك وانعطاف والدك نحوك واذا اتينا امرًا ساءك او سرّك انما نأتيهِ التماسًا لراحتك

فخافت هند ان يكون وراء هذه المقدمات نصيحة تمنعها من حماد فلبثت صامتة وقلبها يخفق في انتظار اتمام الحديث

فقالت سعدى لا يسعني الاغضاء عن اهمالك البحث عن اصل حماد وفصلهِ فان الحب يعمي ويصم فانقدم اليك ان تستجمعي رشدك وتسأليِ عقلك هل هو مساعد لك على ما رضيهُ قلبك

قالت نعم يا اماه انني في كمال عقلي ولا ارى في عملي هذا خطأً ولا ريب عندي اذا خاطبتِ حمادًا واستطلعت اخلاقهُ واطواره انك ترين فيهِ مثل ما رأيتهُ انا فهو شاب كامل الصفات كريم الاخلاق ولا بد من ان يكون ذا حسب ونسب فاذا لم يكن ملكًا ارضيًا فهو ملاك سماوي ولا اقل من ان يكون اميرًا وزد على ذلك ان ما شهدناه من شهامتهِ وكرم اخلاقهِ يؤهلهُ لمصاهرة والدي وقد قيل المرء باصغريهِ

لا يبرديو فهي انهُ غير حسيب فهو لا ريب شهم كريم . قالت ذلك وعلامات الهيام ظاهرة على وجهها تخالطها ملامح الخجل

فقالت سعدى اذا كان الامر على ما تقولين فاني اهنئك بهذا النصيب ولكننا يجب ان نتدبر الامر بالحكمة حتى لا ينجم عن عملنا ما يضرُّ بمصلحة والدك او يأول الى حرب وانت تعلمين علاقتهُ باخ عمهِ الحارث وما بينهما من المنافسة الموهنة بالمجاملة فنخشى ان يأول عملنا هذا الى حرب تتقد نارها وتسفك الدماء من اجلها

فقالت أتريدين اذن ان ارضى بشعلبة و ....

فقطعت سعدى كلامها قائلة كلاَّ لا اريد ذلك ولا ارضاه ولكنني اريد ان لا تستعجلي في الامر فان في العجلة ندامة

قالت وماذا افعل اذن

قالت اتركي تدبير ذلك اليَّ على ما تقتضيهِ الاحوال ولا ريب عندي انك ستنالين مناك على اهون سبيل

قالت ها اني قد القيت حملي عليك وجعلت قيادي في يديك فافعلي ما تريدين فقبلتها سعدى وطأمنتها ثم تركتها وسارت الى غرفتها

## الفصل الخامس والعشرون

### التفتيش عن عبد الله

أما سلمان فعاد الى حماد وكان في مأمن خفي ينتظر عودتهُ بفارغ الصبر فلما لقيهُ استطلعهُ الخبر فاجابهُ واماراتُ الانبساط ظاهرة على وجههِ وبشَّره بالعنو عن والده وبقاء هند على حبها ورضاء والدتها بذلك فلم يكن يوم اسعد على حماد من ذلك اليوم فارقت اسرتهُ وتمثلت لهُ السعادة خادمًا مطيعًا وقضى بقية يومهِ يردد حديث سلمان عن هند وما ينطوي تحت كلام والدتها لكنهُ ما لبث ان عاد الى ذكرى والده وقد خاف عليهِ طول الغياب فاستشار حمادًا في امرهِ فقال ارى ان نبحث اولاً عنهُ فاذا التقينا بهِ تركنا تدبير ذلك اليهِ

فقال حماد أنسير الى بصرى متنكرين

قال لا خوف علينا بعد ما صدر من العفو ولكن ثعلبة ثعلب لا يركن اليهِ فامكث انت هنا ودعني اسير بنفسي الى منزلنا في غسان ومتى وصلت المكان علمت حقيقة الخبر فقال وكيف تعلمهُ

قال اني ذاهب للبحث عن الحمامة التي تركناها بحوار منزلنا لا يعلم بها احد سوانا فاذا لم اجدها علمت ان سيدي اخذها فنعلم انهُ عاد من سفرتهِ فنبحث عنهُ في بصرى وحوارها والاَّ فنعلم انهُ لم يعد بعد فاسير الى بيت المقدس للتفتيش عنهُ

فاستحسن حماد الرأي فباتوا ليلتهم ولما اصبحوا ركب سلمان لباس الرهبان وترك حمادًا في منزل رجل من بقايا الاسباط الذين كانوا يقيمون في جنوبي البلقاء . وكان الانباط في الزمن القديم أُمة عظيمة ذات عز ومجد وكانوا واسطة عقد التجارة بين مصر والشام والعراق وبلاد العرب يقيمون شرقي العقبة بين مصر والشام وبلاد العرب ولا تزال بعض آثارهم باقية حتى الآن في ما يسمى باترا او بطرة ويغلب على الظن ان اصلهم من اسباط ما بين النهرين . وما زالت دولتهم قائمة حتى غلبهم الرُّومانيون في اوائل القرن الثاني للميلاد فتشتت شملهم وتفرقوا في البلاد واختلطوا بقبائل العرب الاخرى . ومن طرق معائشهم النحيم وقد حملوهُ معهم من بين النهرين (١)

وكان صاحب المنزل المشار اليهِ طاعنًا في السن لم يرزق اولادًا يعيش من زراعة بقعة من الارض صغيرة ولم يكن يحب الغساسنة لانهم على زعمهِ احدث نعمة من الانباط وان الانباط اولى منهم بالسيادة وسبب بغضهِ لهم الحسد وذلك طبيعي في من كان من سلالة الحكام ثم رأى السيادة في غير اهلهِ فانهُ لا يستطيع حبهم او الاذعان لهم الاَّ قهرًا فاذا خلا بنفسهِ ندد في حكومتهم وعدد معائبهم وهو من أدلة الضعف في بني الانسان

وكان سلمان لما عاد بحماد من عمان قد عثر على هذا الرجل واستطلع حالهُ فعلم انهُ احسن ملجاء يلجأ سيدهُ اليهِ ريثما يعود اليهِ مخبر هند فلما عاد بخبرها كما تقدم واتفقا على ذهابهِ الى غسان سار اليها وهو مطمئن البال ولكنهُ غادر حمادًا على مثل الجمر في انتظار رجوعهِ

فلم يمض يومان حتى عاد سلمان ومعهُ التحف والنقود التي كانوا قد خبأوها بحوار

(١) الاسكلو يذيا وغيرها

منزلهم فدفعها الى حماد وهو مقبض النفس كاشف البال فسأله عن أمره

قال اني خائف على سيدي من دسيسة ابن الحارث واخاف ان يكون قد غضب لما نالهُ من العفو فانفذ اليهِ رجالاً اغتالوه

قال وما الذي حملك على هذا الظن

قال اني تدرت الامر واستطلعت الخبر من اهل بصرى سرًا فعلمت ان الخبر بالعفو وصلهم من عشرة ايام وان سيدي خرج من بيت المقدس مع قافلة سارت الى الحجاز رأسًا فهل تظنهُ سار معها

فقال حماد وكيف يعقل ان يسير الى الحجاز ونحن على موعد من لقائهِ في عمان فلا يبعد ان يكون قد رافق القافلة الى جوار عمان ثم عرج اليها

فقال سلمان ولكنهُ يعلم ان موعدنا فرع اذ قد مضى الشهران او اكثر منذ افترقنا

فقال حماد لعلهُ اراد المرور بعمان ليتحقق عودتنا منها فلا يلبث ان يعلم بذلك حتى يعود فلنصبر قليلاً نتسم اخباره

فصمت سلمان وهو لا يزال خائفًا على سيدهِ ولكنهُ تظاهر بالاقتناع تخفيفًا عن حماد وكان لا يزال يزي الرهبان وقد غشيهُ الغبار فنزع ثيابهُ وغسل وجههُ وكان صاحب المنزل قد خرج في بعض المهام وترك كلبهُ يحرس المضارب ريثما يعود

فاغتنما تلك الفرصة واخفيا ما جاء بهِ سلمان من الاموال فجعلا بعضهُ في جيوبهما وبعضهُ بين الثياب

# الفصل السادس والعشرون

## الخطبة

تركنا هندًا في صرح الغدير وقد املت الحصول على حماد ولكنها كانت ترى اظلالاً من الريب تعترض آمالها لان ذكاءها ودقة نظرها اوحيا اليها شكًا في رضاء والدتها عن حماد اما هذه فكانت تحاول اقناع نفسها في صلاح ما وعدت هندًا بهِ ولكنها ما زالت ترى في ضميرها ما يعترض مقاصدها على انها كانت تتغلب على ذلك الضمير ارضاء لابنتها وتنتظر ما يأتي بهِ القدر

وفيما هي جالسة ذات يوم في الصرح جاءها بعض الخدم ينبئها بقادم من البلقاء فهرولت اليهِ لعلهُ جاء بخبر من جبلة وقد طال أمد غيابهِ فرأت فارسًا ترجل وقبل يدها فعرفت انهُ من رجال زوجها فاستطلعتهُ الخبر فقال ان الامير جبلة قادمٌ اليكم في صباح الغد وهو يقرئك السلام

فقالت أهلاً ومرحبًا فاننا نستعد لاستقبالهِ ثم دخلت وقد علمت انهُ آتٍ ليسألها بشأن هند وثعلبة

فانقضت نفسها وشعرت بحرج المقام وجعلت تفكر في حل ذلك المشكل وفيما هي غارقة في بحار الهواجس جاءت هند وكانت قد رأت الفارس وعلمت سبب مجيئهِ فخفق قلبها لما يعترض آمالها من الشكوك وتوقعت ان ترى والدتها في ارتباك فلما علمت بخلوتها دخلت بغتة فرأتها في ما تقدم من الانقباض فحيَّتها فانتبهت سعدى لحالها فحاولت الابتسام لتخفي ما يخامر قلبها فاندرتها هند بصوت مختنق قائلة لا يشغلك شاغل يا أُماه فما في الامر ما يدعو الى هذا الاهتمام

فقالت سعدى لست في اهتمام يا ولدي ولكنني اشعر بانحراف في صحتي

فقالت صدقت ولكن سببهُ هند هذه

قالت حاشا وكلاَّ فانك تسليتي ومنشأُ سعادتي ألا ترينني حالما وقع نظري عليك انشرح صدري وانبسط وجهي

قالت ارى ذلك ولكنني أرى عليهِ صفة التكلف فلا ترتبكي ولا تقهر نفسك فان كل حال تزول . وارادت هند ان تخبر والدتها وتستعيد وعدها لها قبل قدوم والدها لان على اجتماعهما هذا يتوقف مستقبلها

فقالت سعدى ما بالك تكلمينني بالرموز ألم تحققي حتى الآن اني على ما وعدت

قالت قد تحققت ذلك ولكني اراني سببت لك تعبًا وارتباكًا

قالت ان تعبك راحة فاقلعي عن هذه الظنون وهلمّ بنا نتدبر الامر فنتفق على خطة نسير عليها . لأن والدك قادم غدًا ولا أظنهُ الاَّ فاتحًا حديث ثعلبة فما ظنك فيما نجيبهُ بهِ

قالت انت تعلمين ما في قلبي فاجيبيهِ بمقتضى حكمتك أما انا اذا سئلت فلا جواب عندي غير السلب ولومها كلفني ذلك

فقالت هي انه سألها عن سبب هذا الرفض فهل اذكر له حكاية حماد

قالت لا ادري ما تقولين ولكني اخبرتك بمكنونات قلبي وقد وعدتني تدبير الامر فافعلي ما تشائين

فسكتت سعدى وقد وطنت نفسها على مجاراة ابنتها وخرجت من الغرفة وامرت اهل القصر بضرب المضارب واعداد الذبائح لاستقبال جبلة وحاشيته في صباح الغد

فاصبح الصباح وقام الخدم لاعداد ما يلزم فنشروا البسط ونصبوا الخيام وذبحوا الذبائح واوقدوا النيران ولبست سعدى وهند أحسن ما لديهما وتهيأتا للاستقبال فلما كان الضحى ظهر الغبار من جهة اللقاء فعلم اهل القصر بمجيء جبلة ورجاله فخرجوا لملاقاتهم واطلت سعدى من بعض النوافذ المشرفة على ذلك السهل أما هند فاستلقت على سريرها وفرائصها ترتعد لهول ما تصورته من غضب والدها اذا علم بما في نفسها ثم ما لبثت ان سمعت قرقعة اللجم وصهيل الخيل بجوار القصر فعلمت بوصول والدها وفرسانه فخفق قلبها ولكنها تجلدت واطلت من الشرفة فرأت الفرسان قد تحولوا الى الخيام المضروبة لهم هناك وترجل والدها امام الحديقة ودخل بلباسه الفاخر وقد لفّ رأسه بكوفية والعقال حولها والتف بالعباءة فوق الطيلسان فاستقبلته سعدى بوجه باش بخلاف بعض الانقباض ثم جاءت هند فقبلت يده فضمها وقبلها واستغرب ما رآه في وجهها من التحول فسألها عن سبب ذلك فاجابته والدتها بانها تشكو من ألم عارض فساروا جميعًا الى قاعة مفروشة بالبسط والسجاد والوسائد فدخل نعلبة مسكًا هندًا بيدها حتى جلس في صدر القاعة واجلسها الى جانبه وقد تنبهت فيه عواطف الشفقة والحنو لما آنسه فيها من الضعف فما صدق انه خلا بها وبوالدتها حتى سألها عن شكوى هند منه فطأطأت رأسها وألحّ عليها ان يبدل ثياب السفر ويستريح ففعل وقد اوصى الخدم باصلاح ما يحتاج اليه رجاله من الزاد

أما سعدى فآنست في وجه زوجها انقباضًا لم تعهده فيه وخصوصًا عند مقابلته هندًا بعد غياب طويل فعوّلت على استطلاع السبب بعد الغداء والاستراحة ولكنها لم تستطع ذلك لانشغاله بمشاهدة غرف القصر ونزوله الى الاسطبل يتفقد افراسًا له كان قد تركها هناك ولكنها لاحظت انه انما كان يتلاهى بذلك تخلصًا من سؤالها واستفهامها فلما كان المساء جلسوا للطعام وكل منهم في هاجس فلم يدر بينهم حديث غير ما لا

يد منهُ على المائدة كالتماس الآنية او استعمال بعض انواع الطعام او الشراب او نحو ذلك

فلما فرغوا من العشاء تنرّق الخدم يتممون بشؤونهم وبقي جبلة وزوجتهُ وابنتهُ في القاعة على حدة وكان جبلة متكئًا على وسادة وهند الى جانبهِ ووالدتها بين يديهِ

فنظر الى هند وتأمل وجهها ثم التفت الى سعدى وقال لها لقد اطلنا الغيبة عليكم هذه المرة لشواغل انتابتني وكنت أعد النفس بالقدوم اليكم منذ ايام فلم استطعهُ الاَّ اليوم وكنت احسب مجيئي هذا يفرج كربتي فلم أرَ الاَّ ما يزيد في انقباضًا

فتطاولت سعدى بعنقها نحوه قائلة

ليس في هذا ما يدعو الى الانقباض فقد يمرُّ على الانسان ايام يتوعك بها مزاجه لغير سبب يعرفهُ ولكني توسمت في وجهك انقباضًا منذ قدومك هذا الصباح وكنت اغالط نفسي واحسبني مخطئة أما وقد اقررت بهِ من فيك فارجوان تفصح عن السبب

قال ليس في ما تشاهدينهُ من الانقباض ما يهمك الاطلاع على اسبابهِ فهو امر عارض لا يدعو الى بحث

فقالت لا اظن امرًا يهمك لا يهمنا ومهما كان من شأنهِ فان بالنا لا يهدأ الاَّ بمعرفتهِ

فقال دعينا من الخوض فيهِ وقد يكون سحابة صيف تنقشع ولا تمطر

فاشتاقت سعدى الى استطلاع الخبر وعلمت انهُ منقبض من خبر سمعهُ ولم يتحقق صدقهُ . فقالت هب انك لم تتحقق ما سمعتهُ فاطلعنا عليهِ

قال جاءنا قادم من الحجاز يخبرنا بقدوم جند من العرب لمحاربتنا

فبغتت سعدى وقالت وما سبب قدومهم ولا تعرف بيننا وبينهم ما يوجب حربًا

فهزَّ رأسهُ واعتدل في مجلسهِ وجعل يشط لحيتهُ باصابعهِ وقال ان هؤلاء العرب عصابة قوية برئاسة نبي ظهر بينهم يدعو الناس الى دين جديد وقد بعث كتابًا يدعونا فيهِ الى دينهِ فوصل كتابهُ الى الحارث فمزقهُ واستهزن حاملهُ فشق ذلك على صاحب الدعوة فانفذ جندًا من رجالهِ لمحاربتنا فبثثنا العيون والارصاد لمراقبة مسيرهم ولا نعلم متى يصلون « سنأتي البقية »

فبغتت هند عند ذكر الحارث وقالت في نفسها « قد كتب علينا الشقاء على يد الحارث وابنهِ فلا حول ولا » ولكنها نظرت الى والدها وقد ثارت فيها الحمية وقالت وما يخيفنا من قدوم هؤلاء العدنانيين ونحن بنو غسان رجال اشداء لا نرهب القتال

فانشرح صدر جبلة لما اظهرتهُ هند من الشهامة وقال نعم اننا لا نخاف حربهم ولكننا كما في غنى عن حشد الرجال واعداد معدات الدفاع وحصوننا لا تزال متهدمة على اثر حروبنا مع الفرس سامح الله الحارث لما جرّه علينا من البلاء

فقالت سعدى يظهر ان هؤلاء العدنانيين انما يريدون قتال الحارث لا قتالنا

قال نعم ولكننا جميعاً نحت سيطرة الروم فاذا احتاجوا الى دفاع استنجدونا جميعاً ولا يسعنا الاَّ الاذعان . فقالت هند أيحطئ الحارث ونحن نحارب عنهُ

قال ذلك ما لا بد منهُ اذا دعت الحالة اليهِ وسنرى ما يكون من أمر هذا الجند ولكن الحارث جاءني بالامس وتداولنا في الامر ملياً واخذنا في حشد الرجال واعداد معدات القتال وعلى الله الاتكال

فلما سمعت سعدى باجتماع الحارث بزوجها ايقنت انهما تداولا في شأن هند وتوقعت ان تسمع حديثهُ من جبلة ولكنها علمت انهُ لا يذكر ذلك وهند حاضرة فتظاهرت بالملل وقالت اظنك تعبًا من جراء السفر في هذا الصباح فهل تريد الذهاب الى الفراش فادرك مرادها فاجاب دعوتها ونهض ونهضت هند ولم يفتها المراد من ذلك فانصرفت الى غرفتها بدعوى الرقاد وقد نظرت الى والدتها بطرف خفيّ كأنها تذكرها بوعدها فافترقوا وخلت سعدى بزوجها في غرفة الرقاد وقد اعدَّ لهُ الخدم ثياب النوم فبدَّل ثيابهُ وبدلت هي ثيابها وكلاهما صامت يفكر في جهة والموضوع واحد

## الفصل السابع والعشرون

### كشف السرّ

فاتكأ كل منهما على سريره والسريران متقابلان وفي الغرفة شمعات مضيئة على مائدة وقد هدأ الليل واستولى السكوت على ذلك الصرح لذهاب الناس الى منامهم الاَّ

ما كانوا يسمعونهُ من صهيل خيول في معسكر حاشية جبلة عن بعد

فبدأ جبلة بالكلام قائلاً عهدت اليك مهمة منذ ايام وكنت اتوقع قدومك الينا بخبر اتمامها فابطأتِ حتى استبطأ الحارث جوابي فجاء يستعجلني فيهِ وقد آنستُ منهُ تغيرًا لما كان يتوقعهُ من سرعة الاجابة وخصوصًا بعد ما سمعهُ من قدوم هؤلاء العدنانيين فانهُ يرى التعجيل في الاقتران قبل وصولهم

فاحست سعدى بما جرّتهُ على نفسها من المفاق ؛ اكدت لهند من الوعود فترددت برهة في الجواب

فابتدرها جبلة قائلاً ما بالك لا تجيبيني ألعل بِ الامر مندوحة للتردد

قالت لا أعلم ذلك ولكنني اعلم ان هندًا لم ترصحه منذ ذكرت لها هذا الامر

فقال وماذا كان جوابها

قالت لا سلبًا ولا ايجابًا

قال اذن هي راضية

قالت لا يدل السكوت على الرضاء في كل حال

قال وقد بغت وماذا اذن العلك فهمت ما يدل على الرفض

قالت لا ادري .... ولعلي مخطئة في ظني

فقال وقد استغرب جوابها قولي افصحي فاني ارى وراء توقفك ما يأول الى خطر جسيم

فقالت واي خطر نخافهُ

قال ألا تعلمين ان رفض هذا الامر يأول الى نفور بيننا وبين الحارث

فقالت وهي تتجاهل مراده واي علاقة بين الامرين ايكون الزواج قسرًا

فهبَّ من مجلسهِ وقد زاد استغرابًا وقال أبلغ من هند ان ترفض ما اختاره لها والداها

قالت لا تقل ( والداها ) بل قل ( والدها ) فقط

فحملق وقال وقد علا صوتهُ العلك محاربة لها على فحنها يا سعدى

فاجابتهُ بصوت خافت قائلة لا لم اجارها في شيء ولكنني خفت عليها الموت فاذا كنت ترى ان تجود بهند فريسة لذلك الرجل زوّجها بهِ . قالت ذلك واطرقت وقد شرقت بدموعها

فبهت جبلة عند سماع تلك العبارة ولبث برهة يحسب نفسهُ في منام ثم قال وماذا تعنين يا سعدى ألعلك تتكلمين عن ثقة

قالت لم اذكر لك الاَّ ما تحققتهُ بعد جدال طويل واذا كنت لا تصدق مقالي فهذه هند ادعوها اليك وخاطبها وجهًا لوجه فقد نفدت حيلتي فيها

فرجع جبلة الى صوابهِ وتذكر حبهُ هندًا وما يعجب بهِ من شهامتها ونعقلها ولكنهُ ما زال على ما يخافهُ من عواقب ذلك الرفض فقال لها ادعيها اليَّ لاخاطبها واسمع اعتراضها

فوقفت سعدى وهمت بالخروج الى غرفة هند ولكنها علمت ان مجيئها وجبلة في حال غضبهِ قد ينتهي الى عاقبة وخيمة فرأت من الحكمة ان تخفف من غضبهِ وتهدئ روعه قبل مجيئها فتقدمت منهُ والدموع ملء عينيها وقالت ها اني ذاهبة لاستقدامها ولكنني انبهك الى أمر ارجو ان لا يبرح من بالك

قال وما ذلك

قالت انت تعلم شهامة هند ورقة احساسها وخصوصًا بعد ما عانتهُ من الضعف على أثر حديثي معها بشأن ثعلبة وتعلم ايضًا ان ثعلبة كما نعرفهُ نحن ليس كفوءًا لها مع ما خبرناه من خساستهِ وغدره ولا نظنهُ يحبها بل هو يريد قتلها فاذا علمت ذلك تدبر الأمر بالحكمة وخاطبها بالحسنى ولا تطمع في اكراهها لئلاَّ تسوقها الى حتفها فتندم حين لا ينفعنا الندم فمن الحكمة ان تأخذها باللين والمطال ربما تغلب على عواطفها

فقال جبلة لقد نطقت يا صواب ولكنني لا أراني قادرًا على التخلص من شرٍّ أتوقعهُ بسبب ذلك على اني لم افهم سبب رفضها اياه وهو ابن عمها ولا اعرف في غسان من هو اقرب نسبًا منهُ ولا أليق بمقامها فما سبب هذا البغض

قالت اما كرهها لهُ فسببهُ دناءتهُ وخساستهُ فقد عاشرتهُ اعوامًا طوالاً فلم تجد فيهِ شيئًا من انفة الرجال وكرم اخلاق بني غسان وطالما حدثتني بذلك عنهُ منذ اعوام وكثيرًا ما كنا نذكر سيئاتهِ بحضورها فلا يسعنا بعد ذلك اقناعها بنزاهتهِ وكرم اخلاقهِ

فقال جبلة لا انكر عليك ذلك يا سعدى ولكنك تعلمين ما بيننا وبين ابن عمنا الحارث من المنافسة المستترة برداء القرابة تحت ظل المجاملة ولا ريب عندي ان رفض طلبهِ يجرُّنا الى حرب ونحن في حال تدعو الى اجتماع الكلمة لما سمعناه من اخبار الحجاز

فقالت انني موافقة لك على ما تقول ولكنني على ثقة مما قلتهُ لك واقولهُ ايضًا وهو ان اصرارنا على اقترانها بثعلبة يقودنا الى ما ندم عليهِ ساعة لا ينفعنا الندم فهي لا تحبهُ ولا ترضاه ولا يمكن ان ترضاه فهل يهون علينا ان نخسر هندًا وهي ثمرة حياتنا ومرجع آمالنا أنضعها بين يدي ذلك الجبان الخسيس وهو لا يحبها قالت ذلك والدموع تتناثر من عينيها

قال اراك واثقة بعدم حبهِ لها ولو كان كذلك لم يطلبها

قالت انا متحققة ذلك مما سأقصهُ عليك في فرصة اخرى اما الآن فاني داعية هندًا اليك لتسمع كلامها شفة لشفة والتمس منك ان ترفق بعواطفها ما استطعت لان العنف لا يجدينا نفعًا

قالت ذلك وخرجت والمصباح بيدها حتى أتت غرفة هند فرأت الباب موصدًا وأنست في الغرفة صوتًا فاصاخت بسمعها فسمعت بكاء يتخللهُ شهيق فعلمت ان هندًا تبكي فطرقت الباب وناديتها باسمها فابطأت قليلاً ثم فتحتهُ فأدت سعدى المصباح من وجه هند ونظرت اليها فاذا هي ذابلة الاجفان محمرة العينين كاسفة البال فانفطر قلبها لذلك المنظر المريع فوضعت المصباح على الارض وهمّت بها وجعلت تقبلها ودموعها تتساقط حنوًّا وشفقة وهي تقول لا تبكي يا ابنتي لا تبكي ولا تحزني فلا يكون الاَّ ما يسرّك

فقالت كفاني يا اماه تعزية ومسايرة فقد سمعت غضب والدي باذني

قالت وما الذي اسمعك كلامهُ وانت هنا

قالت مررت بالباب فسمعتهُ ينتهرك وهو مصرٌّ على قولهِ وما ذلك الاَّ لتعاستي فاذا كان لا يزال على عزمهِ فاستودعك الله . قالت ذلك وعادت الى البكاء

فقبلتها سعدى وقالت لقد أخطأ ظنك يا هند فان والدك يكاد يسلم معي برفض ثعلبة وهو انما ينتظر مخاطبتك في شأنهِ ليسمع الجواب من فيك فهيأ بنا اليهِ فانهُ ينتظرنا في الغرفة . وارادت سعدى ان تدخل على زوجها بهند وهي باكية لعلهُ يرقُّ لها فيجاريها على مرامها

# الفصل الثامن والعشرون

## ﴿ موقف هائل ﴾

فاحبت هند الانتظار برهة ريثما تجف دموعها فلم تمهلها فسارنا حتى وصلنا الغرفة وجبلة متكئ على فراشهِ وقد استبطأ امرأتهُ واحب البقاء متكئًا اظهارًا لما في نفسهِ من العتب على هند اما هي فدخلت مطرقة وقد تكسرت اهدابها وذبلت اجفانها واحمرت عيناها وتوردت وجناتاها وإسترسل شعرها على ظهرها ومشت حتى اقتربت من سرير والدتها فوقفت وأسندت كتفها الى الحائط ذليلة كئيبة ولبثت مطرقة

فلما رآها جبلة على تلك الحال حنَّ لها وسي غضبهُ ولكنهُ ما زال مكبرًا عملها فخاطبها قائلاً ما رأيك يا هند

فظلت صامتة تتشاغل باهداب ضفيرتها بين اناملها

فقال ما رأيك يا بن عمك ثعلبة

فلما سمعت اسمهُ ارتعدت فرائصها وعاد البكاء اليها فامسكت نفسها عن الشهيق ولكنها لم تستطع امساك دمعها عن الانحدار فلما شاهد جبلة تلك الدموع تتقطر عن خديها شعر كأن قلبهُ يتقطر دمًا عليها

فقال ما بالك لا تجيبيني ونحن انما بعثنا اليك لنسمع الجواب من فيك قولي ما جوابك على طلب ثعلبة

فلم تعد تتمالك عن الشهيق فتحولت من الغرفة وارادت الخروج فامسكتها سعدى بيدها وهمَّت بارجاعها فألقت نفسها الى الارض واخذت في البكاء حتى كاد يغمى عليها

فجعلت سعدى تخفف عنها والتفتت الى زوجها ان يكف عن السؤال وجاءتها بماء رشتها بهِ وسقتها منهُ قطرة حتى هدأ روعها وجبلة صامت ينظر اليها وقلبهُ يكاد يتقطع وقد هان عليهِ كل صعب فقال لها قد فهمت ياهند انك لا تحبين ثعلبة فهل تحبين والدك وعشيرتك

قالت وهي تشرق بدموعها نعم احبك واحبها وان كنت ترى في تسليمي لذلك

الخائن راحة لك ولعشيرتك فاني راضية بالموت فداء عنك وعنها وهذه روحي بين يديك فافعل بي ما تشاء

قالت ذلك وترامت على والدها فضمها الى صدره والدموع تتساقط من عينيه رغماً عنه وجعل يقبلها ويخفف عنها وهو يقول لا تجزعي يا هند اني على ما تريدين فهوّني عليك واستجمعي حواسك . قال ذلك واجلسها الى جانبه فجلست وهي تجمع شعرها وترسله الى ظهرها وكان قد مال الى الامام عند استلقائها على والدها ولما رأت في والدها هذا الانعطاف تذكرت ما لا يزال في طريقها من العقبات بشأن حماد لعلمها ان والدها سيعظم امر حماد اكثر مما أعظم امر ثعلبة فعولت على اغتنام تلك الفرصة وهو في حال الانعطاف لنيل رضاه عنها فعادت الى البكاء

فعجب لبكائها بعد مجاراته لها في العدول عن ثعلبة وكان يظن ذلك كافياً لزوال كل احزانها فلما رآها تبكي ظنها لم تفهم مراده فقال كفي البكاء فقد اغفلنا ثعلبة وطلبه فهدئي روعك . فلم تزدد الاّ بكاء فادركت والدتها ما في نفسها فأومأت الى والدها ان يكف عن السؤال هنيهة ودنت من هند وجعلت تمسح دموعها بمنديلها وتقبلها ثم امسكتها بيدها وخرجت بها الى غرفتها فلما خلت بها سألتها عن مرادها بذلك فقالت دعيني يا اماه دعيني ابكي على صباي فقد ادركتُ ما جررته على نفسي من البلاء

فعلمت انها تشير الى امر حماد وما تخافه من غضب والدها اذا علم بحبها له فقالت اشكري الله يا هند اننا قطعنا نصف الطريق بامان والله يساعدنا على الباقي

فقالت هند لم نقطع الاّ السهل منها وقد بقي الوعر يا اماه

قالت ان الذي نجانا من ثعلبة لا يبخل علينا بجماد طيبي نفساً وقرّي عيناً

قالت لا يطيب لي عيش فقد زهقت روحي قبل ان اقطع السهل الهين وكيف وقد وصلنا الى العقبة التي لا ارجو اجتيازها فقد رأيت ما اعظمه والدي من امر ثعلبة وهو يعلم خساسته ويعتقد بانه ليس اهلاً لي فمن يتجرأ على ذكر حماد امامه وهو رجل غريب يقول انه لا يعرف اصله ولا فصله آه يا لتعاستي وسوء حظي

وكانت سعدى تعتقد مثل اعتقادها وربما خافت اكثر من خوفها ولكنها لما رأت حال ابنتها هان عليها ركوب ذلك المركب الخشن فجعلت تخفف عنها وتنشطها

آمالها وهند تبالغ في اظهار يأسها

فقالت سعدى خفني عنك وانهضي الى فراشك وعليّ تدبير ما تريدينهُ والك عليّ ان لا يصبح الصباح الاَّ وقد رضي والدك بكل ما تريدين

فلما سمعت هند ذلك شعرت بانتعاش واحست كأن قلبها انفتح وقد انفرجت الازمة ولكنها استبعدت ذلك كثيرًا فالتفتت الى والدتها شذرًا وتبسمت تبسم طفل نال امرًا كان يتطلبهُ باكيًا فقبض عليهِ وهو لا يصدق انهُ نالهُ فلما رأتها سعدى في تلك الحال زادت انعطافًا اليها وابتسمت لها والدموع ملء عينيها وقالت هوّني عليك فقد قلت لك اني ضامنة لك ما تريدين ألا يكفيك ذلك

قالت يكفيني يا اماه ولكنني ارى والدي صعب المراس فلا اظنهُ يشفق على قلبي

قالت لا تستعظمي امرًا تريدينهُ والله قادر على كل شيء فاذهبي الى فراشك وها اني ذاهبة الى السعي في مرامك والله يفعل ما يشاء

# الفصل التاسع والعشرون

## ﴿ الاستغراب ﴾

فسكن روعها وعادت اليها آمالها والقت حملها على والدتها وسكتت ثم نهضت ومشت الى الفراش وقد انهكها التعب وخارت قواها من هول ما قاستهُ تلك الليلة ولما رأت والدتها تهم بالخروج استحلفتها ان تبذل جهدها في اقناع والدها فاكدت لها الوعد وخرجت حتى اتت غرفة زوجها فاذا هو في انتظارها ليستطلعها سبب ما شاهده من هند فلما دخلت ابتدرها بالسؤال قائلاً

اتظنين هندًا تبقى على عزمها من رفض ثعلبة فقد رأيت اني جاريتها في امر ربما آل الى حرب دموية بيني وبين الحارث ولكنني فعلت ذلك مدفوعًا بشفقتي على الفتاة وانا ارجو ان اعود الى اقناعها في فرصة اخرى الا تساعدينني على ذلك

فابتسمت واظهرت الاستغراب قائلة اتظنني جاريت هندًا في عملها هذا عبثًا الم أقل لك اني انما فعلت ذلك رغماً عني وقد خفت على حياة ابنتنا ولو علمت ان

الاصرار ينفعنا شيئًا ولو بعد حين ما سمعت منها قولاً ولكنني رأيت ذلك لا يجدينا غير خسارة لا تعوض . أليست هند ثمرة حياتنا ومرجع آمالنا وزهرة عمرنا اليست تعزيتنا في شيخوختنا الم نفاخر بها ملوك العرب ونفضلها على خيرة البنين اليست هي فتاة غسان ومضرب امثالهم اليست هي افرس فرسانهم واكرم كرامهم انسيت وقد رأيتها تبكي كالطفل انها تجاري فرسان غسان في حومة الميدان واذا ركبت جوادها تطاولت اليها الاعناق وحامت حولها القلوب ألم تكن هند اذا وقفت في حومة الوغى واستحثت الرجال على دفاع الاعداء انهضت هممهم واثارت حميتهم اغرّك منها ذلها وانكسارها الليلة فنسيت هندًا وما هي امثل هذه الفتاة يسهل التسليم بها لرجل لا يساوي قدة من نعلها . ثعلبة وما ثعلبة اليس هو ذلك الجبان الغر الذي رأيناه يحقد كالفيل ويحتال كالثعلب و يغدر كالعقرب انسيت يوم السباق وما كان شأنهُ مع ذلك الشاب الغريب يوم سبقهُ مرتين حتى اذا سابقهُ ثالثة عاد من حلبة السباق و في يده قصبة السبق مبرية بري القلم الا تذكر انك رأيت القصبة مبرية

وكان جبلة في اثناء ذلك صامتًا وقد اعجب بفصاحة سعدى وانسجام حديثها فلما ذكرت القصبة تذكر انهُ رآها مبرية فقال نعم اذكر ذلك

قالت اتدري سبب بريها فوالله وشرف بني غسان لو اطلعتك على سر الامر للعنت الساعة التي ولد فيها ثعلبة سبي غسان ولوددتُ لو ان حمادًا مكانهُ لانهُ اشبه بشهامتهم وكرم اخلاقهم

فمال جبلة الى استطلاع السبب فقال وما سبب بريها فسرت سعدى لاصغاء زوجها الى حديثها فقصت لهُ حكاية القصة و بالغت بما اظهره حماد من الشهامة وكرم الاخلاق وما كان من دناءة ثعلبة وخساسته فلم تكد تفرغ من حديثها حتى انقبض وجه جبلة لما جرّه ثعلبة من العار على الغسانيين واحسّ بارتياح الى حماد فقال تبًا لثعلبة و رعيًا لذلك الشاب فيا ليتهُ قتلهُ و لم يسمعنا هذا الحديث عنهُ

فتبسمت سعدى من جبلة اصغاء لحديثها فقالت اما وقد فتح الحديث وجرّنا الكلام الى هذا الحد فاسألك مسألة ستكون جوابًا لسؤال سألتنيهِ الليلة

فقال وما ذلك

قالت أتدري ما الذي حمل ثعلبة على خطبة هند بعد ما علمتهُ من تباعدهِ عنها

قال وما تعنين بتباعده

قالت ألم تكن هند ابنة عمهِ منذ ولدت

قال بلى

قالت ألم يكن يجدر بهِ ان يخطبها لنفسهِ منذ اعوام وقد يخطب ابناء العم اطفالاً

قال بلى

قالت اتدري ما الذي امسكه عن خطبتها حتى الآن

قال وقد بهرهُ قولها وتطاول بعنقهِ لاستكمال حديثها لا ادري وما ظنك بذلك

قالت لأنهُ يحسب نفسهُ ارفع منها مقامًا او لعلهُ كان يتوقع ان تعرضها عليهِ فاذا قبلها اذ ذاك انما يقبلها كرمًا ومنة

قال جبلة وقد اقطب وجههُ وتعاظم غضبهُ خسيء النذل وخسيء أبوهُ قبلهُ

قالت بل خسيء كل من يقول قولهُ فقد علمت ان ثعلبة لم يكن عازمًا على خطبة هند لو لم يحدث ما حرك غيرتهُ وهاجه على الانتقام وإذا اذنت ان اكشف لك الغطاء فعلت

قال وقد مال بكليتهِ الى استطلاع السر نعم اني شديد الميل الى معرفة ذلك فقولي

قالت ولكنني استحلفك بحبك هندًا ان تبقى على حبها وتشفق على صباها وتعذرها في ما رأيتهُ او تراهُ من حالها

قال لقد عذرناها من قبل فلا حاجة الى الاستحلاف

قالت انما استحلفك على امر لم تعلمهُ بعد

فازداد شوقًا وقال قولي لقد نفد صبري

قالت قد علمتَ حسد ثعلبة حمادًا على أثر ما نالهُ من قصب السبق عليهِ وقد تعاظم حسدهُ لما رأى هندًا تلبسهُ تلك الدرع وهي انما فعلت ذلك بأمرك

قال نعم

قالت وقد رأيتك وانت رجل معجبًا بشهامة ذلك الشاب ولا يخفى عليك ان النساء اكثر اعجابًا بشهامة الرجال وخصوصًا من كانت مثل هند في مقتبل العمر

وربعان الشباب . قالت ذلك وهي تراعي ما يبدو من جبلة ولم تكن تتوقع الاّ استغرابهُ فحملق جبلة ونظر اليها والشرر يكاد يتطاير من عينيهِ وقال وماذا تعنين

قالت وهي تتردد بين ان تصرح لهُ او تبقى على الكتمان « اعني انهُ لما رأى هندًا معجبة بحماد ثارت في قلبهِ نيران الغيرة والحسد والانتقام و ..... »

فقطع عليها الكلام قائلاً اظنك تعنين اكثر من ذلك

فرأت سعدى ان تصرح بالحقيقة لترى ما يكون فقالت ربما اعني انهُ ظنها تحب حمادًا فاراد خطبتها ليحرمها منهُ فينتقم منهما جميعًا

فبهت جبلة وقد ارتاب من كلام سعدى بعد ما آنس من ترددها ولكنهُ استزادها ايضاحًا فقال هل كان ذلك منهُ على سبيل الظن فقط

قالت لا ادري اذا كان يتجاوز الظن

فقال اراك تدافعينني وتكتمين شيئًا آخر فافصحي عما في ضميرك

فسكتت وقد خافت التصريح

فألحّ عليها وهو في ريب من امرها وقال افصحي

فقالت وهب اني اكتم شيئًا آخر فما الفائدة من الافصاح

فادرك ان في ضميرها سرًّا تخاف افشاءه فرارًا من غضبهِ فقال وقد اشتد قلقهُ وحمي غضبهُ قولي افصحي فهل علمتِ يقينًا ان هندًا تحب ذلك الشاب

فاطرقت ولم تجب ولكنها أشارت بكتفها وحاجبيها انها لا تعلم

فقال ما بالك لا تجيبين ألعلها تحبهُ

فنظرت اليهِ وقد عولت على التصريح فلما رأت تقطب حاجبيهِ وحملقة عينيهِ خافت اشتداد غضبهِ فنهضت وتظاهرت بتأجيل الحديث الى وقت آخر وقالت وهي مهمٌّ بالخروج « لا اعلم وسأبحث عن ذلك واخبرك »

فامسكها بيدها واقعدها وقال لها يكفي مدافعة فانك تعلمين فقولي ولا حاجة الى التسويف بعد ان فهمت ما فهمتهُ من خلال حديثك

فقالت فاذا كنت قد فهمت فلماذا تستعيدني ما قلتهُ

قال اذن هي تحبهُ وتريد الاقتران بهِ

قالت ربما كان ذلك . واعرضت عن جبلة متشاغلة باصلاح فراشها واظهرت

عدم الاكتراث

فحمي غضبة وامسكها بيدها وجذبها اليه بعنف وقال ما بالك تستخفين بغضبي كأنك لا ترين في الامر ما يستحق الاهتمام الا يهمك ان تقترن ابنتك برجل غريب لا نعرف أصلهُ ولا فصلهُ وقد يكون من السوقة

فنظرت اليه عاتبةً لما اظهره من العنف وقالت بصوت منخفض وهذا الذي حملني على الكتمان لعلمي انك ستتلقى الخبر بما اعلمهُ من تعلقك بشرف الغسانيين وانكارهم مثل ذلك على بنات ملوكهم على ان حمادًا ليس من السوقة بل هو من امراء العراق بني لخم

فخجل لما كان من خشونتهِ في خطابها والغضب يمنعهُ من الاعتذار ولكنهُ أمسكها بلطف وقال لها ألا تنكرين انت ذلك ايضًا . وهي انهُ امير فبيننا وبين العراقيين عداوة لا تؤذن بالمصاهرة

قالت لا اخفي عليك اني استعظمت الامر عند سماعه لاوّل وهلة ولكنني تلقيتهُ بالحكمة والصبر لارى حيلة في تدبيره ولو علمت انت حال هند كما علمتها انا لفعلت مثل فعلي ولكن ما الفائدة من الكلام وقد نسيت حنوّك وشفقتك فافعل ما تشاء واذا ماتت هند فاللوم لاحقٌ بك . قالت ذلك وهي تنظر اليه والدموع ملء عينيها

فلما شاهد ذلك منها سكن غضبهُ وصبّر نفسهُ ونظر اليها بطرف يكاد يدمع وقال وما الحيلة التي تريينها والحال كما قلت

قالت اذا اذنت ان ننظر في الامر بعين الحكمة دبرت لك حيلة ينصرف بها هذا المشكل على اهون سبيل والاّ فالامر لك

فبهت وقال ما الرأي قولي

فجلست الى جانبهِ وخاطبتهُ باهتمام قائلة أما الرأي فهو ان نتظاهر بالرضاء عما ارادتهُ هند ثم ندبر حيلة نتخلص بها من حماد لا يكون فيها ضغط على عواطفها

فقال وكيف ذلك

قالت سأخبرها غدًا ان حمادًا اذا طلبها منك لا تمنعهُ منها ثم ابين لها ترفع مثلها عن الاقتران برجل غريب لم يثبت لنا نسبهُ وهي لا تنكر ذلك ثم احبّب اليها ان يعمل عملاً نقترحه عليهِ يكون لهُ بهِ فخر يغنيهِ عن النسب فاذا قبلت ولا اظنها

الاّ قابلة لعلي بعزة نفسها اقترحنا على حماد امرًا يقرب من المستحيل فاذا استطاعه كان اقترانهُ بهند امرًا مقضياً من الله سبحانهُ وتعالى فلا مندوحة لنا عن القبول به

فارتاح جبلة الى هذا الرأي وسأَلها عما تنوي اقتراحه فقالت سننظر فيهِ ونقرُّ عليهِ ريثما يثبن الوقت

فسرَّ لتعقلها واثنى على ما أَظهرتهُ من الروية والحكمة فقالت لهُ عند ذلك دعني اذهب الى هند واطمئنها لئلاَّ تقضي الليلة ساهرة فتعود الى الضعف قالت ذلك وخرجت فرأَت هندًا في انتظارها على مثل الجمر

اما هند فلما رأَت والدتها قادمة نهضت لملاقاتها وهي تنظر الى وجهها تتفاءل بما تقرأَه عليهِ من آيات البشر فرأَتها تتبسم فسكن بلبالها فاستطلعتها الخبر فطمأنتها واكدت لها ان والدها لا يمانعها في ما تريده فلم تصدقها حتى اقسمت بحبها لها فانبسط وجهها ولم تتمالك عن الابتسام وكان سرور والدتها اكثر من سرورها ولكنها ما زالت تفكر في الحيلة ثم ودعت ابنتها وخرجت ولم تنم هند تلك الليلة من شدة الفرح

## الفصل الثلاثون

### ﴿ اليأس من وجود عبد الله ﴾

تركنا حمادًا في انتظار خبر والده وسلمان يتردد الى بصرى وضواحيها يسأَل عنهُ حتى يئسا من العثور عليهِ هناك فقلق حماد لذلك كثيرًا وخاف من سوء يصيبهُ وكان سلمان في مثل قلقهِ فعاد ذات يوم من بصرى وكان قد ذهب اليها للبحث عن سيدهِ ولم يقف لهُ على خبر فوصل خيمة حماد فرآهُ غارقًا في بحار الهواجس فلما دخل ناداه حماد ما وراءك يا سلمان

قال ما زلت على ما فارقتني ولا اراني قادرًا على الصبر بعد هذا الانتظار فأْذن لي بالمسير الى بيت المقدس او عمان للتفتيش عن سيدي فقد مللت الانتظار

فقال حماد ألا ترى ان أَسير انا معك

قال لا حاجة الى ذهابك فامكث هنا ريثما اعود

فقال هل تسير الى بيت المقدس ام الى عمان

قال أرى ان أسير الى بيت المقدس أتتبع خطوات سيدي منها حتى أقف على خبره فضلاً عما في الطريق من هنا الى عمان من الاخطار التي لم ننسها بعد

قال سر بحراسة الله ولا تطل الغياب فاني في انتظارك وانت تعلم حالي من القلق

فودعه وخرج على جواده وقد لبس ثياب السفر وسار قاصداً بيت المقدس فوصلها بعد ايام فجال في شوارعها حتى انتهى الى خان علم من قيافة صاحبه انه عربي فدخل والتمس مبيتاً عنده فأعد له غرفة نزل فيها وارسل جواده الى الاسطبل ثم بدل ثيابه وجاء الى صاحب الخان فجلس اليه وجعل يحادثه في مواضيع مختلفة حتى تطرق الى حكاية هرقل وما كان من مجيئه الى هناك فآنس في الرجل علماً ببعض الحكاية فقال له وهل رأيت القيصر يوم مجيئه

قال رأيته مارًّا بموكبه يوم وصوله ثم تراكمت عليا الاشغال لتفاطر اهل القرى والبلاد الى بيت المقدس لمشاهدته

فقال وهل يرد عليكم كثير من العرب ام كل زائريكم من الروم والسريان واليهود من اهل هذه البلاد

قال قلما يرد علينا قوافل من العرب اما في هذا العام فقد جاءنا كثير منهم

فقال وما سبب ذلك

قال لان القيصر بعث الى امير من امراء الحجاز يقال له أبو سفيان فجاء برجاله وحاشيته وقافلته فنزلوا جميعاً في هذا الخان ومكثوا مدة بيننا فانتفعت المدينة بقدومهم لما يبتاعونه من الطعام لهم والعلف لخيولهم ويظهر انهم من اهل الرخاء خلافاً لما تعودناه من فقر اهل الحجاز وقلة اموالهم كما هو مشهور من جدب ارضهم

فقال سلمان كثيراً ما سمعت بابي سفيان هذا وعهدي به من اعظم امراء مكة وانه كثيراً ما يقدم برجاله الى الشام وضواحيها للاتجار

فقال ولكنه قلما يأتي بيت المقدس اما في هذا العام فقد جاء بأمر من الامبراطور

قال وما الذي دعا الامبراطور الى استقدامه ومن يكون ابو سفيان حتى يهتم امبراطور الروم باستدعائه

فأحكى له حكاية الكتاب الذى ورد على هرقل وما كان من امره حتى انتهى الى سفره من بيت المقدس

فاراد سلمان ان يستطلع خبر سيده فقال اظن العرب الذين يأتونكم كلهم او اكثرهم من الحجاز ويندر ان يأتيكم احد من اهل العراق

وكان الخاناني قد علم من لهجة سلمان انه عراقي فقال كثيرًا ما يأتينا تجار من العراق ايضًا ولكن قدومهم يكون غالبًا في أزمنة المواسم والاعياد عند ما يكثر الواردون الى القبر المقدس لان الناس يحجون الى اورشليم من جميع اقطار العالم فيأتي الباعة والتجار من سائر البلدان ايضًا لعرض سلعهم وبضائعهم واهل العراق يحملون الينا مصنوعات الفرس كالسجاد ونحوه وشيئًا من محصولات العراق كالتمر وغيره

فقال هل جاءكم أحد منهم في هذه الاثناء

قال رأيت كثيرين ولكن لم ينزل منهم احد عندي الاَّ اميرًا جاءنا يوم سفر ابي سفيان وسار معه

فتوسم سلمان من ذلك خيرًا فقال وهل عرفت اسم ذلك الامير

قال أظنني سمعتهم ينادونه عبدالله

فتحقق سلمان انه سيده بعينه فقال هل تعرف شيئًا عن هذا الامير بعد سفره

فأطرق الخاناني هنيهة ثم قال لقد أذكرتني من شأن هذا الامير ما يتفطر له القلب

فاقشعرّ بدن سلمان عند سماعه ذلك حتى ظهر الارتباك على وجهه وتطاول بعنقه نحو الخاناني وقال لقد شغلت بالي يا اخا العرب بما أشرت اليه فهل اصيب الامير عبد الله بسوء

قال كلاَّ لم اسمع عنه شيئًا من هذا القبيل ولكنني علمت انه اصيب بفقد ولد له اكلته السباع في مسبعة الزرقاء

فعجب سلمان والتفت الى الخاناني باهتمام وقال اعترف لك يا سيدي ان امر هذا الامير يهمني كثيرًا لانه سيدي وانا انما جئت للتفتيش عنه فهل تتفضل بتفصيل حكايته وما تمّ له ومن انبأه بمقتل ابنه

قال لا أخفي عليك شيئًا اعرفه من هذا القبيل فقد جاءنا هذا الامير يوم سفر

أبي سفيان ولحظت انهُ سار في ضيافتهِ فلما خرجت القافلة ارسلت معها بعض خدمة الخان ليشيعوها لعلها تحتاج الى ارشاد في اختيار بعض الطرق دون غيرها وكان مع القافلة جواد عثروا عليهِ شاردًا في بعض السهول أثناء مجيئهم الى الشام فلما همت القافلة بالمسير قدّم ابو سفيان ذلك الجواد للأمير عبد الله ليركبهُ فلما رآهُ هذا عرفهُ انهُ جواد ولد لهُ كان قد فارقهُ في بعض جهات الزرقاء فالتبس عليهِ أمر الجواد وفراره وأحكى حكايتهُ هذه لابي سفيان فرافقهُ هذا مع بعض رجالهِ الى المكان الذي رأوا الفرس فيهِ وبالغني انهم عثروا على بقايا فرس آخر تحت شجرة واشياء اخرى استدلوا منها على ذهاب الغلام فريسة السباع فبكى ذلك المسكين بكاء مرًّا وندب ابنهُ وبالغ ابو سفيان بتعزيتهِ فلم يتعزّ

وكان سلمان أثناء هذه الحكاية مصغيًا وقلبهُ يخفق فلما وصل الخاناتي الى هذا الحد أحس سلمان بقشعريرة وقف لها شعرهُ وقال للرجل وماذا تمّ لهُ بعد ذلك

قال سمعت انهُ لما تحقق موت ابنهِ لم يعد يحلو لهُ الذهاب الى منزلهِ في بصري فسار مع القافلة الى الحجاز

فقال سلمان وهل تحققت انهُ سار الى الحجاز

قال هذا ما سمعتهُ ولا أدري اذا كان قد عدل عنها بعد ذلك

فقال سلمان وقد ظهرت البغتة على وجههِ اني اعترفت لك باهمية هذه الحكاية عندي واشكر الله لنزولي عليك حتى سمعت هذا الحديث منك ولكنني أرجوان تزيدني ايضاحًا ما استطعت

فقال الخاناتي لقد رأيت من اهتمامك وظهور البغتة على وجهك ما حرّك في الاهتمام لمعرفة مصير هذا الامير فلندعُ المكاري الذي قص الخبر عليَّ بعد عودتهِ لعلهُ يزيدنا ايضاحًا قال ذلك ونادى المكاري وكان مشتغلاً ببعض شؤون الخان فجاء فسألهُ عما يعلمهُ من تفاصيل حكاية عبد الله

فاحكى القصة كما قالها الخاناتي مع بعض التفصيل حتى انتهى الى مسير القافلة بعد الرجوع من مسبعة الزرقاء فقال رأيت ذلك الامير عائدًا على قدميهِ يحمل سيف ابنهِ وعباءتهُ وكان قد عثر عليها عند ضفة غدير هناك فاستأنس بها واشتم رائحة ابنهِ منها واما الجواد فكان مسوقًا وراءهُ كئيبًا كأنهُ عالم بمصير صاحبهِ فلما

وصلوا الى الطريق دعاه أبو سفيان للمسير معهُ الى الحجاز او ان يوصلهُ الى منزلهِ في بصري فقال انهُ لا يريد العود الى بصرى ثم تردد في الذهاب الى الحجاز ولكنهُ رافقهُ وساروا جميعًا وعدنا نحن ولا نعلم ما تمَّ لهُ بعد ذلك

فقال سلمان ألم تسمعهُ يذكر عمان وعزمهُ المسير اليها

قال لا أذكر اني سمعتهُ يقول شيئًا من هذا القبيل

فبهت سلمان برهة يفكر في ما سمعهُ وقد علم ان سيدهُ لا يصبر على ما ظنهُ من ذهاب حماد فريسة للسباع وخاف ان يكون قد حملهُ ذلك على مهاجرة الشام والمسير الى الحجاز مع أبي سفيان ولكنهُ رأى ذلك اذا فعلهُ سيدهُ لا يخلو من المسارعة وهو يعلم ان عبد الله عاقل لا يأخذ الامور بمظاهرها فلبث برهة يفكر ثم استأذن الخاناتي في الذهاب الى غرفتهِ ليتبصر في الامر بعد ان شكرهُ لما فصهُ عليهِ

فلما خلا في غرفتهِ اخذت تتقاذفهُ الهواجس وهو يفكر في الامر وقد انقضت نفسهُ خوفًا مما قد يصيب سيدهُ من عواقب اليأس وعظم عليهِ الرجوع الى حماد بهذا الخبر المشوم فضلاً عن انهُ لا يفيدهُ شيئًا فقضى بقية ذلك النهار وطول الليل في مثل هذه الهواجس فلاح لهُ بعد اعمال الفكرة ان يتبع خطوات سيدهُ بنفسهِ فيسير الى عمان لعلهُ يقف على ما يجلو لهُ الحقيقة

فلما اصبح سار الى الخاناتي واطلعهُ على عزمهِ واستأذنهُ في مسير ذلك المكاري معهُ فاطاعهُ فركب سلمان والمكاري في ركابهِ وكلما مرَّا بمكان احكى لهُ المكاري واقعة حالهِ حتى تجاوزا طريق المسبعة ووصلا الى النقطة التي عاد المكاري منها فقال سلمان الا تسير معي الى عمان لعلنا نسمع هناك خبرًا جديدًا

قال اني في ركابك الى حيثما تريد ولكنني سمعت منذ ايام ان بالقرب من عمان جماعة من قريش جاؤوا لمحاربتنا فلا نأمن اذا رأونا ان نقع في ايديهم غنيمة باردة

فتذكر سلمان انهُ سمع مثل ذلك قبل خروجهِ من بصرى ايضًا فتردد في الامر ولكن نفسهُ لم تطاوعهُ على الرجوع قبل الوصول الى عمان فقرَّ رأيهُ على الذهاب اليها من طرق مجهولة لا يطرقها الاَّ القليل من الناس والمكاري يعرفها فسارا حتى انتهيا الى عمان فلم يجدا فيها اثرًا ولا خبرًا

فعاد سلمان يئسًا حزينًا لا يدري كيف يقابل حمادًا بهذا الخبر الا بترعلى انهُ كان يتوهم ان سيده ولو اطاع عواطفهُ في حال تأثرها وسار الى الحجاز لا يلبث ان يهدأ روعهُ و يعود الى البلقاء للبحث عن ابنهِ ولا اقلّ من يرجع الى بصرى بعد ان عفي عنهُ فيتفقد ما اذخروه من المال والمثمنات في منزلهم بغسان

فقضى سلمان طول الطريق في عودتهِ وهو يفكر في ذلك وكثيرًا ما حدثتهُ نفسهُ ان يتأثر سيده الى الحجاز لو لم يعترضهُ الشك في مسيره اليها وعوّل اخيرًا على الرجوع الى حماد والمداولة معهُ في هذه الشؤون فاذا تحقق ذهابهُ الى الحجاز سار للتفتيش عنهُ فيها

فلما وصلا الى منعطف من الطرق يؤدي الى البلقاء رأسًا اثنى على المكاري واكرمهُ وودعهُ وسار قاصدًا حمادًا

## الفصل الحادي والثلاثون

### حمّاد في خيمته

لم يكد يتوارى سلمان عن حماد يوم خروجه الى بيت المقدس حتى أحسّ حماد بالوحشة لانفراده في تلك الخيمة بعيدًا عن حبيبتهِ قلقًا على والدهِ فجلس يفكر في ما مرّ بهِ ذلك العام من الاهوال وما رآهُ من حوادث الايام وتذكر حالهُ قبل قدومهِ البلقاء يوم كان خلي البال لا يعرف الهواجس فعلم ان السبب في ذلك كلهِ الحب فتذكر هندًا وما نالهُ من رضاء والدتها فرقص قلبهُ طربًا ونسي ما ينتابهُ من الشواغل والحب مع ما وصفهُ بهِ امام العاشقين بقولهِ

فعش خاليًا فالحبُّ راحتهُ عنىً ✻ فأوّلهُ سقمٌ وآخرهُ قتلُ

فهو اذا رضي الحبيب تعزية للمحبين ينسيهم الهموم ويخفف عنهم الاحزان

فلم يكن لحماد تعزية في غربتهِ وهواجسهِ الا رضاء حبيبتهِ فاذا تراكمت عليهِ الاحزان تذكرها وتصوّر قربها فتنتعش جوارحهُ وتثوب اليهِ آمالهُ فينجلي صدره وتنبسط نفسهُ

فلبث في خيمتهِ برهة يتردد بين اليأس والرجاء ينقبض تارة وينبسط أخرى حتى كان المساء فسمع خوار ثور بين الخيام فعلم ان مضيفهُ عائد من مرعاه فحسده لسذاجتهِ وقلة شواغلهِ ولبث يفكر في أمرهِ وود لو انهُ في مثل حالهِ خلي البال قليل البلبال لا يهمهُ من دنياه الاَّ ما يرجوه من غلة ارضهِ او نتاج ماشيتهِ ولكنهُ تذكر ان ذلك الشيخ لا يعرف الحب ولا شعر بلذتهِ فخيل لهُ انهُ اشبه بالحيوان الاعجم منهُ بالانسان

وفيما هو يتأمل سمع وقع خطوات بالقرب من الخيمة علم من خفتها انها خطوات الشيخ لأنهُ كان لا يمشي الاَّ حافيًا فاحتفز لاستقبالهِ فاذا بهِ قد دخل الخيمة والمنجل لا يزال في يدهِ وقد كسا لحيتهُ وعمامتهُ الغبار وانفتح قميصهُ عن صدره فبان الشعر متجعدًا كأنهُ نبت الربيع يعانق بعضهُ بعضًا فلما رآهُ حماد وقف لهُ وحياه اكرامًا لشيخوختهِ فالقى الشيخ المنجل عند باب الخيمة ودخل وعلى وجههِ ملامح البشر حتى كاد يبتسم وكان قد عاشرهُ اياماً لم يرَ ثغره باسماً قط على انهُ قلما رآهُ منقبضًا او مهتمًا فلما رآهُ يبتسم احسَّ بارتياح وسرور ودعاه الى جانبهِ واخلى لهُ مجلسًا على البساط فابى الجلوس الاَّ على الارض فجلس وهو يحك احدى كفهِ بالاخرى لينزع ما لصق بهما من التراب فلما تفتت التراب عنهما جعل ينفض لحيتهُ البيضاء لينزع عنها ما علق بها من الاتربة

فبدأ حماد بخطابهِ قائلاً كيف انت اليوم ايها الشيخ ارجو ان تكون في خير وعافية

فنزع الشيخ عمامتهُ وتشاغل بنقرها لينفض غبارها وقال نحمد الله على خيراتهِ فقد سرني اليوم ان بقرتي ولدت عجلاً ابلق ولا يمضي عليهِ العام او العامان حتى استخدمهُ في الحراثة فيغنيني عن تربية البنين وهمومهم

فعجب حماد لسذاجة البداوة وقلة هموم اهلها فاراد مداعبتهُ فقال لهُ ايكفيك من دنياك رعاية الماشية وتربية العجول والغسانيون متمتعون بالسلطة والسيادة وكان حماد عالمًا بما يتقولهُ الانباط على الغسانيين كما تقدم

فضحك الشيخ مستهزئًا وقال لا يغرنك من دنياك يوم نعيم فانها لا تحسن يومًا حتى تسيء اياماً فلا تفرح للحارث الغساني من اجل يوم استبدَّ فيهِ فقد جاءه من ينزع عنهُ السيادة ويلحقهُ باجداده اصحاب سيل العرم الذين انما جاؤونا فرارًا من الفقر بعد ان كانوا يقيمون في ارض تستقي من مستنقعات يجمعونها من مياه الامطار وراء

سد من حجر فلما انهدم السد سال الماء فاغرق السهول ولم يعودوا يستطيعون بناء السد لضعفهم وقلة تدبيرهم فاجدبت ارضهم ففروا في جملة من فرّ منها الى هذه البلاد منذ قرون متطاولة وقدّر لهم الملك عن غير استحقاق فجاءهم الآن من ينزع الملك منهم ويكسر شوكتهم ويعلمهم ما لهم وما عليهم

فعلم حماد ان الشيخ يشير الى حكاية سيل العرم في جهات اليمن وما كان من تفرق بني قحطان بعده والغسانيون في جملتهم ولكنه لم يفقه ما اراده من قوله بقرب زوال ملكهم فقال له وما تعني بزوال ملكهم ونحن لا نراهم يزدادون الاّ قوة ومنعة

قال ألم تسمع بالعدنانيين الذين قدموا من الحجاز في هذه الاثناء فقد جاؤوا جماعة كبيرة ليقتصوا من الغسانيين و يبيدوهم عن آخرهم

فقال وما اوجب الاقتصاص واي علاقة بينهما والحجاز على مسافة ايام من الشام والناس هناك في شاغل باصلاح دينهم فقد ظهر فيهم من يدعوهم الى دين الله وقد سمعت بانهُ انشأ فيهم دولة جديدة دانت لها كل بلاد العرب فاهل الحجاز في شاغل عن هذه البلاد

فضحك الشيخ وقال كل ذلك من تدبير الله . واما ما اوجب مجيء العدنانيين فهو وقاحة الحارث الغساني وكبرياؤه فقد انبأ في بعض المارين من هنا ان نبي قريش الذي ذكرتهُ كتب الى الحارث كتابًا يدعوه فيه الى دينهِ فبدلاً من ان يقرأهُ ويتأملهُ و يرد الرسول ردًّا جميلاً مزق الكتاب واهان الرسول فشق ذلك على صاحب الرسالة فانفذ جندًا لحرب الحارث وفتح بلاده

فاهتم حماد بذلك الخبر كثيرًا لعلمهِ ان الحرب اذا قامت عرقلت مساعيهُ وحالت بينهُ و بين ما يريد فضلاً عما يخافهُ على هند من الخطر لان جبلة لا بد لهُ من نصرة ابن عمهِ الحارث على انهُ لم يكن يخاف انهزامهم او خذلانهم لما كان يتوهمهُ من ضعف اهل الحجاز وقلة خبراتهم كما هو مشهور عن تلك البلاد منذ القدم ولكن خوفهُ على هند من عواقب الحرب همهُ كثيرًا فلبث برهة يفكر في امره ثم قال للشيخ وهل انت واثق بمجيء هؤلاء الحجازيين

قال لا ريب عندي من ذلك

قال العلك سمعت الخبر عن ثقة

قال سمعنهُ من خبير وهمني أمره كثيرًا حتى تحققتهُ اذ يسر لي خذلان الغساسنة فقد قلت لك انهم اعداؤنا . وكان ذلك الشيخ النبطي يظن حمادًا يفرح بسقوط دولة بني غسان لانهُ من لخم ولم يدر من لهُ في صرح الغدير

فلبث حماد صامتًا لا يدري ماذا يعمل وتذكر سلمان ووالده فتراكمت همومهُ فالتفت الى الشيخ فاذا هو قد ذبلت عيناه وغلب عليهِ النعاس شأن المشتغلين مثل شغلهِ على خلو بالهم وخصوصًا من كان في مثل سنهِ فانك بينما انت تخاطبهُ في شأن لا تلبث ان تراه ينام فتركه حماد واشتغل بهواجسهِ

ثم أفاق الشيخ مذعورًا لصوت ثيرانهِ وهمَّ بالخروج من الخيمة وهو يقول لقد تقاتل الثوران فخرج حماد في اثرهِ وكان الليل قد سدل نقابهُ فسارا حتى دنوا من مربط الثيران فاذا هي لا تتقاتل ولكنها شاهدا بينها جملاً غريبًا فتقدم الشيخ اليهِ وامسكهُ بعنقهِ وابعدهُ عن ثيرانهِ حتى دنا بهِ من نار موقدة يستضاء بها وحماد يراعيهِ بعينيهِ ولم يكد الشيخ يتأمل ذلك الجمل حتى ضحك وقال وهذه ناقة من نوق اهل المدينة قد تخلفت عن جند الحجاز الذي قلت لك انهم جاؤوا لحرب الغسانيين

فقال حماد وما الذي دلك على ذلك

قال دلني عليهِ شكل الرحل فانهُ خاص باهل المدينة وكثيرًا ما رأينا من امثال هذه النوق مارة بنا الى الشام وغيرها

فقال حماد يظهر ان هؤلاء العدنانيين قد اصبحوا على مقربة منا

فقال الشيخ لا أظنهم قريبين فقد يكون بيننا وبينهم مسافة ايام ولعل هذه الناقة قد تاهت منذ بضعة ايام قال ذلك وهو يعقلها ويأتي لها بالعلف

فتركهُ حماد وعاد الى خيمتهِ وقد تمثل لهُ الامر بجسامتهِ فعظم عليهِ ان يذهب أملهُ ادراج الرياح لاشتغال جبلة بالحرب فشعر باحتياجه الى سلمان فصبر نفسهُ ريثما يعود اليهِ بخبر والده



# الفصل الثاني والثلاثون

## ﴿ سلمان وأخباره ﴾

وبعد ايام عاد سلمان كاسف البال لخيبة مسعاه في التفتيش عن سيده وكان حماد قد ملّ الانتظار فاستطلعهُ كنه ما علمهُ فاحكى لهُ ما سمعهُ ثم قال يلوح لي ان سيدي رافق أبا سفيان الى الحجاز اذ يظهر مما سمعتهُ انهُ تحقق خبر مقتلك فلم يبق لهُ وطر في الحياة ولعل ابا سفيان حبب اليهِ السفر ورغبهُ في المسير الى الكعبة فجاراه

فقال حماد لا أظنهُ يفعل ذلك قبل ان يأتي بصرى ويستخرج المخبأة التي خبأناها في غسان

فقال وما أدرانا انهُ لم يأت اليها بعد ان استخرجناها او لعلهُ أرسل من يبحث عنها فلم يظفر بها وعلى كل حال ان سيدي ليس في فلسطين ولا البلقاء ولا عثرت عليهِ في عمان ويؤخذ من مجمل ما سمعتهُ انهُ سار الى الحجاز فهل تأذن لي في الذهاب الى مكة للتفتيش عنهُ

قال لو كنّا على يقين من ذهابهِ اليها لسرت انا بنفسي ولكننا انما نرجم بالغيب وزد على ذلك اننا في حال تدعو الى القلق من امر الحرب المنتظرة بين الحجاز يين والغسانيين وقد سمعتك تشير اليها في أثناء حديثك وكنت في ريب من امرها مع اني سمعتها من شيخنا النبطي منذ ايام

فقال سلمان أما مجيء هؤلاء الرجال فلا شك فيهِ لاني شاهدت معسكرهم شهادة عين بجوار عمان واما سيدي فالارجح انهُ سار الى الحجاز او لعلهُ أُصيب بما عاقهُ عن المجيء الى بصرى ولا يلبث ان يأتي اليها فاذا لم نرهُ بعد ايام علمنا انهُ سار مع أبي سفيان الى مكة

فلم ير حماد بدًّا من التربص لما سيظهر من هذا القبيل ولكنهُ عاد الى امرهِ مع هند وما عسى ان يكون من شأنها بعد طول الانقطاع وخاف ان يتغلب الفتور على قلبها فيذهب سعيهُ هدرًا

فقال عليك يا سلمان ان تتردد الى بصرى لعلك تسمع شيئًا عن والدي ولا

تنتهي البحث عن هند و والدها فقد علمت ما داهم الغسانيين من امر الحرب على حين غفلة واخشى اذا حي وطيسها ان تذهب آمالنا كلها ادراج الرياح

فقال سلمان والقلق ظاهر على وجهه وما ادراك انني غافل عن هذا الامر وهو شاغل فكري ليلاً ونهارًا وكنت عازمًا على استئذانك في الذهاب الى بصرى في صباح الغد فقد سمعت الناس يتقوّلون اقوالاً لم اصدقها

فبغت حماد وقال وماذا عسى ان يكون نقولهم وعمن يتقولون قل ما الذي سمعته

قال لم أسمع شيئًا يوجب قلقًا لاني على يقين من حب هند وثباتها في حبك

فازداد حماد اندهاشًا وقال هند ؟ وما شأن هند وماذا يتقوّل الناس عنها قل يا سلمان

قال هدئ روعك فاني لا اخفي عنك شيئًا وخصوصًا ان ما سمعته لا يوجب قلقًا ولا يجرّ الى خوف

فقال حماد وقد نفد صبره قل ماذا يقولون

قال سمعت الناس يتحدثون في بصرى وضواحيها ان ثعلبة طلب الاقتران بهند

فلما سمع حماد اسم ثعلبة مقرونًا باسم هند وقف شعره واقشعرّ بدنه وقال وكيف طلب ذلك ومتى

قال سمعت انه طلبها بواسطة والد الحارث وان والده خاطب جبلة فوعده

فصاح حماد وبماذا وعده .....

قال سلمان وهو يبتسم ما لي اراك قليل الصبر خفف عنك واصغ الى ما اقول فقد عهدتك صبورًا حازمًا

قال اني صبور على كل شيء الاّ على هند قل ما كان وعده

قال وعده بمخاطبة الفتاة او بالحري بمشاورة والدتها اذ لا تجهل ان اقتران البنات فلما يتوقف على ارادتهنّ

فقال حماد وماذا كانت النتيجة

قال لم أتحقق الخبر بعد فقد قال بعضهم انه خاطبها ولم تقبل وقال آخرون انه لم يخاطبها بعد ولكن صديقًا لي من اهل بصرى صادقته على أثر هجوم ثعلبة على منزلنا يوم قبضوا على سيدي الامير واظنه أعلم الناس بحقيقة الواقع انبأني امس وقد

لقيته في الطريق بجوار بصرى ان الحارث استبطأ جواب جبلة بشأن هند فسار اليه ثانية يستعجله في الجواب على أثر قدوم هؤلاء الحجازيين لانه يريد التعجيل في الاقتران قبل انتشاب الحرب

فخفق قلب حماد كمن أخفق مسعاه ووقف وقد امتقع لونه وقال ما هذه الاحاديث يا سلمان فاني اراني في حلم انظن آمالنا ومساعينا قد ذهبت عبثًا وهل ترضى هند بابن عمها ثعلبة . قال ذلك والدمع يكاد يتناثر من عينيه

فانقدت الشهامة والغيرة في قلب سلمان وهمّ بحماد فضمه الى صدره وقال له خسيء الذل ان هندًا أرفع من ان تدنس قلبها بحبه وانت اعلم مني بانفتها وعزة نفسها وكرهها لثعلبة ويلوح لي ان البطء في جوابها ناتج عن تمنعها

فانتعش حماد لذلك الكلام ولكنه ما زال خائفًا من ان تؤخذ الفتاة قسرًا فقال حاشا لقلب هند ان يحب ذلك الخائن ولكنني اخاف ان تحمل على القبول بهِ مراعاة لعلاقة أبويها لما بينهما من النسب وما يخشى من عواقب الرفض فقد يصعب على هند ان ترفض ما يريد ابواها

فقال سلمان لا يصعب عليها ذلك ووالدتها نصيرة لها فقد آنست من هذه المرأة يوم قابلتها وانا في زي الراهب ما دلني على دهائها وقوة جنانها فهي اذا ارادت تحويل زوجها عن امر لا يصعب عليها

قال حماد ومن ينبئنا ببقائها على ذلك ونحن لم نرمن حديثها في ذلك اليوم ما يدل على اخلاصها لنا وزد على ما تقدم ان مجاراة جبلة في رفض ثعلبة لا يضمن لنا رضاءه بسواه ( يريد نفسه )

فادرك سلمان وعورة المسلك ولكنه أظهر الاستخفاف بهِ وقال دع ذلك اليّ فاني ذاهب في صباح الغد لاستطلاع الخبر وتدبير الحيلة والله يفعل ما يشاء

فسكت حماد لا عن اقتناع ولكنه صبر نفسه ينتظر ما يأتي بهِ القدر

# الفصل الثالث والثلاثون

## ﴿ وعند جهينة الخبر اليقين ﴾

وباتوا تلك الليلة وحماد لم ينم الاَّ قليلاً لما تراكم عليهِ من الهواجس أما سلمان فقضى ليلتهُ يفكر في سبيل يوصلهُ الى المراد فنهض في الصباح التالي وفي نيتهِ الشخوص الى صرح الغدير لاعتقاده ان الخبر اليقين عند هند فلبس ثياب الرهبان وركب جواده وسار حتى اذا أتى الصرح سأل عمن يقيم فيهِ فقيل لهُ ان جبلة برحه منذ ايام بعد ان جاءه لزيارة . فتقدم الى باب الحديقة فاستقبلهُ بعض الخدم وسألهُ عن غرضهِ فقال انهُ جاء بهمة من رئيس دير بحيراء الى الاميرة سعدى وطلب مقابلتها فسألوها فاذنت بدخولهِ فلما خلت بهِ عرفتهُ فسألتهُ عن حماد فأنبأها بحالهِ وانهُ جاء يستطلع ما تمَّ من امرهِ فاستدعت هندًا وكانت في غرفتها تفكر في حماد وهي لا تعلم مقرهُ فلما سمعت بمجيء سلمان خفق قلبها واسرعت اليهِ وامارات البغتة تلوح على وجهها فلما رآها سلمان قام لها وسلم عليها وطمأنها عن حماد وسألها عن صحتها فطمأنتهُ وكان سلمان في أثناء الحديث يراقب حركات سعدى لعلهُ يلاحظ فيها ما كان يخافهُ من اخلافها فآنس منها ما حقق آمالهُ برضائها ولكنهُ ما زال قلقًا لما عساه ان يكون من أمر ثعلبة وطلبه فجعلوا يتجاذبون اطراف الحديث وأكثره بين سلمان وسعدى فعلم سلمان ما كان من عدول جبلة عن ثعلبة ورضائهِ بحماد فسرَّ سرورًا لا مزيد عليهِ حتى رقص قلبهُ من الفرح وود لو ان لهُ أجنحة ليطير بها الى حماد يبشره بذلك

ثم قال لسعدى وما هو موعدنا من مخاطبة سيدي الملك بهذا الشأن

قالت نحن على موعد من مجيئهِ الينا بعد ايام فاذا كان يوم مجيئهِ يتقدم حماد في طلب هند فينال مبتغاه وكانت هند في أثناء ذلك مطرقة حياء لا تتكلم وقلبها يرقص طربًا . فقال سلمان ومن ينبئنا بذلك اليوم ونحن بعيدون عن هذا القصر

قالت نبعث معك من يعرف مقرَّكم فاذا كان اليوم المعهود ارسلناه في طلبكم

قال حسنًا وهمَّ بالخروج فوقفتا لهُ فودعها وخرج وهو لا يصدق انهُ سمع ما سمعهُ ولكنهُ لم يعلم بما سيقوم في سبيل سيده من العقبات ورافقهُ خادم انتدبوه لهذه المهمة على ان يكتمها

ولا تسل عن فرح حماد بلقاء سلمان وما كان من سروره لما سمعهُ حتى تمثلت لهُ السعادة عبدًا رقاً ونسي والده وضياعه لا عن عقوق ولكن الحب تغلب عليهِ فوعد نفسهُ بالبحث عن والده بعد ان يصير صهرًا لملك غسان فيكون اقدر على ذلك لما يرجوه من مساعدة عمهِ

فلنتركه في فرحه ولنرجع الى جبلة وما كان من امره بعد رجوعه الى صرح الغدير فانهُ ما لبث ان توارى عن الصرح حتى انجلى لهُ خطأهُ وما كان من تهوره في مجاراة امرأتهِ بشأن حماد ولم يعلم كيف يجيب الحارث عن طلبهِ وقد عظم عليهِ ان يردّه خائبًا بعد ان وعده لما في ذلك من ضعف الرأي فقضى معظم الطريق في مثل هذه الهواجس فلاح لهُ اخيرًا ان يكتم حقيقة الامر ويجعل جوابهُ تأجيل الخطبة الى ما بعد انقضاء الحرب على نية ان يبعث حمادًا في مهمة لا يعود منها واذا عاد انما يعود خائبًا فلا يستطيع طلبًا ولا ينال وطرًا

# الفصل الرابع والثلاثون

## ثعلبة

أما ثعلبة فدبر ما دبره وهو على ثقة من رضاء هند بهِ ولو قسرًا ثم علم بضياع عبدالله وترجح لديهِ مقتل حماد مما نقلهُ اليهِ جواسيسهُ الذين انتظم في اثر عبدالله عند خروجه من بيت المقدس وذلك ما كان يتمناه فهمدت غيرتهُ على هند لانهُ انما طلب الاقتران بها ليمنعها من حماد فلما علم بمقتلهِ ود الرجوع عن طلبهِ لتبقى منغصة العيش فتخسر الاثنين معًا فاخذ يترقب فرصة يؤجل بها الاقتران ثم يسعى في سبيل ينتقم بهِ من هند وكانت تحدثهُ نفسهُ انها اذا قبلت هي بهِ اجابها بالتأجيل والوعود حتى تموت كمدًا الاَّ اذا علم بعد ذلك ان حمادًا لم يقتل فيعود الى طلبها

ولم يكن والده يعلم بحقيقة مراده فكان يستعجل جبلة في أمر الاقتران ظنًا منهُ ان ذلك يسرُّ ابنهُ ويجعل عيشهُ سعيدًا فلما سمع بمجيء الحجازيين الى عمان سار بنفسهِ

الى جبلة والح عليهِ بامر الاقتران قبل انتشاب الحرب كما تقدم ثم توارد تعليهم الاخبار باقلاع اولئك العرب من عمان وشخوصهم الى البلقاء و بلغ ذلك ثعلبة فجاء الى والده وتداولا في اعداد المعدات وتحصين الحصون في حدود البلقاء فجرّهم الحديث الى هند والاقتران بها فاخبره والده انهُ استعجل جبلة في استجواب هند بشأن الاقتران وانهُ لا يشك بقبولها واوعز اليهِ ان يستعد للاقتران على ابسط الطرق بلا احتفال الى ما بعد انتصارهم فيكون الفرح مزدوجًا

فصمت ثعلبة برهة كمن يفكر في أمرهمهُ ثم قال ان حالنا الحاضرة يا أبتاه لا تؤذن لنا بالاحتفال كما قدمت فلا ارى ان نستعجل بالاقتران ولا بأس من تأجيلهِ حتى تنقضي الحرب . فعجب والده لجوابهِ بعد ما آنسهُ من الحاحه قبلاً ولكنهُ حمل ذلك منهُ على رغبتهِ في الحرب فاستحسنهُ وقال لهُ اراك تفضل الاشتغال بدفع الاعداء على نيل ما طالما كنت تتمناه وهي شهامة غسانية نذكرها لك

وكان الحارث يفضل التأجيل ايضًا ولكنهُ كان يلح على جبلة رغبة في إرضاء ابنهِ على انهُ خاف ان يكون في ذلك ما يسيء جبلة او يكدر العلائق بينهما فقال وماذا نجيب عمّك لو اجابنا بالقبول

قال نجيبهُ اننا في حال حرب لا تؤذن بالاقتران

قال ولكننا كنّا في مثل هذه الحال يوم جئتهُ والححت عليهِ بطلب الفتاة وقد اعتذر اليّ بحال الحرب فاجبتهُ اننا نود الفراغ من الاقتران قبل انتشابها فكيف نعود اليهِ بهذا العذر الا تظن في ذلك ما يحملهُ على اساءة الظن

قال لا يهمنا ساءه هذا الامر او سرهُ فاننا نريد التأجيل

فعجب الحارث لطيش ابنهِ وتغافلهِ عن حقيقة العلائق بينهُ وبين عمهِ فقال لهُ الا تعلم يا ولدي ان مثل هذه الظنون تسوق الى حرب بيننا وبينهُ فاذا كنت غافلاً عن ذلك فما انا بغافل وعلى كل فان المسألة دقيقة تحتاج الى دقة نظر وحسن اسلوب

فلبث ثعلبة برهة يفكر وقد انتبه لحرج المقام وكانت الغيرة والانتقام قد غشيا بصرهُ فقال لوالده ولكن حال اليوم غير ما كانت عليهِ يوم استعجلت جبلة في الاقتران فقد كان الاعداء اذ ذاك في عمان وهم قد اقلعوا الآن من هناك وتحركوا نحو البلقاء

فاجعل ذلك سبباً للتأجيل

فرأى الحارث في كلام ثعلبة بعض العذر فعوّل على الالتجاء اليهِ في مخاطبة جبلة وفيما هما في ذلك جاءهما رسول من جبلة يستقدم الحارث للمداولة بشأن الحرب فقال الحارث ها اني ذاهب الى البلقاء لأرى ما تمّ من رأي جبلة بشأن الحرب واذا خاطبني في أمر هند عمدنا الى التأجيل كما قدمنا فاشتغل انت بتدبير الجند واكتب الى الامراء ان يجمع كل منهم رجالهُ تحت رايتهِ وينتهياً للحرب عند الحاجة واذا رأيت فيهم تقاعداً استحثهم واستنهض هممهم وادفع اليهم ما يحتاجون اليهِ من المال واستشر في ذلك البطريق رومانوس فانهُ قد اوعز اليَّ ان اجمع عشائر غسان التابعين للرومانيا ولا بد من انهُ قد كتب الى جبلة بمثل ذلك ايضاً فكن على استعداد وان تكن الحالة اوشك الحجاز بين لا تستدعي كبير اهتمام

فقال ثعلبة اني عامل على ما تريد ولكنني ارجو ان ننعم ما تكلمنا فيهِ من تأجيل الاقتران فوعده بذلك وركب وركبت حولهُ رجال حاشيتهِ وسار قاصداً البلقاء

## الفصل الخامس والثلاثون

### جبلة والحارث

تركنا جبلة في حيرة من أمر الاقتران وتأجيلهِ وهو في طريقهِ من صرح الغدير الى البلقاء فلما وصل البلقاء سمع بتحرك الحجاز يين من عمان فقال في نفسهِ هذا عذر يساعدني على ما اريد فان زحف الاعداء الينا عذر كاف للاشتغال بهِ عن كل شاغل فكتب الى الحارث يستقدمهُ اليهِ لان البلقاء اقرب الى عمان من بصرى والح عليهِ في المجيء وذكر في كتابهِ انهُ يريد المداولة معهُ بشأن الحرب توصلاً بذلك الى تأجيل الاقتران فسار الحارث اليهِ كما تقدم

فلما التقيا سلما واسرعا الى خلوة تداولا فيها سرًّا

فقال جبلة قد دعوتك يا ابن العم للبحث في الوسائل التي يجب اتخاذها لدفع هؤلاء القادمين فقد علمت انهم تحرّكوا من عمان شمالاً فهم بلا ريب يقصدون هذه

الديار ولا يلبثون ان يأتونا وقد بعثت العبون يراقبون حركاتهم ليبعثونا بمعسكرهم فاعدد رجالك وها اني قد اعددت رجالي

فقال الحارث قد شاهدت العشائر في الطريق يستعدون للمسير اليكم واوصيت ولدنا ثعلبة ان يكتب الى العشائر الاخرى لتجتمع بجوار بصرى فاذا اجتمعوا وعلمنا معسكر الاعداء حملنا عليهم معًا ولا أظننا نلقى مشقة في دفعهم لقلتهم وفقرهم فقد علمت انهم حفاة الاقدام لا يلبسون الاَّ شملات يلتحفون بها كما يفعل سائر اهل الحجاز لا يكاد يميز اميرهم من صعلوكهم (١)

ويلوح لي اننا اذا رأينا منهم ما أتعبنا أرضيناهم بمال ندفعهُ اليهم ولا نظنهم جاؤُنا الاَّ طمعًا بذلك لعلمهم بخيرات الشام وغنى دولة الرُّوم

قال ذلك ليوهم جبلة ان مجيئهم ليس مبنياً على سوء معاملتهِ لحامل كتابهم اليهِ

فقال جبلة لا ترى ان نعرض عليهم ذلك الاَّ بعد ان نرى منهم مقاومة ولكنني لا اظنهم يقفون امام جندنا يومًا واحدًا

ثم تذكر جبلة امر ثعلبة وهند فقال قد ذكرتَ ان ولدنا ثعلبة يهتم بمكاتبة العشائر فهل هو في بصرى الآن

قال نعم هو هناك وقد أسفت لهذه الحال التي ستحول بيننا وبين الاحتفال بزواجه ببنتنا هند

فقال جبلة ( وقد سرَّ بهذا العذر ) بالحقيقة انهُ موجب للاسف على اني لا ارى مانعًا من تأجيل الاقتران الى ما بعد الحرب فان فرحنا اذ ذاك يكون مزدوجًا والاثنان ولدانا والامر معقود لهما منذ ولدا

فابتسم الحارث فرحًا لما نالهُ من تأجيل الاقتران عفوًا فقال لجبلة بورك فيك فقد كنت اميل الى ذلك واستحسنهُ واخشى اذا ذكرتهُ لك ان تظن سوءًا فنشكر الله على توارد رأينا ولا بد من ان يكون ذلك هو الصواب

فقال جبلة نعم انهُ الرأي الصواب وسأسير الى صرح الغدير فارى سعدى وأُنبئها بما تمَّ عليهِ الامر لئلا تكون مشتغلة في الاستعداد بعد ان خاطبتها في التعجيل على أثر تعجيلك فلا بد من ابلاغها خبر التأجيل ولا أُحب ان يكون ذلك على يد احد سواي ( وهو اذا يريد المسير بنفسهِ للمداولة بشأن المهمة التي يريد ارسال حماد فيها )

(١) المقريزي

فقال الحارث افعل ما بدالك وفقنا الله لما فيه الخير ثم خرجا وسأل جبلة عمن سار لتفقد حركات الاعداء فقالوا انهُ جاء فاستقدمهُ وعاد بهِ والحارث معهما الى مكان منفرد وكان الرسول ممن خالط الحجازيين واحسن تقليدهم فاختاره جبلة ليختلط بهم و يستطلع حالهم فأنبأها بانهم قاموا من عمان وساروا برٍ بدون مؤتة عند الكرك (١) وانهم سيصلونها قريبًا

فقال الحارث أتظنهم يصلون الينا

قال جبلة ربما فعلوا ذلك . ثم تحوّل نحو الرسول فقال لهُ وهل عرفت عددهم وقواتهم قال أظنهم لا يتجاوزون ثلاثة آلاف مقاتل وليس معهم من العدة والسلاح الاَّ شيء قليل لا يقاس بعدة رجالنا واسلحتهم

فضحك الحارث مستهزئًا وقال أبثلاثة آلاف فارس جاؤوا من اقاصي الحجاز ليحاربوا الروم وجنودنا تتجاوز مئة الف (٢) ومعها الخيول والسلاح

فقال الرسول وقد علمت انهم ادركوا ضعفهم وقلتهم وربما وقفوا هنيهة ريثما يستقدمون مددًا لهم من الحجاز

فقال الحارث أعلمت انهم بعثوا يستقدمون المدد

قال الرسول كلا ولكنهم تداولوا في ذلك والارجح انهم لا يفعلون فقد سمعت مداولتهم وانا جالس بين جماعة منهم كأني احدهم فقال قائل من بينهم « كيف نهاجم بلادًا لا يقل جندها عن مائة مقاتل وقد يبلغ المئتين فلنطالب المدد » فقام رجل من كبارهم اسمهُ عبد الله بن رواحة فقال لهم « يا قوم والله ان الذي تكرهون للذي خرجتم لهُ خرجتم تطلبون الشهادة ونحن ما نقاتل الناس بعدة ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم الاَّ بهذا الذي اكرمنا الله تعالى بهِ فانما هي احدى الحسنيين اما ظهور واما شهادة » فسمعت الناس يضجون قائلين « صدق والله بن رواحة » فلا اظنهم بعد ذلك يستمدون اهل الحجاز

فقال جبلة وهل سمعت شيئًا من اهل القرى التي مرُّوا بها فلا بد من انهم تعرّضوا لهم وقطعوا اشجارهم وآذوهم

قال لم أسمع منهم تشكيًا ولقد عجبت لحال هؤلاء الحجازيين فانهم على فقرهم وما

(١) ابن الاثير (٢) السيرة الحلبية

يظهر من ضنك احوالهم لم يوذوا احدًا من اهل القرى الاَّ الذين اعترضوهم ولقد بتُّ في دير بين عمان ومؤتة وسمعت حديث الرهبان بشأنهم فرأيتهم يثنون على حسن نصرتهم فقدموا لهم ولم يكلفوهم امرًا غير ما احتاجوا اليه من ماء او علف

فقال الحارث الظاهر انهم يلتمسون ثقة الاهالي حتى لا يكونوا عونًا عليهم أثناء الحرب

فقال الرسول لا اظن ذلك غرضهم ولكني سمعت من رجل جالسته بالامس فاتخذني صديقًا وقص عليَّ قصصًا كثيرة هو معجب بها عن النبي الذي قاموا بنصرته وما قالهُ لي انهُ لما خرج لوداعهم في ثنية الوداع خارج يثرب وسلم الالوية اليهم اوصاهم قائلاً « اوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرًا اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام وستجدون فيها رجالاً في الصوامع فلا تتعرَّضوا لهم ولا تقتلوا امرأة ولا صغيرًا ولا بصيرًا فانيًا ولا تقطعوا شجرًا ولا تهدموا بناء »(١)

فاعجب الحارث وجبلة بهذه الاقوال ثم قال الاوَّل أما وقد اقترب هؤلاء من الملقاء فلنبعث الى دمشق نستعجل الجند الرُّومي وليكن لقاؤنا اياهم دفعة واحدة نصدهم ونعيدهم من حيث أتوا. فوافقهُ جبلة على ذلك ولكنهُ ما فتئ يفكر في هند وحماد وما صدق ان عاد الحارث من عنده حتى ركب قاصدًا صرح الغدير لا يصحبهُ الاَّ فارسان فوصل القصر على غير انتظار فلما علمتْ سعدى بقدومهِ انشغل بالها ولكنها ما لبثت ان علمت بسبب مجيئهِ فحلا بها واطلعها على ما تمَّ بينهُ وبين الحارث ثم قال وهل أنت على ما علمت من أمر ذلك الشاب أم تمكنتِ من تحويل هند عن عزمها فرجعتْ الى صوابها

قالت قلت لك قبل الآن ان من يحاول تحويل هند عن حماد فانهُ يلتمس امرًا مستحيلاً

فتنهد آسفًا لما فرط منهُ تلك الليلة من القول بمشورة سعدى بشأن هند وحماد ثم قال فاليَ بالحيلة التي وعدت بتدبيرها للتخلص من هذه الورطة



(١) السيرة الحلبية

# الفصل السادس والثلاثون

## قرطا ماربة

قالت ارى ان نطلب اليهِ شيئًا صعب المنال يقدمهُ مهرًا لهند فاذا لم يستطعهُ كان الجاني على نفسهِ وكنا براء من لوم هند وقد كلمتها بهذا الشأن فرأيت فيها ميلاً الى ذلك فهي تحب ان تعلو منزلة حماد في عيون اهلها فاذا اقترحنا عليهِ عملاً يعملهُ في سبيل الحصول عليها فانها تزداد افتخارًا بهِ كلما زاد ذلك العمل عظماً وخطرًا

فقال وهل خاطبتها في ماهية ذلك الاقتراح

قالت كلاَّ

فقال وهل عينتِ الاقتراح في ذهنك أم انت تنتظرين البحث في شأنهِ الآن

قالت أظنني عينتهُ وسأعرضهُ عليك لعلك تستحسنهُ والاَّ فاننا ننظر في سواه

قال وما هو قولي

قالت لا يخفى عليك ان جدتنا ماربة بنت ظالم اخت هند الهنود امرأة حجر آكل المرار الكندي هي جدة ملوك غسان كافة

قال نعم واعلم انها صاحبة الفرطين اللذين يضرب المثل بهما

قالت لقد نطقت بالصواب نعم اياها اعني فلا يخفى عليك ان قرطيها اللذين ذكرتهما لم يلبس ملوك الارض مثلهما لان فيهما درّتين كبيضي حمام لم ير الناس مثلهما ولم يدروا ما قيمتهما (١)

قال نعم انهما ثمينتان

قالت اتدري اين قرطاها الآن

فبهت جبلة مدة ثم قال نقل لي والدي عن جدي عمن قبلهُ ان جدتنا ماربة اهدت قرطيها الى الكعبة في مكة على سبيل النذر ويظهر انهما كانت وثنية ولولا ذلك لم تهد مثل هذه التحف الى الكعبة

(١) مجمع الأمثال للميداني

فقالت مهما يكن من امرها فان قرطيها لا يزالان في الكعبة (١)

قال نعم

قالت فاري ان نقترح على حماد الاتيان بهما مهرًا لهند تلبسهما في زفافها فما قولك

فاعجب جبلة بذكاء سعدى وحسن اختيارها ودقة نظرها وتبسم وقد أبرقت اسرته كأنه رأى باب الفرج قد فتح فقال بورك فيك ونعم الرأي رأيك انه اقتراح لا يتأتى لبشر ان يأتي بمثلهِ لانه بعيد المنال واذا فرضنا ان حمادًا استطاعه فانه يكون اهلاً لهند فلا نمنعه منها فهل تظنين هندًا توافقنا في ذلك

قالت لا أظنها الاَّ موافقة والاَّ فيكون لنا عذر في رد حماد

قال ها قد تقرَّر الامر فحاطبي هندًا بشأنهِ فاذا قبلت استدعي الشاب ونوبي عني في ابلاغه ذلك فاني في شاغل عن هذه الشؤون بما نحن فيهِ من امر الحرب المنتظرة

قالت حسنًا وخرجت

وكانت هند في أثناء ذلك تمشي في الحديقة وقد علمت بمجيء والدها وتيقنت انه انما جاء لهذا الشأن وخصوصًا بعد ان رأته اخذلى بوالدتها فلبثت تخطر في الحديقة وقلبها يخطر في صدرها وافكارها تجول في ماذا عسى ان يقرَّ عليهِ القرار فلما رأت والدتها خارجة اسرعت نحوها وهمَّت بالاستفهام فأومأت اليها ان تصبر ريثما يعود والدها فانه سيسرع الى البلقاء حالاً

وسارت سعدى الى الخدم فأمرتهم باعداد الطعام ثم خرج جبلة الى الحديقة متظاهرًا بالبحث عن هند فلما لاقاها قبلها وسلم عليها وهو يهش لها وعلامات الانبساط بادية على وجههِ فتوسمت بذلك خيرًا فمشت معهُ وهو يسألها عن صحتها وحالها ويحادثها بشؤون مختلفة الاَّ الاقتران فانهُ لم يذكره قط . أما هي فقد منعها الحياء عن ذكره

فبعد ان تناول جبلة الطعام ودَّع امرأتهُ وابنتهُ وعاد الى البلقاء ولم يكد يخرج من الحديقة حتى أسرعت هند الى والدتها تستطلعها الخبر

---

(١) ذكر بعض مؤرخي الاسلام في عرض وصفه ملابس جبلة ان في تاجه لؤلؤتي قرطي مارية والظاهر ان ذلك لم يكن الا على سبيل التمثيل فقط اي ان يكون في تاج جبلة لؤلؤتان كبيرتان تشبهان لؤلؤتي مارية وخصوصًا انهم لم يذكروا احدًا استرجعها من الكعبة

## ﴿ فتاة غسان ﴾

فأجابتها وهي تبتسم فائلة أبشرك ببقاء والدك على عزمه فقد رد الحارث وابنة وقبل بجاد كما قلت لكِ ولكنهُ يرى ويرى أنا ايضًا ان نقترح عليهِ عملاً يسد ما يتقولهُ الناس من غموض أصلهِ وفصلهِ. فانهُ كما لا يخفى عليك بطل باسل لا يرى الواشي سبيلاً الى الطعن فيهِ الاَّ من جهة نسبهِ فاذا عمل عملاً تفرَّد هو فيهِ كان ذلك داعيًا الى رفع منزلتهِ وسكوت الناس عن الطعن في اصلهِ

وكانت هند قد سمعت مثل ذلك من والدتها قبلاً فقالت ان ذلك يا أُماه مما يوجب لي الفخر ايضًا واعلم ان حمادًا لا يتوقف في سبيل هند عن عمل يستطيعهُ الناس فهل قرَّ رأيكما على اقتراح نقترحهُ عليهِ

قالت لقد رأيت ان يكون في اقتراحنا ما يزيِّن بهِ رأسك فضلاً عن شرفك

قالت وما هو

قالت رأينا ان نطلب اليهِ الاتيان بقرطَي مارية من الكعبة. واحكت لها حكايتها

فبهتت هند برهة وقد هالها ذلك الاقتراح ولكن ابنتها منعتها من اكباره فقالت لا أظن حمادًا الاَّ فاعلاً ذلك باذن الله

قالت هلمَّ بنا نستقدمهُ ونعرض عليهِ الامر

فلما سمعت باستقدامهِ رقص قلبها فرحًا بلقياه وقالت استقدميهِ والاتكال على الله

قالت ذلك وقد شغلها الفرح بقرب مشاهدتهِ عن تقدير تلك المهمة حق قدرها

فنادت الخادم الذي رافق سلمان الى مقر حماد واوعزت اليهِ ان يستقدمهُ الى الصرح

# الفصل السابع والثلاثون

## ﴿ حمَّـاد وآمالهُ ﴾

تركنا حمادًا وسلمان يفكران في عبدالله وما بين الرجاء والقنوط من أمرهِ فقضى سلمان اياماً يتردد الى البلقاء وبصرى للبحث عنهُ فلم يقف لهُ على خبر حتى ترجح لديهِ اخيرًا انهُ سافر الى الحجاز

واما حماد فكان بين شاغلين عظيمين هند من جهة ووالده من جهة اخرى وكلما رأى قادماً ظنهُ رسولاً من هند جاء يستقدمهُ اليها او مبشّراً يبشّهُ بخبر والده

حتى كان اليوم الذي تقرر فيهِ استقدامهُ واتفق انهُ افاق في صباح ذلك اليوم منشرح الصدر واسع الآمال وكان قلما يصبح الاَّ سقيمًا كئيبًا لما يتوالى على ذهنهِ من المخاوف تارة على والده وطورًا على حبيبتهِ حتى اثر ذلك في صحتهِ فرقَّ جسمهُ قليلاً على انهُ كثيرًا ما كان يخرج للصيد او نحوهِ لترويح النفس ولولا ذلك ما نجا من غائلة المرض

فلما اصبح في ذلك اليوم على ما تقدم عجب واستبشر ولبث يتوقع خبرًا مفرحًا وكان سلمان قد خرج من الخيمة لبعض المهام وهو على غير ما كان عليهِ سيدهُ من الانشراح والاستبشار ولكنهُ ما لبث ان رأى فارسًا قادمًا مسرعًا فعلم من جهة مسيرهِ انهُ يقصد ضربهم فتفرَّسهُ عن بعد فعلم انهُ من رجال صرح الغدير فتوسم قدومهِ خيرًا فخف للقائهِ فلما دنا منهُ عرفهُ ورآهُ يتبسم فعلم انهُ انما جاء ليبشر بخير وقبل ان يصل الفارس الى سلمان ترجل ومشى وزمام الفرس بيدهِ ومشى سلمان حتى التقيا فتصافحا وتعانقا فاستطلعهُ سلمان الخبر فقال جئت استقدم الامير حمادًا الى سيدتي الاميرة سعدى في صرح الغدير لأنها تريد مخاطبتهُ في شأن

فقال سلمان وهل تدري ما هو ذلك الشأن فضمك الخادم وقال لا ادري ولا بد من ان تكون اعلم مني بهِ وانا اهل البيت عندنا فقد لاحظنا من بعض ما سمعوهُ سرًّا وادركوهُ ضمنًا ان مولاتنا هند تخطب وكنا ننتظر ذلك اليوم فانهُ سيكون يومًا سعيدًا لم يرَ غسان اسعد منهُ لان مولاتنا جبلة كريم النفس سيخلع علينا خلعًا فاخرة وينثر علينا الذهب نثرًا

فتبسم سلمان وقال وهل علمتم من هو خطيبها

قال نعم هو ابن عمها ثعلبة اذ ليس من ابناء عمها من هو أقرب منهُ اليها وقد طلبها ولكنني علمت من بعض الخدم انها لا تحبهُ ولا تقبل بهِ

قال سلمان وهل يكنها رفضهُ

قال لا ادري والظاهر انها رفضتهُ . وكان الخادم قد سمع بأمر حماد ورغبة هند فيهِ ولكنهُ تجاهل لئلاَّ يقال انهُ باح بالسر وود ان يكون سلمان البادئ بالخبر

واما سلمان فلم يعد يستطيع صبرًا على كتمان هذه الاخبار عن سيده ولكنه اراد معرفة ما دعا الى استقدام حماد فقال وهل سمعت امرًا حدث قريبًا في القصر

قال لم اسمع شيئًا ولكني رأيت سيدي الامير جلة جاء بالامس فمكث عندنا بضع ساعات قضاها في المسارّة هو والامير ثم عاد الى البلقاء وفي حال خروجه استقدمتني سيدتي واعذتني اليكم

فادرك سلمان ان مجيء جبلة لم يكن الاّ لامر الخطبة وترجح عنده انه رضي بحماد ولولا ذلك لم يكن ثمت داع لاستقدام حماد على اثر رجوعه حالاً فدخل على سيده وكان متكئًا على اثر عودته من صيد قريب وقلبه يطفح سرورًا ودلائل الانبساط ظاهرة على وجهه لسبب لا يعرفه احد فدخل عليه سلمان وحياه وهو يبتسم

فقال له ما وراءك يا سلمان اني اراك مسرورًا

قال عساها ان تكون بشرى خير يا سيدي

قال وما ذلك

قال ان أهل صرح الغدير بعثوا يستقدمونك اليهم فهل تذهب ام انت في شاغل الآن . قال ذلك وهو يضحك

فجلس حماد وهو يظنه مازحًا وقال لا ابالي دعاني اهل الصرح ام لا فاني اراني سعيدًا منذ فتحتُ عينيّ في هذا الصباح

قال وما يضرك ان تتم سعادتك فان انشراح صدرك ان هو الاّ فاتحة السعادة وهذا خادم القصر قد جاءنا فهل ادخله عليك ليبثك بهمته

فقال ليدخل

فدخل الفارس وهو لا يزال بلباس السفر فحيا الامير وانبأه بهمته فقال حماد ها فارقتهم جميعًا في خير

قال فارقتهم يدعون لسيدي الامير بالصحة والعافية ويرجون لقاءه قريبًا انهم سرورهم بروّيته . فاستبشر حماد بما وراء ذلك

وقال اهدهم سلامي وقل اننا سنصحبهم غدًا ان شاء الله

فقبل الخادم يده وخرج فخرج سلمان لوداعه ودفع اليه عشرة دنانير وقال هذا ثمن عليق الفرس وسترى منا ما يشرح صدرك فسرّ الخادم بالهدية وبالوعد وودّ

ان تتم خطبة هند لحماد لما ظهر من سخافة ورقة جانبو خلافاً لتعلمة فانه لم يكن احد من أهل الصرح يجهل لعجرفتو وبخله

فلما سار الخادم عاد سلمان الى حماد فرآه مطرقاً يفكر

فقال ما بال سيدي يفكر العلة بغت لتلك الدعوة على غير انتظار

قال كلا يا سلمان فقد كنت اتوقع خبراً مفرحاً منذ الصباح ولكني افكر في والدي ومكانو فانه طالما تمنى ان يزوجني ويفرح بي وقد كان يجب ان يسير هو معنا في هذه المهمة . ولكن من ينبئنا بمكانو

فقال سلمان دع عنك الهواجس يا مولاي فقد تقرر في ذهني ان سيدي سار الى الحجاز ومتى فرغنا من مهمتنا هذه اذهب اليو بنفسي ولا ازال ابحث عنه حتى آتي بو باذن الله فلنستعد الآن للذهاب الى صرح الغدير

قال أرى ان نبرح هذا المكان قبل الفجر حتى نصبح في الصرح كما قلنا للخادم . قال حسناً واخذا في الاستعداد وحماد كلما تصوّر ملافاته هنداً خفق قلبه وهالة الموقف وتذكر اجتماعه بها في دير بحيراء . ولكن سروره لم يكن تاماً مخافة ان لا تكون دعوته على ما يؤمله من الفوز بما يتمناه ولكن الامل غلب عليو فتصور انه انما دعي لاتمام عقد الخطبة فقضى بقية ذلك اليوم في مثل هذه الافكار

## الفصل الثامن والثلاثون

### ساعة اللقاء

أما هند فلما عاد الرسول وانبأها بمجيء حماد في صباح الغد خفق قلبها ولبثت تعد الساعات والدقائق فقضت ذلك اليوم ولم تنم من شدة الفرح فلما اصبحت سارت الى والدتها وسألتها عن المكان الذي سيجتمعون فيو فقالت قد امرت الخدم ان يعدوا غرفة الضيافة ولا يدخلوا اليها احداً في هذا اليوم وان يذبحوا الذبائح ويعدوا الاسمطة فلبست هند ثوباً سماوياً جميلاً خاطتهُ لها احدى خياطات دمشق وكانت قد خبأته لمثل ذلك اليوم ومشطت شعرها وضفرتهُ وجعلت تتشاغل ببعض المهام اخفاء لما

ثار في قلبها من الفواعل المتضاربة بين الفرح بلقيا حبيبها وهول موقفها ساعة اللقاء وخوفها عليهِ مما اعدوه لهُ من امر الكعبة

وكانت سعدى قد انفذت جماعة من أهل القصر لاستقبال القادمين قبل وصولهم فلما كان الضحى ودنا الوقت جعلت هند تطل من النوافذ تنظر الى ساحة الميدان التي جرى فيها السباق منذ بضعة أشهر ووراءها الآكام والغياض وكلما رأت غبارًا او آنست اشباحًا ظنت حمادًا قادمًا فيخفق قلبها وتتورد وجنتاها حتى كانت الظهيرة فاذا بالغبار يتصاعد من بعض جوانب الافق ثم بان من تحتهِ فرسان يسرعون وفي مقدمتهم فارس عرفت انهُ من أهل النصر وانهُ تقدم الجماعة ليبشر بقدومهم فارداد خفقان قلبها ثم شاهدت الفرسان يقتربون ويتقدمهم حبيبها حماد ملثمًا بالكوفية فانكرتهُ في بادئ الرأي اركوبهِ فرسًا غير فرسهِ . ثم غلب عليها الضعف النسائي فاصطكت ركبتاها واستعظمت ساعة اللقاء فتحولت عن النافذة ولكنها ما انفكت تنظر اليهِ خلسة حتى دنا من القصر وكانت والدتها واقفة الى جانبها وقد لحظت ما هي فيهِ من الهيام فقالت لها امكثي هنا ريثما استقدمك الى دار الضيافة

وخرجت الى الحديقة وقد رجل الفرسان وتركوا خيولهم في عهدة الخدم ودخلوا الحديقة وفي جملتهم حماد ملتفًا بعباءتهِ وقد حوّل اذيال كوفيتهِ عن وجههِ وارسلها الى كتفيهِ فبانت ملامح محياه وتقدم وسلمان الى جانبهِ حتى دنوا من سعدى فتقدم سلمان اليها واخبرها انها هي الاميرة سعدى امرأة الملك جبلة فعلم انها والدة هند فسلّم عليها وهو يتوقع ان يرى هندًا فلم يرها فعلم ان الحياء منعها من القدوم للقائهِ وانها لا تلبث ان تأتي

فاستقبلتهما سعدى وسارت بهما الى غرفة الضيافة فجلسوا والخدم وقوف بين ايديهم فقالت سعدى هل يأذن الامير بماء ليغتسل ويبدّل ثياب السفر قبل تناول الطعام فاجاب وغسل يديهِ ووجههُ وجاءهُ سلمان برداء حريري وكوفية فلبسها وجلس وعيناه شاخصتان نحو الباب وكلما سمع وقع اقدام او رأى شبحًا ظنهُ هندًا قادمة

أما سلمان فانهُ ترك سعدى وحمادًا في الغرفة وخرج يبحث عن هند وكان قد عرف غرفتها في مجيئهِ اليهم قبلاً كما علمت فاذا هي واقفة هناك تتلاهى بالاساور تدبرها حول معصمها وافكارها تائهة وقد علت وجهها امارات البغتة فلما رآها تظاهر بالسعال ليستلفت انتباهها وقد كانت لعظم تأثرها لا تمرُّ نسمة الا سمعت لها صوتًا

فكيف بسعال سلمان فانهُ ذعرها فالتفتت اليهِ فرأتهُ يبتسم فابتسمت ولكنها شعرت بقشعريرة خفيفة ثم مشت وهي تحاول اخفاء ما بها فتقدم نحوها وهو يحاذر ان يدخل الغرفة لئلاَّ يكون دخولهُ مخالفًا لمقتضيات العادة فمشت هي نحوهُ وسلمت عليهِ

فقال هل رضيت مولاتي عن راهب الدير جامع النذور

فتبسمت ولم تجب

فقال ها قد جئتك بالقاص الذي سرق الدرع فهل تريدين مقاضتهُ ولكني ارجو ان لا تحكمي عليهِ بالسجن

فتذكرت زيارتهُ اياها بثياب الرهبان فضحكت ولكنها ما زالت تنظر الى معصمها وتتلاهى بأساورها

فدنا منها وقال ما بالك لا تتكلمين يا مولاتي ألعلي أذنبت لاني تركت صاحب الدرع ( او لصهُ كما تزعمين ) وجئت وحدي . فهل استدعيهِ اليك

فلم تجب ولكنهُ كان يقرأ آيات السرور على وجهها

فقال اراك تتظاهرين بان مجيئهُ لا يهمك ولكني اقرأ على وجهك عبارة يكاد ينطق بها لسانك فقد فهمت مرادك بدون ان تتكلمي فها اني ذاهبٌ لادعو الرجل اليك فرفعت نظرها اليهِ كأنها تلومهُ على هذه المداعبة أما هو فتحوَّل عنها ضاحكًا حتى دخل غرفة الضيافة فرأى سعدى وحمادًا جالسين وليس في الغرفة سواهما فدنا من سعدى وقال وهو يتظاهر بالمزاح . ما بالي ارى هذه الغرفة قليلة النور كأنها بعيدة عن موقع أشعة الشمس

فقالت سعدى ألا ترى الاشعة داخلة من هذه النافذة

قال وهو يضحك لا أرى نورًا قط ويظهر لي ان شمسكم تشرق من الجنوب ( واشار الى غرفة هند ) فادركت سعدى مرادهُ فتبسمت واطرق حماد خجلاً ولكنهُ ودَّ ان يلج سلمان باستقدام هند

فقال سلمان أراكم تضحكون من كلامي وإراني اعلم منكم بمشرق شمس قصركم . ألا أذنت مولاتي بقدوم شمس هذا القصر بل شمس بني غسان الينا . . . . فاني أرى الاسمطة قد مدت وكأني بكم تنتهبون للغداء ولكن الطعام حرام علينا قبل مجيء سيدتي هند فانها محور انسنا ولا أظنك تكرين علينا ذلك

فقالت سعدى . أراك لجوجًا يا سلمان ولا مأرب لك في الامر

فضحك سلمان وقال لا مأرب لي صدقتِ لا مأرب لي ولكنني اعبر عن عواطف اناس آخرين واشار بطرف عينيهِ الى حماد فبسم حماد وقد توردت وجناه ونظر الى سلمان نظرة التوبيخ

فالتفت اليهِ سلمان وقال يظهر انك لا تريد مقابلة فتاة غسان فاذا كان هذا هو مرادك ( أستغفر الله ) فما كان اغنانا عن تكبد هذه المشاق وهجرنا الحيرة والعراق

فنظرت سعدى الى سلمان والرزانة والتعقل يتدفقان من وجهها وقالت لم ندعُ ولدنا حمادًا الاَّ ليرى هندًا وتراه فانهما ولداما ولا نجهل انهما يسرّان بامقابلة فلا تكن عجولاً ان هندًا لا تلبث ان تأتي ونتناول الغداء معنا

ثم وقفت وقالت وها اني ذاهبة لاستقدامها . وخرجت

فلما خرجت التفت حماد الى سلمان واراد معاتبته لما ابداه من الجرأة في خطاب الاميرة سعدى

فقال ولولا ذلك لطال زمن الوحدة ألعلنا جئنا لنأكل ونشرب

ثم عاد حماد الى الافتكار في هند وقرب مجيئها وما سيكون من امرها ساعة اللقاء فما لبث ان سمع وقع اقدام علم من لمزدواجها ان سعدى وهندًا قادمتان فتحفز للقيام أما سلمان فوقف بالباب فرآهما قادمتين فتبسم ونظر الى حماد

ثم وصلتا الى باب الغرفة فدخلت سعدى وهند تبعها مطرقة

فوقف حماد ومشى لاستقبالها وهو مطرق ايضًا ولكنهُ لم يخرِ أ على مصافحتها ولا هي فعلت ولكن قلباهما كانا ولا ريب يخفقان فرحًا وكل منهما يتظاهر بالتجلد فتشاغل هو باصلاح ردائهِ وارسال كوفيتهِ الى كتفهِ وتلاهت هي باصلاح قرطها في اذنها ولا تسل عن توردِ وجنتيها واصطكاك ركبتيها واخلاج قلبها . وحالما دخلت اشارت اليها والدتها ان تجلس على وسادة بالقرب منها فجلست وجلس الجميع ولشدة برهة لا يتكلمون وحماد ينظر الى هند محاذرًا فرآها قد تغير حالها عما كانت عليهِ يوم دير مجيراء فذل ورد وجنتيها وخف عضلها ولكنهُ رأى ذلك قد زادها جمالاً رهيبة وكانت هي تختلس النظر اليهِ ولا تكاد تصدق ان والدها رضي لها بهِ ثم يعترضها امر قرطي ماريا فتوجس خيفة

فنهضت سعدى الكلام قائلة وماذا تمّ من أمر والدك هل التقيتم به ام عرفتم مقره

فقال حماد كلاّ يا مولاتي فقد شغل بالنا تأخره ولم ندع مكانًا لم نسأل فيه عنه والفضل في هذا السعي كلهِ لهذا الرفيق ( واشار الى سلمان ) فانهُ لم يألُ جهدًا في البحث والاستطلاع فلم نقف على خبر يقين

فقال سلمان ولكنني ارجح ذهابهُ الى الحجاز لما سمعت من حكاية صاحب الخان واخذ يقص عليهم ما سمعهُ من الخاماني في بيت المقدس وما كان من امر ابي سفيان وجواد حماد الخ

فاستفهمتهُ عن حكاية الاسد فقص عليهم ما لقوهُ في مسبعة الزرقاء وكانت هند في أثناء الحديث شاخصة حتى سمعت ما لاقياه عند تلك الشجرة من غائلة الاسد وما كانا فيهِ من الخطر فملأت الدموع في عينيها فلما رأى حماد منها ذلك اوشك ان يبكي لفرط ما آنس من رقة عواطفها . ثم أتمّ سلمان حكايتهُ حتى انتهى الى آخرها والجميع مصغون لا ينوه احدهم بكلمة

فلما فرغ من كلامهِ قالت سعدى بؤخذ من مجمل ما سمعناه ان والدكم سافر الى الحجاز مع ابي سفيان ولو كان باقيًا في البلقاء لجاء للبحث عنكم بعد ان نال العفو الامبراطوري ثم تبسمت وسكتت كأن في نفسها شيئًا تكتمهُ فبقي الجميع صامتين لعلها تقول شيئًا وفيما هم في ذلك دخل بعض الخدم وسأل الاميرة سعدى اذا كانت تأذن بمد السماط لان وقت الغداء قد أزف فقالت هاتوا الطعام والتفتت الى حماد قائلة هلم بنا الى الغداء وبعدهُ نتم حديثنا بعده

فمدت الاسمطة وحملت الذبائح وجلسوا على المائدة وحماد يفكر في ماذا عسى ان يكون وراء تبسم سعدى

فلما فرغوا من الطعام عادوا الى الاستراحة وجلسوا ينتظرون حديث سعدى الاّ هندًا فانها لم تكن معهم لان والدتها اشارت اليها ان تختلف هنيهة ريثما يتحادثون في شأنها

فلما استتب بهم المجلس قالت سعدى أظنكم تنتظرون مني كلامًا ظهر لكم من تبسمي الآن اني اكتمهُ

فقال حماد هو ذلك يا مولاتي فاتحفينا بهِ

قالت تبسمتُ لما اتفق من ذهاب والدكم الى الحجاز وما نحن عازمون ان نعرضهُ عليكم مما يأول الى اجتماعكم بهِ هناك

فعجب حماد لكلامها ولم يفقه مرادها فقال وما ذا عسى ان يكون اقتراحكم

قالت لا يخفى على ولدنا حماد ان ما عرفناه من شهامتهِ وكرم اخلاقهِ يكفي لاقتناعنا باستحقهِ هندًا وانهُ جدير بالحصول عليها دون ابن عمها . ولكننا معاشر العرب نحافظ على الانساب ونحترم القرابة ولا يخلو ان يكون قد بلغكم ان الحارث بن ابي شمر قد طلب هندًا لابنهِ ثعلبة وهو ابن عمها واولى الناس بها ولكننا اثرنا البقاء على ما ارادتهُ هند ورضينا بحماد لما آنسنا فيهِ من كرم الاخلاق وعلوّ الهمة وعدلنا عن ثعلبة على كونهِ ابن عمنا

فخجل حماد لهذا الاطناب واختلج قلبهُ فرحًا لما توسمهُ من رجوع الامر اليهِ وتحقق امانيهِ فاطرق صامتًا

فقالت سعدى ولكن والدها رأى رأيًا اذا وافق عليهِ حماد كان فيهِ دفع لتقوّل الناس وعتاب الاقارب وفخرٌ لنا جميعًا

قال حماد مري يامولاتي اني رهن اشارتك

قالت رأينا ان تعمل عملاً نقترحهُ عليك لا يعظم على باسل نظيرك فاذا فعلتهُ قطعت السنة المعترضين وزدتنا اعجابًا وفخرًا

فثارت الحمية في نفس حماد فقال قولي يا سيدتي اني فاعل ما تقولين وهل يثقل عليَّ امر ترضى بهِ هند

قالت نقترح عليك ان تلبس هندًا يوم زفافها قرطين فيهما لؤلؤتان كل لؤلؤة منهما قدر بيض الحمام

فقال العلك تعنين قرطيّ ماريه

قالت اياهما اعني وهل تدري مكانهما

قال سمعت انهُ ماريا جدتكم اهدتهما الى الكعبة منذ اجيال فهل هما باقيان هناك حتى الآن

قالت اظنهما لا يزالان هناك وفي استخراجهما من جوف الكعبة بسالة واقتدار جديران بكم

فلما سمع سلمان ذلك اضطرب فؤاده خوفًا على سيده لعلمهِ ان الكعبة امنع من عقاب الجو قد يستحيل الوصول اليها

فقال هل تأذن سيدتي بكلمة اقولها

قالت تفضّل

فقال هل تريدين ان تلبس مولاتي هندًا قرطي مارية عينها ام قرطين آخرين مثلها

قالت لا نلتمس شيئًا يقدّر بالمال يا سلمان فاننا من نعم الله في سعة و بسطة عيش ولكننا نريد ان نفاخر اعماما باننا لم نرض لهند الاّ رجلاً استخرج قرطي مارية من جوف الكعبة وهذا ما اضحكني لما سمعت حكاية الامير عبد الله وذهابهِ الى الحجاز فقلت في نفسي ان الله قد اذن بذهاب حماد ليلتقي بابيهِ هناك لان مقام ابي سفيان في مكة حيث الكعبة ايضًا

فالتفت حماد الى سعدى وملامح السالة تتجلى في وجههِ وقال لقد طلبت امرًا يحفر كثيرًا في سبيل مرضاة هند ولسوف ترين منا فوق ذلك باذن الله واما سلمان فانهُ استعظم الطلب ولكنهُ لبث صامتًا احترامًا لمقال سيدهِ

أما هند فانها كانت جالسة في غرفتها وهي تعلم بما ستقولهُ والدتها فلما تصوّرت الخطر المحدق بهذه المهمة ندمت لمجاراة والديها في ذلك وادركت انهما انما دبّرا حيلة للتخلص منهُ فعظم الامر عليها حتى بكت

وفيما هي في ذلك دخلت الخادمة تدعوها الى والديها فمسحت دموعها وسارت والكآبة ظاهرة على وجهها فلما دخلت الغرفة و رآها حماد على تلك الحال اثر منظرها في نفسهِ وهاجت فيهِ حمية الرّجال وقد ادرك انها انما تبكي جزعًا عليهِ فقال لها لا تجزعي يا هند انك ستلبسين قرطي مارية وتفاخرين بهما اهل الخافقين

فصمتت هند و لم تجب ولكن كلام حماد أثار فيها ساكن الغرام وهاج عواطفها فازدادت اعجابًا بشهامتهِ وحبهِ على ان خوفها عليهِ اعترض مجرى عواطفها فهبت الحرارة في جسمها كانك كشفت الغطاء عن نار منقدة في فؤادها فانبعث لهيبها الى سائر اطراف البدن وتلألأت الدموع في عينيها فاطرقت وجعلت تتلاهى بتثنية اطراف اكمامها مخافة ان يظهر اضطرابها لحماد

أما هو فلم يفتهُ حديث قلبها ولا غفل عما تضارب في ذهنها من العوامل ولكنهُ اراد تشجيعها فالتفت الى والدتها وقال طالما ساقني المسير الى الكعبة لمشاهدة ما اسمعهُ عنها من حج الناس اليها من اقطار العالم وكثيرًا ما سمعت حديث والدي عن الاصنام القائمة فيها وما يقدمهُ لها العرب من الضحايا وقد قرأت في بعض الكتب انها قديمة البناء جدًّا وانها كانت حجًا يأمهُ الناس من اطراف الارض وقد بنيت في بادىء الرأي لعبادة الله ثم جعلها بعض العرب مجمعًا لاوثان حملوها اليها من انحاء شتى من العالم الوثني وفي جملة ذلك صنم حملوهُ اليها من هذه البلاد ( البلقاء ) اسمهُ هُبَل وكان قبل ان حملوهُ اليها من البلقاء يسمى ( هَبْعل ) وهو لفظ عبراني معناه البعل اي الاله (١) يشبههُ في لغة الكلدان جيراننا بالعراق لفظ ( بِل ) وقد حملوا اليها اصنامًا اخرى من مصر واشور وغيرها فاجتمعت فيها مئات منها فاصبح ذلك البيت مجمعًا للاصنام

فانتبه سلمان وكان نائمًا في بحار الهواجس خوفًا على سيده فلما وصل حماد الى حكايات اصنام الكعبة قال سلمان نعم ان الاصنام كثيرة في الكعبة ولكن كثير من من عقلاء قريش لا يحترمونها وقد سمعت كثيرًا منهم يخاطب سيدي الامير عبد الله في بعض سفراتنا الى مكة بشأن تلك الاصنام فاكَّد لهُ ان جماعة كبيرة من عقلاء مكة وهم من قريش انما يزورون الكعبة لعبادة الله وان الاعتقاد بالله قد اتصل اليهم بالتلقين من سيدنا ابراهيم ولكن بعضهم ضلَّ عن سواء السبيل بما زيّن لهم من عبادة الاوثان (٢)

فقالت سعدى ووجهت خطابها الى حماد يظهر ان والدكم الامير قد سافر الى الحجاز قبل الآن

قال نعم يا مولاتي انهُ نزلها مرارًا ولذلك ظننا انهُ سار اليها هذه المرة ايضًا

فقالت ان ذلك لما يؤكد ذهابهُ اليها الآن فعسى ان تلتقوا بهِ هناك

قال اني ارجو ذلك وانمناه لنتم بهِ سعادتي . ثم فكر قليلاً وقال .نى تظنين يا مولاتي اننا سنبرح البلقاء

قالت متى شئتم وخير البر عاجلهُ

---

(١) اديان العرب قبل الاسلام في الهلال .... من السنة الخامسة (٢) تاريخ الأنبياء

قال ارى ان نودع يدي الملك جبلة قبل السفر فنلتمس دعاءه بالتوفيق

قالت ذلك راجع اليك اما هو فقد فوض الينا ان نبلغك رضاءه وما تمّ عليه الاتفاق فاذا شئت مقابلته فلا شك انهُ يسرُّ بلقياك

كل ذلك وهند مطرقة وعيناها تكادان تدمعان لولم يشغلها حديث الكعبة فلما تحوّل الحديث الى والدها استحسنت رأي حماد في زيارته على امل ان يتحول عزم والدها عن اقتراحه . فقالت تفعل حسنًا بزيارة والدي قبل سفرك

فازداد حماد رغبة في ذلك فقال غدًا نصابح مجلس الملك ان شاء الله فنسلم عليه ونودعهُ . هل تعرف الطريق الى البلقاء يا سلمان

فقالت سعدى سنرسل رجالاً يسيرون في ركابكم اليها

اما سلمان فما انفك منقبض النفس من امر هذه الجهة لعلمه انها شديدة الخطر جدًّا ولكنهُ سلم امره الى الله

وقضوا بقية اليوم في صرح الغدير ولكن هندًا لم تهنأ بذلك الاجتماع لخوفها من الفراق العاجل وقرب الخطر الشديد على انها شغلت بحديث حبيبها ولهت برؤيته عن كل المخاوف فلم يكن يوم اسعد عليها من ذلك اليوم وودت لو انهُ يوم يشوع بن نون خوفًا من انقضائه ولا تسل عن حماد وسروره ووقد سهل عليه المسير الى الكعبة املهُ بلقاء والده هناك

## الفصل التاسع والثلاثون

### ﴿ الوداع ﴾

وفي الصباح التالي اصبحت هند كئيبة حزينة واحست بلهفة وجزع لم تشعر بهما قبلاً فكانت كلما نظرت الى حماد خيل لها ان احدًا يحاول اختطافهُ من بين ذراعيها فيضطرب قلبها وتسودُّ الدنيا في عينيها فحدثتها نفسها لاول وهلة ان يتواطأ على رفض امر القرطين ولكن الانفة وعزة النفس اعترضتاها فصبرت نفسها متعللة بالآمال

فلما اشرقت الشمس كانت الخيول قد اعدت لركوب حماد وسلمان الى البلقاء مع بعض الفرسان من اهل القصر فنهض حماد لوداع هند ووالدتها وكانتا تنتظرانهِ

في غرفة الضيافة فدخل وهو في لباس السفر فوقفت له هند وركبتاها ترتجفان فمد يده اليها فمدت يدها فامسكها فاحسّ بها باردة كالثلج ونظر الى وجهها فاذا به قد امتقع لونه فلما خاطبها خطاب الوداع تناثر الدمع من عينيها بغتة وجذبت يدها من بين اناملهِ بلطف واطرقت ولم تجب فعلم انها انما فعلت ذلك خوفًا عليهِ من هذا السفر الخطر

فالتفت اليها مبتسماً وقال ما بالي ارى هندًا خائفة وعهدي بها تنافس اشجع الرجال وتسابق افرس الفرسان

فنظرت اليهِ بطرف عينيها وتنهدت تنهدًا عميقًا ولبثت صامتة ولسان حالها يقول « ان مسابقة الفرسان شيء ومفارقة الاحباب شيء آخر »

فادرك حماد مرادها ولكنهُ خاف اذا طال وقوفهُ ان يخرجه الغرام عما يليق بهِ في ذلك الموقف فتحوّل لوداع سعدى ثم عاد الى هند فودعها وتبسم لها فتبسمت مجاراة لهُ ولكن قلبها لم يفرج فقال لها ادعي لنا بسلامة العود فاذا عدنا كما اردنا كان حماد اهل لهند فلا تخشى هي ان تذكرهُ ولا تخجلهُ اذا ذكرهُ سواها واما اذا لم . . . . .

فقطعت هند كلامهُ على عجل وقالت وهي تتلجلج بكلامها لا نقل ( اذا ) فانك ستعود الينا سالمًا باذن الله ثم غلب عليها الضعف فتناثرت الدموع من عينيها وهي تحاول اخفاء عواطفها امام والدتها

أما سعدى فرأت من الحكمة ان لا تطيل الوقوف على هذه الصورة فقالت سر يا ولدي بحراسة الله وهو ينيلك بغيتك على اهون سبيل فتعود الينا سالمًا وقد التقيت بوالدك

فأثنى على لطفها وودعها وقبل يدها وخرج الى الحديقة وكان سلمان في انتظاره هناك وقد هيأ الموكب فلما خرج مولاه وسعدى وهند تتبعانهِ تقدم اليهما وودعها وهو على غير ما آنساه منهُ صباح الامس من انبساط النفس والمجون ولكنهُ تظاهر بالامتنان والانبساط واركب حمادًا ثم ركب هو وباقي الموكب وخرجوا قاصدين البقاء وهند وسعدى واقفتان تنظران اليهم اما هند فلم يكد حماد يدبر عنان جواده حتى غلب عليها اليأس وشعرت بما دبر والدها فتحوّلت الى غرفتها واخذت في البكاء وجعلت تندب سوء حظها وحظ حماد فتبعتها والدتها وهي تخفف عنها

وتصبرها بالوعود

فقالت دعيني يا اماه ها قد نفذ السهم وقضي الامر ان حمادًا قد سار الى مكان لا نرجو عودته وقد كان الاجدر بكم ان ترفضوا طلبه بدلاً من ارساله في هذه المهمة

قالت ذلك وهي تبكي

فقالت سعدى خلي عنك الاوهام ان حمادًا شجاع باسل وخادمه سلمان خبير بكل شيء فلا يعسر عليهما العود بالقرطين وفي ذلك فخر لك ولنا ومنجاة من اثقال ثعلبة وابيه على الاقل

فلما سمعت اسم ثعلبة تذكرت ما قاسته من مساعيه فهان عليها ما يقاسيه حماد في سبيل انقاذها معه فسكتت والهواجس تتقاذفها

أما حماد فما زال حتى اتى اللقاء وسلمان صامت لا يفوه بكلمة وكان حماد يبالغ في اظهار ارتياحه الى تلك السفرة وآمالهِ في عواقبها

وكانت البشائر قد سبقتها الى جبلة تنبئه بمجيء حماد والناس يحسبونه اميرًا جاء لغرض يتعلق بالحرب لان الروم كانوا قد خابروا كل القبائل المجاورة يلتمسون نجدتهم في حرب الحجازيين

أما جبلة فعلم انه جاء لامر يتعلق بخطبته فاذن بدخوله عليه في خلوة فلما التقيا بهِ همَّ حماد بتقبيل يدي جبلة فانحنى جبلة لتقبيله ثم جلسا وجبلة يرحب بهِ فقال حماد قد جئت يا عماه اشكرك على ما تكرَّمت بهِ عليَّ من الرضا والتمس دعاءك في ذهابي الى مكة فاني شاخص اليها على عجل

فقال جبلة رافقتك السلامة في المسير والاقامة وجعل الله مسيرك سعيدًا ولا حرمك ما تريد ولكنني اوصيك يا ولدي ان تبقي ما دار بشأن هند مكتومًا حتى تعود لئلاَّ يسبب لنا ذلك مشقة وربما حال دون ما نحن ساعون فيهِ

فادرك حماد مراده فوعده بالكتمان ثم قال معي خادم بل هو رفيق يود تقبيل يديك قبل السفر لانهُ سيرافقني ويكون عونًا لي فهل يأذن مولاي بمثولهِ بين يديهِ قال ليدخل

فخرج حماد ثم عاد وسلمان معهُ فتقدم سلمان الى جبلة وقبل يده ولبثوا هنيهة يتحدثون في ما لم يخرج عن الموضوع من تشجيع حماد وتحبيب الامر اليهِ ثم نهض حماد

وسلمان وودعا جبلة وخرجا يريدان خيمتهما عند الشيخ النبطي وكان منهما في هاجس اما سلمان فلم يكن راضيًا بما رآه وسمعه ولكنه رأى حمادًا راضيًا به مصممًا على تنفيذه فلم يشأ تثبيط عزائمه وعوّل في باطن سره على ان يبذل جهده في مساعدته الى آخر نسمة من حياته

# الفصل الاربعون

## ﴿ السفر الى الحجاز ﴾

فوصلا الخيمة في المساء وكان النبطي قد استبطأهما لغيابهما يومين كاملين فلما عادا رحب بهما فنزلا وهما يفكران في امر السفر والاستعداد له والعمدة في ذلك على سلمان فابتاع جملين لحمل الماء والثياب والزاد وسأل الشيخ النبطي عن رجل خبير بالطرق يرافقهما الى مكة باجرة ترضيه فسأله عن سبب السفر فانتحلا سببًا اسكته

فقال اما الدليل فاني ادلكما على رجل من اهل يثرب وهي المدينة التي جاء منها الحجازيون الذين قلت لكم انهم سيخرجون هذه البلاد من ايدي بني غسان وقد جاء في امس بهمة من بعض امراء ذلك الجيش فدللته على بعض الاماكن التي يمكنهم الحصول فيها على زاد لهم وسمعته يقول انه لا يلبث ان يعود الى بلده فاذا رافقكما اليها كان لكم به خير رفيق ومتى وصلتم يثرب هان عليكم الوصول منها الى مكة

فقال سلمان والظاهر ان صاحبك هذا من اتباع صاحب الدعوة الاسلامية بالمدينة

قال نعم هو مسلم وقد جاء في جملة المسلمين الى عمان وسيعود بهمة خصوصية فهل استقدمه اليكم

قال سلمان استقدمه

فخرج من الخيمة ونادى « أبا سعيد » فسمعوا صوتًا يقول « لبيك يا اخا العرب »

فقال النبطي هلمّ اليّ

فجاء بدوي طويل القامة عريض الاكتاف خفيف اللحية يظهر من ملامح وجهه انه بغي الاربعين من العمر عاري الرأس والقدمين ملتحف شملة من نسيج ابيض تغطي بدنهُ فيلف بعضها حول عنقهِ ويترك منها زائدة ينشرها على رأسهِ اذا اشتد عليهِ الحر وفي يدهِ رمح ونبلة

فلما رآهُ سلمان عرف من شكل ملابسهِ وملامح وجهه انهُ حجازي من اهل المدينه فلما وصل ابو سعيد الى حماد بهرهُ ما عليهِ من اللباس الفاخر من الخز والديباج والحرير فعلم انهُ امير ولكنهُ ظنهُ من امراء غسان فلم يهش لهُ فابتدره النبطي قائلاً « ان الامير ليس من غسان كما قد يخال لك بل هو من العراق فلا تنقبض نفسك لرؤيتهِ

فقال ابو سعيد لا بأس من ان يكون غسانياً فانا نجاورنا في منزلك فنحن الآن اخوة

فقال حماد بورك فيك يا اخا العرب ممن انت

قال من اهل يثرب

قال سلمان ان اهل يثرب اكثرهم من اليهود

قال نعم فيها كثير منهم فهل قدمتها قبل الآن

قال نعم جئتها منذ عشر سنوات

قال لقد تغيرت حالها عما كانت عليهِ في ذلك الحين باشراق نور الاسلام

فقال سلمان العل نبي الاسلام منكم ام من قريش في مكة

قال لا ليس منّا ولكننا قمنا بنصرتهِ وفتحنا لهُ صدورنا ومنازلنا فهو يقيم في مدينتنا وقد سمانا الانصار

قال سلمان اذن انت سائر الى المدينة

قال نعم والى اين انتم ذاهبون

قال الى مكة فهل ترافقنا اليها

قال الرجل يا حبذا لو كان ذلك في الامكان

فقال سلمان وهل يمنعك من ذلك بعد المسافة ام انت سائر في مهمة على عجل

قال نعم اني سائر في مهمة على عجل ولكن ذلك لا يمنعني من المسير الى مكة لو لم يكن اعداؤنا لنا فيها بالمرصاد

فقال سلمان واي الاعداء تعني

قال اعني بني قريش اعمام نبينا فانهم لا يزالون يتوقعون فرصة للفتك به وهو انما جاء المدينة مهاجرًا فنصرناه كما قدمت وقد تبعه اليها نفر من ذوي قرباه اما الباقون فلا يزالون في مكة وقد تحالفوا على عدوانه وفي مقدمتهم ابو سفيان الامير الغدر الشهير

فقال سلمان في نفسه ان تلك مشكلة لم تكن من حسباننا وتصور ان في الطريق بين المدينة ومكة خطرًا لما بين اهل البلدين من العداوة فنظر الى المدفي وقال هب اننا تركناك في المدينة فهل في طريقنا الى مكة من خطر

قال لا خطر عليكم اذا سرتم في طريق معروفة ولو كنتم من دعاة الاسلام مثلنا لكان في مسيركم خطر ولكنكم غرباء سائرون في سبيلكم واعل الافضل ان تسيروا في قافلة لانكم تكونون في كثرة فلا خوف عليكم من طارق باذن الله قال ذلك وصمت واطرق كانه يفكر في امر طرق ذهنه بغتة

فنظر سلمان الى حماد كانه يستطلع رأيه بعد ما سمعاه من ذلك اليثربي فقال حماد ارى ان نرافق الرجل الى المدينة ثم ننظر ما يكون من امرنا ثم التفت الى الرجل فاذا هو مطرق يتلاهى باصلاح ثنيات ثوبه فابتدره سلمان قائلاً ما بال اخي قريش مطرقًا يفكر العل رأيًا جديدًا فتح عليه به

قال لم يخطر لي رأي جديد ولكنني تذكرت امرًا ذا بال اظنه يهمكم ايضًا

فتطاول سلمان بعنقه وقال وما ذلك

قال تذكرت حديثًا سمعته من معسكرنا في عمان فاذا صح مسيرنا الى مكة قريبًا فتدخلونها آمنين مطمئنين

فلم يدرك سلمان كنه كلامه فقال وماذا تعني بمسيركم الى مكة

قال اعني ان نبينا ( صلعم ) سيحمل على مكة برجاله فينفضها ويكسر اصنامها فتصير في حيازتنا فاذا دخلتموها كنتم آمنين

فقال وهل انت موقن بهذا الخبر وهل المسير اليها قريب

قال اني واثق بصدق الرواية ولكنني لم اتحقق الزمن الذي ينوي فيه المسير وعلى كل فاننا متى وصلنا المدينة علمنا حقيقة الحال فهلمّ الى الاستعداد

ثم تركهما وذهب فنظر سلمان الى حماد وقال له لم يسرّني الخبر كثيرًا لان وصولنا الى الكعبة وبحثنا فيها عن القرطين قد يكون اسهل علينا قبل ذلك الفتح منه بعد

فقال حماد لا أرى رأيك في ذلك اذ ربما كان لنا بعد الفتح سبيل اسهل وطريق اقرب وسنرى ما يأتي به الغد فعليك الآن باعداد حاجيات السفر من الجمال والمياه والزاد ونحوها

فقال سلمان ارى ان نركب خيلنا ونأخذ جملين لحمل الماء والزاد على ان يكونا ذخرًا لنا في حال الاضطرار الى الركوب لان الجمال اصبر على العطش من الخيل قال ذلك واخذ في الاستعداد

وفي صباح اليوم التالي استحضروا جملين وخادمين وحملوا احمالهم مما خفّ وغلا وتركوا ما بقي من الثياب وغيرها عند الشيخ البطي وساروا يطلبون الحجاز

ولما تبطنوا الصحراء وبعدوا عن الملقاء احس حماد بالوحشة وتمثل له خطر المسير وتحقق كلام سلمان ولكنه تجلد والفى اتكاله على الله

وبعد مسير بضعة ايام اشرفوا على جبال المدينة فقال اليثربي ها نحن على مقربة من يثرب ولا نلبث ان نشرف عليها

فقال سلمان اني اعرف المدينة وطرقها فقد نزلتها منذ اعوام

فقال اليثربي لا تلبث ان تشرف عليها فترى فيها تغييرًا طرأ عليها بعد نزول النبي فيها فقد بنيت فيها المنازل وكثرت البيوت وتعدد السكان لكثرة من هاجر اليها من اصحاب الرسول وغيرهم

وبعد هنيهة اشرفوا على المدينة فاذا هي في منبسط من الارض تحدق بها البساتين والغياض فقال اليثربي هلمّ يثرب فهل تنزلان فيها ريثما تصطحبان من يرافقكما الى مكة

او تريان رأيًا آخر

قال حماد اني افضل النزول هنا مدة لاشاهد المدينة واهلها وارى صاحبكم واصحابه بعد ما ملأت اذني من احاديث حروبه واوصافه

فانحدروا حتى سار وا على مقربة من السور لا يستغشهم احد ممن رأوهم لان بينهم احد الانصار وقد ظن كثيرون انهم انما جاؤا يلتمسون الاسلام لكثرة من كان يفد على المدينة من القبائل في تلك الايام واكثرهم كانوا يجيئون رغبة في الاسلام

فلما دنوا من السور قال سلمان ارى ان نضرب خيامنا هنا فنستريح هنيهة ثم نترك دوابنا ومضاربنا في عهدة الخدم وندخل المدينة خفافًا

فقال اليثربي اما انا فلا استطيع صبرًا عن المسير الى المدينة الساعة لاني في مهمة فارجو ان نلتقي هناك

فقالا سر بحراسة الله

فودعهم ومضى

فلما خرج التفت سلمان الى حماد وقال له اراك راغبًا في دخول المدينة

قال نعم

قال ولكنني لا أرى ذلك

قال ولماذا

قال لاننا لم نترك البلقاء ونجشم الاسفار لنقيم في هذا المكان فضلاً عن الخطر الذي قد ينتابنا لمجرّد دخولنا المدينة

فقال واي خطر علينا من ذلك

قال اخاف ان يرانا هناك احد من عيون أبي سفيان فاذا رآنا في مكة عرفنا فيحسبنا من المسلمين فيعرقل مساعينا

قال اذا رأينا ابا سفيان قلنا له ان عبد الله والدي او ربما رأينا والدي معه فنأمن الخطر

قال لو كنا على يقين من وجود سيدي والدك عند لمان علينا العسير ولكننا انما قلنا ذلك على سبيل الظن

فلبث حماد برهة يفكر فتذكر والده وخطيبته وحاله فرغب في اتمام مهمته بالمسير

الى مكة فقال اراك مصيبًا في رأيك فالافضل لنا ان نسير الى مكة لنبحث عن القرطين فاذا ظفرنا بهما هان علينا كل ما نريد

وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل فارسلا خادمًا يبتاع زادًا وعلفًا فعاد عند الغروب فاكلا واطعما الجملين والحمارين

وباتوا تلك الليلة واصبحوا في الغد باكرًا فملأوا القرب وركبوا يريدون مكة وكان سلمان لا يعرف الطريق اليها . ولعلهُ كان يعرفها ونسيها ولكنهُ كان لا يزال يذكر طريقًا تؤدي الى مكة عن طريق آبار بدر غربي المدينة فنضل المسير الى تلك الآبار ليبيتوا عندها ثم يملأون قربهم ويسيرون نحو مكة . اما حماد فلم يكن يعلم شيئًا من تلك الطرق وكان اعتماده على سلمان في كل شيء

# الفصل الحادي والاربعون

## ﴿ البحيرة ﴾

فساروا طول ذلك النهار سيرًا بطيئًا لعلمهم ان الآبار غير بعيدة عنهم وانهم باتون هناك لا محالة فلما كانت الظهيرة حطوا رحالهم للاستراحة فحلوا الاحمال وجلسوا للطعام ثم توسدوا العدب تحت شجرة كبيرة يلتمسون القيلولة واشتغل الخادمان برعاية الجملين

فأفاقا عند العصر والتفتا فلم يريا الجملين ولا راعيهما فبغت سلمان ونهض للحال ونظر الى ما حولهُ فرأى كل شيء في مكانهِ كما فارقهُ فاخذ يتشوف عن التلال لعلهُ يرى اثر الجملين فلم ير لهما اثرًا ولكنهُ رأى اثر خفافهما على الرمال فهمَّ بتتبع الاثر وقال لحماد تربص هنا ريثما ارى ما تمَّ لهما فمكث حماد وسار سلمان حتى غاب عن النظر ومالت الشمس نحو المغيب ولم يرجع سلمان فقلق حماد كثيرًا وخاف ان يدركهُ الظلام وهو منفرد في تلك الارض

وفيما هو في ذلك رأى اشباحًا تقترب فتفرسها فاذا هي ثلاثة من الابل ومعها الخادمان وسلمان فعجب للجمل الزائد فلما وصلوا استطلعهم الخبر

فقال سلمان أرأيت هذه الناقة

فنظر حماد اليها فاذا هي مشقوقة الاذنين فعجب لحالها وقال وما خبرها وما الذي جرى لها

قال هذه هي الناقة التي يسميها الحجازيون البحيرة فان من عوائدهم التي قد اخذت تتلاشى بعد ظهور الاسلام ان الرجل منهم اذا ولدت ناقتهُ خمسة ابطن وكان الاخير ذكرًا بحراذنها اي شقها وامتنع من زكاتها واطلق سراحها لا يمنعها من ماء ولا مرعى فكأن خادمينا رأيا هذه الناقة سائبة فارادا القبض عليها فهمَّ لها احدها فنفرت منهُ فظن انهُ اذا ركب احدى ناقتينا ادركها فتعقبها بها فلم يدركها فاستبطأه رفيقهُ فركب الجمل الآخر ولحق بهِ حتى لحقت انا بهما فرأيتهما قد قبضا عليها بعدجهد شديد وعادا وقد وبختهما على ما ارتكباه فوعدا ان لا يعودا الى مثل ذلك مرة اخرى

## الفصل الثاني والاربعون

### آبار بدر

فعجب حماد لحكاية البحيرة ولكنهُ تاسف لضياع الوقت حتى دنا المغيب ولم يصلا الآبار فقال ارى يا سلمان ان نترك هذه الناقة وشأنها لاننا لسنا في حاجة اليها ولا عندنا من علف نطعمها اياه ولنهتم بالمسير لكي ندرك الآبار فهل نحن بعيدون عنها

فقال سلمان اننا على مسافة قصيرة فهلم بنا اليها قال ذلك وامر فركبوا جميعًا وساروا يقطعون السهول والاودية حتى خيم الغسق وقد نفد ماؤهم ولم يصلوا الآبار فقلق سلمان وخاف ان يكون قد اخطأ الطريق فساق جواده الى اكمة أطل منها على منخفض علم مما يحيط بهِ من الجبال انهُ المكان المقصود ولكنهُ لم يستطع تحقيق ذلك لبعد المكان وظلامهِ فعاد الى حماد وانبأهُ بما كان فاتفق رأيهما على ان يتركا الخادمين والجملين هناك ويسيرا هما على الفرسين ليتفقدا المكان فاذا كان هو يعينو شربا وسقيا الفرسين لان الخيل لا تصبر على العطش ثم يناديان الخادمين

فهمزا الجوادين فسارا في ارض وعرة والجو هادئ لا يسمع فيهِ غير وقع الحوافر

على تلك الصخور وكان الظلام آخذاً في الاشتداد ولكن القمر كان قد ارسل أشعة ضعيفة تبشر بقدومهِ قبل طلوعه فلما وصلا الى قمة الجبال المحيطة بمكان الآبار اخذا في الانحدار وهما ينتظران طلوع القمر بفارغ الصبر ليساعدهما على تعيين المكان فوصلا الى منبسط الوادي ونظرا الى ما حولهما فاذا هما في وادٍ مظلم تخفُّ بهِ الجبال من اكثر جهاتهِ لا يسمع فيهِ صوت ولا يهب فيهِ نسيم وكان القمر قد طلع لكن اشعتهُ لم تدرك اسفل المكان بعد فتحقق سلمان انها آبار حمر ثم استدار الوادي فتأملهُ سلمان فاذا هو هو بعينهِ ورأى الاماكن التي كانت تقام فيها السوق كل عام وكانت تجتمع اليها القبائل للبيع والشراء والاخذ والعطاء ولكنهُ آنس في المكان وحشة وهجرًا كأنهُ هجر منذ اعوام ثم خطر لهُ ان الليل يريهِ ذلك فاخذ يبحث عن محل الآبار وحماد في أثناء ذلك صامت لا يبدي حراكًا

وترجلا عن الفرسين وسارا يقودانهما وقد تهيبا وندما لتلك المخاطرة وكان اعظمهما ندمًا سلمان لانهُ ساق سيدهُ الى الخطر ولكنهُ تجلد وسار وحماد الى جانبهِ لا يتكلمان حتى وصلا الى حفر متفرقة فاستترا وصاح سلمان هذه هي الآبار قد ادركناها وكنا قد اعددنا ما يستقيان بهِ من دلو او نحوهِ فالفى سلمان الدلو فسمع صوتهُ يصادم قعر البئر والبئر قارعة فعجب لذلك ثم ما لبث ان سمع حركة ورأى حيوانًا وثب من البئر وفرَّ فتأملهُ فاذا هو يشبهُ الثعلب او الكلب فازداد استغرابهُ وبغت حماد وقال ما هذا يا سلمان ايخرج من الآبار ثعالب

قال اني في غاية الاستغراب من هذا الاتفاق . ان المكان هو هو بعينهِ وقد نزلت فيهِ منذ ست سنوات وشربت من مائهِ ورأيت الناس يستقون منهُ فلا ادري ما ذا جرى لهُ فيلوح لي ان أنزل في هذه البئر فاني اراها غير عميقة لعلي استطلع من امرها شيئًا فانزل قدمًا ثم الثانية حتى ادرك القعر فاحس كأنهُ واقف على عظام فمد يدهُ وامسك العظام بيدهِ فاذا هي مدفونة كلها او بعضها بالتراب واستخرج شيئًا منها فتصاعدت عنها روائح كريهة ولمس عظامًا طويلة ومستديرة وكروية على اشكال شتى فاقشعرَّ جسمهُ لانهُ علم من اشكالها انها عظام آدميين فصعد للحال وقد هالهُ الموقف لم يشأ ان يخبر حمادًا بذلك لئلاَّ يخاف وتاقت نفسهُ لاستجلاء حقيقة الامر عن تلك الجماجم والعظام ولكنهُ كتم ذلك واوعز الى حماد بالعود فعاد حماد وهو ينتظران يسمع شيئًا

جديدًا فلم ينه سلمان بكلمة فظلاَّ سائرين في ذلك المنخفض وحماد ينتظر حديث سلمان وسلمان يفكر في غريب ما رآه والليل هادئ لا يسمع فيه الاَّ صوت وقع الحوافر فلما ابطأ سلمان في الحديث همَّ حماد بالسؤال عما رآه واذا بصوت جمل يهدر عن قرب فوقفا وانصتا ليعرفا جهة الصوت فاذا هو جمل منحدر من اعلى الجبل من الجهة التي جاءا منها اولاً فظنَّا احد الخادمين قادمًا لخبر جديد فلبثا واقفين ينتظران ما يكون فاذا بالراكب في لباس غير لباس الخادم فتأملاه فاذا هو رفيقهما البئري فلما دنا منهما باداهما فعرفا صوته فاجابه سلمان فتعارفوا

فلما وصل البئري اليهما قال ما الذي جاء بكما الى هذا المكان

قال سلمان جئنا نلتمس الماء

قال أتلتمسون الماء من هذا المكان وقد أصبح مجتمعًا للرمم ومعرضًا للجيف

قال سلمان لا اعرفه الاَّ مستنقعًا فيه ماء عذب وقد عجبت لما تقول وخصوصًا بعد ان رأيت الجماجم بنفسي ولمستها بيدي

فغمت حماد لذلك وقال أتقول الصدق يا سلمان

قال نعم يا مولاي قد لمست الجماجم والسواعد والافخاذ بيدي وكتمت ذلك عنك لئلاَّ تنهيب

قال حماد لقد عرفت سرَّ سكوتك كل هذه المدة واما انوقع خطابك بعد زوالك الى قاع البئر ثم التفت الى البئري وقال وما الذي حوَّل هذا الماء الى رمم وعظام

قال ان لذلك خبرًا طويلاً سأقصه عليكما متى جلسنا فقد جئتكما بالماء ووضعته عند خادميكما وراء هذه الاكمة وقد تستغربان مجيئي اليكما في هذا الليل على غير موعد بيننا واما السبب في ذلك فاني بقيت في انتظاركما اليوم بباب المدينة فلما استبطأتكما جئت افتقدكما فلم اجدكما فعلمت من قرائن مختلفة انكما سرتما نحو هذه الآبار ولما كنت عالمًا بمخافتها حملت اليكما قربة ماء وسرت اقتص خبركما حتى جئت الى خادميكما فقالا لي انكما تطلبان الماء من هنا فجئت اليكما على عجل كما ترياني

قال ذلك واشار اليهما ان يتبعاه فركبوا وساروا جميعًا وكل منهم يتأمل هيبة ذلك المكان بعد ما علموا من امره حتى وصلوا اعلى الوادي وتحولوا نحو الخادمين وكانا في انتظارهم فلما وصلوا ترجلوا جميعًا وجلسوا على دكة فتناولوا الطعام وشربوا

وسقوا الخيل والجمال وسلمان وحماد ينتظران خبر بدر بفارغ الصبر

فلما استتب بهم الجلوس قال حماد اراني في قلق لا مزيد عليهِ فهل تتكرّم علينا بخبر تلك الآبار

قال ان خبرها غريب يطول شرحهُ فاذا كنتم مستعدين لاستماعهِ الليلة قصصتهُ عليكم والاّ فاني اقصهُ عليكم في الغد

فصاحوا معًا بل اقصهُ علينا الليلة فان القمر قد ابدر وتاقت نفوسنا الى السمر الاّ اذا كان في ذلك ثقلة عليك

قال اني شديد الرغبة في قص هذه الحكاية لانها تبين كرامة نبينا ( صلعم ) وبها يفتخر المسلمون كما ستسمعون

ثم جلسوا واخذ البئربي يقص حكايتهُ وحماد وسلمان منصتان والجمالان يتطاولان عن بعد لاستماع الخبر

# الفصل الثالث والاربعون

## ﴿ سبب الغزوات ﴾

قال البئربي اعلموا اني اقص عليكم خبر اعظم واقعة حدثت في الاسلام وقد شهدها رسول الله ( صلعم ) بنفسهِ منذ نحو خمس سنوات وكنت في جملة المحاربين فرأيت وسمعت ما تشيب لهولهِ الاطفال

فقال سلمان ومن هم الذين حاربتموهم هناك

قال هم بنو قريش من اقرباء الرسول ولكنهم اعداؤهُ

قال . وكيف يكونون اقرباءهُ ولا يقومون لنصرتهِ بل يكونون اعداءه

قال ان لذلك خبرًا طويلاً لا استطيع بسطهُ الليلة ولكنني اذكر ملخصهُ تمهيدًا لذكر واقعة بدر التي نحن في صددها فارعوني سمعكم

قالوا كلنا آذان فشنف مسامعنا

فقال لا يخفى عليكم ان نبينا ( صلعم ) لما قام يدعو الناس الى الاسلام لم يجبهُ الاَّ نفر من قريش وظل اعمامهُ واكثر ذوي قرابتهِ على دين آبائهم واكثرهم انما رغبوا عن هذا الدين القويم خوفًا على تجارتهم ان تكسد لما في تأبيد الاسلام من احتقار الاوثان وابطال عبادتها فينحط قدر الكعبة فيقل الحجاج اليها ومعاش قريش وسائر اهل مكة من التجارة ولا تجارة الاَّ بالحجاج فضلاً عما يتمتع بهِ القرشيون من السيادة والنفوذ ببقاء الكعبة فانهم حجابها ولهم بذلك فخر وسؤدد

فهذه الاسباب وغيرها حملت بني قريش على مقاومة نبينا ( صلعم ) ولكنهُ لم يحرم انصارًا شدوا ازرهُ وصدقوا بدعوتهِ ومنهم جماعة من خيرة قريش وكبار رجالها على انهم لم يستطيعوا حمايتهُ من الاذى فهاجر وهاجروا معهُ الى مدينتنا يثرب التي كنا بالقرب منها البارحة فاستقبلناه بكل اكرام فنزل بيننا على الرحب والسعة وسررنا بهذا الشرف العظيم

ولا يخفى عليكم ان المدينة واقعة في الطريق بين مكة والشام فمن اراد تجارة او سفرًا بينهما لا بد لهُ من المرور بها فاخذ ( صلعم ) من يوم نزولهِ المدينة يجمع اصحابهُ الذين هاجروا معهُ وهم المهاجرون والمدنيون الذين نصروهُ وهم الانصار ويخرج بهم للغزو او يرسلهم ويقيم فكلما سمع بقافلة لقريش قادمة من الشام او غيرها بتجارة او اموال خرج برجالهِ ليغزوهم وما اصابهُ من مال او غيره وزعه على رجالهِ

# الفصل الرابع والاربعون

## ﴿ غزوة بدر الكبرى ﴾

ففي السنة الثانية للهجرة كانت وقعة بدر الكبرى وسببها ان ابا سفيان بن حرب رجل قريش واكبر زعمائهم كان قادمًا من الشام في ابل لقريش عليها اموال كثيرة ومعها ثلاثون رجلاً او اربعون من قريش وكلهم من اعداء الاسلام وفي جملتهم عمرو بن العاص وكانت آبار بدر هذه محطة تقف عندها القوافل القادمة من الشام

للاستقاء في طريقها الى مكة فلما علم رسول الله ( صلعم ) بمروره انتدبنا للخروج عليهم فعلم ابو سفيان بذلك فانفذ بعضاً من رجالو الى مكة يستنفرون الناس للقدوم الى الآبار لحماية اموالهم فكان الرجل منهم اذا وصل الى مكة وقف على بعيره وقد جدّعهُ وحوّل رحلهُ وشق قميصهُ وهو يقول « يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة ان اموالكم مع ابي سفيان قد عرض لها محمد واصحابهُ لا ادري ان تدركوها الغوث الغوث » فتجهز القرشيون سراعاً لم يتخلف من اشرافهم الاّ من عجز عن المسير فبلغ عدد السائرين الف رجل ومئة فرس وسبعمائة بعير واما رجالنا فكان عددهم ثلاثمئة و بضعة عشر رجلاً وسبعين بعيرًا وفرسين . فسارت رجالنا من المدينة يتقدمهم النبي حتى وصلنا الى مكان اسمهُ الصفراء فبعث من يتجسس خبر ابي سفيان فقيل لهُ انهُ بالقرب من بدر فجمعنا في جلسة وجمع اصحابهُ المهاجرين معنا وشاورنا جميعاً وكان قد استطلع قوة العدو واطلعنا عليها وقال ما تقولون هل نحاربهم فاجابوا جميعاً بصوت واحد وقلب واحد موافقين وسأل الانصار فقالوا « فوالذي بعثك بالحق ان استعرضت بنا هذا البحر فخضتهُ لخوضنهُ معك وما نكره ان تكون تلقى العدو بنا غدًا لعل الله يريك منا ما تقرُّ بهِ عينك فسر بنا على بركة الله »

فلما سمع كلامهم اثنى عليهم وسار وسرنا جميعاً وكان ابو سفيان قد نزع الى الخديعة في اثناء تلك الفترة فسار من يمين الآبار حتى تجاوزها والعير معهُ فلقي رجال قريش في مكان يقال لهُ الجحفة فخاطب اشراف قريش قائلاً هذه العير والاموال قد نجت فارجعوا الى مكة وكان في جملة اولئك رجل اسمهُ ابو جهل لعنة الله عليهِ فأبى الاّ ان يمرّ بالآبار فساروا حتى دنوا من الوادي اما نحن فسرنا نطلب الآبار فنزلنا عندها ومنعنا الاعداء منها فتقدم زعيم الانصار منا وهو سعد بن معاذ وقال « يارسول الله نبني لك عريشاً من جريد فتكون فيهِ ونترك عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فان اعزنا الله واظهرنا الله عليهم كان ذلك مما احببناه وان كانت الاخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك اقوام ما نحن باشد حبًا لك منهم ولو ظنوا انك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويحاربون معك » فاثنى الرسول عليهِ خيرًا فبنينا لهُ عريشاً

وبعد قليل رأينا غبار قريش ثم ظهرت رجالهم وفرسانهم وعليهم العدة والسلاح

يتقدمهم امراؤهم في الفخر اللباس وكانوا اهل بذخ وترف وقد اخذت بهم الخيلاء والفخر فلما دنوا منا عسكروا امامنا ثم ارسلوا رجلاً منهم ليجزرهم اي يقدّر عددهم فجال بفرسهِ قليلاً وعاد فأنبأهم بقلة عددنا فتشاوروا في الامر طويلاً وفيهم من يشير بالرجوع وكانوا بين ان يرجعوا او يهاجموا لان الماء في حوزتنا فاذا لشوا بمكانهم هلكوا عطشًا فعظم عليهم الرجوع لكثرتهم وقلتنا فاقروا على الهجوم فخرج منهم افراد طلبوا البراز فبارزناهم فقتلنا بضعة من كبارهم فهجم آخرون منهم وهجم بعض منا والتحم الفريقان وكان يومًا عظيماً خاف فيهِ المسلمون خوفًا شديدًا لما رأوا من قلتهم وقد سمعت رسول الله (صلعم) يقول وقد رأى احتدام الحرب « اللهم ان تهلك هذه العصابة من اهل الاسلام لا تعبد في الارض اللهم انجز لي ما وعدتني » قال ذلك وهو ينظر الى رجالهِ ويدعو لهم بالنصر وقد سمعت دعاءهُ بأذني لاني كنت في جماعة من الانصار مع سعد بن معاذ واقفين بباب العريش نحرس رسول الله (صلعم) خوفًا عليهِ من كرة العدو . ولقد رايت ما كان من فتك المسلمين بالمشركين ما ينشرح لهُ الصدر وخصوصًا لما رايت ابا جهل زعيم القرشيين مجدلاً يتخبط بدمهِ وكان اشد الناس عداوة لنبي الله ورأيت غيره من امرائهم مقتولين منهم حنظلة بن ابي سفيان وشيبة وعتبة وامية وغيرهم ورأيت اشد المسلمين فتكًا في ذلك اليوم حمزة بن عبد المطلب عم الرسول فقد رايتهُ يخترق الجماهير وفي صدرهِ ريشة نعامة يمتاز بها عن غيره

ومن غريب ما شاهدتهُ من بسالة المسلمين في ذلك اليوم واستهلاكهم في نصرة الاسلام ان معاذ بن عمر بن الجموح كرّ على ابي جهل المتقدم ذكرهُ وكان محاطًا بزمرة من رجالهِ فاخترق الناس اليهِ فضربهُ ضربة اصابت ساقهُ فهجم عكرمة بن ابي جهل على معاذ بضربة قطعت يدهُ فطرحها عن عاتقهِ ولكنها ظلت معلقة بجلدة من جنبهِ فما زال معاذ يقاتل كل ذلك اليوم ويدهُ تجر وراءهُ فكنت انظر الى ذلك واشعر كأن يدي في مثل ذلك اما هو فلم يكن يبالي فلما آذتهُ يدهُ وعاقتهُ عن الحرب جعل رجلهُ عليها وتمطى حتى انفصلت فتركها وعاد الى الحرب . وكان في جملة جند المشركين العباس بن عبد المطلب فانهُ كان لا يزال مترددًا بين الاسلام وما كان عليهِ اجداده فلما حمل القرشيون على بدر حمل معهم مكرهًا فاسر في جملة من اسر ولكن اسرهُ لم يطل لان النبي امر باطلاقهِ حالاً

ولم يمضِ زمن حتى رأينا المشركين هموا بالفرار فقبضنا على جماعة كبيرة منهم ولما انقضت الحرب امر رسول الله ان يؤتى بجثث القتلى الى القليب فجيء بها فتكومت كومًا وفيها جثث نخبة امراء قريش وهي التي رايتم بقاياها في الآبار الليلة ثم جمعت الغنائم ففرّقت فينا على السواء وحملت بشائر النصر الى المدينة واخبار الويل الى مكة وقد كانت هذه المعركة قاضية على مشركي قريش اذ قتل فيها جماعة من الدّاعداء الاسلام واشدهم بطشًا وفي جملتهم ابو لهب عم الرسول وكان شيخًا كبيرًا لم يحضر الحرب فلما بلغته نكبة القرشيين اشتد الامر عليه فمات بعد تسعة ايام

فاصبح زعيم القرشيين بعد هذه المعركة ابا سفيان الذي ذكرته لكم وهو مشهور وكثيرًا ما يسير الى الشام فلا يخلو ان تكونوا قد رأيتموه هناك

فقال سلمان نعم رأيته غير مرة وهو اشهر من ان يذكر

فقال وسترونه قريبًا عند وصولكم مكة فانه عاد اليها منذ بضعة اسابيع

فلما سمعا ذكر أبي سفيان توهما ان يكون عبد الله معه ولكنهما كتما ذلك

ثم قال اليثربي واصبحت الآبار بعد تلك المعركة مهجورة وقد القوا الجثث فيها فانتنت و بطل موسمها السنوي من ذلك الحين

هذه هي حكاية الآبار فاشكروا لله انكم لم تلقوا فيها وحفًا ضاريًا او نحوه فلنبت الليلة هنا ولنعد في الغد الى المدينة نمكث فيها يومًا ثم تسيرون منها في قافلة الى مكة والاّ فاختاروا لانفسكم

فاعجب حماد بشهامة ذلك الرجل وغيرته عليهم ورغبته في انقاذهم وقال اننا والله شاكرون لحسن صنيعك جزاك الله خيرًا وقد يجدر بنا بعد هذا الصنيع ان نكون طوع بنانك نسير معك حيثما سرت ولكننا نرى سرعة المسير الى مكة لعلنا نلتقي فيها بأبي سفيان قبل خروجه منها

فقال اليثربي العلكم تعاملونه معاملة التجار فان له علاقات كثيرة مع تجار الشام

قال سلمان لا علاقة تجارية بيننا و بينه ولكننا نفتش عن صديق لنا سار برفقته من بيت المقدس

فقال اليثربي انصح لكم نصيحة صديق مخلص لا يريد بكم غير الخير فهل تنتصحون بها

قالا نعم ويكون لك علينا الفضل

قال انصح لكم اذا لقيتم احدًا من المسلمين في المدينة او غيرها وعرض ذكر ابي سفيان فلا تذكروا علاقة بينكم وبنية فان ذلك يوقع عليكم شبهة وربما يلحق بكم من جراء ذلك ضرر

فقال سلمان لقد أخلصت النصيحة واردت بنا خيرًا فشكرًا لك على ذلك ونحن لو لم نتوسم فيك الاخلاص لما فرط منا ذكر هذا الرجل على انا لم نقل اننا اصدقاؤه وانما قلنا ان صديقًا سار برفقتنا

فقال اليثربي ومهما يكن من الامر فقد نبهتكم الى ما لا يخلو من فائدة

قال حماد لا ريب من ذلك عندنا فنشكرك عليه شكرًا جزيلاً

وكان قد مضى معظم الليل وغلب النعاس على الجميع فنهضوا للرقاد فلما اصبحوا خيرهم اليثربي في الذهاب معه الى المدينة او الذهاب الى مكة توًا فاثنوا عليه واعتذروا بانهم يؤثرون المسير توًا الى مكة على نية ان يمروا بالمدينة في عودتهم فاطاعهم واوصاهم وصايا تتعلق بسفرتهم وودعهم وعاد الى المدينة وتركهم يستعدون للسفر الى مكة

## الفصل الخامس والاربعون

### بكر وخزاعة

فلما خلا حماد بنفسه تذكر حالة مع هند وما هو ذاهب من اجلها وكان في اثناء حديث اليثربي عن ابي سفيان يهمّ بالاستفهام عن والدها ثم يخاف العاقبة فيمتنع واخيرًا صبر نفسه ريثما يصل مكة ويلتقي بابي سفيان

وفي صباح اليوم الثاني ركبوا وساروا لا يلوون على شيء فامسى المساء وقد ادركوا بقعة من الارض يكسوها المرعى وفي احد حوانبها شجرة تحتها عين ماء عذب اعتاد المارة الجلوس اليها استراحة للراحة من عناء السفر اثناء مرورهم بين مكة والمدينة

فجلسوا الى الشجرة واوقدوا نارًا يستضيئون بها او يستخدمونها في معالجة طعامهم

تلك الليلة . حتى اذا اكلوا جلسوا يتسامرون ربثما يتغلب عليهم النعاس فلما انقضى الهزيع الاوّل من الليل هموا بالرقاد وقد امروا الخادمين ان يتناوبا السهر خوفًا من طارىء يفاجئهم ولم يكد يغمض لهم جفن حتى افاق سلمان فسمع ضوضاء عن بعد فالصق اذنهُ بالارض فتبين لهُ ان بضع عشرات قادمون من مكة مسرعين ومعهم الخيول وعلم انهم نازلون عند تلك العين لا محالة فخاف ان يكون عليهم من نزولهم بأس فالتفت الى حماد فاذا هو لا يزال نائمًا فتردد بين ان يوقظهُ او ان يتركهُ نائمًا وفيما هو يتردد أفاق حماد من تلقاء نفسهِ فرأى سلمان جالسًا على فراشهِ فبعث وناداه واستطلعهُ الخبر

فقال كنت عازمًا على ايقاظك لو لم تستيقظ من تلقاء نفسك

قال سلمان وما سبب ذلك

قال اني اسمع اصوات خيول واناس قادمين من جهة مكة فاخشى ان يكونوا سائرين في حرب وربما اوقعوا بنا سوءًا

فقال حماد وما الرأي اذن

قال الرأي ان نتواطىء على كلام نقولهُ لهم يضمن لنا النجاة فقال وما هو

قال يغلب على الظن ان القادمين من اهل مكة الذين لم يؤمنوا بالنبي الجديد وانهم يريدون المدينة لحرب او لاستطلاع فهم من اعداء المسلمين وعلينا نحن ان نتجاهل امر الاسلام ونتظاهر بانا انما جئنا نريد الاعتمار في مكة

فقال حماد وما معنى الاعتمار ان ذلك لا أثر لهُ في ديننا

قال هو الحج الى الكعبة والكعبة حج يؤمها الناس من اقاصي الارض على اختلاف الملل والنحل فاذا قلنا اننا غرباء قاصدون زيارة الكعبة لا يستفشوننا

فقال حماد افعل ما بدالك وكن انت المتكلم عني

ولم يكادا يتمّان الحديث حتى جاء خادمهُ سلمان ينبئهم ان الجمع قد اقترب وانهم يقصدون ذلك الماء

فلبثوا تحت جنح الظلام ينتظرون وصولهم وقد زادوا نارهم وقودًا استئناسًا بالنور

فلم يمض قليل حتى وصل الماء فارسٌ ملثم فلما اقترب من النار نادى من القوم

النزول ههنا

فقال سلمان عرب من لخم ومن انت

قال عربي من خزاعة وما الذي جاء بكم الى هذا المكان

قال سلمان جئنا لزيارة البيت الحرام

قال هل مررتم بالمدينة

قال مررنا بها عن بعد ولم ندخلها

وما اتمّ كلامهُ حتى وصل رفاقهُ وفيهم الفارس والراجل فترجلوا جميعًا وردوا من الماء فتفرس فيهم سلمان بسير عددهم فاذا هم نحو الاربعين يتقدمهم رجل بلباس فاخر لم يستطع معرفتهُ لشدة الظلام وكان هذا الرجل هو وجيه القوم يأمرهم وينهاهم فعلم سلمان انهُ رئيسهم وكان قد امرهم ان ينصبوا خيمتهُ بالقرب من تلك الشجرة فاخذوا في ذلك وسلمان ينظر اليهم ثم لاح لهُ ان يستطلع حقيقة حالهم من زعيمهم فدنا منهُ وحيّاه فرد الفارس التحية والارتباك ظاهر على وجههِ ولكنهُ التفت الى سلمان وقال قد انبأ في دليلنا انكم من لخم فهل انتم قادمون من العراق

قال نعم يامولاي

قال ونحن نعلم ان اللخميين في العراق من اهل النصرانية

قال نعم ونحن كذلك

قال وكيف تقول انكم جئتم لزيارة البيت الحرام والنصارى يحجون الى بيت المقدس

فسكت سلمان ولبث برهة صامتًا لا يدري بماذا يجيب وظهر الارتباك على وجههِ ولكنهُ تجلد وقال وهل تقفل ابواب الكعبة دون النصارى اذا جاؤها معتمرين

قال كلاَّ فان الناس يقدمون اليها من اقاصي العالم على اختلاف الملل والنحل ولكن النصارى قلما يجيئونها وزد على ذلك ان الوقت ليس وقت الحج فاصدقني الخبر

قال سلمان ليس في حقيقة خبرنا ما نخشى بيانهُ ولكنني رأيتكم جمعًا كبيرًا فارتبت من امركم فاذا علمنا من انتم افدناكم عن حقيقة امرنا

وفيما هو يقول ذلك جاءهُ رجل يقول ان الخيمة قد نصبت والمائدة أُعدّت فالتفت الى سلمان قائلاً اذا شئت ان تضيفنا على الطعام اتممنا الحديث فاننا نحتاج

بعد طول السفر الى الراحة

فقال فلنترك اتمام الحديث الى صباح الغد

قال حسنًا وافترقا فسار سلمان الى سيده فاذا هو لا يزال جالسًا على فراشهِ ينتظر عودتهُ بخبر القوم فلما رآه عائدًا استطاعهُ الخبر فأنبأه بما كان واستمهلهُ الى الغد يستطلع الحقيقة

فبات تلك الليلة على حذر ولما اصبح الصباح خرج سلمان الى مضرب القوم فاذا هم اكثرهم من الفرسان وتأمل لباسهم وحالهم فاذا هم من اهل الحجاز ففكر في امرهم فرأى ان يصطحب سيده .ان يسيرا معًا الى رجل الامس فاصطحبهُ وسارا

فلما وصل الخيمة استأذنا في الدخول فاذن لهما فدخلا فوجدا الرجل جالسًا على وسادة مقطب الوجه كانهُ يفكر في امرهِ فلما وقع نظره على سلمان وقف لهُ ورحب بهِ فبالغ سلمان في الاعتذار لما سبقهُ من المشقة بتلك الزيارة ولكنهُ قدم سيده في الجلوس فادرك صاحب الخيمة انهُ سيد لهُ فرحب بهِ بنوع خاص واجلسهُ الى جانبهِ ثم التفت الى سلمان وقال ارى ضيفنا في هذا الصباح عراقيًا ايضًا

قال سلمان نعم يا سيدي انهُ امير من امراء العراق وانا خادم لهُ فهل يتفضل سيدي بالافادة عن اسمهِ

قال اني عمر بن سالم الخزاعي من بني كعب سائر في (١) جماعة من خزاعة يريد المدينة

فقال سلمان العلكم من اهل مكة

قال نعم نحن نقيم في مكة ولكننا سائرون الى المدينة في مهمة فهل انتم قادمون منها

قال كلاَّ يا مولاي لم نكن في المدينة ولكننا مررنا بها عن بعد

قال يا حبذا لو انكم دخلتموها

فتعجب سلمان لتمنيهِ هذا وعهدهُ باهل مكة اذ ذاك اعداء لاهل المدينة على اثر ما كان من مهاجرة النبي واصحابهِ منها

فقال هل تأذن لي بسؤال يزيل عني الالتباس

قال تفضّل

---

(١) السيرة الشامية

قال قلتم انكم من اهل مكة تقصدون المدينة وقد بلغنا ان بينكم و بين اهل المدينة عداوة

قال صدقتم ولكن بين اهل مكة جماعة كبيرة هم على دعوة اهل المدينة اي انهم مسلمون ولكنهم مستضعفون لا يستطيعون التصريح خوفًا من كبار قريش ان يصيبوهم بسوء (١) على انني سالتكم عن حقيقة امركم فلم تجبني فهل انتم سائرون الى مكة للحج حقيقة

قال سلمان اما وقد آنسنا فيك ما آنسناه من كرم الخلق وحسن الوفادة فاني اطلعك على جلية امرنا لعلك تكون لنا عونًا في ما نحن فيه

قال وما ذلك

قال نحن يا سيدي كما قلت لك من اهل العراق وهذا الامير حماد سيدي وقد جئنا قاصدين مكة للتفتيش على الامير عبد الله والد مولاي هذا فقد قيل لنا انهُ جاء الحجاز برفقة ابي سفيان منذ اشهر فهل تعلم عنهُ شيئًا

قال اذكر اني شاهدت ابا سفيان بعد عودتهِ من الشام هذا العام ولكنني لم اعلم شيئًا عن الامير عبد الله فربما كان معهُ ولم أرهُ

فقال سلمان هل يخبرني سيدي عن سبب قدومهِ الى المدينة وهو من اهل مكة فاني اخاف ان يكون وراء مجيئكم ما يدعو الى حرب تقفل بها ابواب مكة دوننا

قال أما سبب مجيئنا الى المدينة فهواننا من خزاعة كما اخبرتكم وقد كانت قبيلتنا في خصام مع قبيلة اخرى يقال لها بنو بكر فكان النزاع بيننا لا يفتر حتى ظهر الاسلام وكانت الغزوات فجاء المسلمون منذ عامين الى الحديبية بالقرب من مكة ومعهم سبهم يريدون الاعتمار فخاف اهل مكة ان يكونوا عازمين على حرب فمنعوهم من دخولها ثم كانت خصومة انتهت بعقد أُبرم بين المسلمين وقريش يقضي بهدنة وسلام فدخل بنو بكر في عقد قريش ودخلنا نحن في عقد المسلمين ثم رجع المسلمون واطمأنت قلوبنا فلما دخل هذا العام رأينا من بني بكر خروجًا عن العقد فتعرضوا لنا وقتلوا منا بعضًا ورأينا بني قريش يضافرونهم على ذلك فاعتبرنا هذا العمل نقضًا للعهد الذي كان معقودًا بينهم وبين المسلمين وكأني بالقرشيين ساعون الى حتفهم بظلفهم فقد كانت

(١) السيرة الحلبية

مكة آمنة مطمئنة فعرضوها لهجمات المسلمين لاننا لما استفحل الامر علينا و رأينا القرشيين يعاونون البكريين علينا جئنا بهذا الجمع نريد المدينة لنبلغ ذلك الى صاحب الرسالة الاسلامية

فقال سلمان وما ظنك به بعد ذلك

قال اظنهُ يحمل على مكة برجالهِ فيفتحها عنوة و في فتحها عزٌّ للمسلمين

فقال سلمان يظهر انكم على دعوة صاحب الرسالة فهل انتم مصدقون لما جاء به

قال لقد جرّنا الحديث الى امور طالما وددنا كتمانها ولكننا اصبحنا في حال لا نرى معها بدًّا من التصريح فاننا نرى صاحب هذه الدعوة صادقًا في دعوته ولا نظنهُ الا غالبًا وما يدلنا على ذلك نصرتهُ في حروبهِ حيثما توجه

فعاد سلمان الى ما هم فيهِ من امر القرطين والامير عبد الله فاخذ يفكر في وسيلة يستقدم بها تلك الفرصة فقال اما وقد آنسنا منك هذه الشهامة فهل ترى ان تهدينا الى سبيل نتصل بهِ الى ابي سفيان للبحث عن مولاي الامير عبد الله

قال وما الذي عساي ان افعلهُ في هذا القبيل

قال توصي بنا رجلاً من خاصتك نثق باخلاصهِ وتعقلهِ ليدربنا في مكة لاننا غرباء والغريب اعمى ولو كان بصيرًا

ففكر عمر ساعة ثم قال لي في مكة عمٌّ شيخ يقيم في الكعبة نهارهُ كلهُ وهو واسع الاطلاع نافذ الكلمة لدى ابي سفيان فاذا لقيتموه واستعنتموه في شأن هداكم الى سواء السبيل واسمهُ حرب فاذا دخلتم مكة وجئتم الكعبة اسألوا عن حرب الخزاعي فاذا لقيتموه رأيتم فيهِ شيخًا طاعنًا في السن فقولوا لهُ ان ابن اخيك عمر بن سالم يقرئك السلام فاذا وصفتم لهُ حالنا وما شرحتهُ لكم من امر خزاعة وتكر علم انكم صادقون في قولكم فاسألوهُ ما شئتم فانهُ خير مرشد لكم في ما تريدون

فنهض حماد عن ذلك واثنى على عمر وودعاه وانصرفا الى خيمتهما

و بعد قليل نهض الركب الخزاعي ويمموا المدينة وقد سرّ سلمان لتلك الصدفة وامّل ان ينال بها خيرًا

# الفصل السادس والاربعون

## مكة المكرمة

وفي ظهيرة ذلك اليوم ركبوا يريدون مكة فوصلوها بعد مسيرة يوم فدخلوها فرأوا اهلها في هرج ومرج لا حديث لهم الا ام خزاعة وبكر فساروا في طرقها لا يستغشهم احدٌ لكثرة الواردين على الكعبة من الغرباء وارادوا المسير الى الكعبة في ذلك اليوم فقال سلمان هلمّ بنا الى خان ننزل فيه بجمالنا واثقالنا ثم ننزل الكعبة او انزل انا وحدي انجسس الاخبار واعود اليك فقصدوا خانًا بالقرب من الكعبة نزلوا فيه فبدلوا ثيابهم وتناولوا طعامًا واستراحوا بقية يومهم وسلمان يفكر في وسيلة تكفل لهم نجح مسعاهم

فلما اصبحوا في اليوم التالي قال سلمان امكث هنا يا مولاي ريثما اتدبر الامر بنفسي وآتيك بالاخبار واذا ابطأت عليك فلا تنشغل بالك

قال حماد سر بحراسة الله

فخرج سلمان وقد تزيّا بزي اهل الحجاز لا يريد بذلك تنكرًا ولكنه خاف ان يكون غريب لباسه موجبًا لاستلفات الانظار اليه فوصل المسجد الحرام فدخل من بعض ابوابه فرأى في ساحته جماعة كبيرة عراة يطوفون [1] وفيهم الواقف والجالس والراكع ورأى في بعض الجوانب جماعات جالسين يتحادثون ويتحاورون فسار هنيهة فرأى في وسط الساحة بناء مربعًا تجللهُ استار من القباطي علم من طواف الناس حولها انها الكعبة تجللها الاستار فلم يجسر على الطواف حولها او الدنو منها ولكنه نظر الى داخلها عن بعد فرأى فيها احجارًا قائمة علم انها الانصاب ورأى حول الكعبة وفوقها اصنام هائلة رأى بعض الناس يحلقون ويغتسلون حولها فاذهله كل ذلك وقال في نفسه اذا لم يكن في قيام الاسلام غير هدم هذه الانصاب وابطال عبادتها فلكفى به فضلاً

ثم تأمل في بناء الكعبة واخذ يفكر في امر القرطين وكيف يمكن ان يكونا هناك

---

(١) السيرة الحلبية

واذا وجدا فاين يمكن ان يكون موضعها فلم يزدد الاَّ ابهامًا ولا زادته تلك الزيارة الاَّ يأسًا

ثم تحوَّل نحو الجماهير لعلهُ يرى ذلك الشيخ فطاف المكان يسأل عنهُ باسمهِ. فقال لهُ بعضهم انهُ خرج الى منزلهِ بالامس لتوعك اصابهُ فسأل عن منزلهِ فقيل لهُ انهُ في مر الظهران بضواحي مكة (١)

فخرج الى مر الظهران وفيما هو في طريقهِ اليها يسأل عن الطريق ويستفهم عن الرجل رأى اهل مكة في هرج يجتمعون جماعات ثم يتفرقون كانهم في خوف من امر ذي بال فعلم انهم يتحدثون بامر اهل المدينة ومر بجماعة منهم كبيرة قد تألَّبوا امام منزل فخيم قد ربطت حولهُ الخيول فعلم انهُ بيت امير كبير فسأل عن صاحبهِ فقيل لهُ انهُ منزل ابي سفيان فلما سمع اسمهُ شكر الله بوصولهِ اليهِ تلك الساعة على غير انتظار واخذ يتفرس في وجوه الناس لعلهُ يرى سيدهُ بينهم فلم يجدهُ فسأل بعض الوقوف عنهُ فاخبرهُ بعضهم انهُ فارقهم بقرب عمان وانهُ لم يروهُ من ذلك الحين فأسف لذلك اسفًا شديدًا واظلمت الدنيا في عينيهِ وتشاءم من تلك الصدفة ولكنهُ تجلد وسار في طريقهِ الى مر الظهران وهو غارق في بحار الهواجس فوصل المكان بعد العصر فسأل عن منزل حرب فدلوهُ عليهِ فجاءهُ وهو لا يرجو ان يعيب منهُ خبرًا

فسأل عن الرجل فقيل لهُ انهُ مصاب بمرض شديد فلا يستطيع ان يخاطب احدًا فعاد على عقبيهِ كاسف البال وقد اخذ منهُ اليأس مأخذًا عظيمًا لا يدري كيف يلاقي حمادًا

فوصل الخان والليل قد سدل نقابهُ فرأى حمادًا في انتظارهِ على مثل الجمر فتظاهر بالتجلد ولم يخبرهُ بخبر والدهِ ولكنهُ انبأهُ بمرض حرب ووعدهُ بان يواصل السؤال عنهُ حتى يشفى من مرضهِ على انهُ لم يكن يرجو شفاءهُ لشيخوختهِ وعجزهِ ولكنهُ القى اتكالهُ على الله وصبر نفسهُ

وقضى سلمان شهرًا يتردد على بيت حرب يسأل عنهُ ويدعو لهُ بالشفاء وعلم سلمان بعد ذلك ان الشيخ اخذ في التقدم نحو الشفاء فعادت اليهِ آمالهُ

---

(١) السيرة الشامية

فسار اليه ذات يوم وهو يرجو ان يقابله ويشكو اليه امره وفيما هو في الطريق رأى اهل مكة في قلق شديد فمر بمنزل ابي سفيان لعلهُ يتنسمُ خبرًا عن سيده فرأى المنزل قفرًا فسأل عن السبب فقال له مخبران ابا سفيان لما سمع بقدوم المسلمين على مكة خرج اليهم وربما اعتنق دينهم لانهُ خرج خائفًا فسأل سلمان عن جند المسلمين فقيل له انهُ قادم وقد صار على مقربة من مكة

فتفرس سلمان في اهل مكة فرأى علامات الذل ظاهرة على وجوههم فسمع بعضهم يمتدح الاسلام وينقم على ابي سفيان وبعضهم يلوم القرشيين على عنادهم وكتمهم عهد بني خزاعة فعلم ان الامر عائد للمسلمين لامحالة فخرج من مكة حتى جاء مر الظهران واراد السؤال عن حرب فرأى الناس يهرعون والنساء يولولن وينادين بالويل والثبور فالتفت فرأى الغبار يتصاعد عن بعد فصعد على اكمة في ضواحي مكة يرى ما يكون فرأى الغبار قد شف عن جند متكاثر تتقدمهم الفرسان بالرايات ووراء كل راية قبيلة من المسلمين وكان ذلك في شهر رمضان فعسكر الجند على مسافة من مكة وعاد سلمان الى الخان خوفًا على سيده من غائلة ذلك الفتح وفيما هو سائر في الطريق رأى كوكبة من الفرسان يتقدمهم ابو سفيان عائدًا من سفرته وهو يدعو الناس الى الاسلام بالتخذير والتهديد مع النصيحة فلم يسمع الاَّ ازدراء واحتقارًا وسمع رجالة ينادون « من يدخل منزل ابي سفيان او منزل العباس بن عبد المطلب فهو آمن من سيوف المسلمين ومن يدخل المسجد او يدخل منزله ويغلق بابهُ فهو آمن » فاطمأن بال سلمان

فسار وهو يزاحم الجماهير في الاسواق فرأى اسرابًا من القرشيين يتأهبون للقاء المسلمين وفيهم الفارس والراجل فلم يكد يصل الخان حتى فرغ صبره فدخل فرأى حمادًا قد لبس ثيابهُ استعدادًا للخروج فقال له ما بالك يا سيدي

قال استبطأتك ورأيت الناس في هرج فخرجت لارى ما يكون

قال لا تعجل فقد علمت ما لم تعلم اجلس لاقص الخبر عليك قال قل وما ذلك

قال قد بلغك خبر الخزاعيين وما كان من نكث عهد قريش وقد كنا نتوقع قدوم المسلمين بسبب ذلك لفتح مكة فتحقق ظننا لان المسلمين جاؤوا وهم الآن في

ضواحي مكة وإظنهم يهاجمون غدًا وقد علمت ان ابا سفيان سار الى المسلمين وسلم لهم وعاد يدعو الناس الى الاسلام بعد ان كان من الدّ اعدائهِ كما تعلم وسمعت رجالهُ ينادون بالامان على كل من يدخل منزلهُ او منزل العباس عم صاحب هذه الرسالة او يدخل المسجد او يغلق بابهُ فنحن اذا اغلقنا بابنا كنا في مأمن والاّ فلنذهب الى المسجد فانهُ خير ملجأ فما الرأي

قال حماد ارى ان نغلق بابنا ولكننا نكون مع ذلك في خطر اذ ربما يعتدي علينا احدٌ سهوًا فالمسير الى المسجد اولى فهل انت تحققت هجومهم على المدينة غدًا

قال لا ادري ولكنني ساخرج صباحًا وآتيك بالخبر اليقين

## الفصل السابع والاربعون

### ﴿ فتح مكة ﴾

وباتوا تلك الليلة واصبحوا في الغد فبكر سلمان الى مكة الامس فاشرف على جيش المسلمين فسار اليهِ يستطلع الخبر فلم يكد يبلغهُ حتى رآهُ قد اصطف ومشى يتقدمهُ الفرسان واصحاب الرّايات وفيهم قبائل اسلم وغفار واشجع وسليم وغيرهم فتأمل عددهم فاذا هو يزيد على عشرة آلاف وشاهد في الوسط موكبًا هائلاً في وسطهِ راحلة عليها رجل معتجر بشقة حمراء [1] وعلى رأسهِ عمامة سوداء حرقانية واضعًا رأسهُ على رحلهِ وشاهد على الرحل ورأوه رجالاً رديفًا فعجب لذلك واشتاق لمعرفتهِ فرآهُ قادمًا من جهة الجيش فسألهُ عن هذا الموكب فقال انهُ موكب رسول الله وان الراكب هو الرسول نفسهُ قد جعل رأسهُ الشريف على رحلهِ واردف اسامة بن زايد خادمهُ [2] تواضعًا فعجب سلمان لذلك المشهد البهج وقال في نفسهِ لا عجب اذا نصر من كانت هذه خلالهُ ثم سأل الرجل عن عزمهم على الفتح فقال لهُ انهم سائرون الى مكة من اعلاها في تلك الساعة وان فرقة منهم سائرة بامارة خالد بن الوليد من اسفلها فهرول سلمان باسرع من لمح البصر فاعترضهُ جموع القرشيين يتألبون للدفاع وفيهم الفرسان

(١) البخاري (٢) السيرة الشامية

ولكن الفشل كان يتجلى على وجوههم وشاهد النساء ماشيات محلولات الشعور يستحثهن الرجال بالاناشيد وفي ايديهنّ الخمر يضربن بها وجوه الخيل تحريضاً وتوبيخاً فلم يزدد من تلك المناظر الاّ رهبة وخوفاً ونحقق اذ ذاك ان المسلمين فاتحوها لا محالة فما زال سائرًا حتى اتى الخان فقال هيّا بنا سيدي الى المسجد فانهُ خير ملجاء لنا

فاقفلا الغرفة وهرولا حتى دخلا المسجد وجلسا في بعض جوانبهِ فرأوا الناس هناك زرافات ووحداناً وقد استولى عليهم الخوف

وبعد ساعات قليلة ضج الناس في المسجد وهم يقولون « لقد اقبل رسول الله صلى الله عليهِ وسلم » فتحقق سلمان ان الفتح قد تمّ للمسلمين فوقف ومعهُ حماد في موقف يرى النبي وهو داخل المسجد فما لبث ان سمع الناس يكبرون ورأى النبي داخلاً على قدميهِ ووراءهُ رجل من اصحابهِ آخذ بزمام ناقتهِ فطاف حول الكعبة سبعاً وفي كل مرة كان يأخذ الحجر الاسود بمحجنهِ والمسلمون يصيحون بالتكبير حتى زاد صياحهم فاشار اليهم ان اسكتوا (١)

وكان في المسجد ثلاثمئة وستون صنماً لكل حي من احياء العرب صنم قد شدوا اقدامها بالرصاص فجاء النبي وفي يدهِ قضيب فجعل يهوي على كل صنم منها فيهوي على وجههِ او قفاهُ وهو يقول جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً (٢)

وكان سلمان وحماد ينظران الى ذلك ويعجبان ثم رأياه جاء الى صنم كبير الى جانب الكعبة كان قد عرفا انهُ هبل الاكبر فكسرهُ وكان في الكعبة صور شتى للانبياء وفيها صورة ابراهيم واسماعيل وعيسى ومريم عليهم السلام فامر بماء فمسحت كلها (٣)

ولما تكسرت الاصنام واتمحيت الصور جلس النبي في ناحية المسجد وعلى رأسهِ شيخ وقور علم بعد ذلك انهُ ابو بكر الصديق ثم امر ففتحت الكعبة فدخلها والناس ينظرون فصلّى فيها ركعتين

ثم وقف على باب الكعبة والناس وقوف صامتون كأن على رؤوسهم الطير فقال « لا اله الا الله وحدهُ لا شريك لهُ صدق الله وعدهُ ونصر عبدهُ وهزم الاحزاب وحدهُ » ثم خطب خطبة طويلة ذكر فيها كثيرًا من الاحكام منها « لا يقتل مسلم بكافر ولا يتوارث اهل ملتين مختلفتين ولا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها والدية

(١) السيرة الحلبية (٢) السيرة الشامية (٣) السيرة الحلبية

على المدعي واليمين على من انكر ولا تسافر المرأة ثلاثة ايام الاّ مع ذي حرم ولا صلاة بعد العصر و بعد الصبح ولا يصام يوم الاضحى و يوم الفطر » ثم قال « يا معشر قريش ان الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء والناس من ادم من تراب » ثم قال « ماذا تقولون وماذا تظنون اني فاعل فيكم » قالوا « خير أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت » فقال « اقول قال كما اخي يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين اذهبوا فانتم الطلقاء. » (١) وقال اقوالاً اخرى ادهشت حمادًا وسلمان لما حوته من الحكمة والموعظة فنظر سلمان الى حماد وقال والله اني لأعجب لأناس قاوموا هذا النبي وهذه تعاليمه واقواله ولا ريب عندي ان سلطانه سيتسع حتى يعطي الارض ويمحو دولتي الرُّوم والفرس

ثم التفت حماد فرأى القرشيين يعتنقون الاسلام وهم يصلون و يهنئ بعضهم بعضًا وقد هدأت الاحوال وآب الناس الى السكينة وانطلقوا الى منازلهم واشغالهم فخرج سلمان وحماد الى الخان

فلما استتب بهما الجلوس هناك التفت حماد الى سلمان فقال له لقد شغلنا بهذه الاحوال عما جئنا من اجله ولقد نظرت الى الكعبة فعظم عليّ امر القرطين ولم افهم اين موضعها ولا كيف استطيع الوصول اليها وخصوصًا بعد هذه الحروب ودخول مكة في حوزة المسلمين

فقال سلمان الم اقل لك يا سيدي ان عملك سامحه الله قد اقترح عليك امرًا مستحيلاً ولكننا سنقابل الشيخ الخزاعي ونرى رأيه في الامر وليس بعد الجهد حياد

فقال حماد وقد فاتنا استطلاع امر والدي من ابي سفيان

فتنهد سلمان ولم يجب

فعجب حماد لسكوته فقال له ما بالك لا تجيب

فقال بماذا اجيبك وليس في الجواب فائدة

فقال العلك سألت عنه ولم تظفر به

قال نعم يا مولاي ان سيدي ليس مع ابي سفيان فقد علمت انهم فارقوه عند عمان ولم يروه من ذلك الحين

(١) السيرة الحلبية

فانقبضت نفس حماد لذلك الخبر و بهت ملة لا يتكلم ثم قال والدموع تكاد تترقرق في عينيو ارى يا سلمان ان الله قد اعدّ لنا ايام تعاسة ولا تنقضي والظاهر ان نجم سعدي قد افل بوم خروجنا من البلقاء قال ذلك وتساقطت الدموع من عينيو على الرغم منهُ

فتجلد سلمان وقال لهُ تشجع يا سيدي ولا تيأس فان الله لا يتركك ولا يهملك وانت اينما تسعى في ما يأول الى رفع منزلتك رغبة في ارضاء فتاة انت تحبها وهي تحبك

فلما سمع كلمات سلمان تذكر هندًا وحبها وما آنسهُ من صنف الامل في الحصول عليها فلم يتمالك عن البكاء وسلمان ساكت لا يرى ما يعزيهِ بهِ فقال لهُ ان البكاء شأن النساء يا سيدي وعهدي بك — حازم باسل لا تجزعك حوادث الايام فاصبر ان الله مع الصابرين

قال اما اعلم يا سلمان ان البكاء عار على الرجال ولكن الحب ..... آه من الحب آه من ثعلبة آه من جبلة . وسكت

فاخذ سلمان يخفف عنهُ و يؤمله بما سيسمعونهُ من الشيخ الخزاعي فسكت

## الفصل الثامن والاربعون

### اليأس

وفي صباح اليوم التالي خرج سلمان الى مر الظهران يطلب ذلك الخزاعي فعلم انهُ نقه من مرضهِ والتمس مقابلتهُ فادخلوهُ عليهِ فاذا هو شيخ هرم قد احناه الكبر حتى ابيض شعر لحيتهِ واسترسل على صدرهِ وتجعد وجههُ وغارت عيناه وغطاهما شعر الحاجبين فحياه سلمان فردّ التحية واشار اليهِ ان يجلس الى جانبهِ ففعل

فبدأ سلمان بالسؤال عن صحتهِ ثم استطرد الى آخر الفتح ثم عرفهُ بنفسهِ وما جاء من اجلهِ فرحب بهِ

فقال سلمان قد جئناك يا سيدي نستطلع امرًا يهمنا كثيرًا ولا نرى احدًا سواك يستطيع مساعدتنا فيهِ

فقال مرحبًا بك قل ما بدالك

قال رجوان يكون كلامنا سرًّا لا يعرف به احد سوانا

قال قل لقد وقعت على خزانة اسرار

قال نحن نعلم ان احدى ملكات غسان واسمها مارية اهدت الكعبة قرطين ثمينين منذ نحو قرنين فهل تعرف شيئًا من ذلك

ففكر الشيخ قليلاً ثم قال نعم يا ولدي اني اعلم ذلك

قال سلمان فهل تعلم مكان هذين القرطين الآن قال ان حكاية هذين القرطين اصبحت في خبر كان لان الكعبة قد هُدِمت وبنيت مرارًا بعد اهداء زينك القرطين وآخر مرة هدمت فيها كانت منذ نحو اربعين سنة وبناها عبد المطلب جدُّ نبينا صلى الله عليه وسلم الذي شاهدتم فتحهُ مكة امس وهو الذي تولى رفع الحجر الاسود حينئذٍ ووضعهُ في مكانهِ قبل ظهور دعوتهِ ببضع سنين فقد كانت القبائل مختلفة على من يحمل ذلك الحجر الشريف ويضعهُ في مكانهِ وحاولت كل قبيلة اكتساب ذلك الشرف لها فحكموا هذا النبي في ما بينهم وهم لا يعلمون شيئًا من كرامتهِ فاشار بوضع الحجر في ملاءة واسعة واوعز الى كل قبيلة ان تحمل بطرف من اطرافها وبذلك انحسم الخلاف والخلاصة ان القرطين لا يعلم احد بمكانهما الآن والارجح انهما بيعا الى احد المتجولين والبحث عنهما بعدُ من قبيل العبث

فتكدر سلمان لذلك الامر والتفت الى الشيخ قائلاً فهل تظن البحث عن القرطين عبثًا

قال هذا ما اراه على ان دخول الكعبة لمثل هذا الغرض امر مستحيل اليوم بعد دخولها في حوزة الاسلام

فانقبضت نفس سلمان ولم يعد يستطيع البقاء هناك فنهض فودّع الشيخ وخرج الى حماد وكان ينتظر عودتهُ بفارغ الصبر فلما رآهُ استطلعهُ الخبر فاطلعهُ على حديث الشيخ وهو يكاد يبكي لشدة الاسف ولكنهُ افترح حديثهُ بعبارات التعزية واملهُ بوسيلة يتخذها للتعويض عن هذين القرطين امام هند على ان ذلك لم يكن ليخفف شيئًا من قلق حماد

## مؤلفات جرجي زيدان منشئ مجلة الهلال بمصر

(١) « تاريخ مصر الحديث » من الفتح الاسلامي الى هذه الأيام مع ملخص تاريخها القديم وهو جزآن كبيران فيهما مائة رسم واربع خارطات ثمنهُ ٤٠ غرشا صاغاً واجرة البوسطة ٥ غروش

(٢) « تاريخ الماسونية العام » منذ نشأتها الى هذه الايام ثمنهُ ٢٠ غرشاً واجرة البوسطة غرشان

(٣) « التاريخ العام » الجزء الاول يتضمن تاريخ ممالك اسيا وافريقيا وخصوصاً مصر ثمنهُ ٨ غروش صاغ واجرة البوسطة غرش واحد

(٤) « الفلسفة اللغوية » فيها بحث تحليلي الالفاظ العربية ثمنها ١٠ غروش واجرة البوسطة غرش واحد

(٥) « جغرافية مصر » (طبعة ثانية) تتضمن جغرافية المديريات والمحافظات وخصوصاً القاهرة ثمنها وحدها ٣ غروش ومع الخارطة ٥

(٦) « اسير المتمهدي » رواية تاريخية غرامية تتضمن حوادث عرابي والمهدي وحادثة سنة ١٨٨٠ في دمشق . ثمنها ١٠ غروش صاغ واجرة البريد غرشان

(٧) « المملوك الشارد » (طبعة ثانية) رواية تاريخية ادبية تتضمن حوادث مصر وسوريا في زمن المغفور لهُ محمد علي باشا والامير بشير الشهابي ثمنها ٨ غروش واجرة البوسطة غرش ونصف

(٨) « استبداد المماليك » (طبعة ثانية) رواية تاريخية تتضمن حوادث آخر القرن الماضي ثمنها ٨ غروش واجرة البوسطة غرش واحد

(٩) « ارمانوسة المصرية » (طبعة ثانية) رواية تاريخية غرامية تشرح حال مصر لما فتحها المسلمون سنة ١٨ للهجرة مع عوائد اهلها واخلاقهم وازيائهم . ثمنها عشرة غروش واجرة البوسطة غرشان

(١٠) « فتاة غسان » تشرح حال العرب في آخر ايامهم واول اسلامهم مع ذكر عوائدهم واخلاقهم الى فتوح الشام المرة الاول . ثمنهُ عشرة غروش واجرة البوسطة غرش ونصف

(١١) « جهاد المحبين » رواية ادبية غرامية ثمنها ٦ غروش صاغ واجرة البوسطة غرش ونصف

(١٢) « رد ريان » رد على انتقاد تاريخ مصر الحديث ثمنهُ غرش واحد

(١٣) « مجلدات الهلال الاول والثاني والثالث والرابع والخامس وما بعده » مجلدة تجليداً حسناً وموسومة بماء الذهب ثمن الواحد منها ٥٦ غرشاً واجرة البوسطة ٥ غروش صاغ

(١٤) « ملخص تاريخ اليونان والرومان مزين بالرسوم ثمنهُ ٣ غروش والبوسطة عشرون اره

## ( روايات الهلال ومطبوعات مطبعة الهلال . منها )

(١) اكتفاء القنوع بما هو مطبوع من الكتب العربية من اول عهد الطباعة الى الآن تأليف المستر ادوارد فانديك عدد صفحاته سبعمائة صفحة وثمنهُ خمسون غرشاً واجرة البوسطة خمسة غروش

(٢) « استراتوكي » (تأليف صموئيل افندي بني) وهي الرواية الاولى من روايات الهلال غرامية تاريخية حصلت حوادثها في زمن خلفاء الاسكندر المكدوني ثمنها خمسة غروش واجرة البوسطة غرش

(٣) (لصوص فينيسيا) هي الرواية الثانية من روايات الهلال تعريب ادارة الهلال . حرمان ثمن الجزء الواحد خمسة غروش واجرة البوسطة غرش

(٤) الالمام في مرض الحشة من ملوك الاسلام للعزيزي ثمن النسخة اربعة غروش واجرة البوسطة نصف غرش

(٥) « انتصار المحبين » وهي رواية غرامية ادبية تأليف يوسف افندي زيدان ثمن النسخة خمسة غروش واجرة البوسطة غرش

تطلب هذه الكتب من ادارة الهلال في القاهرة ومن وكلاء الهلال في الجهات ومن ارسل قيمتها مع اجرة البريد ولو طوابع بوسطة ترسل اليه حالا

فدوى من رواية اسير المتهدي



اسير المتهدي

تأليف جرجي زيدان منشىء الهلال

هي رواية تاريخية غرامية تتضمن الحوادث المصرية الاخيرة التي وقعت لعرابي والمتهدي السوداني بالتفصيل والايضاح حتى يخال المطالع نفسه بين الجند في ساحة الحرب او في غرف الامراء في ام درمان يشلف المهدي اوخلفاءه ويشعر لشدة تاثره انه في سراي الخرطوم محاصرًا مع غوردون باشا وقد ذاق ما ذاقه اهل الخرطوم من الجوع والضنك وكانه شاهد فتوح تلك المدينة ومقتل غوردون وغيره من اهلها فان المؤلف شاهد اكثر الوقائع السودانية شهادة عين وحضر حروبها وشاهد بلادها واهلها اما الحوادث العرابية فتنكشف لديه حقيقتها وما حصل من وقائعها سرًّا او جهرًا كل ذلك وهو لا يشعر الاَّ انه يطالع قصة غرامية تجبب اليه المطالعة لا يهدا لهُ بال الاَّ بالاتيان على اخرها

وثمن النسخة عشرة غروش صاغ واجرة البوسطة غرشان وتطلب من ادارة الهلال اومكتبتهُ بالفجالة بمصر

# فتاة غسان

رواية تاريخية غرامية

تشرح حال الاسلام من أوّل ظهوره
الى فتوح الشام والعراق مع بسط عوائد العرب
في آخر جاهليتهم وأوّل اسلامهم ووصف
أخلاقهم وأزيائهم وسائر أحوالهم

تأليف

جرجي زيدان

« منشيء الهلال بمصر »

الجزء الثاني

« طبعت بمطبعة ( الهلال ) باول شارع الفجالة بمصر سنة ١٨٦٨ م »

# الهلال

﴿ مجلة علمية شرقية ادبية تاريخية ﴾

لمنشئها

جرجي زيدان

أنشئت بمصر في اول سبتمبر سنة ١٨٩٢

تبحث في كل المواضيع المصرية وفي التواريخ الشرقية وخصوصاً الاسلامية مع رسوم مشاهير الناس وتواريخهم ومستحدثات الاختراع ورسوم مشاهير العصر وتاريخ الحوادث الجارية في كل اقطار العالم وروايات تاريخية اسلامية تبدأ بظهور الاسلام وتتدرج فيه دولة دولة وعصراً وعصراً على اسلوب حديث كثير التشويق للمطالعة. تصدر مرتين في الشهر في كراس كبير صفحاته اربعون صفحة جيدة الورق جميلة الحروف متقنة الطبع. بدل اشتراكها في السنة خمسون غرشاً داخل القطر المصري واما خارجه فهو ١٢ شلناً او ١٥ فرنكاً او ٢ روبية او ٣ ريالات اميركانية او ٣ ريالات مجيدية ونصف تدفع سلفاً فمن اراد الاشتراك فيها فليخابر « ادارة الهلال بمصر » واذا اراد احد الحصول على مثالٍ منها فليطلبه فيرسل اليه مجاناً

﴿ هدايا الاصدقاء ﴾

افضل هدية تهديها الى صديقك اذا كان ممن يحبون المطالعة « اشتراك سنة في مجلة الهلال » فان قيمته زهيدة ومطالعته سهلة ومواضيعه لذيذة مفيدة



ضجة النيل

# روايات المصرية

رواية تاريخية غرامية · الطبعة الثانية

« تأليف جرجي زيدان مؤلف هذا الكتاب »

تشتمل على اهم حوادث التاريخ الاسلامي واكثرها تعلقا بالقطر المصري اعني ظهور الاسلام وفتوحاته وخصوصاً فتح مصر وبيان حقيقة اسباب ذلك الفتح وما كان من حال القبط مع الروم وشرح احوالهم وعوائدهم واخلاقهم وملابسهم منذ ثلاثة عشر قرناً او هي عبارة عن تاريخ فتح مصر في صدر الاسلام مع تمثيل حركات الجند وملابسهم ومداولات

القواد في خيامهم وقصورهم وماجال في خواطرهم مكتوباً على اسلوب حكاية يقرأها المطالع ولا يمل بل يزداد اشتياقاً لمطالعتها وهو يحسب انهُ يقرأ قصة فكاهية فلا يأتي على آخرها الا وقد فهم تاريخ الفتح وحوادثه كانهُ شهده بنفسه ومن ابطالها عمر بن العاص والمقوقس حاكم مصر والاعيرج قائد جند الروم فيها وغيرهم وفي هذه الطبعة فضلاً عما في الطبعة الماضية فتح الاسكندرية وخروج الروم من القطر المصري مدحورين ثمنها ١٠ غروش مصرية واجرة البريد غرشان ولا بأس من ارسال القيمة طوابع بوسطة



# استبداد المماليك

﴿ رواية ادبية تاريخية · الطبعة الثانية ﴾

( تأليف جرجي زيدان مؤلف هذا الكتاب )

تتضمن هذه الرواية حوادث آخر القرن الماضي وقد مثلت فيها احوال الامراء المماليك ومعاملتهم للرعية وعلاقتهم بالدولة العلية والداخل الروسية ومن ابطالها علي بك الكبير ومحمد بك ابو الذهب والشيخ ضاهر العمر وغيرهم · ثمنها ٨ غروش مصرية واجرة البوسطة غرش ونصف

# فتاة غسان

* رواية تاريخية غرامية *

* تشرح حال الاسلام من أول ظهوره *
* الى فوح الشام والعراق مع بسط عوائد العرب *
* في آخر جاهليتهم وأول اسلامهم ووصف *
* أخلاقهم وأزيائهم وسائر أحوالهم *

تأليف


## جرجي زيدان

« منشىء الهلال بمصر »


الجزء الثاني


« طبعت بمطبعة ( الهلال ) باول شارع الفجالة بمصر سنة ١٨٩٨ م »

# مقدمة

## ﴿ الجزء الثاني من فتاة غسان ﴾

هذه هي الرواية السادسة من رواياتنا التاريخية ولكنها تمتاز عنها كلها بانها الحلقة الاولى من سلسلة روايات متتابعة تضمن تاريخ الاسلام من اول ظهوره الى الآن سننشرها تباعا في مجلتنا « الهلال » فهذه الرواية الاولى منها وتضمن الحوادث التي وقعت من ظهور الاسلام الى فتح الشام والعراق وتليها رواية في فتح مصر وهذه سبق اننا نشرناها في السنة الرابعة من الهلال وهي « ارمانوسة المصرية » ولم يكن في عزمنا تأليف هذه السلسلة اما وقد عزمنا على ذلك فصارت « ارمانوسة المصرية » الحلقة الثانية من تلك السلسلة

واما الحلقة الاولى التي نحن في صددها « فتاة غسان » فقد نشرنا الجزء الاول منها في السنة الخامسة من الهلال وهذا الجزء الثاني نشر في السنة السادسة وبناء على الحاح حضرات القراء طبعناها على حدة رغبة في نشرها وسنعقبها برواية اخرى ننشرها في السنة السابعة تتضمن مقتل عثمان وخروج الخلافة من اهل البيت الى بني امية ثم روايات اخرى في اهم حوادث الدولة الاموية في الشام وفي الاندلس وحوادث الدولة العباسية والفاطمية والايوبية وهكذا الى آخر تاريخ الاسلام

فعسى ان يلاقي هذا المشروع اقبالاً من حضرات القراء الادباء فنثابر على العمل والاتكال على الله

# الفصل التاسع والاربعون

## المناجاة

تركنا حمادًا وسلمان في مكة وقد غلب عليهما اليأس بعد ان تكبدا مشاق الاسفار ولم يظفرا بشيء مما أملاه وخصوصًا حماد فانهُ اصبح يئسًا تتقاذفهُ عوامل الحب من جهة وعوامل النهامة من جهة اخرى وهو بين ذلك لا يرجو لقاء والدهِ ولا يأمل الظفر بحبيبتهِ فكان كلما تصوَّر ذلك ثارت الحمية في رأسهِ وعظم عليهِ العود الى اللقاء فحدثتهُ نفسهُ ان يبتعد عن الناس ويأوي الى مكان لا يعرفهُ فيهِ احد او ان يقيم في دير او نحوهِ لان الحياة اصبحت لديهِ شرًّا من الموت

أما سلمان فانهُ ادرك حال سيدهِ وعلم ما هو فيهِ من اليأس فثارت في نفسهِ عاطفة النهامة وعوَّل على ان يبذل نفسهُ في سبيل تعزيتهِ فخرج من الغرفة ذات صباح متظاهرًا بحاجة يفتش عنها وترك حمادًا وحدهُ فلما خلا حماد بنفسهِ خرج من الغرفة وصعد الى سطح الخان وقد ضاق صدرهُ وصغرت نفسهُ والسطح تظلله خيمة من ورق الشجر مجلس على وسادة واخذ ينظر الى مكة وما يحيط بها فاذا هي عبارة عن ارض مبسطة في واد تحف بهِ الجبال فلم تشغلهُ تلك المناظر الاَّ هنيهة ثم عاد الى هواجسهِ فتذكر حبيبتهُ ووالدهُ وتصوَّر مقدار ما تراكم عليهِ من الهموم مما ألمَّ بهِ من الفشل وقد قطع الغراري والقفار حتى جاء الكعبة للبحث عن قرطي مارية مهرًا لحبيبتهِ هند ومرضاة لوالديها فعلم من حرب الخزاعي ان القرطين لا يمكن العثور عليهما هناك. وبعد ان كان على أمل من لقاء والدهِ مع ابي سفيان في مكة تحقق ضياعهُ ويئس من حياتهِ فتصوَّر نفسهُ مغلول اليدين مقصوص الجناحين فعظم الامر عليهِ كثيرًا واشتد بهِ اليأس حتى تناثرت الدموع من عينيهِ ثم تذكر انهُ في غربة لا يجدر بهِ الاستسلام للعواطف فامسك نفسهُ ولكن اليأس غلب عليهِ فانقضت نفسهُ واشتد بهِ الهيام فاخذ يناجي هندًا قائلاً

آه منك يا هند بل آه من هذا القلب الذي عصاني واطاعك ونعمَّ ما فعل

فانك والله جديرة بحبهِ ولكن والدك آه من والدك فانهُ انما اراد مستحيلاً فطلب مني مهرًا العنقاء اقرب منالاً منهُ وكأني بهِ لا يرضاني لهُ صهرًا وعذره مقبول طالما كان نسبي مجهولاً .... فالقرطان لم يوجدا فهد بعيدة المنال مني آه يا هند أأعود اليك بصفقة المغبون واذا عدت كذلك ما يكون رأيك ..... لا ريب عندي ان ذينك القرطين لا يهمك امرهما ولا رضيت ان اشقى في سبيل التفتيش عنهما الاَّ مجاراة لوالدك ... ولكن ما هذا يا حماد كيف تعود الى هند صفر اليدين وكيف تقابل جبلة وماذا تقول لهُ لا لا لا لن اعود الى البلقاء على هذه الحال وقد فقدت والدي في بلاد لا اعرف فيها اليمًا ومن يدريني اين هو واين النذر ووفاء النذر يا ليتهُ قص شعري قبل ضياعه فقد كنت على موعد منهُ انهُ متى وفى النذر وقص الشعر يطلعني على امور تهمني وقد يكون لها علاقة بأمر زواجي فاين والدي الآن آه يا أبتاه اين انت ألعلك لا تزال في قيد الحياة من يعلمني اين مقرّك فاطير اليك مسرعًا أما اذا بئست منك ومن هند فلا يعود لي في الحياة ما رب فاما ان الجأ الى دير او صومعة أقضي بقية الحياة منفردًا لا ارى انيسًا او ان ألقي نفسي في تهلكة ... ولكن لا لا ان قتل النفس ضعف ومذلة وكيف افعل دلك ونفسي رهينة امر هند وهند لا تريد قتلها اذن لأصبرنّ صبر الرجال واعيد الكرة في البحث عن القرطين فاذا تيقنت فقدانهما عمدت الى هند وبسطت لها امري وأطلعتها على كنه ضميري فاذا رأيتها تؤثر مرضاة والديها وحفظ تقاليد عائلتها على رضاي قلت على الدنيا ومن فيها السلام والاَّ فاني ارضى من الدنيا برضاها فنتعاقد ونتراضى على امر يكون لنا فيهِ منجاة من والديها .... واما والدي آه اين انت يا ابتاه ان ضياعك عرقل مساعيَّ وغل يديَّ ولا ريب انك لو شاركتني في هذا الامر لسهلت كل صعب وهديتني صراطًا مستقيماً ... ولكن الاقدار أبت الاَّ معاندتي فصبرًا جميلاً .... »

مرّت كل هذه الخيالات في ذهن حماد وهو متكىء على الوسادة تارة يبكي وطورًا يحرّق اسنانهُ وآونة يصبر نفسهُ وكان لم ينم في الليل الماضي الاَّ قليلاً فغلب عليهِ التعب والملل والضجر فجاءه النعاس فغمضت جفناه

# الفصل الخمسون

## حسان بن ثابت الانصاري

مضى بعض ذلك النهار وحماد بين نائم وهاجس فوق السطح لم يذق طعاماً حتى اذا كان العصر أفاق من صوت سلمان خادمهُ ففتح عينيهِ فرآه واقفاً فوق رأسهِ بنادبهِ وعلى وجههِ امارات البشر كأنهُ أتى امراً جديداً فانبسطت نفس حماد فهبَّ من رقاده وجلس وصاح ما وراءك يا سلمان

قال ما ورائي الاَّ الخير باذن الله

قال ارى على وجهك امارات البشر فهل اهتديت الى طريق جديد يوصلنا الى ساحة الفرج

قال نعم يا سيدي اظنني توفقت الى شيء من هذا القبيل

قال قل ما هو

قال خرجت في هذا الصباح على بركة الله وقد عولت في باطن سري ان لا اعود اليك الاَّ مبشراً خير فسرت في اسواق مكة واما اتوسل الى الله ان يلهمني رشداً وسداداً او يهديني سبيلاً اختفف بهِ اليأس عن مولاي فمررت ببعض البيوت فرأيت عند بابهِ بغلة عليها بردعة ثمينة والى جانبها غلام فحدثتني نفسي ان اسأله عن صاحب البغلة فقال هو حسان بن ثابت شاعر الانصار فتذكرت اني اعرف هذا الاسم فأخذت في التفكر لعلي اذكر الرجل فعلمت اني كنت اسمع اسمهُ مذ كنت في العراق وانهُ كثيراً ما كان يأمُّ الحيرة فينظم القصائد في مدح الملك النعمان رحمهُ الله وكثيراً ما كان يفد على ملوك بني غسان فيمتدح جبلة والحارث بن ابي شمر (١) وغيرهم فقلت في نفسي اظنني اصبت ضالتي ان الرجل بمجالس اعظم ملوك العرب فربما كان لهُ المام بامر القرطين فسألت الغلام عن حسان فقال انهُ في البيت فاستأذنت في الدخول عليهِ فاذن فدخلت عليهِ حتى اقبلت على الرجل فاذا هو جالس على وسادة في بعض زوايا الغرفة فتأملتهُ فاذا بهِ قد تبدلت حالهُ عما كنت اعرفهُ فاحناه الكبر وضعف بصره وشاب

(١) الاغاني

شعره واسترسلت لحيتهُ [1] فبادرت الى يده فقبلتها وحييتهُ فرد التحية ورحب بي واجلسني الى جانبهِ وسألني عن امري فما زلت ادخل معهُ في حديث واخرج من آخر حتى توصلت الى القرطين فسألتهُ عما يعرفهُ من امرها ففكر قليلاً ثم قال اظنني سمعت ذكرها في بعض مجالس النعمان بن المنذر في الحيرة فقلت وكيف كان ذلك

فقال يغلب على ظني ان بعض تجار الفرس الذين يحملون الاقمشة الفارسية الى مكة عاد منها ذات عام ومعهُ قرطا مارية فعرضهما على النعمان واظنهُ اشتراهما منهُ فاذا صدق ظني كان القرطان الآن في خزينة الملك النعمان في الحيرة

فلما سمعت ذلك هرولت اليك مسرعًا لنسير اليهِ فهل تسير معي

قال نعم ولا بد من المسير اني ارى في كلام الشاعر بأسًا للفرج هلمَّ بنا

فنهض حماد وقد انبسطت نفسهُ وعادت اليهِ بعض الآمال وان لم يكن في الخبر ما يدعو الى الامل ولكن المرء اذا كان في ضيق كان سريع التعلق بالامل ولو كان اوهى من خيط العنكبوت . واحسَّ حماد بفراغ معدتهِ فتناول شيئًا من التمر يسد بها جوعه وخرج مع سلمان ماشيين حتى اتيا بيت حسان فاستأذنا ودخلا فتقدم اولاً سلمان فسلم وذكر اسم حماد امام حسان وقال انهُ سيده وانهُ من امراء العراق ولما سمع بوجود حسان هناك اراد المثول بين يديهِ فتقدم حماد وهمَّ بتقبيل يدي الشيخ فمنعهُ ولكنهُ رفع نظرهُ اليهِ وتفرس فيهِ كأنهُ يراجع في ذاكرتهِ صور امراء الحيرة لعلهُ يعرف حمادًا فتشابه عليهِ امرهُ فسألهُ عن اسمهِ واسم عائلتهِ

فقال حماد اني حماد بن الامير عبد الله

فقال حسان لا اذكر رجلاً بهذا الاسم في بلاط النعمان او لعلي نسيتهُ فقد قتل النعمان رحمهُ الله قتلوه غدرًا منذ نيف وعشرين عامًا وتفرقت اصدقاؤهُ على اثني انقطعت عن الحيرة قبل ذلك العهد فلم اعد اقدمها ولا رأيت احدًا من امرائها ولكن سقى الله تلك الربوع واعاد سلطة المناذرة فقد كانوا زينة الدولة الفارسية وبيت قصيد وخصوصًا النعمان بن المنذر رحمهُ الله وجازى الباغين عليهِ شرًّا

فقال حماد وهل كنت تفد عليهِ كثيرًا

قال لم يمض العام قبل ان ازورهُ مرارًا فاركب ناقتي من المدينة حتى آتي اللقاء فادخل على جبلة بن الايهم او الحارث بن ابي شمر الغسانيين ثم اقصد العراق فادخل

(١) طبقات الشعراء

مجلس النعمان بن المنذر فيجلع علي الخلع و يأمرلي بالعطايا وهكذا كان يفعل الغسانيون ايضًا ثم كان ما كان من امر قتلهِ فانقطعت عن العراق الى اللقاء حتى ظهر الاسلام واسلم اهل المدينة فكنت في حملة من تشرف بالاسلام ولازمت رسول الله صلى الله عليهِ وسلم اسير معهُ او الحق بهِ حيثما اقام . وقد عاد الآن بحيتهِ الى المدينة ولا البث ان اتبعهُ عاجلاً

فقال سلمان ذكرت يامولاي ان القرطين بيعا للملك النعمان فاذا تمَّ لها بعد موتهِ

قال لا ادري و ربما كانا في حملة ما استولى عليهِ قاتلوه من التحف فاذا صح هذا الظن كان القرطان في خزينة ملوك الحيرة الآن

وكان حسان يخاطب سلمان وعيناه لم تتحولا عن وجه حماد وهو يتفرسهُ و يلاحظ حركاتهُ كانهُ يعرف لهُ شبهًا وحماد غافل عن ذلك بما كان غارقًا فيهِ من الهواجس بعد ان سمع ما سمعهُ من امر القرطين وصعوبة الحصول عليهما بعد وصولها الى خزينة ملوك الحيرة ولكنهُ عول على البحث عنهما ما استطاع الى البحث سبيلاً

و بعد قليل همَّ حماد بالخروج فسألهُ حسان اين تقصدون

قال سلمان اننا نقصد منزلنا لنتهيأ للخروج في الغد

قال هل تريدون الذهاب الى المدينة

قال ربما مررنا بها في طريقنا الى البلقاء

قال ارى انكما غريبان فربما عسر عليكما المسير منفردين وقد آنست فيكما عنصرًا جيدًا فهل تقبلان مرافقتي الى المدينة نقيمان فيها ريثما تعزمان على اللقاء وربما ارفقتكما بمن يوصلكما اليها

فنهض سلمان بهوض الاحترام واثنى على حسان ثناء طيبًا وقال اننا نشكر لعمل الشاعر شكرًا جزيلاً ولا نعد ذلك منهُ الاَّ كرمًا ومنة عرف بها عرب الحجاز منذ القدم

قال عفوًا يا اخا تخم اني لا اجود الاَّ بمال المناذرة ولا ارتع الاَّ في بحبوحة خيرهم فاني لا انكر فضل العراق عليَّ وعلى كل من نزل ديارهم من الغرباء وذلك امر مشهور لايجهلهُ احد فكيف باهلهِ فاذا شئتما المسير الى منزلكم الليلة فاعدوا حوائجكم وها اني مرسل معكم من يحملها الينا فنبيت الليلة هنا ونصبح سائرين ان شاء الله

# الفصل الحادي والخمسون

## ﴿ اللقاء ﴾

فباتوا تلك الليلة في منزل حسان واصبحوا جميعًا قاصدين المدينة وحسان يطرفهم في اثناء الطريق بلطائف منظوماتهِ في مدح ملوك الحيرة وملوك غسان وحماد يستزيده مما نظمهُ في جبلة من الايهم ويطرب كل بيت يسمعهُ ولم يكن ذلك الاَّ ليزيد اشجانهُ ويذكرهُ بخطيبتهِ هند ثم تذكر تعلبة واباه الحارث بن ابي شمر فقال

وكيف رأيت الحارث بن ابي شمر

قال رأيتهُ كريمًا محبًّا للشعراء ولكنهُ كان حاسدًا لجبلة فكنت اذا مدحت جبلة في حضرتهِ كان الحسد يظهر على وجههِ مع ما كان يحاول اخفاءه من عواطفهِ (١)

فتحقق حماد ان تعلبة انما ورث ذلك الخلق عن والدهِ وزاد عليهِ اللؤم والخساسة ولما تذكر ذلك غلب عليهِ الانقباض واوجس خيفة على هند من غدرهِ اثناء غيابهِ وخصوصًا اذا عاد خالي الوطاب فاستولى عليهِ السكوت فادرك سلمان منهُ ذلك فاراد اخفاء الامر عن حسان فقال وكيف رأيت جبلة

قال رأيتهُ شهمًا عزيز النفس كريم الخلق كثيرًا ما عرضت بحسد الحارث امامهُ وهو لا يبالي بل كان يلتمس لهُ عذرًا ويغالطني متجاهلاً فكنت لا ازداد الاَّ اعجابًا بهِ

فقال سلمان واي الملكين اشد بطشًا الآن

قال ان جبلة ارفع مقامًا واعز جانبًا ولكن بعض القادمين علينا من البلقاء انبأنا بوفاة الحارث

فصفت سلمان وانتبه حماد من هواجسهِ فقال سلمان وهل تحققتم وفاتهُ

قال نعم وقد نقلهُ الينا بعض الذين ارسلناهم لتجسس احوال الروم بعد واقعة مؤتة (٢)

فالتفت سلمان الى حماد فرآه يبتسم ولكن البغتة ما زالت ظاهرة على وجههِ يتخللها

---

(١) الاغاني

(٢) لم يرد في تواريخ العرب ذكر السنة التي توفي فيها الحارث ولكنهم ذكروا انهُ كان في واقعة مؤتة ثم اغفل خبره

بعض الانقباض فاشار اليهِ بملامح وجههِ اشارة فهم حماد منها انهُ يهنئهُ بانكسار شوكة ثعلبة لكنهُ تحوَّل حالاً الى حسان وقال لهُ وما ظنك بمن يرث الامارة بعده

قال لا اظن احدًا من اهلهِ اهلاً لهذه الامارة والغالب ان تخضع كلمة قبائل غسان تحت لواء جبلة بن الايهم

فانشرح صدر حماد ولكن امر القرطين ما زال حاجزًا بينهُ و بين كل سرور

وساروا حتى اتوا المدينة فوصلوها صباحًا فوجدوا اهلها في فرح وعز لما اوتوهُ من النصر بفتح مكة المشرفة و رأوا الناس عكوفًا على الصلاة وما زالوا سائرين حتى اناخوا جمالهم امام منزل حسان فهمَّ الخدم بحمل الامتعة الى المنزل واخذوا الجمال الى العلف ونزل سلمان وحماد وقد اعجبوا بما آنسوهُ من عكوف المسلمين على الصلاة وما رأوا من خشوعهم وتدينهم فضلاً عما شاهدوهُ من بسالتهم في فتحهم مكة

اما حسان فلم يكد يصل منزلهُ حتى طلب الراحة من وعثاء السفر لتيخوخته وعجزه ودعا ضيفيهِ اليهِ فجلسا متأدبين فقال لهما تذكرت امرًا اظنهُ يهمكما كثيرًا وقد فاتني ذكرهُ لكما قبل الآن

قال سلمان وماذا عسى ان يكون ذلك

قال ذكرت لكم واقعة مؤتة واظنكم لم تفهموا ماهي

قال سلمان كلاَّ يا سيدي لم نفهم المراد جيدًا

قال كان رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ارسل جندًا من المسلمين لحرب الغسانيين في العام الماضي فسار الجند وحاربهم في مكان يقال لهُ مؤتة بالقرب من بصرى وستسمعون خبر هذه الواقعة الآن ولكني اردت ان اوجه التفاتكم الى رجل اسر جندنا في أثناء تلك الحملة وقد حملوهُ الينا فلما رأيتهُ معهم عرفت انهُ أُسر ظلمًا ولما سألتهُ عن خبرهِ علمت انهُ ليس من اهل البلقاء بل هو عراقي ومن اهل الحيرة ذكر انهُ كان برأني اثناء وفودي على الملك النعمان منذ نيف وعشرين عامًا وبما انكم من اهل العراق فربما استأنستم بالرجل والوطن احسن جامعة بين الناس قال ذلك ونادى رجلاً واقفًا بالباب فحضر فقال لهُ ادعُ ضيفنا العراقي

قال لبيك وخرج ثم عاد يتبعهُ رجل كهل ملتف بعباءة مقطب الوجه وكان حماد وسلمان لا يزالان مخمرين خمار السفر فحالما وقع نظر سلمان على ذلك الرجل

أحس بخفقان قلبهِ كانهُ آنس فيهِ مشابهة لسيده عبد الله ولكنهُ رأى في سحنتهِ ملامح تخالف ما لعبد الله أهمها ان عبد الله كان طويل الشاربين مستدقهما ومسترسل شعر اللحية مع خفية أما هذا فهو قصير الشاربين واللحية على ان سلمان ما زال ينظر اليهِ ويتأملهُ حتى دنا منهُ فوقف لهُ وهمَّ بمصافحتهِ فلم يكد يفوه بأول كلمة حتى تحقق سلمان انهُ هو سيده بعينهِ فهمَّ بهِ وقبلهُ وناداه باسمهِ

وكان حماد في شاغل من هواجسهِ في هند والقرطين ووالده فلم ينتبه الاَّ وسلمان ينادي بأعلى صوتهِ سيدي الامير اهلاً سيدي الامير فالتفت حماد فاذا هو والده عبد الله فنهض ونهض سلمان فهمَّ عبد الله بحماد وضمهُ وحعل يقبلهُ ودموع الفرح تتساقط على وجههِ وسلمان يقبل يد عبد الله ويهنيهما بعضهما ببعض فانبسطت وجوه الجميع وزالت منها العبوسة وجلسوا وعبد الله بجانب حماد قابضاً على يده بين يديهِ وحسان جالس الى جانب وقد عجب لما رآه وسمعهُ فسألهم عن امرهم فاحكى لهُ عبد الله عما تمَّ من الاتفاق الغريب وان حماداً ووالده وسلمان جاؤوا معهُ ففرح حسَّان لما تمَّ على يده من الخير . ثم جلسوا يتحادثون

فقال سلمان لقد رأيت في وجه سيدي تغييراً كاد يحول بيني وبين معرفتهِ فاني أعهد شعر وجههِ طويلاً مسترسلاً فما لي اراه قصيراً

فضحك عبد الله وقال ان لهذا التغيير حديثاً غريباً سأقصهُ عليك بعد ان اسمع حديثكم وما كان من امر الاسد وضياع الترس

# الفصل الثاني والخمسون

## ﴿ واقعة مؤتة ﴾

فحكى سلمان حكايتهُ مع حماد والاسد وكيف نجوا منهُ بتسلق تلك الشجرة وما تمَّ لهم بعد ذلك من حديث هند ووالدتها ووالدها وحب حماد لها ثم ما كان من خطبة حماد وما اقترحه عليهِ جبلة بن الايهم مهراً لابنتهِ وما لاقاه حماد في سبيل ذلك من الاسفار والاخطار حتى جاؤوا مكة وشهدوا فتحها وكيف يئسوا من وجود القرطين هناك حتى تجدد املهم بوجودهما في خزينة النعمان بن المنذر في الحيرة

وكان عبد الله في اثناء الحديث مصغيًا صامتًا وامارات الاستغراب ظاهرة على وجهه كأنهُ سمع امورًا لم يكن يتوقع حدوثها ولا يرضاها ولكنهُ سكن عن ذلك واخذ يقص عليهم حديثهُ فبدأ بوقوعهِ بالاسر في غسان ثم مسيره الى بيت المقدس . ومقابلتهِ هرقل امبراطور الروم وما سمعهُ من حديث ابي سفيان ثم سفره معهُ وما كان من مشاهدتهِ الفرس واستدلالهِ منها على ضياع حماد وكيف رافقهُ ابو سفيان في مسعة الزرقاء للتفتيش عن حماد وما شاهدوهُ من عظام الفرس الآخر وبعض الآثار حتى انتهى الى مسيره منفردًا الى عمان ووقوعهِ اسيرًا بين يدي الحجاز بين الذين سار ولحاربة اهل الشام وما دار بينهُ وبين بعضهم عن السبب الذي جاءت تلك الحملة من اجلهِ الى ان قال

فلبثت اسيرًا عندهم وانا على مثل الجمر لان املي لم ينقطع من لقاء ولدي حماد على اني كنت في بعض الاحايين لا ارتاب من فقده واحيانًا اراجع ما شاهدتهُ من الادلة على ذلك فلا ارى ما يقطع بوقوع القضاء فكان سجني في معسكر جيش الحجاز قيدًا ثقيلاً عليَّ وخصوصًا انهم منعوا القرى عني فقد كنت استأنس بهِ فبعد ان قضيت مدة بجوار عمان علمت ذات يوم ان الروم قد جندوا جندًا كبيرًا يبلغ عدده نحو مئتي الف وفيهم الروم والعرب من بني غسان ولخم وجذام وبهرام [١] فلما بلغ المسلمين ذلك خافوا الفشل لان عددهم لا يزيد على ثلاثة آلاف فضلا عما في جند الروم من المعدة والسلاح و بلغني ان امراء جند المسلمين اجتمعوا في خيمة ابن رواحة احد امرائهم وتشاوروا في الامر فقال اكثرهم نكتب الى رسول الله في المدينة نخبرهُ الخبر فاما ان يمدنا بالرجال واما ان يأمرنا بأمر فنمضي لهُ فقام فيهم ابن رواحة وخطب خطابًا انهض هممهم فقال « يا قوم والله ان التي تكرهون لهي التي خرجتم اياها تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم الاَّ بهذا الدين الذي اكرمنا الله بهِ فانطلقوا انما هي احدى الحسنيين اما ظهور واما شهادة » فقال الناس « والله صدق ابن رواحة » [٢] واشتدت عزائمهم وصمموا على الحرب وكنت اعجب لبسالتهم واقدامهم واتحاد كلمتهم واستهلاكهم في سبيل نصرة دينهم

فبعد ايام بودي بالجند فقاموا وسرت انا فيهم مخفورًا ارى كل حركاتهم وسكناتهم

(١) السيرة الشامية (٢) السيرة الحلبية

فما زلنا سائرين حتى دنونا من بلدة على رحلتين من بيت المقدس يقال لها مؤتة وكان جند الروم قد عسكر هناك فالتفت الى ذلك الجند فاذا هو مالئ السهول هناك وفيهم الفرسان والمشاة ورأيت في وسط المشاة مشاة عليهم ملابس كثيرة الالوان تبهر النظر تتلألأ في ضوء الشمس فلم أكن اظن الحجازيين ينظرون الى ذلك الجند حتى يعودوا القهقرى وجلاً ومهابة ولكن رأيت فيهم ثباتاً لم أرَ مثلهُ في اسفاري كلها وما ذلك الاَّ لوثوقهم بربهم وعدم مبالاتهم بانفسهم في سبيل نصرة دينهم

وخلاصة القول ان المسلمين تقدموا تحت قيادة ثلاثة من الامراء ساروا امامهم مشاة على اقدامهم وما ذلك الاَّ لاستهلاكهم في الجهاد والطاعة حتى التقى الجيشان وانتشبت الحرب وكان اللواء اولاً بيد احدهم زيد بن حارثة فقاتل وهو يعلم ضعف الجند ولكنهُ ظل مكافحاً حتى قتل طعناً بالرماح فتقدم الامير الثاني وهو جعفر بن ابي طالب فقاتل بهِ وهو على فرسٍ شقراء فأَلجمهُ القتال واحاط بهِ فنزل عن فرسهِ وعقرها وقاتل حتى قتل فأَخذ اللواء عبد الله بن رواحة وهو على فرسهِ ثم نزل عن فرسهِ وحارب حتى قتل فوقع الرعب في قلوب المسلمين وكادوا ينشلون لولم يقم فيهم رجل لم ارَ مثلهُ باسلاً اسمهُ خالد بن الوليد وسمعت بعضهم يسميهِ سيف الله فجمع كلمة الجند وهجم هجمة واحدة فظن الروم ان نجدة قد جاءتهم فاستولى الخوف على جند الروم وفشلوا وغنم المسلمون منهم شيئاً كثيراً (١) ولكنهم لم يبقوا على الحرب فعاد المسلمون يريدون المدينة وكنت انا في اثناء هذه الموقعة في حيرة شديدة ولو كانت الحياة عزيزة عليَّ لفررت من المعسكر ساعة اشتغال المسلمين بالحرب ولكنني وددت ان اصاب بنبلة اقتل بها فلم يقض الله بذلك فلما عاد المسلمون الى هنا عدت انا معهم أسيراً فاصابني في أثناء الطريق انحراف صحي فاصبحت وشعر لحيتي يتساقط وكذلك شعر شاربي حتى لم يبق منهُ الاَّ القليل فلما وصلت المدينة التقيت بتناعرنا ( واشار الى حسان ) فتعارفنا ودعاني للاقامة في دارهِ فأَقمت عندهُ كما ترون وفي اثناء ذهاب الجند الى مكة للفتح الذي شهدتموهُ زارني الحرث بن كلدة طبيب العرب (٢) فوصف لي دهناً من عشب فأَخذ الشعر ينمو وارجو ان يعود الى ما كان عليهِ

---

(١) السيرة النبوية (٢) ابن الاثير

# الفصل الثالث والخمسون

## يوم الشعانين

فلما اتمّ عبد الله حديثهُ هنأُوا بعضهم بعضًا بالسلامة ثم قال حماد وابن فرسي الآن قال هو معي هنا فهل تريد ان تراه

قال نعم وخرجوا الى بستان بالقرب من المنزل وكان الجواد مشدودًا الى نخلة فلما وقع نظرهُ على صاحبهِ اخذ في الصهيل كانهُ يرحب بقدومهِ وتقدم حماد اليهِ فلمس جبهتهُ وقبلهُ بين عينيهِ ثم عادوا جميعًا والفرح ملءُ قلوبهم الاَّ حماد فانهُ عاد الى هواجسهِ في هند وابيها والقرطين فلما وصلوا المنزل وجلسوا نظر عبد الله الى حماد وقال لهُ العلك لا تزال مصمماً على الاقتران بهند

قال نعم يا اخاه ولا اظنني قادرًا على العدول عنهُ بعد ان كان ما كان

قال وهل نسيت نذرنا لدبر بحيراء

قال واي نذر

قال نذر يوم الشعانين الذي سنقص فيهِ شعرك

قال وما دخلهُ بمسألة الاقتران

قال ان لهُ دخلاً كبيرًا لاني سانلو عليك في ذلك اليوم حكاية واطلعك على امور ذات بال لها علاقة كبرى بامر الزواج

فخاف حماد ان يكون هناك ما يحول بينهُ وبين هند

فقال وهل في ذلك السر ما يمنعني من هند

قال لا اقدر على التصريح بشيء من ذلك الآن ولكن احد الشعانين يكشف لك كل شيء

فقال ان يوم الشعانين بعيد فهل يسوغ لنا استبدالهُ بسواه

قال كلاَّ يا ولدي بل يجب علينا اتمام النذر حرفًا حرفًا فوقع حماد في حيرة واوجس خيفة لئلا يكون في قصة يوم الشعانين ما يحول بينهُ وبين هند فود ان يطلع على حقيقة ذلك ليعلم كيف يتصرف وقد كان عازمًا على المجيئة للبحث عن القرطين وكان

يظن ان والدهُ سيكون اكبر مساعد لهُ على ذلك لكثرة اصدقائهِ هناك فاصبح بعد ما سمعهُ منهُ لا يستطيع مكاشفتهُ بالامر لانهُ قال لهُ صريحًا ان لا يخطو خطوة في مسألة الاقتران قبل يوم الشعانين فصمت برهة يفكر في الامر فخطر لهُ ان يستطلع سلمان على حدة لعلهُ يكون عالمًا بشيء من ذلك السر

فانفرد بهِ في مسألة ذلك اليوم وسألهُ عما يعلمهُ من امر يوم الشعانين

فقال لهُ ان سر ذلك اليوم مكتوم عن كل بشر اعرفهُ وقد قضيت مع سيدي والدك اعوامًا منذ كنت طفلاً حتى صرت شابًّا وانا اسمع انهُ نذر قص شعرك في دير بحيراء عند ما تبلغ هذا السن وانهُ سيطلعك في ذلك اليوم على امور تهمك كثيرًا ويكون لها علاقة كبرى بمستقبل حياتك واعترف لك اني بذلت قصارى جهدي في استطلاع شيء من ذلك السر فلم اتوفق وتراني اكثر رغبة منك في معرفتهِ فما لنا الاَّ الانتظار الى يوم الشعانين

فقال وكيف اقضي هذه الايام وماذا افعل بهند . فقد افصحت لك عن امور انت تعلم اني اكتمها عن سائر العالمين فهل يخفى عليك ما بيني وبين هند من المحبة والرابطة وقد تركتها على موعد من اللقاء فمضت سنة منذ تركتها ولم افعل شيئًا مما تعهدت لها بهِ بعد فان القرطين لم نقف لها على اثر ولا ارى ان اعود اليها الاَّ والقرطان في يدي وعلمت ان الامل معقود بالتفتيش عنهما في العراق ولا يستطيع ذلك الاَّ بمساعدة والدي وقد سمعت قولهُ الدال على رغبتهِ في ايقاف كل حركة قبل يوم الشعانين فكيف اقضي هذه المدة وانا بعيد عن هند أتظنها لا تزال على عهدي

قال سلمان اما ما عرفتهُ من حبها لك وثباتها في حبك فلا يترك محلاً للشك في بقائها على عهدك وانها لا يمكن ان تحوّل عنك يمنة ولا يسرة ولكنني ارى ان تكتب اليها كتابًا او تنفذ اليها رسولاً تبثها ما عندك وتستمهلها في انفاذ المهمة التي انت سائر بشأنها وتطلب منها جوابًا ومن جوابها تفهم ما يكنهُ ضميرها

فقال سلمان وهل تظن والدي عازمًا على البقاء هنا الى يوم الشعانين

قال لا اظنهُ يطيل البقاء هنا لان اهل المدينة لا يفترون عن الاستعداد للحروب اما لغزو او لدفع مهاجم ولا وطر لنا في ذلك فالغالب انهُ يفضل الذهاب الى بصرى يقيم فيها بقية هذا العام

قال فاذا كنا ذاهبين الى بصرى فليس ثم حاجة الى المحارة لاني الاقيها هناك واجتمع بوالديها او بأحدهما واتلو عليهما ما وقع فما عليك الاَّ اقناع والدي بالذهاب بنا الى البلقاء

قال حسنًا ولكنك اذا اردت مقابلتها هناك فليكن ذلك على غير علم من والدك

قال ننظر في ذلك ثم افترقا واخذ سلمان في تحريض مولاه عبدالله على الخروج من المدينة والاقامة بغية ذلك العام في البلقاء وخصوصًا لان الحارث قد مات وخرج النفوذ من يدي ابنهِ ثعلبة

فوافقهُ عبد الله على ذلك فقضوا بضعة ايام في المدينة يشاهدون ما أحدثهُ المسلمون فيها من الابنية واحسنها المسجد الجامع على انهم كانوا يشاهدون في كل يوم شيئًا جديدًا من الاعدادات الحربية للغزو او غيره مما زادهم تهيبًا لجند المسلمين وحسبوا لمستقبل دولتهم حسابًا كبيرًا

ثم أخذوا في الاستعداد للمسير فودعوا حسانًا فارفقهم بدليل يعرفهُ وساروا يقطعون البراري والقفار حتى أتوا بصرى فتشاوروا في مكان يقيمون فيهِ فاتفق رأيهم على الاقامة في دير بحيراء فاتخذوا فيهِ غرفة اقاموا فيها

أما حماد فان عودتهُ الى ذلك الدير اذكرتهُ امورًا هاجت اشجانهُ فتذكر اجتماعهُ بهند هناك لاوَّل مرة وما كان من مجيء ثعلبة بعدهُ الى آخر ما حدث في حينهِ ثم عزم على المسير الى جبلة للسلام عليهِ ثم الى صرح الغدير للاقاة هند وتهنئتها ما في ضميرهِ وما بلغت اليهِ مهمتهُ وما يرجوهُ من العثور على القرطين في العراق ولكنهُ كان كلما تصوَّر وقوفهُ امامها موقف المعتذر او المستمهل اتمأزت نفسهُ وعسر عليهِ ذلك الموقف



# الفصل الرابع والخمسون

## ﴿ هند في صرح الغدير ﴾

فلنترك حمادًا ووالده وسلمان ولنعد الى صرح العدير لنرى ماذا تمَّ لهند بعد سفر حماد لئلاَّ يظن القارئ اننا نسينا عواطفها وانجانها ولم نبال بما قاسته اثناء غيابهِ من الوحشة والخوف عليهِ ولا سيما بعد ان سمعت بفتح مكة ودخول المسلمين اليها عنوة وهي تعلم ان حمادًا انما سار الى هناك التماسًا للقرطين

ودَّعت هندٌ حمادًا يوم سفره وقلبها واجف عليهِ لعلمها انهُ سار في تلك المهمة والخطر ظاهرٌ فيها ولكن ثقتها بشجاعتهِ وتعقلهِ هوَّنت عليها الامر لأوَّل وهلة ثم اشتغلت عنهُ بالاضطرابات والمخاوف اثناء حرب مؤتة وحمدت الله لغيابهِ خوفًا عليهِ ان يصاب بسوء اذا تعرض لسهام الحجازيين

فلما انقضت الحرب وعادت الملقاء الى السكينة عادت هي الى الاضطراب واستبطأت حمادًا لأنها كانت تتوقع رسالة منهُ او خبرًا عنهُ فلما طال الامد ولم تسمع عنهُ شيئًا انقبضت نفسها واستولت عليها المخاوف

وكانت والدتها تراقب حركاتها وسكناتها وقد ادركت ما بها فاخذت تشاغلها بالآمال وتوسيها بالوعود وهي لا يهدأ لها بال ولا ترتاح الى حديث على انها كانت تعلل نفسها بالذهاب الى دير بحيراء ايام مرور قوافل الحجاز بهِ لعلها تسمع من احد حديثًا يطمئنها . وصارت تستأنس بالحجازيين وترتاح الى كل قادم من الحجاز وخصوصًا الذين يقدمون من مكة ولكنها كانت كلما سمعت اسم الكعبة اختلج قلبها واضطربت جوارحها وهي مع ذلك لا يهدأ لها بال الاَّ بالسؤال عنها والبحث عن اخبارها حتى التقت يومًا بقافلة قادمة من مكة فسمعت الناس يتحدثون عن فتحها وما كان من دخول المسلمين اليها عنوة وقتل بعض اهلها فارتعدت فرائصها وتصورت حمادًا في تلك المدينة عرضة لسيوف المسلمين فازداد بلبالها وودت لو انها تطير الى الحجاز فترى ما تمَّ لحبيبها

ثم رأت ترددها الى الدير واستماع تلك الاحاديث لا يزيدها الاَّ قلقًا فانقطعت

عنهُ وانزوت في صرح القصير لا ترى احدًا ولا تسمع خبرًا مخافة ان يكون في ما تسمعهُ سأ يسوءها . ثم سمعت بموت الحارث بن ابي شمر والد علمة فاحست بارتياح لعلمها ان موتهُ يقلل من عدد اسرهِ لدى والدها . على ان ذلك لم يرد شيئًا من اسباب معاداتها فالهموم ما زالت تتراكم عليها وليس لديها من تشكو همها اليهِ غير والدتها لكنها كانت تخاف مخاطبتها بهذا الشأن لئلاَّ تسمع منها ما يزيدها يأسًا فتضلت الكتمان وهي مع ذلك لا تزداد الاَّ نحولاً وانقباضًا وميلاً الى الخلوة

وكانت كلما خلت بنفسها نظرت الى الاساور في يدها وجعلت تقلبها وتتنسم منها رائحة حماد فاذا اشتد بها الهيام بكت وتحرَّقت وتقمت على والديها لانهما أبعدا حمادًا عنها وخيل لها انهما انما ارسلاه الى تلك الاصقاع للتخلص منهُ وما زال هذا الفكر يتمكن منها حتى اصبح بمنزلة الاعتقاد وصارت تسر من محالسة والدتها وتسيء الظن بها فلم يردها ذلك الاَّ رغبة في الخلوة والانقطاع عن الناس

واما والدتها فقد كانت لساهتها وحدة ذهنها لا تغفل عن خاطر يمرُّ في ذهن ابنتها وكانت تعذرها على ذلك لانها شعرت هي ايضًا بارتكابها امرًا قبيحًا بارسال حماد في مهمة خطرة الى هذا الحد وقد زاد همها خبر وفاة الحارث بن ابي شمر وضعف نفوذ نعلبة مع كره هند لهُ فتحققت عند ذلك ان هندًا يستحيل عليها الاقتران بهِ وقد أصبح بعد موت والده وضيع المنزلة ولم يعد جملة يحتمي بطاشة لو ردَّ طلبهُ

فاصبحت سعدى بسبب ذلك شاعرة بخطأ فظيع ارتكبتهُ امام ابنتها فأحرمتها شيئاً يحبها ونفسهُ وصارت هي اكثر رغبة من هند في عود حماد وصممت في باطن سرها على انهُ اذا عاد ولو خائبًا لتساعدنهُ في الحصول عليها ولو أبى والدها . على انها لم تكن تستحسن مخاطبة هند بهذا الشأن لئلاَّ توطد آمالها ثم ربما لا يعود حماد من المحار فيكون ذلك سببًا في زيادة احزانها فصبرت نفسها لترى ما يأتي بهِ القدر ولكنها ما برحت تتنسم الاخبار لعلها تسمع شيئًا جديدًا

أما جملة فقد كان في اللقاء مشتغلاً عن مثل هذه الامور بما كان من الحرب في مؤتة فما عتم ان رجع المسلمون حتى توفي الحارث فزاد اشتغالهُ وعظم اهتمامهُ بضم قبائل العرب في الشام والتقاء اليه لان العرب المتنصرة هناك قبائل وبطون لكل منها راية وامير وكانت في زمن الحارث مقسمة الى فئتين احداها تابعة للحارث

والاخرى لجبلة فلما توفي الحارث اشتغل جبلة بضم بعض قبائل الحارث اليهِ انلم يكن كلها ولم يطمع بذلك الاَّ لعلمهِ بضعف ثعلبة عن القيام بما قام بهِ والده قبلهُ ولاعتقاده ان امراء القبائل انفسهم يكرهون ثعلبة لدهاءتهِ وشراسة اخلاقهِ . فوقع بسبب ذلك تنافر بين جبلة وثعلبة واحس هذا بضعفهِ وخاف العاقبة لكن سوء خلقهِ لم يهدهِ الى سبيل يسترضي بهِ عمهُ فاخذ يطعن فيهِ امام الامراء يريد تحقيره في اعينهم فلم يحتقروا الاَّ ثعلبة وبلغ ذلك جبلة فحقدها عليهِ وزاد سعيهُ حتى اخرج كل العرب الغساسنة من حوزتهِ ولم يترك لهُ منهم الاَّ شرذمة قليلة

فازداد ثعلبة لؤمًا وسفاهة واخذ يطعن في جبلة وابنتهِ وسائر اهل بيتهِ فندم جبلة لما وقع منهُ في حق حماد وأسف لانفاذه في تلك الرسالة الخطرة ولم يزدد مع الزمان الاَّ ندمًا ولكنهُ كتم ندمهُ ينتظر ما يجيء بهِ القدر ولكنهُ صمم في باطن سره ان يكفّر عما ارتكبهُ في حق حماد بان يزوجه ابنتهِ سواء عاد بالقرطين او بدونهما فضلاً عما في ذلك من النكاية في حماد

## الفصل الخامس والخمسون

### ﴿ هند والقمر ﴾

وما زالت هذه حال هند حتى كاد ينقضي العام ولم تسمع عن حماد خبرًا فترجح لديها انهُ اما قتل او فشل وشقّ عليهِ الرجوع خائبًا فهاجر الى مكان بعيد او لعلهُ فتك بنفسهِ فرارًا من اثقال الفشل وتخلصًا من عذاب الحب فتراكمت عليها الهموم . وفي ذات يوم قضت هند نهارها في مثل هذه الهواجس ووالدتها تسارقها اللحظ وتغتنم فرصة لتخاطبها وهي تتجاهل وتتبعد فلما سدل الليل نقابهُ دخلت الى غرفتها واوصدت الباب وراءها وجلست الى النافذة المطلة على الحديقة والقت جنبها على وسادة وجعلت رأسها على كفها وكانت الليلة مقمرة والجو صافيًا والبدر عند اول بزوغه من وراء التلال وقد ارسل اشعتهُ على الاودية والجبال . فاخذت تتأمل بما احدثهُ من الاظلال الطويلة على السهول والبساتين ونظرت الى حديقة القصر فرأت اشجارها متشابكة تتلاطح السحاب لكن اظلالها اطول منها كثيرًا وقد وقعت تلك الاظلال على

ما هنالك من اغراس الريحان وغيره من انواع العطريات فحجبتها عن البصر ولكنها لم تحجب رائحتها فتضوع القصر منها . وقد هدأت الطبيعة واوت الطيور الى اوكارها وسكنت الرياح فلم تسمع الاّ خرير ماء الغدير في وسط البستان وطارت الى ضفاف ذلك الغدير فرأت اشجار الحور مرتمة صفوفاً كأنها اعدّت حتى للاستماع فهالهنّ سكون الطبيعة فبُهتن ووقفن على ضفاف الغدير صامتات

فما برح القمر ان اعتلى وظهر وجههُ واضحاً فاستقبلتهُ هند وجعلت تتأمله فاحسنت بارتياح الى منظره فتذكرت ارتياحها الى رؤية حبيبها فاختلج قلبها فعادت الى الانقباض فارسلت نظرها الى القمر لعلها تسترجع ذلك الارتياح فامتنع عليها

ولكنها ما لبثت ان تأملت وجه القمر حتى ترقرقت الدموع في عينيها واخذت تخاطبهُ قائلة « العلك مشرق الآن على منازل مكة وحيالها العلّ حبيبي هناك ينظر اليك و يستقبلك بوجههِ ليتهُ يعمل ذلك فيلتقي طرفانا عندك فيجتمع على بعد الدار »

الى الطائر النسري انظري كل ليلة * فاني اليه في العشية ناظر
عسى يلتقي طرفي وطرفك عنده * فنشكو اليه ما تكن الضمائر

« نعم اني ارى على وجهك صورة كانها ظل وجههِ فهل يرى هو مثل ذلك ايضاً »

ثم عادت الى البكاء فاطلقت لنفسها العنان حتى لم تتمالك عن التنهد وهي تعلم نفسها منفردة لايسمعها احد ولكنها ما لبثت ان سمعت قارعاً يقرع الباب فعلمت انها والدتها سمعت صوت بكائها فجاءت لتعزيتها فودّت البقاء في خلوتها فتظاهرت بالنوم ولم تنهض لفتح الباب ففرعت والدتها الباب ثانية والحت عليها ان تنهض فمسحت عيونها ونهضت ففتحت الباب ولم يكن في الغرفة نور غير ضوء القمر الداخل من النافذة فدخلت سعدى وهمّت بهند وضمتها وجعلت تقبلها وتنظر الى وجهها لتحقق بكاءها وهند صامتة مطرقة لاتبدي حراكاً فقالت سعدي ما بالك يا ولداه ما الذي يبكيك لماذا لاتشكين اليّ همك الستُ والدتك اما انت ولدي وفلذة من كبدي الا تعلمين انني احبك

فلبثت هند صامتة ولكنها نظرت الى والدتها بطرف عينها بطرف التأنيب ولم تنبه بكلمة فهمت سعدى انها توبخها لما ارتكبتهُ بشأن حماد ولكنها ارادت معالطتها فاخذتها بيدها الى السرير واجلستها الى جانبها وقالت ما بالك لا تجيبينني يا هند اتكتمين عني

شيئاً ألم اكن خزانة اسرارك قولي ياولداه مايبكيك

فنظرت هند اليها وكان ضوء القمر واقعاً على وجهها فرأت سعدى الدموع تتلألأ وهي ساقطة من عينيها فاعتصر لها قلبها وهمّت بها ما ية وضمتها وتناولت منديلها وجعلت تمسح لها الدموع فحوّلت هند وجهها نحو النافذة وتنهدت وهي تنظر الى القمر وضوءهُ على السهول والجبال

فنهضت سعدى ووقفت معترضة بينها وبين النافذة وقالت لها قولي يا ولداه ما الذي يبكيك لقد قطعت قلبي ولم يعد لي صبر على بكائك ألا تعرفين قلب الوالدة

فوقفت هند ثم مشت نحو النافذة ووالدتها تعترضها وتمسك يدها ثم وقفت وقفة من ينتظر جواباً . فنظرت هند اليها شذرًا وقالت « نعم يا اماه اني اعرف قلب الوالدة ولكن الوالدة لا تعرف قلب ابنتها »

فادركت سعدى مرادها فقالت ومن قال لك يا هند اني لا اعرف قلبك

فقالت لوعرفت قلبي ما سببت لي هذا الشقاء لاني اعرف حبك

قالت كيف لا اعرف قلبك يا ولداهُ وقد كنتِ لي غوامض اسراره

قالت اذًا عرفت حالة ولم تشفقي عليهِ فلا بأس سامحك الله وسامح والدي و .... وشرقت بدموعها

فاندرتها سعدى واظهرت الاستغراب قائلة كيف تقولين ذلك يا هند كيف لم تشفق على قلبك وكل ما حصل انما حصل بمصادقتك ورضاك لما فيهِ من الفخر لك

فهزّت هند رأسها وهمت بالجواب ثم سكت فالتفت والدتها الكلام قائلة ومع ذلك فان الاحوال قد تغيرت بموت الحارث واذلال تعلبة فسواء جاء حماد بالقرطيس ام جاء بدونها فليس ثمّ من يقف في سبيلهِ

فلما سمعت اسم تعلبة ارتعشت جوارحها فقالت « آه يا اماه لقد قضي الامر .. ابن حماد الآن .. آه ابن هو هل تعلمين ابن هو وقد انقضى العام منذ سار من هذا المكان ولم نسمع عنهُ شيئاً » ثم حولت وجهها نحو النافذة وقالت وهي تبكي « آه يا حماد آه يا حماد سامح الله من كان سبباً في بعادك ... ابكي يا اماه على هند ابكيها وارثيها ولا يتعب ضميرك او تندمي على ما حدث لي ولهُ على يدك ويد والدي انما هي الاقدار قد كتبت علينا هذا الشقاء » ثم قالت وقد غلب عليها الشهيق وعلا صوتها

« آه ياحمادحبيبي اين انت الآن العلك على الارض ام في السماء ام اين انت من يحميني بمكانك لكي اطير اليك فاما ان اعيش بقربك او ان ادفن تحت قدميك فقد كفاني ما سبتهُ لك من الشقاء وما جرّه عمي هند غير الموت . الموت الموت ! . . »

قالت ذلك ورمت نفسها على السرير ووالدتها لا تزال ممسكة بيدها تحاول تلطيف ما بها فلما القت نفسها خافت سعدى ان يغمى عليها فبادرت الى الماء لترشها به وامسكتها بيدها وجعلت تخاطبها وقلبها ينقطع ولولا اشتغالها بتعزيتها لكانت هي المغمى عليها لا محالة . ولكن اشتغال الانسان بمن يحبهُ ينسيهِ نفسهُ . فهمت بها وخاطبتها فتحققت انها لم يغمَ عليها فحاولت اجلاسها وجعلت تقبلها وهند مشتغلة بالبكاء والشهيق ويداها على وجهها

فرأت سعدى ان تتركها هنيهة ريثما يهدأ روعها فلبثت صامتة مطرقة تفكر في امرها حتى اذا آنست منها سكينة وهدوءً جاءت بكاس من الماء وقدمتهُ اليها لتشرب فشربت وهي مطرقة خجلاً لما ظهر من عواطفها رغماً عنها

فابتدرتها والدتها قائلة خيبي عنك يا ولدي فانك مثال التعقل والرزانة عندنا فكيف اطاوعت لك نفسك العنان

فطفقت هند ايها توبخها فقالت كفاني توبيخاً فقد علمت اني اتيت امرًا يعاب عليه امثالي ولكن الكاس قد طفح والامر عهد

قالت سعدى لم يعد شيء بعد يا هند ان حمادًا بديلك وقد قلت لك سواء جاء بالقرطيس ام لا فانهُ لك وانت لهُ

فتنهدت سعدى وقالت هذا ما قدّر لنا ان نراه ولا اطاقهُ اذا فشل في مهمتهِ الاَّ ضاربًا في بطن الارض ولا يعود الينا صفر اليدين

قالت تدبري الامر بالصبر والحكمة واتكلي على الله انهُ قادر على كل شيء وهلمّ بنا نصلي ونطلب اليهِ تعالى ان يعيد سالمًا

فتأملت هند في حديث والدتها فترجح عندها انها تقول الصدق بشأن حماد واقتراحهِ بها سواء جاء بالقرطيس ام لا فسرّها ذلك ولكنها ارادت ان تستطلع ما يَنتهُ والدها من هذا القبيل فقالت لوالدتها

هبي انك رضيت بذلك شفقة على صباي فهل يرضى والدي بهِ

قالت ان والدك اكثر رغبة مني في الامر وخصوصًا بعد ان وقع ما وقع بينهُ وبين ذلك الخائن من التهور على اثر وفاة والده الحارث فطيبي نفسًا وقري عينًا واتكلي على الله ولنطلب اليهِ تعالى ان يحفظ لك خطيبك ويعيدهُ اليك سالمًا معافى وننسى اتعابنا

فسكن روع هند وسارت الى فراشها وسلمت امرها الى الله

# الفصل السادس والخمسون

## ﴿ البشارة ﴾

واصبحت في اليوم التالي فعاد اليها الاكتئاب فودت انها لم تستيقظ او انها تظل نائمة فلا تفيق الاَّ على صوت حماد فلبثت في الفراش تلتمس النوم واخذت تتقلب عبثًا فلما كان الضحى جاءت والدتها تستفقدها فلما رأتها في الفراش انشغل بالها واستطلعت السبب فشكت لها تكاسلها عن القيام فجلست الى جانبها تحادثها بما يذهب عنها الهواجس وهند تسمع وافكارها تائهة حتى كانت الظهيرة فسمعنا صوتًا خارج الصرح ينادي « من بدر بدرًا لخران المبارك » فحقق قلب هند لذلك الصوت وهبت من فراشها بغتة وبغتت ايضا والدتها لانها تتسمنا منهُ صوت سلمان وتذكرنا قدومه اليها قبلاً تسأل حماد فهرولتا الى النافذة فرأتا راكبًا على فرس مثلما رأتا سلمان قبلاً فتحققتا انهُ هو بعينهِ فحالت هند بسمها في مسام لقدومهِ عليهما بغتة على غير انتظار فنادتاه فتحول ودخل فخرجت سعدى لاستقبالهِ وظلت هند في الغرفة جالسة وركنتاها ترتجفان من التأثر ولم تستطع الوقوف الآ بعد هنيهة وقد سمعت وقع اقدام الرجل مع والدتها داخلين الى القصر فوقفت لاستقبالها فوصل الرجل الى باب غرفتها وحالما وقع نظرها عليهِ عرفتهُ فعلتها البغتة ولم تعد تعلم كيف تكلمهُ فابتدرها هو بالسلام وتبسم وهمَّ بتقبيل يديها فمنعتهُ وصاحت ما وراءك يا سلمان وكانت والدتها قد اغلقت الباب

قال ما ورائي الاَّ الخير يا سيدتي كيف انتِ

قالت نحن في خير وكيف حماد وابن هو اخبرنا

قال هو في خير وقد تركتهُ في دير مجيراء ينتظر امرك ويدعو لك

قالت هل هو في خير وعافية

قال نعم يامولاتي انهُ في خير وقد التقى بوالده في المدينة

فحرّت هند الى الارض فقبلتها وقالت نحمد الله على سلامتهِ قالت ذلك وقد انبسط وجهها وابرقت اسرتها

فقالت سعدى اين هو حماد ولماذا لم يأت معك

قال انهُ بقي في الدير خجلاً من مقابلتكم

قالت وما الذي يخجلهُ اننا لا نريد منهُ شيئًا غير سلامتهِ

قال والفرطان

قالت لا حاجة بنا اليهما فقد زال السبب الذي دعا الى طلبهما

قال ان امر الفرطين قد عاد عليهما بالفشل فقطعا الفيافي والقفار حتى اتيا الكعبة فلم يقف لهما على خبر . وقصّ عليهما حكاية سفرهما من يوم خروجهما من صرح الغدير الى ان عادا وكيف التقيا بعبد الله وما عزما عليهِ من البحث عنها في العراق

فقالت هند دعنا من الافراط فقد اغنانا الله عنها

فعجب لذلك الغير وأراد ان يعلم اذا كان جبلة ايضًا في مثل رأيها

فقال وهل سيدي الملك جبلة في خير

قالت سعدى نعم هو في خير ينتظر قدوم صهره حماد فتفارغ الصبر

فلما سمع قولها ( صهره ) زاد اطمئنانًا برضاها عن حماد فقال وهل هو ايضًا مغفل امر الفرطين

قالت انهُ لا يريد شيئًا غير سلامة ولدنا حماد فادعهُ الينا لنراه

قال انهُ يود ذلك من صميم قلبهِ فأذنوا لهُ بفرصة آتي بهِ اليكم

قالت فليأت باقرب وقت ولكننا نود حضوره وواند هند حاضر ليفرح بعودتهِ وليكن ايضًا والده معهُ ليتم الفرح

ففرح سلمان بهذه الاخبار ولكن خاطرًا مرّ بذهنهِ فاسكتهُ بغتة فلاحظت هند شيئًا غيّره فقالت ما بالك يا سلمان ما الذي اسكتك فهل هناك ما يمنع حضوره اخبرني

قال كلاّ يامولاتي انهُ ينتظر هذا الاجتماع انتظار الظمآن للماء الزلال وهو انما

تحمل الاخطار ومشاق الاسفار طمعاً بذلك ولكنه ...

فغنت هند وسعدى معاً وقالتا ما الذي يدعو الى ترددك قل يا سلمان لقد شغلت بالنا

قال لا يخفى عليكما ان سيدي حماداً تشرف بخطبة سيدتي هند ووالده لا يعلم ولما علم بذلك يوم اجتماعنا في المدينة سرّ كثيراً ولكنه استمهل حماداً في اتمام هذا الامر ريثما يأتي يوم الشعانين

قالت سعدى وما علاقة يوم الشعانين بذلك

قال لا علاقة له بو الأمن حيث النذر فقد علمتم ان سيدي حماداً سنذور ان ينفض شعره في دير مجيراء من يوم ولادته وان يكون نفضه في يوم الشعانين في السنة الحادية والعشرين من عمره فلما كان اليوم المعين منذ عامين حدث ما حدث لما تعلمانه وفرّ ولم يتمكن من وفاء النذر فلما عاد من هذا السفر قال سيدي عبد الله لولده انه سينفض شعره في يوم الشعانين القادم بعد بضعة اشهر وتقدم اليه ان لا يباشر عملاً مهماً قبل ذلك اليوم لانه سيطلعه فيه على امور تهمه ولكنني لا اظن لها علاقة بهذا الامر

فلما سمعت هند ذلك الكلام تعوذت بالله مما هو محجوب لها في عالم الغيب وقالت في نفسها العل امامنا عراقيل اخرى غير التي انقضت

فقالت سعدى لا بأس ولكن ذلك لا يمنع سيدك من الحضور ليلتقي بوالد هند وخصوصاً لانه غريب فقد يستأنس به ويمكن بعرفهم على بعضهم في البلقاء اما ذلك الامر فما نحن في عجل اليه وانما المراد ان تطمئن قلوبنا ويهدأ بالنا ويرى بعضنا بعضاً وقد تمهدت العقبات بموت الحارث وسقوط نعمان شعلبة بين الفضائل

فقال سلمان نحمد الله على نعمه ولا اقدر ان اصف لكم مقدار سرور مولاي حماد بهذه الاخبار فعينوا المكان والزمان اللذين تريدان الاجتماع بهما لاخبر سيدي

قالت هند فليأت حماد اولاً لنراه ثم نعين يوماً يجتمع به الوالدان لاننا نخشى اذا انتظرنا اجتماعهما ان يطول الاجل فان والدي في البلقاء وربما لا يستطيع المجيء الاّ بعد بضعة ايام . واردت هند بذلك ان تجتمع بحماد قبلاً على انفراد لتستوضح امر النذر وعلاقته بالاقتران

فقال سلمان ها اني ذاهب لادعوه وانه يكون هنا في صباح الغد ان شاء الله

فخرج وقد ندم على ما فرط منهُ في حديثهِ عن عبد الله وعلم انهُ اخطأ فيما ذكرهُ بشان النذر وخاف ان يشق ذلك على حماد فعوّل على التخلص من هذه التبعة بالحيلة فاسرع حتى اتى الدير في مساء ذلك اليوم وكان قد سار في هذه المهمة ولم يخبر عبد الله لعلمهِ انهُ لا يريد ذلك

فلما وصل الدير كان حماد في انتظاره فاستقبلهُ وهو ينظر الى وجههِ لعلهُ يقرأ على ملامحهِ ما يبشره فرآهُ يبتسم ووجههُ منبسط فرحب بهِ وسألهُ عن الخبر

فقال ابشر يا مولاي ان الله قد محا كل شقاء كُتب علينا وزالت كل الموانع التي كنا نخاف وقوعها بينك وبين هند

قال وكيف هند هل هي مسرورة برجوعي وهل علمت اننا لم نعثر على القرطين وماذا قالت

فضحك سلمان وقال ان القرطين لم يعد لهما دخل في امر اقترانكما فقد تغير وجه المسألة بموت الحارث بن ابي شمر . وقصّ عليهِ الخبر الى ان قال واذا شئت الاقتران في صباح الغد فهو لك لان والدة الفتاة ووالدها راضيان بك لا يريدان منك شيئًا واما هند فانت تعلم قلبها

قال وهل طلبت مواجهتي

قال كيف لا وقد طلبت ايضًا ان يشرف سيدي والدك على ان يكون الملك جبلة موجودًا لتتم المعرفة بينهما واني واثق باقبال نجم سعدنا لان اقترانك بهند فضلاً عن انهُ من أهم اسباب سعادتنا فهو سبيل الى اكتسابكما نفوذًا لدى ملك غسان

فقال ولكنك تعلم ان والدي لا يرضى الذهاب معي بهذا الشان

قال أعلم ذلك وقد ذكرتهُ امام سيدتي هند

فبغت حماد وقال كيف ذكرتهُ وماذا قالت

قال ذكرتهُ على اسلوب لطيف فقلت ان سيدي عبد الله سرّ كثيرًا بخط يمكما واكمهُ يود وفاء النذر قبل عقد الاقتران

قال حماد اخشى ان تكون هند قد فهمت شيئًا يحملها على اساءة الظن

قال لا اظنها فهمت شيئًا من ذلك وعلى كل فانك ذاهب اليها في صباح الغد وقد اجلنا اجتماع والديكما الى فرصة اخرى فاذا اجتمعنا افهمها الحكاية كما تريد

قال اذًا نذهب الى صرح الغدير في صباح الغد وماذا نفعل بوالدي هل نخبره
قال أرى ان نخبره باننا ذاهبون لطمأنة اهل الصرح بعودتنا واننا لانتحدث بشان الخطبة أو الاقتران مطلقًا
قال هذا هو الصواب

## الفصل السابع والخمسون

### ﴿ حمّاد وهند ﴾

وفي مساء ذلك اليوم خاطب حماد والده في امر هند وقال له ان وفاة الحارث ربما سهلت امر اقترانه وربما عدلوا عن طلب القرطين. واظهر حماد سروره بذلك فلم يجب عبد الله بكلمة
فقال حماد ألم تسر يا سيدي بذلك
قال اني اسرُّ لسرورك ولكنني لا ازال الح عليك بالاقتصار في هذا الموضوع ريثما ياتي يوم الشعانين ونفي نذرنا
قال اعاهدك باني لا اباشر امرًا قبل مجيء ذلك اليوم ولكني عازم في صباح الغد على الذهاب الى الصرح لاشاهد هندًا ووالدتها لاجل الاطمئنان واظنهم يودون مشاهدتك
قال دع ذلك لبعد يوم الشعانين اما انت فاذهب لمشاهدة اهل صرح الغدير واحذر ان تمضي امرًا
قال حسنًا يا مولاي

وفي صباح اليوم الثاني ركب حماد باكرًا وركب سلمان معهُ وسارا قاصدين الصرح اما هند فانها لم تنم ليلتها تلك لعظم تأثرها فرحًا بقدوم حماد الاَّ عند الفجر فاغمض جفناها فنامت هنيهة فافاقت والشمس قد طلعت فظنت نفسها قد ابطأت في الفراش وخافت ان يأتي حماد وهي نائمة فنهضت ولم يؤثر فيها السهر شيئًا لتنبه عواطفها فاغتسلت ولبست ثيابها وعادت الى غرفتها وفيها نافذة تشرف على طريق بصرى فجلست اليها وعيناها شائعتان نحو الافق لعلها ترى حمادًا قادمًا وكانت كلما

رأت شبحًا او ظلاً او سمعت صوت صهيل او وقع اقدام خفق قلبها ولا يكاد يحدث في الصرح صوت الاَّ سمعتهُ كانها كلها آذان لعظم تأثرها

اما سعدى فقد كانت توصي الخدم في اعداد ما يلزم للضيافة من الذبائح ونحوها فلما فرغت من ذلك فكرت في هند وما يكون من حالها عند ملاقاتها حمادًا بعد طول غيبتهِ فخافت من شدة تأثرها لئلاَّ يظهر منها ما تعاب عليهِ او يؤثر في صحتها فرأت ان تسبر اليها وتشاغلها لتذهب ما بها من قلق الانتظار فجاءتها فاذا هي في مثل ما خافتهُ عليها

فلما سمعت هند وقع اقدام والدتها كادت تبغت لولا تعودها سماع ذلك فاستقبلت والدتها باشة فاندرتها سعدى قائلة ما بالك منفردة يا هند اظنك تتمنين عدول حماد عن المجيء

فضحكت ولم تجب

فقالت هيا بنا الى الحديقة تتنسم رائحة الازهار لان بقاءك هنا ممل قالت ذلك وامسكت يدها ومشتا حتى نزلتا الى البستان وارغلتا بين الاشجار وهند تسارق النظر من بين الشجر لعلها ترى حبيبها قادمًا ولكن والدتها سارت بها في الحديقة حتى غابت عن الطريق وكانت هند انما تمشي مجاراة لها وقلبها يحدثها بالرجوع الى القصر لئلاَّ يصل حماد اثناء غيابها

وفيما هما في ذلك سمعتا صوت صهيل عرفت هند حالاً انهُ صهيل جواد حماد فخفق قلبها فنظرت اليها سعدى متجاهلة فاذا هي قد بغتت وهمت بالرجوع

فقالت لها دعينا هنا فانهُ لا يلبث ان يأتي فنراه وقد ارادت سعدى ان يكون الملتقى على انفراد مخافة ان يحدث في اثناء ذلك الاجتماع ما لا يستحسن اطلاع اهل القصر عليهِ

فسكتت هند ولكنها ما فتئت تنظر من خلال الاشجار نحو باب الحديقة تنتظر مجيء حماد بفارغ الصبر ولم تمض هنيهة حتى رأتهُ قادمًا وعلى رأسهِ الكوفية والعقال وقد تقلد الحسام تحت عباءة حريرية مزركشة بالقصب فلما وقع نظرها عليهِ زاد خفقان قلبها واصفر وجهها ثم ما لبث ان علتهُ الحمرة وظلت واقفة. اما والدتها فتقدمت حتى التقت بحماد فسلمت عليهِ فهم بتقبيل يدها احترامًا فمنعتهُ وهند لا تزال واقفة

وقلبها يحدثها بالمسير نحوه ولكن الحشمة والحياء منعاها

اما هو فاسرع نحوها ومد له مسلماً ووجهه يطفح سروراً وعيناه شاخصتان اليها تتفقدان ذكاء وهياماً

مدت يدها وهي تنظر الى الارض خجلاً ولكن الابتسام غلب عليها ولما امسكت يدُ شعرت قوة انثت في كل اعضائها ثم توردت وجنتاها وأبرقت أسرّتها كأن تلك القوة مجرى كهربائي انتشر في اعضائها ثم انحصر في وجهها فاضاء . فقال حماد كيف انت يا هند لقد اطلتُ الغيبة عليكم ولكنني عدت مع ذلك بجني حنين

فغلب عليها الحياء ولكنها نظرت اليه بعينين راقتين تنبعث أشعة الهيام منها وقالت لا حاجة بنا الى الحنين ولا القرطين وانما حاجتنا الى عودتك سالماً فالحمد لله على ذلك . قالت ذلك ودموع الفرح تتناثر من عينيها وهي تبتسم فارادت اخفاء دموعها فتحولت نحو شجرة بالقرب منها تحتها مقعد من حجر للجلوس وتحول حماد وسعدى والكل سكوت ولكن قلبي العاشقين يتكلمان او لعلهما يضحكان فقط ولو تركا على انفراد لانطلق لسانهما وتعاتبا وتغازلا ولكن وجود سعدى حملهما على الاكتفاء بحديث القلبين

ولما استقر بهم الجلوس قالت سعدى لقد اطلت الغيبة علينا فانشغل بالنا كثيراً ولما سمعنا حكاية سفركم من سلمان حمدنا الله على عودتك سالماً بعدما قاسيتهُ من الخطر

قال لا يهمني من امر سفرتي هذه شيء ولا احسبني اتيت امراً ولا تحملت شقاء طالما كان سفري عقيماً وان يكن ذلك لغير قصور مني لان السبب فقدان القرطين من الكعبة اثناء هدمها وبنائها اما انا فاني عازم على مواصلة البحث عنهما في العراق او غيرها حتى اتى بهما

فابتدرتهُ هند قائلة لا لا لاحاجة بنا الى الاقراط فان عندنا من فضل المولى ما يكفينا مؤونة هذه الاسفار

قال وماذا يقول الناس عني وقد عدت صفر اليدين اليس عاراً على حماد ان يرجع خائباً عن امر طلبتهُ هند !! قال ذلك وعيناه تنظران الى هند ويكاد النور ينبثق منهما

فالتفتت هي اليه وقالت وهي تبتسم لا لم يعد حماد خائباً لانهُ جاهد في سبيل

القرطين جهادًا حسنًا ولا يزال ساعيًا في التفتيش عنها في خزائن الحيرة ولكنا نحن حولناه عن عزمه فما ذلك من قبيل الخيبة لا سمح الله

ثم قالت سعدي ان امر القرطين يا ولدي لا يهمنا مطلقًا فمثل هذه الاقراط كثير عندنا من نعم الله . من ذلك لؤلؤتان معلقتان بتاج الملك جبلة هما مثل لؤلؤتي قرطي مارية تمامًا حتى لقد يحسبهما الناس نفس القرطين (١)

قال حماد اني لا أجهل نعم الله على ملوك غسان زادكم الله نعماً ولكنني وددت ان اجعل لي سبيلاً استحق به هندًا فان نسبي وحدهُ ولا حسبي يخولانني هذا الشرف ولكن ذلك أحسبهُ من جملة كرم الغسانيين على الغرباء . قال ذلك وتبسم والتفت الى هند فاذا هي تبتسم ايضًا وتنظر الى الارض

فالتفتت سعدى اليهِ وقالت ان النسب يا ولدي لا يجعل الانسان انسانًا وان الرجل باصغريهِ لا ببرديهِ فان ما شهدناهُ من شهامتك وكرم اخلاقك لجدير بان يرفع منزلتك الى أوج الملوك وكم من ملك تحطهُ دناءتهُ الى مصاف الصعاليك وشاهدنا على ذلك قريب . قالت ذلك ونظرت الى هند كأنها تذكرها بدناءة ثعلبة والمفاضلة بينهُ وبين حماد فادرك حماد ذلك فاطرق خجلاً لما سمعهُ من الاطناب ولكن قلبهُ رقص طربًا لتخلصهِ من امر القرطين وتمثل لهُ ملاك السعادة طوع ارادتهِ فارقصت اسرتهُ ثم تذكر يوم الشعانين وتأخير الاقتران بسببهِ فانقبضت نفسهُ على ان اجتماعهُ بهند في تلك الساعة انساهُ كل انقباض . ثم التفت سعدى كلاهما قائلة ارى على ثيابك اثر الغبار الا تحتاج الى تبديل وغسيل فاذا شئت هلم بنا الى القصر

قال لا اشعر بتعب وان الغسيل والتبديل امران مستدركان ولكن الجلوس في هذه الحديقة بين الاشجار ومجاري المياه والاستظلال تحت هذه الشجرة مما ترتاح اليهِ نفسي . ولا اخفي على سيدتي اني لم اكن ارجو مثل هذا الاجتماع بعد ما قاسيتهُ من المشاق ولا انسى يومًا قضيتهُ في مكة على سطح غرفتي لا اذكر يومًا كنت فيهِ كما كنت في ذلك اليوم لا اعادهُ الله

قالت هند وكيف كنت

قال لا فائدة من ذكر ذلك غير الكدر ولكني امثل لك الامر تمثلاً . تصوري

(١) الاغاني

اني ركبت متن الاسفار وقطعت البراري والقفار للبحث عن قرطي مارية مهرًا لحبيبتي هند والتفتيش عن والدي فنزلت بلدًا شهدت فيه حربًا وخطرًا ثم تحققت فقدان القرطين وضياع والدي فلما تراكمت كل هذه المصائب عليَّ صعدت الى سطح غرفتي وقد ضاق صدري وتذكرت هندًا ووالدي وما انا فيه من اليأس فماذا تكون حالي

فقالت سعدى لقد سرَّنا العثور على والدك هل هو في خير وهل ينوي زيارتنا فاني احب تعريفهُ بالملك جبلة ليتم سرورنا فقد زالت كل الحواجز وتهدت كل العقبات والحمد لله

فذكر حماد مسألة النذر وحكاية يوم الشعانين فقال في نفسهِ لم تزل امامنا عقبة لا ندري ما وراءها. ولكنهُ اجاب سعدى قائلاً ان سيدي الوالد يسرُّ كثيرًا بمقابلة الملك جبلة وهو شرف يتمناهُ الكثيرون ولكنهُ الآن في شاغل وسيغتنم اول فرصة لمقابلة سيدي الملك وانا كذلك

## الفصل الثامن والخمسون

### ﴿ جبلة ﴾

وفيما هم في مثل هذه الاحاديث انتبهوا في اهل القصر حركة واهتمامًا ثم جاءهم مخبر يبشرهم بمن جاء يبشر بقدوم الملك جبلة الى القصر فنهضت الجميع لقدومهِ على غير انتظار ونهضوا يطلبون القصر منتظرون قدوم الملك

فمشوا صامتين كل منهم يفكر في امر وكان حماد اكثرهم يقظة واهتمامًا لانها اول مرة سيقابل بها جبلة بعد عودتهِ فخاف ان يكون فشلهُ في البحث عن القرطين سببًا في فتور محبتهِ لهُ واما هند فكانت تتوقع من والدها حنوًّا الى حماد بناء على ما سمعتهُ من والدتها واما سعدى فلم تستغرب قدومهُ لانها هي التي انقذت اليهِ رسولاً بالامس يخبرهُ بمجيء حماد وانهُ سيزورهم في ذلك النهار فاذا استطاع المجيء فعل

فوصلوا القصر ودخلوا قاعة الجلوس وما استقرَّ بهم المقام حتى بودي في القصر بمجيء الملك فخرج اهلهُ لاستقبالهِ وخرج حماد وهند ووالدتها الى الحديقة

وكانت الفرسان قد وصلت فتحول جبلة عن جواده وعليه لباس السفر من العباءة والكوفية وقد نقلد الحسام ومشى يلتفت ذات اليمين وذات الشمال يبحث عن حماد حتى اذا وقع نظره عليه دنا منه فتقدم حماد وهو يقدم قدماً ويؤخر اخرى ليرى ما يبدو منه . اما جبلة فاسرع اليه وسلم عليه مصافحة وقبلة قبلة الوالد لولده والناس ينظرون . وكانت هند تراقب حركات والدها فلما رأت منه ذلك رقص قلبها طرباً وتناثرت دموع الفرح من عينيها وكذلك والدتها اما حماد فانه قبل يدي عمه وقد تحقق رضاءه عنه . فقال له جبلة اهلاً بولدي وعزيزي نحمد الله على عودتك سالماً

فاجابه حماد ( وملامح الامتنان ظاهرة على وجهه ) له الحمد على كل حال ولكنني احمده انعم علي برضا ملك غسان فانها نعم لا اقدر على تقديرها يا عماه

ثم تحوّل جبلة نحو هند فقبلت يده وقبلها وحماد ينظر فتحركت فيه عاطفة الغيرة عليها حتى من والدها ثم حيّا سعدى ومشى الجميع نحو القاعة وعينا حماد على هند كانه يريد ان يلتقمها بنظره وقد شق عليه مفارقتها بعد ان تقرر له الحصول عليها

وكان سلمان في جملة اهل القصر الوقوف في انتظار جبلة ولم يشأ دخول الحديقة على حماد عند اول مجيئه مراعاة لما قد يدور بين الحبيبين من عبارات العتاب مما لا يهون التفوه به امام احد

ودخل جبلة وسعدى وهند وحماد القاعة فسأل حماد عن سلمان فجاء فدعاه للجلوس هناك فتوقف توقيراً للجلسة فنهض حماد وامسكه بيده وقدمه الى الملك قائلاً اقدم لكم يا عماه رفيقي وصديقي سلمان فانه كان معتمدي في اسفاري وهو محب غيور للملك جبلة وسائر آل منزله

فرحب به جبلة وامره بالجلوس فجلس والجميع جلوس ثم التفت جبلة الى حماد وسأله عن والده فقال اني تركته في دير بحيراء على ان يحظى بمقابلة مولاي في فرصة اخرى

قال لقد سررت كثيراً باجتماعكما بعد طول التشتت بسبب ذلك الغلام الغرّ ( يريد ثعلبة ) وقد كنت في غفلة عن امره الى ما بعد وفاة والده فتبعثر اصدقاؤه فاخبرني بعضهم بما ارتكبه هذا الخائن في سبيل الفتك بك على اثر ما اظهرته من

الشهامة وكرم الاخلاق و يكفي انك عنوت عن قتلهِ في حلبة السباق بعد ما عاينت من غدره وسوء قصده ولكن ذلك الخائن قد نال جزاء ما جنتهُ يداه وكان الناس انما يرمقونهُ ببعض الاحترام مراعاة لمنصب والده فما كاد يتوفى الحارث حتى نُبذ نبذ النواة وصار مضغة في الافواه. ومن اثقل المصائب عليهِ ان يعلم بمجيئك ونيل مرامك ولا اظنهُ يسمع باقترانك حتى يقع ميتًا لشدة لؤمهِ وحسده فحمدَ الله . وكان جبلة يتكلم والحيرة تهتز وعيناه تنقدان غضبًا مع محاولتهِ اخفاء ما في نفسهِ وتخفيف ما بهِ فلما اتمَّ كلامهُ اخذ يتلاهى بتمشيط لحيتهِ باصابعهِ و يداعل نظرهُ بالالتفات الى خيلٍ مربوطة خارج القصر كانت تتزاحم وتتضارب

اما الحضور فانهم لبثوا بعد اتمام حديثهِ سكوتًا تهيبًا من غضبهِ ولكن قلوبهم كادت تطفح سرورًا بما قالهُ عن ثعلبة . ثم وجه جبلة خطابهُ الى سعدى قائلاً اسقينا شيئًا نرطب بهِ اجوافنا ونشربهُ نخب اجتماعنا فرحًا بقدوم صهرنا سالمًا . فقالت الا ترى ان نجلس الى المائدة فنتناول الطعام والمدام معًا

قال حسنًا تفعلين

فصفقت فجاء غلام . فقالت هل تمت معدات الطعام

قال نعم يا مولاتي

فنهض جبلة ومشى فتبعهُ الجميع حتى دخلوا غرفة مدت فيها الاسمطة وعليها الاطباق والملاعين وكلها من الذهب او الفضة [1] فجلسوا يأكلون و يشربون والفرح شامل لهم

فلما فرغوا من الطعام وقاموا عن المائدة تقدم جبلة الى حماد واشار اليهِ ان اتبعني فتبعهُ حتى خرجا من القصر وجعلا يتمشيان في بعض طرق الحديقة فلما خلوا قال جبلة اعلم ياحماد انك الآن بمنزلة ولدي وقد قسم الله ان تكون صهرًا لي وهذا امر احسبهُ من حظ هند لانك شهم يفتخر بشهامتهِ وشجاعتهِ ما يربو على الافتخار بالحسب والنسب . وقد تركت اليك تعيين زمن الاقتران ولكنني اوجه التفاتك الى امر واحد وهو ان هندًا كما تعلم وحيدة ليس لنا ولد سواها فيشق علينا فراقها فأشترط عليك اذا تمَّ الاقتران ان تقيم عندنا انت ووالدك ومن تريد من ذويك فتنزلون على الرحب

(١) الاغاني

واسعة فان البلاد تحتاج الى من يتولاها وليس لي ولد ذكر فاذا احسنت السياسة مع القبائل اجتمعوا بعدي تحت لوائك وكنت ملكًا عليهم

فلم يعد يعرف حماد كيف يشكر نعمة ولكنهُ وقف وكانا ماشيين فوقف جبلة فقال حماد ان هذه النعم وهذه الشيم مما يقصر لسان الناس عن اداء الشكر عليها . ان شرطًا اشترطموه يا عماه ان هو الاَّ نعم انعمت بها عليَّ جزاك الله عني خيرًا . اما وقت الافتران فلا يمكننا تحديدهُ الآن لدواعٍ لا اخفيها عنك

قال وما هي

قال لعل مولاي رأى طول شعري لما لبست الدرع يوم السباق

قال نعم اذكر ذلك وما سبب طوله

قال ان والدي نذر اني اذا عشت لا يقصُّ شعري الاَّ في السنة الحادية والعشرين من عمري في دير بحيراء وضرب لذلك اجلاً يوم الشعانين فالآن ذلك اليوم منذ عام وبضعة اشهر فجئنا البلقاء فحدث ما حدث من سعي ثعلبة ضدي وانقبض على والدي ثم لم نجتمع الاَّ من امد قريب في المدينة فيرى والدي ان نذهب يوم الشعانين القادم ونقص شعري في الدير وقد اخبرني ان عنده حكاية سيقصها عليَّ في ذلك اليوم واعز اليَّ ان لا اقطع بامر من الامور المهمة الاَّ بعد ذلك اليوم فما رأي مولاي

فعجب جبلة لذلك السر وقال لا ارى مانعًا من تأجيل الافتران الى ما بعد الشعانين فنجعلهُ في يوم القيامة ولكنني استغربت هذا السرَّ الا تعلم ما موضوعهُ

قال كلاَّ يا عماه لا اعرف عنهُ شيئًا ولا يعلم بهِ احد سوى والدي وقد اخبرني انهُ لما وقع في الخطر مرة وخاف الموت لم يأسف على شيء اكثر من اسفهِ على ضياع ذلك السر

قال جبلة فلننتظر يوم الشعانين وكل آت قريب

ثم تحولا نحو القصر وكانت هند ووالدتها وسلمان جالسين في القاعة فدخل جبلة وحماد وقضوا بقية ذلك اليوم في الاحاديث المتنوعة

فلما كان العصر التمس حماد العود الى الدير لئلاَّ يستبطئهُ والدهُ فيشغل بالهِ عليهِ فقال لهُ جبلة افعل ما بدا لك ولكن اعلم يا ولدي ان صرح الغدير وسائر قصور البلقاء مفتوحة لاستقبالك متى اردت القدوم . فهمَّ حماد بيد عمهِ فقبلها وكذلك

فعل سلمان وودع هندًا وسعدى وكان قد امر فاسرجت الخيل واراد الاسراع في الشخوص الى دير بحيراء ليخبر والده بما لاقاه من الاحتفاء وما عرضهُ عليهِ جبلة من الانعام لعلهُ يرغب في القدوم على جبلة

فركبا وسارا وهند تشيعهما بنظرها خلسة حتى توارياً فعاد اهل الصرح فاحكى جبلة لسعدى ما دار بينهُ وبين حماد ولما عاد هو الى البلقاء احكت ذلك الى هند فكادت تطير من الفرح

اما حماد فانهُ وصل الدير في مساء ذلك اليوم وكان والده في انتظاره فاستقبلهُ ودخلا الغرفة فاحكى لهُ حماد ما لاقاه من الاكرام والاحتفاء وما دار بينهُ وبين جبلة مما لم يكن يرجوه . وكان حماد يتوقع ان يرى من والده بعد هذا الحديث اعجابًا او انبساطًا فلم ير وجههُ يزداد الاَّ انقباضًا ولم يجب بكلمة فلبث حماد ينتظر يوم الشعانين بفارغ الصبر

# الفصل التاسع والخمسون

## ﴿ قصُّ الشعر ﴾

وكان عبد الله كلما دنا ذلك اليوم زاد انقباضًا حتى قبل غدًا يوم الشعانين فعلم ان الدير سيكون مزدحمًا في ذلك اليوم وهو انما يلتمس الانفراد بحماد ليتلو عليهِ الحكاية فسار الى رئيس الدير واطلعهُ على قصده

فقال واي الغرف تريدون

قال نريد صومعة بحيراء نفسها فانها منفردة وفيها كرامة و بركة

قال ولكن الناس يقدمون اليها في مثل هذا اليوم زائرين

قال نزورونها بعد خروجنا منها فربما مكثنا فيها ساعات قليلة من الصباح الى الظهر . وكان عبدالله جليل الطلعة ممتزمًا فاذعن لهُ الرئيس

ثم قال عبدالله اعرف راهبًا شيخًا من تلامذة بحيرا الراهب صاحب هذا الدير كان يقيم في الصومعة فهل هو باق هنا

قال انهُ باق ولكنهُ يشكو شدة الضعف لشيخوختهِ فلا يخرج من غرفتهِ الاَّ نادرًا

قال الا تظنهُ يخرج في صباح الغد اذا توسلنا اليهِ ان يرافقنا الى الصومعة و يقص شعر غلامنا

قال لا اعلم ولكن عندنا من الرهبان والقسس كثيرين يفعلون ذلك

قال صدقت ولكنني افضل ذلك الراهب الشيخ لاني اعرفهُ

قال هلمَّ بنا اليهِ نسألهُ فعساه ان يرضى

وسارا الى غرفة من غرف الدير مغلقة الباب ففرعاه وانتظرا ريثما ينهض الشيخ لفتحهِ و بعد هنيهة فتح الباب و بان من ورائهِ شيخ هرم قد ابيض شعرهُ بياضًا ناصعًا واسترسل من رأسهِ ولحيتهِ وحاجبيهِ وشاربيهِ حتى لا تكاد ترى من جلد وجههِ الاَّ بعض وجنتيهِ وقد تجعدتا وتثلمت جبههُ و برزانهُ اعقف واحدودب ظهرهُ حتى لا يستطيع النظر الى واقف امامهُ الاَّ بجهد وعناية فتقدم الشيخ و يدهُ الواحدة على الباب و يدهُ الاخرى يتوكأ بها على عصا قديمة العهد ربما رافقتهُ في صباه وقد قبض عليها بانامل لم تترك الشيخوخة عليها لحمًا فلصق الجلد بالعظم حتى كان اعرض ما في الكف عقد الامشاط عند اتصالها بالاصابع

فلما فتح الباب رفع الشيخ نظرهُ وحدق بزائريهِ وكان قد عرف الرئيس من مجمل قيافتهِ ولكنهُ لم يعرف رفيقهُ فنظر اليهِ نظر المتأمل وشعر حاجبيهِ المسترسل يحجب معظم النظر عنهُ فارسل يدهُ يرفع بها شعر الحاجبين وهي ترتعش لضعف الشيخوخة فابتدره عبدالله بالسلام وهمَّ بتقبيل يدهُ فعرفهُ الراهب فقال اهلاً بولدنا الامير عبدالله ابن الوطن العزيز تفضل يا ولدي ادخل . فدخل ودخل الرئيس معهُ وجلس كلٌّ منهما على وسادة وهما لا يحسران على فتح الحديث احترامًا لشيخوخة الراهب

ثم تكلم الرئيس فقال ان ولدكم الامير عبدالله يلتمس حضوركم الاحتفال بقص شعر ابنهِ وفاء لنذر نذره منذ بضع وعشرين سنة

فتأمل الشيخ برهة ثم رفع نظرهُ الى عبدالله بغتة والنور ينبعث من حدقتيهِ في خلال شعر الحاجبين كأن الزمن لم يؤثر على حدتهما وقال ما اسم غلامكم

قال حماد

قال نعم حماد اذكراني رأيتهُ في الصومعة منذ عامين واخبرني انهُ جاء لنقض شعره وكان يوم الشعانين قريباً ألم تفوا النذر بعد

قال لا يا مولاي لم نستطع ذلك لاسباب فرّقت بيننا اعواماً فلما اجتمعنا جئنا لنفي النذر فهل تريد ان يكون وفاؤه على يدك

قال انني شيخ ضعيف لا استطيع الوقوف لتادية الفروض اللازمة اثناء الصلاة

قال يؤديها القسيس وتكون انت معنا بعد الصلاة فننفرد انا وانت وحماد لكلام اقصهُ عليكما

قال حسناً ياولدي ومتى يكون ذلك

قال غداً صباحاً ان شاء الله

قال سنلتقي اذاً صباح الغد في الصومعة قال ذاك وهو يتلاهي بسبحتهِ ويداهُ ترتجفان

ثم نهض عبد الله فودع الراهب وخرج تواً الى غرفتهِ وجلس ينتظر عودة حماد

وكان حماد يختلف الى صرح الغدير مراراً في الاسبوع يتمتع برؤية هند فيقضي النهار عندها مع والدتها واحياناً سلمان وقد شعر ان ملاكَ السعادة بحرسهُ وخصوصاً بعد ما قصهُ عليهِ جبلة مما ينويهِ لهُ في مستقبل حياتهِ واصبح لا همَّ لهُ الاَّ مجيء يوم الشعانين ليفي النذر ويقترن بهند على انهُ كان اذا جلس اليها ودار الحديث بينهما نسي النذور وغفل عن مستقبل الايام . اما والدهُ فلم يجتمع بجبلة وكان حماد يلتمس ذلك منهُ احياناً فينتقل اعذاراً يتخلص بها من المسير

فلما كان آخر يوم كما قدمنا عاد عبد الله الى غرفتهِ وجلس ينتظر حماداً وكان قد سار الى صرح الغدير في صباح ذلك اليوم وسلمان معهُ فعاد في الاصيل على فرسهِ وسلمان وراءه على فرس آخر فلما وصلا الدير ترجلا ودخلا وهما يتوقعان ان يكون عبدالله في انتظارهما فرحب بحماد وقال لهُ الا تعلم يا ولدي ان غداً يوم الشعانين

قال نعم يا ابتاه وإني في استعداد لوفاء النذر

قال جعلهُ الله نذراً مقبولاً . وقد خاطبت الراهب الشيخ الذي كان يجلس في صومعة بحيرا هل تذكرهُ

قال نعم اذكر اني جلست اليه مرة وقص عليّ خبر الراهب بحيرا استاذه

قال قد خاطبتهُ في ان يقص شعرك ويسمع ما اتلوه عليك بعد ذلك

وكان سلمان لا يزال واقفًا بالقرب من الباب يصلح كوفيتهُ وعقالهُ وكانا قد انحلاَّ وهو يتحول عن جواده فلما سمع ما قالهُ عبد الله تقدم نحوه ونظر اليه قائلاً الا تظن خادمك ـ لمان يستحق الاطلاع على هذا السر ايضًا

قال بلى انك اولى الناس بذلك وستكون انت ايضًا معنا

وقضوا بقية ذلك اليوم يعدون انفسهم وخصوصًا عبد الله فانهُ مال الى الانفراد بعدُ بعض الشباب

وفي صباح اليوم التالي ساروا الى الصومعة باكرًا فرأوها مضيئة بالشموع وهي كما تعلم عبارة عن غرفة كل من جدرانها الاربعة حجر واحد والسقف حجر والارض حجر و بابها حجر واحد يفتح و يغلق [١] وهذا هو شأن ابنية حوران حتى الآن نظرًا لكثرة صخورها وقلة خشبها فيبنون البيوت من الحجر و يجعلون درف نوافذها وابوابها وسقوفها من الحجر ايضًا

فدخلوا الصومعة فرأوا الراهب الشيخ ومعهُ قسيس آخر وشماس فلما اجتمعوا جميعًا اخذوا في الصلاة فاحرقوا البخور وحلوا شعر حماد حتى استرسل على ظهره وكتفيه وطافوا بهِ بالترانيم والتسابيح على جاري العادة والقسس يحملون الصلبان والمباخر يترنمون حتى تمت الصلاة وقرأوا فصلا من الكتاب المقدس وكان الراهب قد تعب فجلس على مقعده الحجري ليرتاح فلما انقضت الصلاة تقدموا نحوه واعطوه مقراضًا ودنا حماد منهُ وشعره يجللهُ فمد الراهب يده وامسك خصلة من شعره و بارك وقصها اشارة الى وفاء النذر و بقي الشعر مسترسلاً على نية ان يقصهُ عند عودتهِ الى المنزل

فلما انقضى الاحتفال اشار عبدالله الى الراهب انهُ يريد الخلوة فاوعز الى الحضور فخرجوا و بقي هو وعبدالله وحماد وسلمان واطفئت الشموع ولم يبق من الانوار الاَّ مصابيح الزيت المعلقة امام الايقونات فاشار عبدالله الى سلمان ان اغلق الباب فهمَّ باغلاقهِ وهو لا يحسب نفسهُ قادرًا على ذلك لضخامتهِ فاذا هو طوع يده لان لاهل حوران صناعة دقيقة في تركيب تلك الابواب حتى تغلق سهولة [٢]

(١) دائرة المعارف (٢) ميريل

فلما أغلق الباب وضعف النور أحسوا بانقطاعهم عن عالم الاحياء وخيل لهم انهم في عالم آخر وخفق قلب حماد تطلعاً لما سيسمعهُ من غريب الاحاديث. فنزع عبدالله جبتهُ وهمَّ بصرة كانت معهُ فحلَّها واستخرج منها رداء مزركشاً بدبة الطيلسان كان قد اذخره واحتفظ به منذ اعوام فة لهُ ثم بسطهُ وجعلهُ على كتفيهِ ونشر على الارض امام مجلس الراهب جلداً جثا عليهِ وجلس حماد وسلمان امامهُ والجميع سكوت براعون حركات عبدالله وسكناتهِ وينظرون ما يبدو منهُ

# الفصل الستون

## ﴿ كشف السرّ ﴾

فلما استتب بهم الجلوس التفت عبد الله الى الراهب وقال اعلم يا مولاي اننا الآن في بيت الله وقد اجتمعنا فيهِ لعمل مقدس فلا يعلم بما سيدور بيننا الاَّ الله وحدهُ وساقص عليكم حكاية أُوتمت عليها منذ بضع وعشرين سنة فارجو ان تصغوا اليَّ حتى آتي على آخرها ومتى فرغت منها التمس منكم كتمانها عن اهل الارض كافة فهل تعاهدونني على ذلك

قال الراهب نعم يا ولدي ان سرك لن يتجاوز جدران هذه الصومعة

قال التمس من قدسكم ان تتلو علينا الصلاة الربانية قبل الشروع في الكلام وليقسم كل منا بكتمان هذا السر عن البشر كافة

فتلا الراهب « ابانا الذي في السموات الخ » واقسم كل منهم بالصليب والمعمودية بكتمان ما سيتلى عليهم

ولما تمَّ القسم نظروا الى عبدالله فاذا هو يتأدب في قعوده كانهُ في مجلس رهيب وقد امتقع لونهُ فهابوا منظره. ومما زادهم هيبة ضئالة الأنوار واختلاطهم في ذلك المكان فنظر عبدالله الى حماد ووجه الخطاب اليهِ قائلاً

تعلم يا ولدي ان العرب يرجعون في انسابهم الى اصلين كبيرين هما قحطان واسماعيل ومن نسل قحطان عمرت اليمن وما جاورها ومن نسل اسماعيل عمرت الحجاز وما جاورها ويسمى نسل اسماعيل الاسماعيلية او العدنانية نسبة الى جدّ من اجدادهم بعد اسماعيل اسمهُ عدنان ويسمى سو قحطان القحطانية

وقد قامت من القحطانية دول ملكت الخافقين منهم التبابعة المشهور بن وغيرهم من دول حمير وسبا . ومن مملكة سبا خرجت ملكة سبا التي ذكرت التوراة انها زارت الملك سليمان وما زالت اليمن عامرة آهلة حتى حدث سيل العرم [١] فتفرق اهلها ايدي سبا . اتعرفون ما هو سيل العرم

قال حماد لا يا أبتاه لا اعرفهُ

قال عبد الله اعلم يا ولدي ان اليمن وسائر جزيرة العرب ارض تقلُّ فيها الانهر والينابيع واعتماد الناس في ري مغارسهم انما هو على مياه المطر فانها تجتمع في مجاري الاودية وتسيل كالانهر فاذا انقضى الشتاء جف معظمها فملافاة لذلك كانوا يجعلون في عرض الاودية سدودًا من حجر تعترض مسير الماء فيجتمع ويرتفع حتى يسقي اعالي الارض

وكان من تلك السدود في اليمن سدٌّ كبير يقال لهُ العرم بناهُ ملوك اليمن قديمًا بحجارة ضخمة متمسّكة بالقار وفيهِ خروق يصرفون منها الماء على مقدار ما يحتاجون اليهِ في سقيهم وكانت لهُ حفظة يقومون بشعبهِ وتوزيع مياههِ فتقادم عهدهُ حتى تصدع وخيف سقوطهُ . وعرب اليمن اذ ذاك بنو كهلان بن سبا من القحطانية

وكانت دولتهم قد ضعفت واختل نظامها ولآت الى السقوط فاهمل امر السد وقلّت المحافظة عليهِ فظهر بهِ الخطر اولاً فاولاً فخاف الناس تهدمهُ بغتة لئلاَّ يسيل الماء عليهم فيغرقهم ويخرب منازلهم فاخذوا ينزحون احياء و بطونًا و بقيت منهم بقية اصبحوا ذات اليوم وقد انفجر السد وطافت المياه فاغرقت بعضهم ونجا البعض وتفرقوا في البلاد وسمي ذلك السيل سيل العرم [٢] وكان ذلك سد سنمئة سنة او اكثر

وكان السامعون مصغين لاستماع حديث عبد الله وهم لا يرون فيهِ ما يوجب

---

(١) ابن خلدون (٢) الطبري

المسارّة فعجبوا لذلك ولكنهم صبروا انفسهم ليروا ما يكون بعدهُ فادرك عبد الله ضمائرهم فقال لم لا ترون في حديثي ما كنتم تتوقعونهُ من الانباء المهمة فاني انما اقص عليكم اخبارًا متناقلة على السنة الناس ولكني اردت ان ابسط لكم اصل نسب ملوك الحيرة المقيمين في العراق ثم انطرق من ذلك الى كشف السر فامهلوني ولا تملّوا

# الفصل الحادي والستون

## ﴿ ملوك الحيرة ﴾

قلت لكم ان بني كهلان تفرقوا قبيل سيل العرم وبعده وكانوا احياء عديدة نذكر منها ثلاثة هي لخم والازد وطي اما لخم فهم اجدادنا الذين اقاموا في العراق ومنهم المناذرة ملوك الحيرة ( قال ذلك وتنهد ) واما الازد فمنهم بنو غسان عرب هذه البلاد اما طي فاقاموا بنجد والحجاز في جبلي اجا وسلمى (١)

فسرّ حمادًا أن يكون بين اللخميين والغسانيين قرابة ولكنهُ ما زال قلقًا للوصول الى آخر الحديث وكذلك سلمان اما الراهب فكان اقلهما قلقًا واشتياقًا كأن الشيخوخة وكثرة الاختبار علماه الاستخفاف بحوادث الزمان فضلاً عن ان ما قصهُ عبد الله عليهم الى ذلك الحين لم يكن بالشيء المجهول عندهم

اما عبد الله فانهُ اتمّ الحديث قائلاً : علمتم ان ملوك الحيرة لخميون يتصل نسبهم بكهلان بن سبا من عرب اليمن القحطانية . فنزل بنو لخم العراق واقاموا فيهِ مدة على حالهم من البداوة . واول من حكم العراق من العرب قوم من حي يقال لهُ دوس وهو بطن من الازد وهم اقرب نسبًا الى الغسانيين منهم الينا . ولم تمض مدة حتى تغلّب اجدادنا عليهم وملكوا العراق تحت رعاية ملوك الفرس على مثال ما هم عليهِ الآن واتخذوا مدينة الحيرة كرسيًا لملكهم وسموا المناذرة جمع ( المنذر ) وهو لقب ملوك العراق كما تعلمون

ولا اطيل الكلام عليكم خوف الملل فاقول بالاختصار انهُ توالى على كرسي الحيرة بضعة عشر ملكًا اشهرهم امرؤ القيس بن عمرو ومما يؤثر من فضلهِ ان اللخميين لما قدموا

---

(١) ابو الفداء

من اليمن كانوا على عبادة الاوثان فلما ملكوا وخالطوا الرهبان واهل النصرانية تنصروا واول من تنصر من ملوكهم امرؤ القيس هذا [١] ثم ملك النعمان بن امرىء القيس ويقال له الاعور وهذا الذي بنى النصرين المشهورين (الخورنق والسدير) ومن غريب امره انه لما عظم ملكه وامتلأت عيناه من خيرات الارض مال الى الزهد فترك الملك وتنسك [٢]. وملك بعده المنذر ثم الاسود وهذا حارب اصحاب الفسايين منذ مئة وخمسين عاماً وأسرعة من ملوكهم وكان ذلك سبب عداوة مستمرة فيما بيننا وبينهم [٣]. وتوالى بعد الأسود ملوك كثيرون منهم المنذر بن ماء السماء وكان معاصراً لكسرى ابو شروان ملك الفرس المشهور وله معهُ وقائع وحوادث يطول شرحها فلنتركها وننتقل الى آخر ملوك الحيرة النعمان بن المنذر

فلما ذكر اسمهُ اعتدرهُ الراهب قائلاً اظنك تعني ابا قابوس

قال نعم انهُ كان يلقب ابا قابوس

قال الراهب هذا الذي قتلهُ كسرى برويز بسبب قتلهِ صارت واقعة ذي قار [٤] وقد كنت شاباً وشهدت هذه الحوادث وكنت اعرف الملك النعمان هذا رحمهُ الله ولي معهُ حديث طويل

# الفصل الثاني والستون

## مقتل النعمان بن المنذر

فتنهد عبد الله وهو يعتدل في مجلسهِ ويصلح الرداء على كتفيهِ وقال قد وصلنا الى المراد من حديثي فارعوني السمع لافض عليكم غرائب ما اعلمهُ عن هذا الملك. قال ذلك وشرق بدموعهِ خلسة ولولا ضعف النور لاظهر الدمع متلألئاً في عينيهِ ولكنهُ تجلد واعاد الحديث فقال

ان الملك النعمان هذا لا احتاج في وصفهِ الى تطويل وكلكم يعرفهُ الاَّ حماداً ويكفي في وصفهِ انهُ شهم شجاع صادق وقد اعاد النصرانية الى الملك [٥] بعد ان فسدت

(١) ابن خلدون (٢) ابو الفداء (٣) ابن خلدون (٤) الطبري (٥) ابو الفداء

وابدلها اسلافه بالوشيجة [١]. ولا تفتح لكم دخيلة حديثي الا اذا ذكرت لكم كيفية تولي النعمان الملك . فقد كان ابوه المنذر ملكاً قبله وكان في بلاط كسرى على عهده رجل عدناني اسمه عدي بن زيد كان يحسن العربية والفارسية وكانت له منزلة كبرى ونفوذ لدى كسرى وكان مقام كسرى في المدائن والمنذر في الحيرة كما تعلمون . وكان للمنذر ١٢ ولداً احدهم النعمان الذي نحن في صدده وكان قد ربي في حجر عدي بن زيد ورضع في اهله [٢] وكان من ابناء المنذر ايضاً فتى اسمه الاسود رباهُ قوم من اهل الحيرة يقال لهم بنو مرينا ينتسبون الى لخم

فلما مات المنذر خاطب كسرى عدياً في من يلي الحيرة بعده وقال له « اني اريد ان اخرج الملك من أيدي هؤلاء واجعله في يدي واحد من خاصتي فهل بين أولاد المنذر من يصلح للملك » قال عديٌّ انهم نيفة عشر رجلاً كلهم أشداء فاذا امر مولاي جئته بهم قال اليَّ بهم . فبعث يستقدمهم وفي نفسه ان يسهل سبيل الملك الى النعمان سرًّا لانه ربي عنده محلا به قبل اجتماعهم واسرَّ اليه اشياء يقولها في حضرة كسرى ففعل وتولى الملك فدقَّ ذلك على ابن مرينا لانه كان يرجو ان يكون الملك للاسود التماسًا للنفوذ على يده . فاخذ يحرض الاسود على الانتقام من عدي بدعوى انه عدناني ( اي من نسل عدنان وبين القحطانية والعدنانية مناظرة ) فوافقه وسلم التصرف في ذلك اليه فجعل ابن مرينا يتقرب من النعمان بالهدايا والتحف ويثني بعديٍّ فيذكره بالخير وينواطأ وبعض الحضور على الطعن فيه فيروون عن لسانه انه يقول بان النعمان تحت امره وانه هو الذي ولاَّه الملك وما زالوا كذلك حتى اضغنوهُ عليه . فبعث النعمان الى عدي يدعوهُ الى زيارته فجاء وفي حال وصوله امر بسجنه في مكان خارج الحيرة لا يدخل عليه فيه احد فعلم عديٌّ انها وشاية فجعل يكتب الى النعمان يستعطفه نظماً ونثراً فلم يجد ذلك نفعاً فكتب الى اخ له اسمه أبيّ يحرضه على انقاذه فقام ابيٌّ الى كسرى وأنبأه بخبره فكتب الى النعمان في اطلاقه فجاء اعداء عديٍّ واكثرهم من بني بقيلة واصلهم من عرب غسان [٣] اهل هذه الديار وحرضوا النعمان رحمة الله على الفتك بعديٍّ قبل وصول كتاب كسرى اليه وحسَّنوا له ذلك بحيلة يطول شرحها وكان الرسول قد مرَّ قبل وصوله الى الحيرة بسجن عديٍّ واخبره بكتاب كسرى ثم

(١) الاغاني (٢) ابن خلدون (٣) الطبري

خرج من عنده الى النعمان و في اثناء ذلك ارسل النعمان الى عديّ اناسًا قتلوه فلما فضّ كتاب كسرى كتب اليه ان عديًا مات . ولكن النعمان ما لبث ان عرف انه اساء عديًا فندم وماصدق ان لقي ولدًا من اولاده اسمهُ زيد بن عديّ حتى همّ باكرامهِ ورفع شانهُ تكفيرًا عما فرط منهُ بشان والده واوصى بهِ كسرى فجعلهُ في منزلة والده عديّ (١)

فلم يغفل اهل الوشاية عن اطلاع زيد على كيفية قتل ابيهِ فحقدها على النعمان وسعى ضدهُ لدى كسرى بحيلة غريبة . وذلك ان الاكاسرة كانوا يبعثون الى ابالانهم يطلبون نساء لهم على اوصاف مخصوصة ولكنهم لم يكونوا يلتمسون ذلك من احياء العرب لعلمهم بخلهم بكرائمهم . فقال زيد لكسرى مرة ان في الحيرة نساء جمعن كل اوصاف الجمال فاذا بعثت الى النعمان ارسل اليك منهنّ . وكان زيد يعلم ان النعمان لن يرضى بذلك فيقع التنافر بينهُ و بين كسرى فانفذ كسرى رسولاً ومعهُ زيد الى النعمان فاخبره بطلب كسرى فعظم ذلك عليهِ فالتفت الى زيد وقال لهُ « اما في مها السواد وعين فارس ما يبلغ كسرى بهِ حاجتهُ ان الذي طلب كسرى ليس عندي » قال الرسول لزيد بالفارسية ما معنى المها والعين » قال « البقر »

فلما رجعا الى كسرى اخبراه بما قال النعمان واقنعاه انهُ انما اراد الحط من منزلة كسرى بقولهِ « البس في بقر الفرس ما يكفيهِ » فغضب كسرى غضبًا شديدًا ولكنهُ كتم ذلك والنعمان قد شعر بغضبهِ فاخذ يستعد و يتوقع حتى اتاه كتاب كسرى يستقدمهُ اليهِ فعلم انهُ انما يدعوه لمقتلهِ فحمل سلاحهُ واهلهُ والتمس الفرار . وكنت انا ممن لازم النعمان زمانًا وكان يستأنس بي و يرتاح الى رفقتي فقال لي كيف انت يا عبدالله قلت اني يامولاي لاحقك بك اينما توجهت فقال ان في ذلك خطرًا عليك قلت ما انا باحرص على نفسي مني على نفس مولاي النعمان فقال بورك فيك . فصحبتهُ من ذلك اليوم وسرنا حتى اتينا قبيلة طي في اعالي نجد وكان النعمان قد تزوج منهم فطلب ان يحموه بين الجبلين ( اجا وسلمى ) فقالوا « لا يكون ذلك ولولا صهرك لقتلناك فانهُ لا حاجة بنا الى معاداة كسرى »

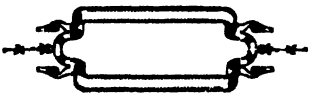
فتركناهم وسرنا الى قبائل اخرى فلم يقبلنا احد منهم خوفًا من كسرى حتى لقينا رجلاً من قبيلة بكر بن وائل اسمهُ هاني بن مسعود (٢) وكان سيدًا منيعًا وكان النعمان

---

(١) الاغاني (٢) الاغاني ( والطبري يسميهِ هاني بن قبيصة بن مسعود )

فصل عليه فقال له « اني مانعك مما امنع نفسي واهلي وولدي منه ما بقي من عشيرتي الا دنين رجل ولكنني لا ارى ذلك نافعاً لك لانه مهلكي ومهلكك فاذا اذنت لي فاني مشير عليك بالذهاب الى كسرى مستعطفاً واحمل اليه الهدايا فاذا صفح عنك عدت ملكاً والا فالموت خير لك من ان يتلاعب بك صعاليك العرب » فاستحسن مولاي العمان الرأي ولكنه قال ما افعل بحرمي قال هاني « هنّ في ذمتي لا يخلص اليهنّ حتى يخلص الى نسائي » فقبل العمان بذلك وانا خائف من عاقبة الامر وقد حدثتني نفسي في صدّه عن الذهاب فلم اجسر لاني شاهدت وجهه وكان ابرش احمر كما تعلمون (١) قد امتقع حتى صار كمن اصابه البرقان ونهض وقد همّ الامر كثيراً وجعل يخطر ذهاباً وإياباً وقصر قامته ظاهر وهو يفتل شاربيه الاشقرين كأنه خائف من الذهاب وكان ضميره دليله

ثم فكر قليلاً وقال لهاني اري يا اخا بكر ان ارسل الى كسرى هدايا فان قبلها سرت اليه فقال هاني نعم الرأي رأيت فارسلها اليه فقبلها كسرى خداعاً منه فجعه الله . فهمّ مولاي العمان بالمسير فقلت اني سائر معك ووالله لا ابرحك لحظة فقال اري ان تبقى عند نسائي خير من ان تذهب معي قلت اني فاعل ما تريده ولكنني اري النساء آمنات في حمى هاني بن مسعود فأذن بذهابي معك فأذن وكأن نفسي حدثتني بخطر قريب فسرنا حتى اتينا المدائن فلقينا زيد بن عدي فتشاءمتُ برؤيته وتحققتُ سوء قصده وكنت مصيباً في ذلك لانه لم يكد يلقانا حتى قال العمان « انجُ نعيم ان استطعت النجاة » فقال العمان « فعلتها يا زيد فوالله ان عشت لاقتلنك قتلة لم يقتلها عربي قط ولاحفنك بابيك » فضحك زيد لعنه الله وتوعده فعلمنا انها حيلة اعدها له وتحقق العمان ان الساعة قد دنت وان القضاء واقع لا مفر منه . فلما وصل الى كسرى أمر فقيدوه وبعثوا به الى سجن في خانقين (٢) وكنت اتردد اليه في السجن خلسة وانا ارجو الافراج عنه اما هو فلم يكن يرجو نجاة



(١) الطبري (٢) الاغاني

# الفصل الثالث والستون

## السرّ

وسرتُ اليوم ذات يوم صباحًا فرأيته قد تغير حاله وامتقع لونه كأنه خائف من امر قريب ولا انسى منظره الرهيب في ذلك اليوم فوقفت انتظر امره فقال لي يا عبد الله

قلت لبيك يا مولاي

قال ارى ان اسرّ اليك امرًا فهل تعاهدني على حفظهِ

قلت كيف لا

فمدّ يده واعطاني هذا الرداء المزركش ( قال عبد الله ذلك ونزع الرداء عن كتفيهِ ووضعهُ امامهُ ) فاخذته منهُ ثم استخرج من يده خاتمًا عليهِ اسمهُ واقبلهُ وهو هذا ( ومدّ عبد الله يده واستخرج الخاتم من جيبهِ ووضعهُ على الرداء ) وكان الحضور شاخصين يحبسون انفاسهم اصغاء لما سيقولهُ عبد الله وتوقعًا للخطر القريب . وكان عبد الله قد تغيرت سحنتهُ واختنق صوتهُ وتخللهُ ارتعاش زاد الحضور توهمًا

ثم قال فلما تناولت الخاتم قال لي النعمان اعلم يا عبد الله اني في هذا السجن حتى ينقضي اجلي فيخرج مُلك الحيرة من ايدي اللخميين لان عديًّا هذا سيبذل جهده في اذلالهم خوفًا ممن ينتقم لي ولا اعرف من اولادي من يصلح لرفع هذا العار عنا ولكن بين اهلي عند هانئ بن مسعود زوجتي سميّة وهي حامل وستلد قريبًا فاذهب اليها بهذا الخاتم وهذا الرداء وقل لها ان هي وضعت غلامًا ان تعهد اليك بتربيتهِ فتربيهِ تربية رجال القتال حتى يشبّ شهمًا حرًّا واحذر ان تنقص شعرهُ او تخبرهُ عن نسبهِ قبل الحادية والعشرين من عمرهِ فاذا بلغها قص شعرهُ في دير بحيراء واخبرهُ عن نسبهِ والبسهُ هذا الرداء وهذا الخاتم . . . »

ولم يكد يتم عبد الله كلامهُ حتى استولت الدهشة على الحضور وخصوصًا حماد اذ خيل لهُ انهُ في حلم وساعده على ذلك الوهم ضعف النور وهدوء المكان وكانوا لا يترددون انفاسهم الاّ وهم يحذرون ان تعترض حديث عبد الله فلما وصل الى هذا الحد تحققوا ان حمادًا هو ابن الملك النعمان فجعلوا ينظرون اليهِ نظرة الاحترام . اما عبد الله فحالما بلغ الى قولهِ « والبسهُ هذا الرداء وهذا الخاتم » وقف على قدميهِ وجعل الرداء على

كتفي حماد والخاتم في اصبعه وامسكه بيده وانهضه واجلسه على المقعد الحجري وهمّ بتقبيل يده فخجل حماد وجذب يده منه فقال له عبد الله لا تخجل يا مولاي انك الآن سيدي ابن الملك النعمان وقد انقضى زمن والدي عبد الله . فجلس حماد على المقعد وجلس عبد الله بين يديه وهمّ سلمان بيد حماد فقبلها وتأدب في مجلسه وهو يقول « والله كنت ارى هيبة الملوك على وجهه من يوم عرفته »

اما الراهب فانه على عجزه وقف ورفع يدهُ فوق رأس حماد و باركه ودعا له بطول البقاء وقبل رأسه . كل ذلك وحماد يحسب نفسه في حلم ولكنه فرح كثيرًا بما علمه من نسبه وودّ لو ان هندًا حاضرة فتسمع ذلك فتفرح معه وخيل له ان سعدهُ قد تمّ لانه ملك وسيقترن بملكه و يرث ملك غسّان . وفيما هو يفكر في ذلك نهض عبد الله فقال لم يتمّ حديثي بعد فهل تسمعونه الى آخره

قالوا نعم

فمدّ يده الى جيبه واستخرج اسطوانة من الفضة ثخن الاصبع وخاطب حمادًا قائلاً وقد اعطاني مولاي النعمان هذه الاسطوانة واستحلفني ان اسلمها اليك مختومة بعد اتمام الخبر فتفقدها في هذا الدير وتقرأ ما فيها وتعمل به

فمدّ حماد يده فتناول الاسطوانة وهمّ ففتها فامسكه عبد الله وقال لا تفعل قبل اتمام الحديث

قال تفضل

فقال عبد الله : فلما أتمّ النعمان وصيته بكى و بكيت ولكني كنت أحبس الدمع تشجيعًا له . فقال « اعلم يا عبد الله ان القضاء واقع قريبًا فاحتفظ بهذا السر حتى يأتي وقته اما اذا اما خرجت من هذا السجن وعشت فللمسالة وجه آخر » . والاسف يا سيدي انه لم يخرج من ذلك السجن فوافاهُ القدر فتوفي بداء الطاعون (١) قال ذلك وتنهد والدموع ملء عينيه فتنهد الجميع ثم قال

اما انا فسرت الى هانئ ولقيت والدتك سميّة وكانت حاملاً فاسررت اليها ما كان فاطاعت فانتظرتُ ريثما وضعت ولكنها وافتها عليها لم تعش بعد الولادة الاّ قليلاً فحملتُك الى اهلي وارضعتك منهم حتى شببت على ما ترى

---

(١) الاغاني

# الفصل الرابع والستون

## وقعة ذي قار

ولعلك تسألني عما تم من امر وديعة والدك فاخبرك يا مولاي ان كسرى علم بعد وفاة سيدي النعمان ان اهلهُ ومالهُ وسلاحهُ عند هانئ وفيهِ اربعة آلاف شكة والشكة سلاح الفارس كلهُ (١) فكتب كسرى الى هانئ بان يبعث الوديعة اليهِ فابى ذلك محافظة على العهد ورعاية للذمام وكان لكسرى عامل على عين التمر وما والاها الى الحيرة اسمهُ اياس بن قبيصة الطائي فدعا بهِ اليهِ فجاءهُ برجالهِ فاستشارهُ في الغارة على بكر بن وائل فاشار عليهِ ان يفعل فعقد كسرى لاياس بن قبيصة على كتيبتيَ والدك وهما الشهباء والدوسر (٢) وارسل معهُ جنداً آخر بقيادة رجال من الفرس فكانت حملة تزعزع الجبال وفيها من الخيل والجمال والمؤنة والعدة مالا يحصى. فلما سمع هانئ بن مسعود بها سار برجالهِ لملاقاتها فالتقوا في محل يقال ذو قار وكانت فيهِ وقعة عرفت بوقعة ذي قار بين الفرس والعرب اشتهر امرها في الاقطار وكانت الغلبة فيها لهانئ ورجالهِ فانهم هزموا الفرس شر هزيمة وهي اعظم وقعة انتصف فيها العرب من العجم قبل الاسلام (٣) وفرَّ اياس الى كسرى فسألهُ عن الخبر فقال غلبت بكر بن وائل وجئنا اليك بنسائهم ففرح كسرى بهِ وامرلهُ بكسوة ولكن اياساً خاف افتضاح امره قريباً فاستأذن بالذهاب الى اهلهِ فاذن لهُ فانصرف الى عين التمر ثم جاء رجل من اهل الحيرة الى كسرى وحدثهُ بهزيمة القوم فغضب منهُ كسرى فامر فنزعت كتفاهُ ولم يصدق الا اياساً فولى اياساً الحيرة (٤) كما تعلمون وقد ولي بعده رجل فارسي آخر ثم وليها احد اخوتك المنذر الغرور وهي الآن في ولاية اياس بن قبيصة (٥) ولا تزال الوديعة عند هانئ بعضها او كلها

وكان حماد قد ملَّ الانتظار تشوقاً الى ما في تلك الاسطوانة فلما فرغ عبد الله

---

(١) ابن خلدون (٢) الاغاني (٣) الاغاني (٤) الأغاني جزء ثاني : ويقول الطبري ان كسرى ولىَّ اياساً الحيرة عند وفاة النعمان (٥) ابن خلدون

من حديثهِ نهض وقد اعياه التعب لشدة تأثرهِ وذكرى مصائبهِ وقال لحماد اليَّ يا مولاي بالاسطوانة فدفعها اليهِ فالتمس من الراهب ان يباركها قبل الفتح فباركها فوقفوا جميعًا وتناول عبدالله الاسطوانة وعالجها بمدية حتى انفتحت فدنا من مصباح منير بجانب ايقونة ونظر الى ما في الاسطوانة وكلهم يتطاولون من جنبيهِ ووراثهِ ينظرون معهُ فاذا فيها لفافة من جلد فاستخرجها ونشرها بين يديهِ فرأى عليها كتابة بالاحرف الاسطرنجيلية وهي كتابة اهل العراق الى ذلك الحين فشخصت ابصارهم الى ما فيها فاخذ عبد الله يتلوها عليهم وهم يسمعون وهاك نصها :

« من النعمان نزيل دار البقاء الى ابنهِ المنذر المقيم بين الاحياء . اما بعد فهذا كتاب كتبتهُ وانا في عالم الوجود وانت في دار الخفاء وستقرأهُ بعد رجوعي الى عالم الغيب وبروزك في عالم الاحياء . فاذا قرأتهُ وقد وفيت نذرك وعرفت حقيقة نسبك فاعلم ان عظامي تناديك من ظلمة القبر وتستحلفك بشرف اجدادك المناذرة من آل لخم ان لا تقرب امرأة ولا تشرب خمرًا حتى تنتقم لابيك من اكاسرة الفرس فاذا فعلت ذلك فانك مبارك امت ونسلك . وان لم تفعل فان رفاتي ترتعش حنقًا ونفسي تتألم وهي تنظر اليك من منافذ الآخرة تراقب حركاتك وسيجمعني وإياك موقف نتحاسب فيهِ والسلام » .

فلم يكد حماد يأتي على خاتمة الكتاب حتى ارتعدت فرائصهُ واي ارتعاد وقد رأى مساعيهُ كلها ذاهبة ادراج الرياح على ان الحمية من الجهة الثانية ثارت فيهِ والنخوة هاجت في رأسهِ وشعر بدافع يدفعهُ الى الاخذ بثار والدهِ من اكاسرة الفرس وقد استعظم المشروع وهالهُ الاقدام عليهِ فوقف مبهوتًا لا ينبس ببنت شفة

فنظر عبدالله اليهِ ينتظر ما يبدو منهُ فلما رآهُ صامتًا قال لهُ هذا هو السر ياسيدي قد اطلعك عليهِ فالقيت عن عاتقي حملاً حملتهُ نيفًا وعشرين عامًا وانا اخاف ان اقضي نحبي قبل افشائهِ فانظر في ماذا تفعل

فقال حماد لقد القيت عنك حملاً اثقلتني بهِ وارجو ان اتوفق للقيام بما عهد اليَّ والله ينجدني ونصيري . قال ذلك وتحفز للخروج من الصومعة فاوقفهُ عبد الله والتمس من الراهب ان يختتم حديثهم بالصلاة فصلى وتضرع الى الله ان يساعدهم على كتمان الامر ثم خرجوا وكأن على رؤوسهم الطير لهول ما سمعوهُ ورأوهُ . واكثرهم

بغتة واندهالاً حماد لانهُ اصبح لا يدري ماذا يعمل أيسير الى هند يطلعها على سرهِ وليس في ذلك السرّ الاّ ما يوجب كدرها لانهُ حائل بينها وبين الاقتران الى اجل غير معين وان يكن في اطلاعها على حقيقة نسب حماد امر يسرُّها . ام يخاطب جبلة بالامر لعلهُ يشير عليهِ او يخبرهُ . ام يأتم العراق فينزل المدائن ساعيًا في الانتقام من كسرى . فلما فكر في مسيره الى هناك تهيّب لعلمهِ بما يحول بينهُ وبين ذلك المرمى من العقبات فان الاكاسرة ذوو بطش ومنعة . فسار الى الدير وقضى ليلهُ ساهرًا لعظم تأثره وهو يفكر في طريقة تهون عليهِ المشاكل

# الفصل الخامس والستون

## دولة الفرس

ما برحت الفرس من قديم الزمان تحت سلطة مملكة اشور حتى تولى هذه المملكة الملك سردنفول في القرن الثامن قبل الميلاد وساء حكومتها وانشغل عن سياسة مملكتهِ بمجالسة النساء واللهو على انواعه فابغضتهُ الرعية وودت التخلص منهُ فاتفق كبيران من قواده على اخراج الملك من يده وهما ارباسيس قائد عسكر مادي وبليزيس قائد جند بابل فاتحدا على العصيان وحاربا ملكهم فحصراه في نينوى فلما أيقن بالهلاك احرق قصره بما فيهِ من المال والناس وهو في جملتهم سنة ٧٦٠ ق . م وهكذا انقضت مملكة اشور الاولى وقامت مملكة مادي وفارس وملكها ارباسيس وتوالى الملوك من بعده وفيهم العادلون والمدبرون او الجهلاء والظالمون ومن اشهرهم كورش العظيم صاحب الغزوات المشهورة فافتتح بابل وما بين النهرين وارمينيا وسوريا واسيا الصغرى وجانبًا من بلاد العرب وتولى بعده ابنهُ كمبيز ففتح مصر على زمن الملك اماسيس من فراعنة مصر ثم تولى داريوس ومن جاء بعده ولم يحسنوا السياسة فتنهقرت المملكة واختلت احوالها . فلما ظهر اسكندر الاكبر في القرن الرابع قبل الميلاد طمع ببلاد فارس ففتحها وقهرها واستولى عليها ولكن عمر اسكندر لم يطل فمات واقتسم قواده مملكتهُ فكانت بلاد فارس من نصيب سلوقس ولم يطل حكمهُ فغزا

الفرثيون بقيادة ارساسيس الاول وما زالت في حوزتهم خمسماية سنة

فانف الفرس من رضوخهم للدير الاجنبي فثاروا سنة ٢٢٦ م بقيادة رجل منهم اسمهُ اردشير فطرد الفرثيين وأسس دولة اشتهرت في التاريخ الفارسي هي الدولة الساسانية ومنهم كسرى انوشروان الملقب بالملك العادل وهو اعظمهم وصار لفظ كسرى لقبًا لكل من ملك بعده منهم فعرفت دولتهم بالملوك الاكاسرة

وكان مقام الاكاسرة في المدائن وهي مدينة عظيمة على ضفاف الفرات فيها قصر عظيم طار ذكره في الآفاق يسمى الايوان ويعرف بايوان كسرى

وحكم ( انوشروان ) ٤٨ سنة وخلفهُ ابنهُ هرمز وكانت امهُ ابنة ملك التتر واستاذه الحكيم بزرجمهر وكان وزيره فسارت الاحكام في ايام هذا الحكيم على مثال ما كانت في زمن انوشروان فلما توفي بزرجمهر انغمس هرمز في الشهوات واهمل شؤون المملكة فعصاهُ الولاة وغراه ملك التتر فنصره قائدمن قواده اسمهُ بهرام كان آية في الدهاء والذكاء فطرد التتر من البلاد ثم تحوَّل الى محاربة الرومانيين فوشى بهِ بعض المقرّبين من البلاط الملوكي فاظهر لهُ هرمز بعض الاحتقار فاستشاط بهرام غيظًا وجاهر بعصيان الملك وخلعهُ وولى بعده ابنهُ كسرى بروبز وكان صبيًا صغيرًا تساعد على قتل ابيهِ ببعض اقربائهِ فلما خلص الحكم لهُ طمع بهرام بالملك ففرَّ بروبز من وجههِ واستجار بملك الرومانيين في ذلك العهد واسمهُ الامبراطور موريس فانجده ورد الملك اليهِ ففرَّ بهرام الى بلاد التتر فاحسنوا وفادتهُ ولكن الخيانة لحقتهُ الى هناك فمات مسمومًا

واستبد كسرى بروبز بالحكم وقد عقد النية على صداقة الامبراطور موريس لانهُ هو الذي رد الملك اليهِ فبالغ في اكرام الرومانيين في بلاده فلما مات صديقهُ المذكور عاد الى مناواة الروم فاثار عليهم حربًا عوانًا فغزا بلاد الشام ودخل بيت المقدس فعثر هناك على الصليب الذي يقال ان السيد المسيح صُلبَ عليهِ وكان في حفرة بصندوق من الذهب فحملهُ الى المدائن وكان بروبز مع ذلك ملكًا خاملاً مترفًا منغمسًا بالملاهي الى ما يفوق طور التصديق حتى قيل انهُ تزوج ١٢ الف امرأة واقتنى خمسين الف جواد وهو الذي جاءه كتاب صاحب الشريعة الاسلامية الغراء يدعوهُ فيهِ الى الاسلام

كالكتاب الذي جاء الامبراطور هرقل في بيت المقدس فاحتقر بروبز ذلك الكتاب واساء حاملهُ

ثم مالبث بروبز ان علم بعزم الامبراطور هرقل على اكتساح بلاده ولم يقوَ على دفعه فما زال هرقل هاجمًا واهل القرى يفرون من امامهِ حتى وصل المدائن وبروبز لاه بقصرهِ ونسائهِ فلما احسَّ بقرب الخطر فرَّ فتم عليهِ ابنهُ شيرويه فقتلهُ وحكم مكانهُ سنة ٦٢٩م ولكنهُ لم يحكم طويلاً فخلعهُ سواه وسواه وفي سنة ٦٣٠م تولى تخت مملكة الفرس فتاة من آل ساسان اسمها بوران دخت ابنة كسري بروبز وفي ايامها هجم هرقل على المدائن واسترجع الصليب منها وحملهُ الى القسطنطينية وحكمت بعدها اختها آزرميدخت سنة ٦٣٢ م (١٠ ﻫ) واشتهرت بالجمال والتعقل وماتت مسمومة ولها قصة يطول شرحها وملك بعدها ملكان لم يطل حكمها واخيرًا افضى الملك الى يزدجرد بن شهريار بن كسرى وفي ايامهِ فتح العرب بلاد فارس

# الفصل السادس والستون

## المدائن

هي عاصمة اكاسرة الفرس ويسميها اليونان كتيسيفون ويسميها الطبري طيسبون والغالب ان كتيسيفون قسم من المدائن وكانت على مسافة عشرين ميلاً من بغداد جنوبًا على الضفة الشرقية لدجلة يقابلها في الغرب بلدة اﻫ بها كوش [1] يعتبرها بعضهم من ضواحي كتيسيفون بينهما بجسر عظيم مبني من السفن وكان بجوار ذلك المكان ايضًا آثار مدينة يونانية اسمها سلوقية نسبة الى سلوقوس خليفة الاسكندر هناك وقد سميت هذه الاماكن بجملتها المدائن [2] (جمع مدينة) . واصل بناء المدائن انهُ كان في مكانها حصن كبير يسمَّى حصن كتيسيفون كان البرطيون (الفرثيون) ابان سلطانهم على العراق يقيمون فيهِ اثناء الشتاء لصفاء الجو هناك وكان بجوار الحصن

(١) جينس (٢) المعجم

مدينة سلوقية الشهيرة ثم اخذوا يبنون حول الحصن المنازل والحدائق فلم يأت تاريخ الميلاد المسيحي حتى بنيت هناك مدينة سميت باسم الحصن [١] كما جرت العادة في مثل هذه الحال وظلت المدائن مقام الاكاسرة في زمن الشتاء . وكانت محاطة بسور منيع عليه الابراج والقلاع يزيد مناعة مياه دجلة من جهة والآجام والمستنقعات من الجهات الاخرى فاصبحت المدائن جزيرة في وسط المياه يستحيل وصول الاعداء اليها قبل ان تمزقهم نبال الفرس من الاسوار وقد كان بين دجلة والفرات جنوبي المدائن قناة موصلة بينهما اسمها نهر ملكا ومعناها بالكلدانية نهر الملك تسهل نقل السفن بين النهرين [٢]

وكان على ساحل المدائن عند دجلة سلّم ممتد بطول الضفة يصعد عليه الناس من النهر الى المدينة بدرجات متينة مبنية من الحجر ويسمى هذا السلم باصطلاح اهل تلك البلاد « مسنّاة »

وترسو عند المسناة سفن الفرس مئات والوفًا حتى تخال سواريها غابة من الاعمدة تناطح السحاب والناس فيها جماعات يتزاحمون بين صاعد ونازل وشكل السفن يشبه شكلها في العراق الآن فانها مبتورة المؤخر كانها قطعت بسكين قطعًا عاموديًا فصارت عريضة ملساء واما مقدمها فانه يصعد مستدقًا رويدًا رويدًا حتى اذا انتهى الى اعلاه انحني على نفسه نحو السفينة على شكل المنجل فتخال تلك السفن اذا تحاذت متلاصقة عند المسناة وقد اديرت مقاديمها نحو المدينة انها سيوف عقفاء يحملها جند من الحرس يحمون المدائن

ولو اطللت على المدائن من مرتفع في ذلك العهد لخيل لك انها غوطة فيها البساتين والمغارس بينها القصور والمنازل مبنية من الآجر وقد قام في وسطها الايوان كانه ملك عظيم الشان تحف به الخدم والاعوان



(١) استرابون . كتاب ١٦ (٢) جنس والمجم

# الفصل السابع والستون

## ﴿ ايوان كسرى ﴾

هو قصر باذخ يسمونهُ ايضًا الطاق جرى اسمهُ على الصنة العرب واقلامهم مجرى الامثال بالعظمة والفخامة حتى عدوهُ من المباني العجيبة بناه سابور ذو الاكتاف وهو سابور بن هرمز (١) في القرن الرابع للميلاد (٢) لكنهُ يعرف باسم ايوان كسرى انوشروان . قضى سابور في بنائهِ نيفًا وعشرين سنة (٣) اقامهُ في وسط المدائن على مقربة من دجلة بحيث لا يحول بين الايوان والنهر الاَّ الحدائق والبساتين تنتهي عند الضفة بالمسناة المتقدم ذكرها ويحيط بالايوان جملةً حديقة واسعة فيها الاغراس والازهار والرياحين والشجر من الازدرخت والليمون وغيرهما . ويحيط بالحديقة سور مبني من الآجر لهُ ابواب عليها الحرس بقلانسهم وتراسهم ورماحهم وفوق الابواب رسوم فارسية منقوشة طبعًا على الطين وهو في ٢ كما كان يفعل الاشوريون في آثارهم (٤) . وعلى جانبي الباب الاكبر المطلّ على المدينة تمثالان كبيران يمثلان الثور الاشوري المجنح برأس انسان طويل اللحية متوّج الرأس (٥) وفي زاوية من زوايا الحديقة بناء الافيال وفيهِ بعض الفيلة المرباة لركوب الاكاسرة . وبين ابواب الحديقة والايوان طرقات مرصفة بالحصى الملوّنا على شكل الفسيفساء يتألف من ترتيبها بعضها بازاء بعض رسوم تمثل اسودًا وآدميين وفرسانًا ومركبات عليها الملوك والقواد يجدون في صيد الاسود تحتهُ رسوم ملوك اشور اسلاف الفرس ما بين النهرين واكبر تلك الطرقات واوسعها طريق ممتد من الباب الكبير الى باب الايوان يصطف الى جانبيهِ الحرس عند دخول كسرى الى الايوان

واما بناء الايوان فعبارة عن قاعة كبيرة طولها مئة ذراع وعرضها خمسون (٦) مبنية بالآجر والجص سقفها عقد واحد قائمة على عمد من الرخام المنقوش ويصعد الى ارض الايوان بدرجات عند بابهِ . وفي صدره عرش مرصع بالذهب والحجارة الكريمة

(١) الابشيهي بالمستطرف (٢) ابو الفداء (٣) الابشيهي (٤) رولنسن
(٥) انسيكلوبيديا الكسندر (٦) الابشيهي

يجلس عليه كسرى تعلوه قبة مرصعة وفي داخلها مروحة من ريش النعام والى جانبي العرش مجلس اعوانه ومراتبهم . وجدران الايوان وسقفه مزينة برسوم بديعة في جملتها صورة كسرى انوشروان وغيره من الاكاسرة العظام وابيات من شعر مكتوبة بالحرف الكوفاني الذي كان يكتب به الفرس قبل الاسلام وفي سقف الطاق رسوم الافلاك والابراج والنجوم من ذهب منزّلة في قبة زرقاء

وكان للايوان شرفات مزخرفة بالنقوش تشرف على الجهات الاربع قائمة على اعمدة يتألف من صفوفها رواق يحيط بالطاق من جهاته الاربع طول الشرفة الواحدة خمسة عشر ذراعاً وقد ادخل في بناء الايوان من الذهب ما ربما زادت قيمته على مليون دينار (١)

وباب الطاق كبير نقش على عتبته العليا رسم الشمس مذهبة والى كل من جانبي الباب تمثال اسد كأنه يمشي وعيناه تتلألآن والاسدان مصنوعان من الرخام معلمان بالذهب وفي موضع العينين منهما زمردات زرقاء بديعة الشكل . واما عتبته السفلى فمصنوعة من الرخام المرمر . ولا يخلو باب الايوان من عشرات من الحرس ولا يخلو مجلس الاكاسرة من مئات من العلماء (٢) بين كاهن وساحر ومنجم ويسميهم الطبري الحيازاة . فضلاً عن الحجّاب والحراس والبوابين

هذه كانت حال الايوان عند ظهور الاسلام في القرن السابع للميلاد

# الفصل الثامن والستون

## أُنسٌ أم جان

فلندع كسرى وايوانه ولنعد الى حماد وهو اجسو فقد تركناه في دير بحيراء غارقاً في لجج الافكار تتجاذبه العوامل بين المسير الى العراق او البقاء في البلقاء وكلا الامرين شاق وكلما تصور مسيره الى مدائن كسرى هاله موقفه موقف الخصم امام ملك الفرس وعظم عليه الانتقام منه وهو فرد وذاك سلطان ينصره الجند والاعوان ولم يكن

(١) البشبيهي (٢) الطبري

ذلك ليهوله أو يكبر عليهِ لولا امر هند وتأجيل الاقتران ولقد كان ميالاً كل الميل لاطلاع هند على ما كشف لهُ من نسهِ مع ما جدَّ من امر التأجيل لهرى ما يبدو منها ومن والدها ولكنهُ تربص ريثما يتخذ الى ذلك سبيلاً لائقًا . فلما تلبدت عليهِ المشاغل وضاق صدره خرجَ من غرفتهِ ولم يعلم عبد الله ولا سلمان بخروجهِ وسار يلتمس منفردًا يخلوفيهِ بنفسهِ لعلهُ يتوفق الى رأي يخفف قلقهُ . وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل فلاحت لهُ اكمة على بضعة اميال منهُ فركب وسار نحوها وفيما هو في الطريق غاب وجدانهُ بما اجتذب انتباههُ من الشواغل فسار الجواد حثيثًا وحماد لا يعلم فلم ينتبه الاَّ وهو في سفح جبل فالتفت الى الوراء فاذا ببصرى والدير قد غابا عن بصرهِ ونظر الى الشمس فرآها ماثلة نحو المغيب فوقف يفكر في ماذا يفعل أيعود الى بصرى حالاً ام يجلس هناك هنيهة فنظر الى ما حولهُ فاذا هو في وادٍ بين جبلين اجردين كسائر جبال حوران[1] فترجل وقاد جواده صعدًا يلتمس قمة احد الجبلين لعلهُ يشرف منها على بصري فيعرف جهتها منهُ ومتى عاد اليها أمن الضياع وفيما هو صاعد حانت منهُ التفاتة الى الجبل المقابل فرأى كهفًا نحتتهُ يد الطبيعة في سفح ذلك الجبل ولاح لهُ شبح يتلصص بين الصخور هيئتهُ بين الآدمية والوحشية لطول شعرهِ وعريهِ فوقف حماد ينظر الى ما يبدو منهُ فما لبث ان رآهُ يهرول نحو الكهف حتى دخلهُ وتوارى

فمال حماد الى استطلاع حقيقة ذلك الشبح وتحوَّل نحو الكهف يقود الفرس وهو لا يسمع في ذلك المكان صوتًا غير صوت وقع اقدامهِ وقرقعة حوافر جوادهِ تدوي في انحاء ذلك الوادي ويتخلل الدوي طقطقة حجارة تتدحرج من مواقع حوافر الفرس ممتزجة بصوت صهيلهِ . فنزل الوادي ثم همَّ بالصعود حتى اذا صار على مقربة من الكهف رأى صخرًا يتدحرج نازلاً نحوهِ فتحوَّل من طريقهِ وعلم انهُ انما تدحرج من الكهف عليهِ فلم يبالِ ولكنهُ ازداد ميلاً الى معرفة ذلك الشبح فما زال صاعدًا حتى دنا من الكهف فاذا بصخر آخر يتدحرج فنادى باعلى صوتهِ « لا ترمنا الحجارة فلسنا براجمين من هذا المكان قبل الوصول اليهِ » فردد الوادي صدى كلامهِ اضعافًا فتهيب من موقفهِ وزادهُ تهيبًا قرب غروب الشمس واختلاط الاظلال حتى كادت تتحول الى ظلام فشعر

(١) ميريل

اذ ذاك انهُ أساء عملاً بمجيئهِ الى ذلك المكان الموعر مع ما آنسهُ من الوحشة والمقاومة ولكنهُ تجلد وتعهد سلاحهُ فاذا هو مقلد الحسام والخنجر ثم ما لبث ان وصل الى باب الكهف فظهرت لهُ مغارة لا يرى آخرها لعمقها ولا يستطيع الدخول اليها والفرس معهُ فوقف وحدق ببصرهِ الى الداخل لعلهُ يرى احدًا فلم يقع نظرهُ على شيء حيّ فصاح قائلاً « من يقيم في هذا الكهف فليخرج الينا لاننا غير متحولين عنهُ قبل ان نراهُ ولا خوف عليهِ » قال ذلك وهو يكاد يرتعش رهبةً لسكون الطبيعة سكونًا لا يتخللهُ تغريد طائر ولا نقنقة ضفدع ولا خرير ماء ولا هبوب هواء ولا صوت آخر حيّ او جامد غير صهيل الفرس ووقع حوافره . فهمَّ حماد بشد الجواد الى صخر والدخول الى المغارة بنفسهِ وفيما هو يهمُّ بذلك ظهر لهُ شبح خارج من ظلمة ذلك الكهف لا يسمع لاقدامهِ وقع فثبت حماد قدمهُ وتحفز للدفاع اذا اقتضت الحال . فلم يكد يفعل حتى وصل ذلك الشبح اليهِ فاذا هو رجل عارٍ يكسوهُ شعر رأسهِ المسترسل الى قدميهِ وقد تمكن بهِ الشيب فابيضَّ على ان الكبر لم يغير شيئًا من اعتدال قامتهِ ورشاقة حركتهِ وحدة بصرهِ وان يكن جلد وجههِ قد تجعَّد وشعر حاجبيهِ وشاربيهِ قد طال وشعر صدرهِ اصبح لغضهِ وبياضهِ كانهُ زبد الصابون . وطالت اظافر يديهِ ورجليهِ حتى التفَّت على نفسها

فلم يكد يقع نظر حماد عليهِ حتى هاب منظرهُ ولو لم يرَ في يدهِ صليبا كبيرًا لخيل لهُ انهُ من مردة الجان ولكنهُ ادرك لاول وهلة ان الرجل ناسك من نسَّاك تلك الايام انقطع عن العالم وأوى الى الكهوف التماسًا للعبادة وكان قد سمع بكرامة هؤلاء وصدق نظرهم في عواقب الامور فلاح لهُ ان يخاطبهُ في ما هو فيهِ و يستشيره في امره لعلهُ يخفف شيئًا من قلقهِ فتقدم نحوهُ باحترام وهمَّ بتقبيل الصليب في يدهِ فادناه من فيهِ فقبلهُ ثم خاطب الناسك قائلاً « العلك ناسك مقيم في هذا المكان » فاجابهُ الناسك بحني الرأس ان « نعم » فقال هل تأذن لي بمحادثتك ابثك فيها بعض ما في ضميري على سبيل الاعتراف فتشير عليَّ بما يوحي بهِ اليك الروح القدس

فاجاب الناسك بالاشارة انهُ لا يستطيع التكلم الآن لان من شروط نسكهِ ان يصمت اسبوعًا و ينطق اسبوعًا وان آخر اسبوع الصمت ينتهي الليلة فاذا جاء في الغد خاطبهُ . وكان التنسك شائعًا في تلك الايام والنساك انواع منهم من ينذر الصمت

طول الحياة او بعضها ومنهم من ينذر العري او الجوع او السهر اياماً ومنهم من ينذر المعيشة على عشب الارض وهؤلاء فئة كبيرة كانت بين النهر بن سمُّوا « النساك الرعاة » فيقيمون في المغر والكهوف المظلمة (١)

وكان ناسك حوران هذا ممن نذر الصمت اسبوعاً فسرَّ حماد بتاجيل المقابلة خوفاً من البقاء هناك تلك الليلة ثم لا يعرف طريقه في عودته لشدة الظلام . فقال له الا آتي اليك معي بطعام او نحوه من بصرى فاجاب ( لا ) لانه من النساك الرعاة الذين يعيشون على عشب الارض

فقال له ولكنني أرى الارض هنا مجدبة لا عشب فيها

فاشار الناسك بيده الى مكان وراء ذلك الجبل فهو مرعى

فسأله عن سبب رميه بالحجارة وهو صاعد . فاجابه لعلمه انه لا يستطيع مخاطبته قبل انقضاء اسبوع الصمت

فقال حماد وابن الطريق الى دير مجبراء فدله على طريق سهل غير الذي جاء منه فودعه وقبّل الصليب وعاد وجواده وراءه حتى وصل الى الطريق فركب وسار قاصداً الدير فرأى عبد الله وسلمان ينتظرانه في الغرفة وقد قلقوا لغيابه على غير موعد فقال له عبد الله لقد شغلت بالنا بغيابك على غير انتظار

فلم يبدأ حماد اطلاعهم على ما اتفق له في ذلك اليوم رغبة منه في كتمانه ريثما يسمع كلام الناسك فيطلعهم على الحكاية كلها

فقال لهم خرجت على فرسي فسرت ببقاع لم اكن اعرفها فاخطأت الطريق في رجوعي فطال بي المسير

فقال عبدالله وما الذي حملك على الركوب منفرداً . فكبر عليه الاقرار بقلقه وتهيبه من الامر فقال خرجت لترويح النفس

فادرك عبد الله حالته تماماً ولم يشأ ان يثبط عزيمته ولا ان يزيد قلقه خوفاً عليه من اليأس فقال له ارى سيدي في اهتمام وقلق وما في الامر ما يدعو الى ذلك ولا نحن في سرعة او ضجر

فظل حماد صامتاً مفكراً فادرك سلمان ان في نفس حماد كلاماً ربما لا يريد

(١) جينس

التصريح به على مسمع منه فتظاهر بامر يهمه خارجًا وترك الغرفة فلما خلا عبدالله وحماد قال عبد الله ما بال سيدي لا يبح بسره الستُ شريكك في أمرك

قال بلى بل انت بمنزلة والدي ولا اخفي عنك شيئًا فاني في قلق وارتباك واراني في حاجة الى من يفرج كربتي برأي او مشورة ومسألتنا في ما تعلم من الدقة والخطر

فقال عبد الله هلمّ بنا الى الراهب الشيخ الذي شاركناه في سرّنا لعلهُ يشير علينا بما يفرج كربتنا

قال هلمّ بنا اليه

وخرجا حتى اتيا غرفتهُ فدخلا عليهِ وكان متكئًا فجلس ورحب بهما فجلسا ثم قال عبد الله انك يامولاي شريكنا في سرّنا وعالم بما في ضميرنا فهل تشير علينا بما يخفف عنّا

فقال الراهب ان المسألة في غاية الدقة والمشقة وقد ادركت عظمها منذ سمعتها ولا ادري بماذا اشير . قال ذلك وسكت برهة يفكر ثم هبّ من مجلسهِ بغتة وقال أرى ان تذهبا الى ناسك حوران فانهُ يقيم في كهف على مقربة من هذا المكان فعساهُ ان يشير عليكما مشورة خير

فبغت حماد عند سماعه اسم الناسك وقال هل تظنهُ قادرًا على ذلك

قال نعم ياسيدي انهُ ممن اوتي علمًا وكرامة فلا تخلو مشورته من فائدة

فقال عبد الله لحماد وهل عرفتهُ قبل الآن

فقال اعترف لك اني وصلت اليهِ اليوم بطريق الاتفاق وخاطبتهُ فاجابني باشارة يديهِ انهُ لا يستطيع التكلم الاَّ في صباح الغد لانهُ ممن نذروا السكوت اسبوعًا والكلام اسبوعا

فقال عبد الله فلنذهب اليهِ غدًا ان شاء الله فهل ترافقنا يا حضرة الاب المحترم الى مغارتهِ

قال الراهب ياحبذا لو استطعت المسير اليهِ معكما ولكنني شيخ لا اقوى على المشي ولا الركوب والطريق وعرٌ فسيرا اليهِ بحراسة الله ودعوني اقيم هنا اصلي وانضرع اليهِ تعالى ان يسهل سبيلكما

فودعاه وخرجا

# الفصل التاسع والستون

## ناسك حوران

واصبح حماد وعبد الله في الغد فقال حماد الا نصطحب سلمان في مسيرنا الى الناسك
قال عبد الله لا ارى ما يمنع ذلك وسلمان كما تعلم اكثر غيرة علينا بين غيرة احدنا على الآخر ولا اخالنا نستغني عنه في ما نحن فيه ولا يليق بنا وقد صحبناه اعواماً خدمنا بها خدمات جمة ان نخفي عنه امرًا نجريه

قال حماد ذلك ما اراه . وبعثا اليه فصحبهما وخرجوا في الصباح على افراسهم وحماد دليلهم حتى اقتربوا من الجبل واطلّوا على الكهف فقال حماد هذا هو الكهف وكأني ارى الناسك في انتظارنا عند بابه

فنظر عبد الله حتى اذا وقع نظره على الناسك تهيب من منظره عن بعد وصعدوا فلما دنوا من الكهف تحفز الناسك للاقائهم وكانوا قد ترجلوا ومشوا نحوه فقال اهلاً بكم ومرحبًا واخذ يتفرس فيهم واحدًا واحدًا بعينين براقتين تحت حاجبين بارزين بروز الطنف حتى يخال لك ان العينين في حفرتين عميقتين

فقال حماد مرحبًا بك ايها المتعبد الذي لقد جئناك عملاً بوعدك وهذا والدي ( واشار الى عبد الله ) وهذا صديقي ( واشار الى سلمان )

وتقدموا جميعًا وعبد الله ينظر الى وجه الناسك كانه يعرف وجهًا مثله

وكان الناسك مشتغلاً في اعداد احجار يجلسون عليها وهو يخطر امامهم عاريًا وشعره مسترسل عليه يخلل بعضه فغلب عليهم الحياء فلم يستطيعوا النظر اليه الا خلسة

فلما اعدّ الحجارة تقدموا اليه وقبلوا يدهُ فباركهم وجلسوا . اما هو فجثا على التراب جثو المستريح وجمع شعر رأسه ولحيته في صدره الى حجره واخذ يرحب بهم ويعتذر لعدم امكانه القيام بحق ضيافتهم

فقال عبد الله لقد جئناك نلتمس بركة لا ترحابًا فقد بلغنا أنك من رجال الله

المختارين فنظرة منك تغنينا عن اثاث القصور . قال ذلك وهو ينعم النظر فيهِ لعلهُ يذكر الوجه الذي يشبههُ

فقال الناسك اني أحقر عباد الله فاشكر لحسن ظنكم بي وما تكبدتموهُ من المشقة في زيارتي فابسطوا مافي انفسكم لعلي استطيع بمشيئة الله ان اخدمكم خدمة لوجه تعالى

فقال عبد الله اننا من الطائفة النصرانية الذين يعتقدون بكرامة النساك عبّاد الله ونعتقد انهم ينطقون بوحي منهُ تعالى وقد جئنا لنطلعك على سرٍّ لم يطلع عليهِ احد سوانا و راهب مقيم في دير بجيراء . والسرُّ ذو خطر يستلزم اصغاءك وكتماننا ونحن معاشر النصارى نعلم خطارة سر الاعتراف وما فيهِ مما يدعو الى الثقة التامة بامثالكم

فقال الناسك قل يا ولدي ولا تخف

فالتفت عبد الله يمينًا وشمالاً كأنهُ يحاذر ان يسمعهُ احدٌ وقال يظهر لي انك من اهل العراق

قال الناسك لقد اصبت المرمى نعم اني من اولئك . وما الذي دلّك على ذلك

قال دلني عليهِ ملامح وجهك ونوع تعبدك فقد قيل لي انك من النساك الرعاة وهم كثيرون في العراق (١)

قال نعم يا ولدي اني كما قلت

قال فبالحالة هذه قل لي هل تعرف الملك النعمان بن المنذر

فلم يكد عبد الله ينطق باسم النعمان حتى ظهرت البغتة على وجه الناسك وابرقت عيناه واقطب حاجباه واجاب وهو يذرأ بعنقهِ ويحدق بعينهِ « نعم اعرفهُ »

فعجب عبد الله لتلك المظاهر ولكنهُ تجاهل وقال هل تعرفهُ معرفة جيدة ام تسمع باسمهِ واخباره فقط

فقال الناسك ( ويدهُ في لحيتهِ يمشطها باصابعهِ) لا بل اعرفهُ كما تعرف ولدك هذا

قال ذلك بصوت مختنق حتى خيل لهم انهُ يبكي

فقال عبد الله اراك يا سيدي قد اغتممت لحكايتنا من اول كلمة قلناها

فتنهد الناسك ويدهُ الى عينهِ يمسح بها دموعهُ وقال ان ذكرى الملك النعمان

(١) جيس

يهيج اشجاني وتفتت كبدي فهل يهمكم من امره ما همني ام جاء ذكرهُ على لسانكم عرضًا

قال بل هو محور حكايتنا ومرجع سرّنا رحمة الله

وكان حماد وسلمان شاخصين بعجبان لما يبدو من الناسك وعبد الله يزداد استئناسًا بطلعته ولكنهُ لم يدرك ما الذي يدعوه الى ذلك

فقال الناسك قل ما تقوله عن النعمان اني ارتاح الى ذكره ولكنني اتأسف لتذكري عاقبة امره

فقال عبد الله اذا كان النعمان يهمك الى هذا الحد فانظر الى هذا الشاب وقل لنا هل تعرفهُ ( واشار الى حماد )

فمسح الناسك عينيهِ ونظر الى حماد وجعل يتفرس فيهِ ولم يكد يتأملهُ حتى صاح باعلى صوتهِ «انهُ ابن النعمان لا شك فيهِ » وهمّ بهِ وضمهُ واخذ يقبلهُ

فخفقت قلوبهم وبكوا جميعًا والناسك ضامٌّ حماد الى صدره يقبلهُ ويبكي

فازداد عبد الله استغرابًا للامر وقال للناسك لقد اذهلتنا بما بدا منك فكيف نقول انهُ ابن النعمان وقد كان النعمان ابرش احمر [1] وهذا اسمر ادعج

قال لا عبرة في ذلك فان ملامح النعمان قد تمثلت فيهِ وهو الرجل الذي رغبت عن العالم وانقطعت الى هذه الجبال من اجلهِ

فبهتوا لهذا القول ولم يفهموا مغزاه فاراد عبد الله ان يستطلع حقيقة الخبر فقال وهل تعرف الذي يكلمك

فنظر الى عبدالله نظر المتأمل وقال العلك صديق الملك النعمان وشريكهُ في مصابهِ « شمعون الحميري » . وكان هذا اسم عبد الله المعروف بهِ اذ ذاك

فانذهلوا جميعًا وخصوصًا عبدالله فانهُ اعاد نظره الى الناسك وازداد استئناسًا بهِ ولكنهُ لم يذكر كيف عرفهُ فقال اما وقد علمنا انك شريكنا في الامر فاخبرنا من انت وفرج كربتنا

فصعّد الناسك الزفرات وقال اما انا فاني القس الذي ارتد النعمان الى النصرانية على يدهِ [2] بعد ان كان اسلافهُ قد نبذوها وعادوا الى الوثنية او المجوسية ديانة الفرس

---

( ١ ) الطبري ( ٢ ) ابو الفداء

فانتبه عبد الله من غفلته كأنه افاق من رقاد وقال العلك النفس يعقوب

قال نعم وقد كنت مقيماً في دير هند الكبرى المنسوب الى هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار وهو في ظاهر الحيرة وكانت هند منه كما تعلمون قد ترهبت فيه فسمي باسمها [1] ولكنني كنت اختلف الى النعمان كثيرًا ويطلعني على اسراره حتى كان ما كان من امر سجنه في خانقين فبرحت الحيرة وسرت الى هناك وجعلت اتردد اليه في السجن . ألا تذكر انك كنت تراني هناك

قال اذكر ذلك جيدًا وما زلت منذ رأيتك الآن وانا في افكر فيه . ثم همّ عبد الله به وتعانقا وهما يبكيان اما الناسك فتحول نحو حماد وضمه وجعل يقبله ويبكي وهو يقول احمد الله اني رأيتك قبل موتي

ولبثوا برهة صامتين وكل يبكي ويمسح دموعه بكمه الاّ الناسك فقد كان يمسحها ببطن كفه

ثم قال عبدالله اقصص علينا بقية الخبر يا حضرة النفس المحترم

قال كنت اتردد اليه في السجن اصلي له واباركه وادعو له وكان كلما اجتمعت به يقول والاهتمام ظاهر على وجهه « لدي سرٌّ سأطلعك عليه في فرصة أُخرى » فاهتممت لمعرفة ذلك السر وكنت اتوقع سماعه في كل زيارة وهو يسوّفه وكنت كلما سرت اليه رأيتك وعجبت لمهامتك وغيرتك عليه . فسألته عنك يومًا فقال انك مستودع اسراره وانه يثق فيك وثوقًا تامًّا . وما زلت اختلف اليه حتى اصيب بمرض ظنوه الطاعون ولا اظنه اياه . فزرته ولم تكن انت ساعتئذ هناك فقال لي اراني لن انقه من مرضي هذا ولعل القضاء سيعاجلني واخاف ان لا املك فرصة اخاطبك بها . فقلت قل يا سيدي ولعل الله شافيك باذنه وبركة ابنه . ثم بكى وبكيت ( قال الناسك ذلك وخنقته العبرات والجميع سكوت يصغون الى خبره يتطاولون باعناقهم ويحدقون بابصارهم في شفتيه وهما ترتجفان من شدة التأثير ) فسكت الناسك برهة ريثما استرجع قواه . ثم قال فامسكني النعمان رحمة الله بيدي وادناني منه واسرّ اليّ امرًا خطيرًا قال انه اسرّه اليك ولا ادري هل يجوز لي التلفظ به وهو سرّ الاعتراف

---

( ١ ) المشترك وضعًا لياقوت

فقال عبد الله لقد قلت اني عارف به فلم يعد من قبيل سر الاعتراف وقد اطلعت ابنهُ ورفيقنا هذا عليهِ

فقال الناسك اما والحال على ما تقول فاخبركم انهُ ادناني منهُ وهو جالس على فراشهِ في ذلك السجن وقال « اني سأقضي نحبي هنا ظلماً من قوم لا يعرفون الله ولا يشفقون على انسان وسأترك اهلي واولادي بدون ان اراهم واودعهم واني عالم ان سلطان الحيرة سيخرج من بني لخم بعد موتي فاسررتُ الى شعون ان يربي ولدًا لي لم يولد بعد وان يكتم نسبهُ عنهُ حتى يبلغ العشرين من عمرهِ فينقض شعرهِ في دير بحيرا ثم يطلعهُ على حقيقة نسبهِ قال واعترف لك اني حرضتهُ على ان ينتقم لي من دولة الفرس » . قال الناسك فلما سمعتُ كلامهُ اقشعرَّ بدني واستعذت بالله من ذلك كله وقلت « يا سيدي الملك اراك تستعجل الاجل وليس ما يدعو الى قربهِ واما الانتقام فاتركه الى الله سبحانهُ وتعالى وهو الديان العظيم » . فاجابني والدموع تخنقهُ « لقد قضي الامر يا أبتاه وعهدت بذلك ولا ارى الرجوع عنهُ والله يقضي بما يشاء » قال النعمان ذلك واختلج صوتهُ وارتعدت فرائصهُ ثم غاب صوابهُ وفبا نحن في ذلك جاء السجان يشدد النكير على من يدخل الى النعمان فخرجت ولم اعد اراه ثم ما لبثت ان سمعت بانتقالهِ الى دار البقاء ( قال الناسك ذلك وتنهد ) وعلمت واحسرتاه عليهِ انهُ لم يمت بخانقين بل نقلوه الى ساباط فمات فيها (١)

فلما سمعتُ ذلك كرهتُ الدنيا وتحققت فناءها وزدت زهدًا فيها فالتجأت الى النسك واخترت منهُ اكثر زهدًا وهو هذا الذي أنا فيهِ اعيش على نبات الارض واسكن عاريًا كما ترون وكنت مقيماً في العراق مع رفاق كثيرين من الرهبان وذكرُ النعمان لم يبرح من ذهني يومًا واحدًا وصورتهُ نصب عيني وهو على ذلك الفراش في خانقين وما زلت اردد كلماته الاخيرة . فاحببت الاطلاع على ما فعلتهُ انت من هذا القبيل فلم اعرف مقامك ولما مضت بضع عشرة سنة من وفاتهِ ولم ارَك ولا عرفت مقرك قلت لعلك تقيم في البقاء بالقرب من دير بحيراء لأجل وفاء النذر عند حلول الميعاد . فجئت واقمت في هذا الكهف وفي نفسي شيء اريد ان اطلعك عليهِ فلم اسمع عنكم خبرًا ولا انا استطيع البحث لانقطاعي عن الناس فضلاً عن اني لم اكن اعرف

(١) حماد الراوية

اسمك الجديد فكنت اتوقع ان اسمع خبرًا عن شمعون الحبري فلم اسمع هذا الاسم قط

# الفصل السبعون

## ﴿ انذر القاتل بالقتل ﴾

قال عبد الله وما الذي في نفسك وتريد ان تطلعني عليه . قلة

قال هو خبرٌ يتعلق بوصية النعمان لك ولابنه فاحكِ لي ما تمّ معك من قبيل النذر هل وفيتهُ واطلعت هذا الملك على حقيقة نسبه

قال عبد الله نعم يا مولاي لقد وفينا النذر بعد ميعاده . واحكى له القصة من اولها الى آخرها حتى اتى على سبب مجيئهم اليه فقال وقد جئنا اليك لعظم ما قام في نفس مولانا الملك من الاهتمام في امر الانتقام فقلنا نطلع ناسك حوران على هذا السر لعلهُ يشير علينا مشورة تخفف ما بنا . او تهدينا سبيلاً مستقيماً

فقال الناسك لقد وقعتم على خبير وان في بقية قصتي ما يفرج عنكم كل كرب ان شاء الله

فاستبشر عبدالله وحماد وسلمان بانفراج الازمة وسرُّوا لقدومهم على هذا الناسك فقال عبد الله اخبرنا ببقية قصتك بورك فيك

قال كنت لفرط اهتمامي في امر الملك النعمان وامر وصيته وما تتضمنهُ من الحث على الانتقام لا ابرح افكر في هذا الامر نهارًا واحلم به ليلاً حتى استيقظت ذات صباح والناس يتحدثون بامر كسرى بروبز قاتل النعمان وان ابنهُ شيرويه تآمر عليه وسجنهُ فقلت في نفسي هذه عاقبة القوم الظالمين . ثم مالبثت ان سمعت بانهُ قتلهُ (١) فاعتبرت بحكمة الله سبحانهُ وتعالى وشعرت براحة فبتُّ ليلة ذلك الخبر واما هادس في عاقبة الظالمين وقول القائل « وانذر القاتل بالقتل » . فرأيت في منامي كأن الملك النعمان قادم اليَّ بلباس ناصع البياض ووجهٍ منير باسم فخدعتُ لرؤيته على هذه الصورة

(١) ابن الاثير

ثم سمعته يقول « لا تعجب يا يعقوب لمقتل برويز المجوسي فقد اعدّ له الله ما هو اعظم من ذلك ليعتبر القوم الظالمون »

فقلت وقد بهرني نور وجهه فاطرقت «وماذا عسى ان يكون اعظم من الموت قتلاً بسيف البنين »

فقال لي « سوف ترى وكل آت قريب » فرفعت نظري لاراه فغاب عن بصري واستيقظت من منامي مذعورًا ولم تمضِ بضع سنوات حتى وقع في سلالة برويز ما لم نسمع بمثلو في غابر الازمان . اتدرون ما هو

قال عبد الله وماذا تعني

قال كان لبرويز هذا ثمانية عشر ولدًا كلهم ذوو ادب وشجاعة ومروءة منهم شيرويه الذي تولى الملك بعده فوشى رجل اسمهُ فيروز لشيرويه على اخوتو السبعة عشر فامر بقتلهم جميعًا (١) فقتلوا صبرًا في ساحة الايوان وهو ينظر اليهم ولكن شيرويه لم يهدأ له بال بعد عملو هذا فان أخته بوران وآزرميدخت وبخناه توبيخًا شديدًا فبكى بكاء مرا ورمى بالتاج عن رأسو (٢) ولم يزل بقية ايامو مهمومًا مدنفًا ولاقى المصائب الكبرى وفي جملتها طاعون فشا في بلاده فاباد من قدر عليو من اهل بيتو (٣) واخيرًا مات هو كئيبًا حزينًا . فهل اشد وطأة من هذا الانتقام . وزارني ملاك النعمان بعد هذه الحوادث وهو يضحك وامارات البشر ظاهرة على وجهو فهممت بالوقوف للقائو فشعرت بنفسي ثقيلاً لا استطيع النهوض فاقتدرني هو قائلاً « اقد انتقم لي الله من برويز المجوسي فطابت نفسي وارى وصيتي لولدي حملاً ثقيلاً على عاتقي فقد شعرت بضعف بني الانسان وعلمت الاصابة في قولك وانا في سجن خانقين » قال ذلك وتوارى عن بصري وانا راقد لا استطيع حراكًا ثم استيقظت وصورة النعمان امام عيني ويكاد النور ينبثق من وجهو

فلما بلغ الناسك الى هذا الحد من حكايتو شعر كل من السامعين بانزعاج الازمة وخصوصًا حماد فانهُ احس بحمل ثقيل نزل عن ظهره

اما سلمان فكان الى ذلك الحين صامتًا لم يفه بكلمة فلما فرغ الناسك من كلامو وقف سلمان وهمّ بيد الناسك فقبلها وقال لقد انعمتنا فرجا من عند الله ولكن قلوبنا

(١) الطبري (٢) مالكولن (٣) الطبري

لا تشتغي الاّ بعمل نعملهُ على قهر اولئك الكفرة الغاشمين

فنظر الناسك اليهِ وتبسم تبسماً قليلاً تعوّده وقال تلك اعمال الله يا ولدي وسنسمع بذهاب دولة الفرس قريباً فلا يبقى ثم من تنتقمون منهُ

فلم يفهموا مغزى كلامهِ فقال عبدالله هل تعني شيئاً محدوداً أوحي اليك ما في سابق علم الله فانكم معشر النساك ذوو كرامة يفتح عليكم ما لا يفتح على سواكم

قال الناسك اشير الى امر لا يحتاج الى وحي او كرامة بل هو ظاهر يفهمهُ كل عاقل . الا ترى حال الفرس واختلال شؤونهم واضطراب احوالهم حتى توالى على كرسي ملكهم خمسة ملوك في خمس سنين [1] وكل يعمل على الاستئثار بالسلطة وابادة الآخرين واضعفهم رأياً يزدجرد الذي يتولى الملك الآن وستزول دولة الفرس على يدهِ ناهيك عن ظلمهم وجورهم . الا يدلكم ذلك على شيخوخة دولتهم وهرمها وقرب انقضاء اجلها وللدول آجال كآجال الناس تمرُّ في ادوار تنتهي بالموت ودولة الفرس قد بلغت شيخوختها ولا تلبث ان تنقضي وكذلك دولة الروم الحاكمة على هذه البلاد

قال عبد الله ولكن لا تنقضي الاّ على يد دولة اخرى تقوم مقامها فمن سيخلف هاتين الدولتين . قال اما سمعتم برؤيا الراهب بحيراء الذي كان يقيم في دبر هنا

قالوا « كلاّ » الاّ حماد فانهُ تذكر ما سمعهُ من الراهب الشيخ في تلك الليلة ومعهُ يوم جاءها للاقامة عند هناك . فقال بلى سمعت ذلك من الراهب الشيخ فقد احكى لي مرة ان بحيراء رأى في منامهِ فتى جميل المنظر مولده برج الثور والزهرة مع قران المشترى وزحل وعلم منهُ انهُ هو الذي سيهدي ابناء جلدتهِ بني اسماعيل ( وهم العرب ) الى معرفة الله وان بهِ يقوى امرهم ويشتد ازرهم وتجتمع كلمتهم فيذللون ابناء عمهم بني اسحاق وينسلطون عليهم مدة توافق ما اشار اليهِ دانيال في نبوتهِ وانهُ يخرج من اولئك العرب اثنا عشرة دولة [2] اليس ذلك ما تعنيهِ

قال الناسك هذا ما عنيتهُ وازيد عليهِ ان الرجل المنتظر قد ظهر في جزيرة العرب ودعا الناس فيها الى عبادة الله ونبذ الاوثان وقد فتح مكة وكسر اصنام الكعبة وانتشر سلطانهُ في الحجاز واليمن وسيفتح الشام والعراق وهو الذي سيخلف الفرس والروم في سلطانهما

(١) الطبري (٢) دائرة المعارف

فقال حماد لقد شاهدنا قوته وسلطانه باعيننا يوم فتح مكة وكان يوماً مشهوداً ويظهر من رغبته في سبيل الله واستهلاك انصاره واصحابه في نصرته ان دولته ستغلب الدول كلها ان عاجلاً وان آجلاً

قال فلستم اذن في ما يدعو الى تكبد الخطر في الانتقام من اكاسرة الفرس وقد رأيتم ان قاتل حبيبنا النعمان قُتل هو واولاده شرّ قتلة وسيتم العرب على دولتهم ان شاء الله

فوقع كلام الناسك على قلب حماد برداً وسلاماً فارتاح بالهُ من امر الانتقام المعجّل وانصرف فكرهُ الى هند وشعر بميل شديد الى رؤيتها وخاف ان تسيء الظن به اذا طال غيابهُ بعد يوم الشعانين وهم في اليوم الثاني منهُ فتظاهر بميلهِ الى الانصراف فادرك عبدالله ذلك فقال للناسك اتأذن لنا بالذهاب على ان نغتنم الفرص في زيارتك حيناً بعد حين وهل تطلب منا امراً نقضيهِ لك

قال لا اريد من هذا العالم شيئاً فقد رأيتم زهدي به ولم يكن في نفسي شيء غير رؤية ابن حبيبي النعمان لانصّ عليهِ ما اوتمنت عليهِ ما خاطبني بهِ والدهُ في الحلم فاحمد الله على نيل بغيتي فاذا متُّ الآن فاني اتوسد قرير العين ناعم البال

فقال عبدالله اطال الله بقاءك ونرجو ان نراك كثيراً. قال ذلك وبهض فنهضوا جميعاً وودعوا الناسك وانصرفوا على افراسهم وكأن على رؤوسهم الطير

اما حماد فان ذهنهُ تفرغ للافتكار بهند واحسّ برغبته في اطلاعها على حقيقة نسبهِ فلما وصلوا الى الدير مروا بغرفة الراهب الشيخ فدخلوها ليطلعوهُ على ما دار بينهم وبين الناسك فلما انبأوهُ بما علموهُ من امره اطرق يفكر بغرائب الحدثان ثم قال لقد خيل لي منذ رأيت هذا الناسك انهُ لم يغادر خصب العراق ويقيم في هذه الجبال المجدبة الاّ لدافع دفعهُ الى ذلك وقد صدق ظني ويسرُّني انهُ اطلعكم على ما خفف قلقكم وهوّن عليكم فما انتم في عجل للقيام بالوصية وقد كفاكم الله مؤونة ذلك اما ما قالهُ عن قوة المسلمين وعظم دولتهم حتى يخشى على الروم والفرس منها فقد ايدتهُ الحوادث الجارية فان تلك الشرذمة من الحجازيين لم يكادوا يقومون بدعوتهم حتى ملأوا جزيرة العرب فخاً وقتالاً فدانت لهم قبائل اليمن وعمان واليمامة ونجد وقد شهد

حماد وسلمان فتح مكة ورأيا بطش هؤلاء العرب وقوة جامعتهم ولقد شهد من رأى حربهم في مؤتة هنا انهم كافحوا كفاح الاسود وصبروا على الحرب صبر الرجال ولكنها اول مرة لاقوا بها جند الروم ولم يكونوا في عدة كافية فلم يفوزوا والظاهر ان وقعة مؤتة كانت امثولة لهم علمتهم كيف تؤكل الكتف حتى اذا رأوا في جندهم الكفاءة اعادوا الكرة ليس على الشام فقط بل على العراق ايضاً

فقال عبدالله وهل علمت انهم حملوا على العراق

قال نعم انهم حملوا عليهِ حملة اذا لم يكن فوزهم بها تاماً فلا اقل من ان يؤذوا الفرس و يضيقوا عليهم

فقال حماد وكيف عرفت ذلك يا مولاي

قال اخبرني بذلك تاجرٌ من اهل مكة تعودنا لقاءهُ هنا كل عام او عامين ولي معهُ صداقة ودالة فقد مرَّ بي من بضعة ايام واطلعني على حوادث تلك الدولة بعد فتح مكة حتى الساعة فاذا في ما يخيفنا على دولتي الروم والفرس وكنت اظنكم عالمين بها

قال عبدالله كلاَّ يا مولاي اننا غير عالمين بشيء من ذلك

قال الراهب اخبرني التاجر ان اولئك الحجازيين بعد ان فتحوا مكة عادوا الى المدينة وانفذوا جنداً منهم الى من بقي في جزيرة العرب لم يرضخ للاسلام فغزوا غزوات عدة فازوا بها كلها . ومن اكبر قوادهم رجل منهم يقال له خالد بن الوليد الذي بالمعجزات في حروبهِ حتى سماهُ النبي « سيف الله » ومنهم علي بن ابي طالب ابن عم النبي وهو بطل مجرب . وكذلك رجل شيخ من كبار مشيريهم اسمهُ عبدالله ابن ابي قحافة (١) لقبهُ بالصديق ويسمى ابا بكر وهو حمو النبي والد امرأتهِ عائشة . ومنهم رجل آخر يندر مثالهُ في العالم بدعة البطش وصدق الغيرة على الحق اسمهُ عمر بن الخطاب وآخر اسمهُ عمرو بن العاص وغير هؤلاء جماعة كبيرة فتمكن بذلك من اذلال قبائل العرب حتى انهُ لم يعد يحتاج في اذلالهم الى ارسال الرجال بل كانوا يفدون عليهِ وفوداً يلتمسون الدخول في دينهِ عن رضى وطيبة خاطر (٢) فرأى الوقت اللازم لفتح الشام قد آن فجند جيشاً بقيادة رجل اسمهُ اسامة بن زيد وامره

(١) مروج الذهب (٢) السيرة الحلبية

ان يسير الى فتح الشام وفيما هو في ذلك وافاه القدر فتوفي قبل مسير الجند ولكنه خلّف ابطالاً قاموا بنصرة دينه فتولى الخلافة بعده حموه ابو بكر المتقدم ذكرهُ وهو شيخ جليل القدر واخبر في التاجر ان المسلمين لما مات النبيء اختلفوا في من يتولى الخلافة بعده لانهم قسمان قسم يقال لهم الانصار وقسم يقال لهم المهاجرون

فقال حماد وما معنى هذه الاحزاب هل هي مذاهب دينية كالتي عندنا

قال لا يا ولدي ان المهاجرين هم الذين هاجروا مع النبي من مكة الى المدينة يومَ شدّد أهلهُ الكبر عليهِ هناك فتبعهُ من قريش اكثرهم غيرة عليهِ فسموا المهاجرين وأما الانصار فهم أهل المدينة الذين قاموا بنصرتهِ لما جاءهم مهاجرًا فحاربوا معهُ فسموا الانصار . فكل من الانصار والمهاجرين يظن نفسهُ اولى بالخلافة فاختلفوا في من يتولاها حتى كادت تقوم بينهم فتنة . ويظن صاحبنا التاجر المكي ان الفضل في فض هذا المشكل لأحد المهاجرين عمر بن الخطاب وقد ذكرتهُ لكم الآن فهو الذي توسط في الأمر وبايع أبا بكر فبايعهُ الناس احترامًا لهُ او خوفًا منهُ فصارت الخلافة في المهاجرين وهم من قبيلة النبي ( قريش ) فخليفة المسلمين الآن ابو بكر الصديق هذا (١)

فلما توفي النبي تغيرت قلوب بعض أهل جزيرة العرب ممن اعتنقوا الاسلام في حياتهِ فارتدّ كثيرون منهم الى ما كانوا عليهِ من النصرانية أو اليهودية أو غيرهما فتهيب المسلمون لذلك فاجتمعوا واوعزوا الى أبي بكر ان يعدل عن ارسال الجند الى الشام لاحيائهم اليهم في اقناع المرتدين فأبى الاّ انفاذ ما أمر بهِ النبي فارسل اسامة وجنده الى الشام . وما أحكاه لي التاجر المكي حكاية وقعت لابي بكر هذا يعتبرها كل من عاشر حكامنا من الرّوم أو الفرس

فقال عبدالله وما هي . قال الراهب أخبرني التاجر ان أبا بكر رافق ذلك الجند في خروجهم من المدينة وكان أسامة راكبًا وابو بكر ماشيًا فخجل اسامة من ذلك لأنهُ شابٌّ وذاك شيخ فضلاً عن كونهِ رئيسهُ فتقدم اليهِ ان يمشي هو ويركب ابو بكر فأبى الاّ ان يشيعهم ماشيًا ويدل ذلك على رغبة حكامهم في الخدمة لا الرئاسة وما أوصاهم بهِ قبل عودتهِ قولهُ « لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً او تحرقوهُ ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا

(١) تولى الخلافة سنة ١١ للهجرة

شاة ولا بقرة ولا بعيرًا » هل سمعتم مثل ذلك من رؤسائنا لا انكر عليكم ان النصرانية تأمرنا بمثل ذلك ولكن حكامنا نبذوا الدين نبذ النواة وشبعوا ذلك عليهم وبالاً . فقال الراهب ذلك وقد أخذت الحمة منه مأخذًا عظيماً حتى ارتجف صوته وارتعشت لحيته ثم سكت

وكان عبدالله وحماد وسلمان متطاولين باعناقهم يسمعون حديث الراهب وقد زادهم تأثرًا ما آنسوهُ من اهتمامه فقال عبدالله ان مثل هؤلاء لا بد من ان يغلبوا العالم و يفتحوا الامصار فعساهم ان يبدأوا بالعراق و ينقذونا من دولة الفرس الظالمة

فقال الراهب وقد تنسى الصعداء انك تتمنى أمرًا قد وقع فعلاً فان جيش اسامة هذا لم تطل غيبته لعلمه ان الخليفة احوج الى نصرته في قتال اهل الردة مما بفتح الشام فعاد بجنده وانضم الى المسلمين في حروب اهل الردة . ومما زاد الامر اشكالاً اناس ادعوا النبوة منهم رجل اسمه اسود العنسي في اليمن فالتف حوله حزب كبير و رجل آخر اسمه طليحة الاسدي من بني اسد في نجد وآخر اسمه مسيلمة في اليمامة وآخر اسمه ذو التاج لقيط بن مالك [1] وغيرهم من المتنبئين ودعاة الاحكام حتى لم تبق قبيلة من قبائل اليمن وحضرموت وعمان والبحرين واليمامة ومهرة الاّ نبذت طاعة المسلمين وارتدوا عن الاسلام فخاف المسلمون الفشل ولكن ابا بكر تصرف بحكمة ودراية وساعده في ذلك قواده المحنكون وخصوصاً خالد ابن الوليد فانهُ عمل أعمالاً غريبة وكذلك عمرو بن العاص وغيرهما فقضوا في سنة كاملة حتى دانت الكثير من قبائل العرب واجتمعت كلمتهم واستقام امرهم

فقال حماد يا حبذا لو يسير خالد الذي ذكرتهُ الى العراق

فضحك الراهب ضحكة يتخللها عبوس وقال لقد اصبت يا ولدي فانهُ عمل ما اردتهُ فسار خالد هذا الى العراق لفتح الحيرة وقتال الفرس [2]

فهبَّ سلمان للحال وقال لحماد ألا يأذن لي مولاي بالمسير الى الحيرة التي لا يهدأ لي بال ان لم أُسل يدي بدم الفرس فلعلي ان اشهد بعض المواقع أو اخدم المسلمين خدمة تساعدهم في انقاذنا من اولئك القوم المجوس

فقال حماد اني اولى منك بذلك ولقد كنت عازمًا على التماسهِ لو لم تلتمسهُ انت

---

(١) ابن الاثير (٢) ارسلهُ في اول السنة الثانية عشرة للهجرة (ابو الفداء)

قال سلمان أما انت فقد طال غيابك عن امير غسان وامبرتو فسر اليهما وعساي ان اعود اليكم قريبًا بخبر النصر

فانتبه حماد لامره مع هند فاغتنم وجوده عند الراهب فرصة لاستفتائه بامر الاقتران بعد حكاية الوصية وكيفية استقبي فخاطب عبدالله على انفراد قائلاً أتظن انه يجوز لنا المخاطبة بأمر الزيجة أم نحن لا نزال مقيدين بالوصية

قال عبدالله دعني اسأل الراهب وآخذ رأيه فما يشير به نفعله . وتحوّل نحو الراهب فسأله فقال الراهب يظهر من خطاب الناسك لكم انه يحبكم من ذلك القيد وفي العدول عن الانتقام فضيلة مسيحية كما تعلمون لان ديانتنا توصينا بمحبة عدونا ومباركة لاعيننا وتحظر علينا الانتقام

فسرّ حماد لهذه الفتوى وسكت حتى اذا خرجوا من عند الراهب انفرد بعبدالله وقال له ألا ترى ان نذهب غدًا الى البلقاء نقابل جبلة وانت معي فقد فرغنا من حكاية النذر وآن لكما الاجتماع وخصوصًا بعد ان ظهر ما ظهر من رفيع نسبنا

فقال عبدالله ارى يا مولاي ان تبقي امر نسبك مكتومًا كما كان لنرى ماذا يجد من حوادث الزمان

فاجفل حماد وقال ولماذا نكتمه وهو شرف يتسابق اليه الناس وخصوصًا انهم اعترضوا على زواجي بهند لغموض نسبي فهل ابقيه غامضًا

ففكر عبدالله هنيهة ثم قال وارى مع ذلك ان لا تذكره وعلى كل حال فالامر راجع اليك

فسكت حماد وكانا قد وصلا باب الغرفة وسلمان يتبعهما وقد ادرك انهما يتكلمان بشأن هند فتقهقر قليلاً فلما وصلا الغرفة التفت حماد ونادى سلمان فاسرع وهو يقول اتقدم اليك يا مولاي ان تأذن لي بالذهاب الى الحيرة غدًا صباحًا وان يكن يعز عليّ ان لا اشهد الاحتفال باقترانك ولكنني لا البث ان اعود اليكم بما يسرّكم ان شاء الله وارجو ان تذكروني في حفلة الزواج وانا اذكركم في ساحة الحرب

فقال عبدالله لحماد دعهُ يذهب يا سيدي لعلهُ يأتينا بخبر فقد انتهينا من المعاكل والاسرار ولا نظننا نحتاج اليه في شيء وقد تقرّر لك الاقتران بهند ورضي والدها ووفينا النذر فليذهب

فقال حماد اذهب يا سلمان بحراسة الله ولا تقطع عنا اخبارك

فقضى سلمان ليلته تلك يستعد للمسير الى العراق وفي الصباح ودّع حمادًا وعبد الله وبكى لوداعهما وسار الى الناسك يلتمس بركته ودعاءه قبل المسير

فلما خلا حماد بعبدالله قال له دعنا نسير الى جبلة أو هيّا بنا الى صرح الغدير أم هناك سرٌّ يمنع ذهابنا وافترانا ألم يأن لنا ان نخلص من العرافيل

قال لقد آن الوقت وعلم سيدي اني لم أؤخر اقترانه عبثًا ألم يكن في السرّ ما يدعو الى ذلك

قال بلى وابى لا انسى جميلاً صنعته معي يا عبدالله ولكني اعترف لك اعترافًا صريحًا بان اطلاعي على نسبي قد قلل اسباب سعادتي واحسبني كنت اسعد حالاً يوم كنت حماد بن الامير عبدالله اما وأنا المنذر بن النعمان فاراني تعيسًا يتيمًا مظلومًا

قال عبدالله كنت اتوقع ذلك منك ولكني لم أرَ بدًّا من ان اقص عليك خبرًا عُهد بو الىّ امانة مقدّسة

قال لم اقل انك اخطأت باطلاعي على حقيقة نسبي فقد فعلت الواجب على انني لما تصوّر هندًا ومعيشتي معها اسلو الدنيا ومتاعبها

قال عبد الله وزد على ذلك انك ستكون عمّاً قليل ملك غسّان والغساسنة لا يقلّون سطوة وبطشًا عن ملوك الحيرة فضلاً عن خلافتهم بالرُّوم وهي دولة مسيحية وذلك خيرٌ من علاقة احدادك المناذرة بالفرس والفرس مجوس يعبدون النار كما تعلم

فانبسط وجه حماد لذلك فقال اذهب معًا الى صرح الغدير . قال لو علمت ان جبلة هناك لذهبت معك لان من اللياقة ان ألاقيه فمتى تعارفا جاز لي الذهاب الى الصرح . فقال اذن اذهب انا فالتمس لك موعدًا تجتمع فيه بجبلة وتتم الاقتران

قال حسنًا تفعل فاخذ حماد يعدّ جواده للركوب

## الفصل الحادي والسبعون

### البُرد والخاتم

أما هند فلم يأت يوم الثمانين حتى ملّت الانتظار وكانت تتوقع ان ترى

حمادًا في مساء ذلك اليوم او في صباح الغد فمضى اليوم والغد وفي نحو الساعات والدقائق ونحسب لتأخره غير حساب فلما كان اليوم الثالث أفاقت من رقادها قليلة البال فنهضت وسارت الى غرفة والدتها والتمست منها ان ترافقها الى دير بحيراء او تأذن لها بالذهاب اليه وحدها

فقالت سعدى لا أرى ان تفعلي ولا ان تفعلي فلو رأى حماد المجيء الينا لجاء فربما كان في سر والده ما يمنعه من المجيء

قالت ما تعنين يا أماه

قالت لا اعني شيئًا ولكنني لم استجبني أمر والده هذا فكم تدلّل وتعزّز فقد صاهرنا وله على غموض نسبه واكرمناه والتمسنا لقياه فلم يأتنا وها قد انقضى موعده من يوم الثمانين فلا أظن الاّ في الامر دخيلة

فانقبضت نفس هند عند ذلك وقالت لا تلومي الغائب قبل حضوره فربما منعه عن زيارتنا مرض او شاغل ذو بال واما ما اشرت اليه من تدلل والده او كبريائه فلا أظنه في محله وليس ثمّ ما يسوغ له ذلك

وسكتتا هنيهة مطرقتين ثم قالت سعدى نعم يجب علينا ان نبحث عنه وعن سبب غيابه فلننتظر هذا اليوم ايضًا فاذا لم يأت انفذنا اليه رسولاً

فخرجت هند وهي هاجسة في امر حماد فلبست ثوبها وخرجت الى الحديقة تتسلى نفسها بازهار الربيع وعيناها شائعتان من بين الاشجار وقد هب عليها النسيم فتعاظم حفيف الاوراق وعلت اصوات الطيور مغردة وهند تود انقطاع النسيم وخرس الاطيار مخافة ان تحول تلك الضوضاء بينها وبين وقع اقدام حماد اذا جاءها ماشيًا بين الاشجار او نخني صوت جواده اذا صهل عند استقبال الصرح . وفيما هي جالسة على حجر هناك تفكر في ذلك وتحدق بعينها وتصيخ بسمعها وقد صارت الشمس في الهاجرة رأت فارسًا قادمًا عن بعد عرفته من جواده وظاهر لباسه انه حماد فهرولت الى والدتها وانبأتها بقدومه فدخلتا الى قاعة الجلوس حتى جاءها مخبر بقدومه فخرجت سعدى للقائه ورحبت به فقبل يدها ودخلا الصرح وكانت هند عند الباب فسلم عليها ودخلوا جميعًا الى قاعة الجلوس وقد آنست هند في وجه حماد تغييرًا بعد قص الشعر ولكنها عجبت لمجيئه وحده وارادت الاستفهام عن السبب فمنعها الحياء على ان والدتها

ابتدرته بالسؤال عن والده

فقال انه كان عازمًا على المجيء معي ولكنه رأى من اللياقة ان يقابل ملك غسان قبلاً ولو كان سيدي العم هنا لانتدبنا الى والدي فيحضر حالاً

فقالت جعل الله نذركم مقبولاً هل قصصت شعرك يا ولدي

قال نعم . قالت وهل سمعت الحكاية . قال نعم سمعتها . وحدثته نفسه ان يبوح بها فتذكر تحذير عبدالله فامسك ولكنه رأى سكوته عنها بالمرة تحقيرًا للسائل

اما سعدى فلم تزد على هذا السؤال تأدبًا فلما لم يجبها غيرت الحديث وسألته اذا كان يسرّه الخروج الى الحديقة وهو يود ذلك لعلمه انه قد يخلو هناك بهند فيهنآنهما او يتغازلان

فخرجوا من باب خصوصي صغير وتخلفت سعدى في القصر توصي قيمة القصر باعداد مائدة الغداء

فمشى حماد وهند في طرقات الحديقة حتى انحدرا الى ضفة الغدير وماؤه يجري على حصباء تتلألا تحتها كانها الدرّ وقد فاحت روائح الازهار وغابت عليها رائحة زهر اللوز وزهر البرتقال وعلت ضوضاء الاطيار وحفيف الاشجار ولو كان لنا فونوغراف اديسن او اشعة رونتجن لرأينا قلبي هذين المحبين يتناجيان و يتفاهمان

اما هند فما صدقت انها خلت بحماد حتى نظرت اليه شذرًا وهي تبتسم وعيناها مشرقتان تتلألآن وقالت ما الذي دعاك الى التعجيل في زيارتنا اما كان الأدلّ على شوقك ان تبقي زيارتك الى عيد الفصح !

فادرك مرادها فاحب ان يعبث بها فقال تركنا يوم الفصح لمقابلة والدك بشأن الاكليل ام تربن تأجيل ذلك الى الأحد الجديد

فخجلت واطرقت وقد تورد وجنتاها فازداد اشراق وجهها وقالت لو عرفت انك تجيبني بمثل ذلك ما اقدمت على سؤالك

قال وقد أعجبه خجلها وازداد هيامه بها لم اكن اظن ذكر الاقتران يسوءك ونحن انما نسعى جهدنا في الحصول عليه . قال ذلك ونظر اليها كانه ينتظر جوابها . اما هي فحولت وجهها عنه وخطرت نحو شجرة من البرتقال تقطف زهرة تلاهي بشمها عن سماع كلامه

فتبعها حماد وهو يقول ما بالك تمر بي يا هند فاذا كنت تريد بي الخلاص من قرابتي قولي لي كما قال غيرك ان نسبي غامض فلا استحق بنت ملك غسان

فلم تجبه ولا على هذا وقد كان يتوقع ان يجرّها الحديث الى حكاية السر ليخبرها بحقيقة نسبه و يرى ما يبدو منها وخاف ان تأتي والدتها فينقطع الحديث فدار نحوها حتى قابلها وجهًا لوجه وامسك يدها فاحس كلاهما بقشعريرة الحب فقال حماد لم تسأليني عن حكاية السر ما هي

فقالت له ( وهي ممسكة يده تنظر اليها ) يظهر ان حكاية السر عزيزة لديك لا تستحق سماعها

فادرك انها توبخه لسكوته عن سؤال والدتها فقال لا يعز عنكم شيء يا حبيبتي . قال ذلك ومد يده الى جيبه فاستخرج خاتمًا دفعه اليها وقال هذا هو سرنا فانظري اليه

فتناولت الخاتم وتأملته فاذا هو مكتوب بحرف لا تعرفه فقالت انه لا يزال سرًّا اذ لا استطيع قراءته . فقال انا اقرأه لكِ ثم قرأ « النعمان ابن المنذر »

فلم تفهم المراد فقالت وما معنى ذلك

قال معناه ان نسبي الذي كان غامضًا عنك وعني كان مختبئًا في هذا الخاتم

فانعمت فكرها في مغزى كلامه فادركت انه ينتسب الى النعمان ولكنها استبعدت ذلك فقالت اتملك تنتسب الى الملك النعمان

قال « بل هو ابي » . وجعل ينظر الى ما يبدو منها فرآها قد استغربت قوله ولا تزال في حال البغتة ولكن الاعجاب والسرور ظهرا على وجهها معًا على ان الانفة والرزانة منعتاها من اظهار البغتة فقالت ومن انبأك بهذا النسب وكيف خفي عنك الى الآن

قال لذلك حديث طويل سأقصه عليك في غير هذا المكان واذا كان الخاتم لا يكفيك فانظري الى هذا الرداء وكشف عباءته عن بُرد النعمان وكان تحت ابوابه فنظرت اليه فلما تحققت نسبه عظم في عينيها ولكن الاستغراب غلب عليها وهي تحدث نفسها في حلم

ثم سمعا وقع اقدام من ناحية القصر فنظرا واذا بوالدتها قادمة فاسرع حماد الى الخاتم

فخبأهُ وطلب الى هند كتمان الحديث الآن . اما هي فرغماً عن رزانتها وتعقلها ودّت ان تطلع والدتها على ذلك الخبر

اما سعدى فانها جاءت مسرعة وفي وجهها خبر

فنظرا اليها وهما يتوقعان خبرًا فقالت لقد اطلت الغياب عليكما لاشتغالي برسول قدم من عند الملك جبلة ومعهُ هذا الكتاب ودفعت الكتاب الى هند ففضتهُ فاذا هو من والدها يقول فيهِ « هل عرفتم شيئًا عن ولدنا حماد وهل وفى نذرهُ فاني احب ان اراه قبل سفري الى الامبراطور فقد انفذ اليَّ رسلهُ بالذهاب اليهِ لمهمة سأقصها عليكم عند الاجتماع »

فقالت سعدى اكتبي اليهِ انهُ جاء وقد وفى النذر

فقال حماد ارى ان اسير الى والدي واجيء بهِ ليتشرَّف بمعرفة الملك جبلة ايضاً

قالت حسنًا تفعل فعادوا الى القصر وكتبوا الى جبلة بذلك على ان يكون مجيئهُ في الغد

وكانت المائدة قد أُعدَّت فتناولوا الطعام وركب حماد الى دير مجيراء

## الفصل الثاني والسبعون

### ﴿ كلُّ سرٍّ جاوز الاثنين شاع ﴾

واما هند فما زالت تفكر بما سمعتهُ من حماد عن نسبهِ وادركت والدتها فيها تغيرًا ظاهرًا على وجهها يدلُّ على شيء في نفسها تكتمهُ فلما كان المساء ذهبت هند الى فراشها فجاءتها سعدى واخذت تجاذبها اطراف الحديث حتى باحت لها بالسر فلم تكن سعدى اقل استغرابًا من هند وحسَّنت لها ان تطلعا والدها على ذلك

فلما جاء جبلة في ضحى الغد انبأتهُ بالخبر وكانت تتوقع منهُ ارتياحًا واستحسانًا ولكنها رأت انقباضًا فندمت هند على تصريحها بالسرّ وخافت ان يترتب على ذلك ما يسوءها وكان خوفها في محلهِ. لان جبلة ما لبث منذ سمع ذلك الخبر منقبض النفس طارقًا في بحار التامل لعلمهِ ان حمادًا اذا تزوج هندًا سيكون وريثهُ في الملك اذ

ليس له ذكور برثونه فاذا كان حماد من عامة الناس بقي الملك باسم الغساسنة ولكنه رأى بعد ما علمه من انتسابه الى المناذرة ان الملك سيخرج به من الغساسنة الى المناذرة فيكون قد سعى الى زوال ملكه فارتبك في امره فلم يعد يعلم ماذا يعمل وود لو انه زوج هندًا لتعلبة ابقاء للحكم في عائلته ولكنه كتم ذلك كله وتظاهر باستغراب ما سمعه

اما هند فكانت تراعي والدها وتراقب حركاته وتنتظر ما يبدو منه وقد انقبضت نفسها واسفت اسفًا شديدًا لما فرط منها

وفيما هم في ذلك سمعوا قرقعة اللجم وصهيل الخيل عند باب الحديقة فاطلعوا واذا بحماد وفارس آخر عرفوا انه والده فخرجوا لاستقبالهما فلما وقع نظر حماد على جبلة همّ بتقبيل يده فمنعه وتعانقا وتقدم عبدالله الى جبلة فصافحه وتعارفا ودخلوا جميعًا الى قاعة الجلوس واخذوا في الاحاديث المتنوعة الاّ حديث النذر فانه لم يدر بينهم ابدًا

فقالت سعدى لجبلة قلت لنا في كتابك ان الامبراطور هرقل انفذ يدعوك اليه فما الذي دعاه الى ذلك

قال دعاه اليه اضطراب في جو السياسة اوجب اهتمامه في التأهب للحرب عاجلاً فبعث الجميع واستعاذ حماد بالله وخاف ان يحول ذلك بينه و بين هند الى اجل بعيد فقال

وما هو ذلك الاضطراب يا عمّاه

قال لقد انبأنا الجواسيس ان الحجاز بين الذين جاؤا منذ بضع سنين على ما تعلم وعادوا عن مؤتة خاسرين قد استفحل امرهم واتسع سلطانهم وتوفي نبيهم وخلفه بعض اصحابه فجدّد جندًا كبيرًا انفذه لقتالنا ولا يلبث ان يصل الينا قريبًا فبعثتُ الى هرقل بذلك فارسل يستقدمني اليه في حمص [1] للمخابرة بشان التجنيد وقد قيل لنا ان حملتهم هذه المرة ستكون اصعب مراسًا من الماضية وقد جاؤا فرقًا يقودهم اعاظم القواد

فقال عبدالله سمعنا انفاذ ذلك الجند الى العراق لحرب الفرس وليس للشام

قال ذلك جندٌ آخر بعثوه الى العراق في العام الغابر اما الآن فانهم عاملون

(١) ابن الاثير

على التجنيد البنا

فقال حماد هل يرى سيدي العم ان غيبتنا ستطول هناك

قال لا ادري مقدار طولها ولكنني اظنها طويلة

قال نسير اذًا في خدمتك

قال لا ارى حاجة الى ذلك والاولى ان تبقيا في بصرى ريثما اعود او ابعث اليكما . اما سعدى وهند وسائر اهل هذا القصر فيصبرون معي خوفًا عليهم من غائلة العدو وهم في هذا الخلاء

فلما سمعت هند ذلك خفق قلبها وكادت الدموع تتناثر من عينيها وقد ادركت ان والدها يضمر السوء لحماد

اما حماد فلم يكن اقلّ وجلاً وهو لا يعلم ما في نفس عمه وظنه لم يعلم بحقيقة نسبه ولا حدث ما يوجب نفوره ولكنه استعظم فراق هند بعد ان كاد يظفر بها على اثر ما قاساه من المشقة والبلاء في سبيلها

اما عبدالله فادرك ان في الامر شيئًا جديدًا اوجب هذا التباعد ولولا ذلك لم يكن ثمت ما يمنع مسيرهم معه حيثما سار فخامره شك في كتمان حماد فنظر اليه بطرف خفي ففهم حماد مراده فانتبه انه اخطأ باطلاع هند على ذلك السر

وشاركتهم في ذلك الاحساس سعدى لانها اعلم الناس باخلاق زوجها فقالت له ألا ترى ان نسير جميعًا معًا وما الفائدة من بقاء حماد هنا

قال بل ارى بقاءه هنا وساخبرك عما يمنع ذهابه معنا . قال ذلك وفي كلامه غنة الجفاء فسكتت وسكت الجميع

ثم آن الغداء فتغدوا والسكوت سائد عليهم جميعًا فلما نهضوا امر جبلة ان تعد الركائب لمسير زوجته وابنته معه في ذلك اليوم فشق ذلك على عبدالله ونفر من جبلة لما اتفق له معه في المقابلة الاولى . وعوّل على تحويل عزم حماد عن هند كانه لم يدر ما في قلبه من لواعج الغرام وقد فاته ان الحب يتعاظم بنسبة ما يعترضه من العقبات

فاستشار عبدالله حمادًا في الانصراف فاجابه اليه رغمًا عنه ووقفا فتقدم حماد الى عمه وودعه وهو يكاد يشرق بدموعه وودعه عبدالله . وسار حماد الى سعدى وهند

يودعها وكانتا قد خلتا وهند تبكي وتنتحب ووالدتها تخفف عنها وتلتمس الاعذار لما ظهر من جفاء والدها فلما سمعت وقع اقدام حماد خرجت هي فودعته واعتذرت عن هند انها تشكو من صداع الم بها حتى ابكاها

فادرك حماد انها شعرت بمثل شعوره وترجح لديه انها باحت بالسر ولم يلم الا نفسه لانه لم يوصها بكتمانه . فقال والدمع يملأ في عينيه دعيني ارى هندًا قبل ذهابي وان تكن باكية . وكانت هند قد استعدت للقائه فمسحت دموعها وحاولت اخفاء ما بها وخرجت الى حماد وهي تتجلد ومدت يدها وتجلد هو ايضًا فودعها مبتسماً وتحت ابتسامه غيظ يكاد يبينه ثم ودع سعدى وخرج فلقي عبدالله في الحديقة ينتظر قدومه فركبا وحماد يلتفت وراءه يودع القصر واهله وهو غارق في لجج الهواجس فسارا مدة صامتين لا ينوه احدهما بكلمة وكل منهما يفكر في امر وحماد يراجع في ذهنه حوادث ذينك اليومين و يغرق ندمًا لما باح به من امر نفسه وشعر بخطائه نحو عبدالله لانه لم يطلعه في كتمانه فظل صامتًا يتردد بين الخجل والخجل

اما عبدالله فلم يبق عنده شك بتغير جبلة وفساد ما بنوه وضياع ما املوه ولكنه لم يذكر ذلك لحماد رفقًا بعواطفه وعول على ان يثنيه عن عزمه فيما بعد

## الفصل الثالث والسبعون

### ان الله مع الصابرين

فلما دنوا من الدير قال عبدالله أترى يا سيدي ان نقيم في الدير او نذهب الى بصرى

قال لك الامر ولكني ارى بصرى افضل لنا بعد ما سمعناه من حملة العرب الحجاز بين

قال الامر اليك وعرجوا نحو الدير باتوا فيه تلك الليلة على اهبة الانتقال الى بصرى ولم ينم حماد الا قليلاً لكثرة ما تراكم عليه من الهواجس

فلما اصبحوا اخذوا يستعدون للركوب فذهب عبدالله لوداع الراهب وظل

حماد وحده يشتغل في بعض المهام وكان الوقت ضحى وفيما هو ينظر الى خارج الغرفة رأى امرأة تنظر اليه فعرفها انها الجارية التي رافقت هندًا الى الصومعة يوم التقى بها المرة الاولى هناك فبغت لرؤيتها وهرول اليها

فقالت له اتعرف بائع الحلي

فقال نعم وصلت

فدفعت اليه منديلاً كان في يدها وتحولت راجعة

فقلب المنديل بين يديه فاذا هو رسالة قد كتب فيها « لا يضعف عزمك ما رأيته البارحة من والدي واصبر ان الله مع الصابرين » فعلم انها رسالة من هند فابرقت اسرته وانبرجت كربته وطوى المنديل وخبأه ولكنه ود لو يعلم اين هي فيسير اليها يقيم بقربها ينتسم اخبارها فتذكر ان والدها سائر الى حمص لمقابلة هرقل ففال في نفسه لا اظنه يحمل اهله معه الى هناك فربما خلفهم في البلقاء. وكان يفكر في ذلك وهو يتظاهر بالاستعداد للسير فجاء عبدالله فركبا وسارا الى بصرى واما في منزل بقرب السور عال مشرف. فتذكر عبدالله يوم ثعلبة وموقفه امام رومانوس ( روماس ) حاكم بصرى وما كان من امر الخاتم ولكن ثعلبة ضعف امره وخرج من بصرى فاقام في بعض القبائل الغسانية. ورومانوس ما زال حاكمًا هناك. وكان حماد قلقًا على هند لا يهدأ له بال ومما زاد الحالة ثقلاً عليه لومة نفسه لأباحتهِ بنسبه وقد عرف قيمة نصائح عبدالله وتحقق ان الاختبار والمعاشرة تكسب المرء علمًا وحكمًا لا يدركها مجرد الذكاء الطبيعي ومال بكليته الى استشارة عبدالله في ذهابه الى البلقاء وشعر بحاجته الى سلمان لانه كان له بمثابة عن تجشم تلك المشاق بنفسه ثم احفل بغدة وخاف اذا استشار عبدالله ان يشير عليه بترك هند وهو لا يستطيع ذلك ولا تسهل عليه مقاومته بعد ان اختبر صدق نصائحه فسكت وسلم الامر لله

اما عبدالله فكان يتجاهل عن كل ما يظهر على حماد من القلق ويدعوه حينًا بعد آخر الى الخروج للصيد كما كانا يفعلان اول مجيئهما تلك الديار وكان حماد يسير معه لعله يشغل في البرية فيقف على قادم او غادٍ فيطلع منه على خبر هند او والدها ولم يكن عبدالله يفاتحه في خبرها الا عرضًا في اثناء كلامه عن قوات الروم ونحو ذلك فاذا آنس من الحديث اقترابًا من الموضوع تباعد عنه وهو يتوقع ان يفتر ميل حماد من

تلقاء نفسه وكان حماد اكثر رغبة عن الخوض في ذلك الموضوع لئلاَّ يسمع نهياً او نصحاً يبعده عن هند

فقضيا اشهرًا على تلك الحال وهم لا يسمعون الاَّ باستعداد الروم لدفع المسلمين وان جند المسلمين وصلوا ضواحي الشام واقام بعضهم في اليرموك وكان حماد كلما سمع خبرًا من هذا القبيل ازداد قلقًا حتى لم يعد يصبر على البقاء في بصرى ومال الى الخروج منها الى البلقاء لعلهُ يعرف شيئًا عن هند وعبدالله بشاغلة تارة بالصيد وطورًا بزيارة رومانوس صاحب بصرى وكان رومانوس قد عرف منزلة عبدالله على اثر ما كان بينهما من امر تسيير عبدالله الى هرقل وما لاقاه من العنوهناك . فكان يجتمع برومانوس وحماد معهُ ويخرج احيانًا الى الرَّاهب فيزوره ويدعوهُ الى زيارته اما الناسك فسارا اليهِ مرة فلم يجداه

## الفصل الرابع والسبعون

### حصون بصرى

ففيما هما ذات يوم في ضواحي بصرى يطلبون الصيد قال حماد ارى الصيد قليلاً في هذه النواحي لوعرتها وقلة المرعى فيها الا ترى ان نسير الى البلقاء لعلنا نعثر على صيد كثير

قال عبدالله ان الصيد يكثر احيانًا ويقلُّ احيانًا اما اذا شئت الذهاب الى البلقاء فالامر اليك

قال أرى في الانتقال خيرًا

وفيما هما يتحادثان رأيا سربًا من الغزلان قادمًا من عرض البر لم يريا مثلهُ قبلاً فبغتا فقال حماد ما هذه الغزلان اني اراها تطلبنا وذلك لم يتفق لي منذ طلبت الصيد

فقال عبدالله ان مثل هذه الكثرة تدل على امر خطير

قال وماذا عسى ان يكون ذلك

قال لا يجتمع هذا العدد منها ويسير في وجهة واحدة الاَّ فرارًا من جند قادم فلعل جندًا من العرب قادم الى بصرى . قال ذلك وصعدا الى ربوة اشرفا منها على سهول بعيدة فرأيا غبارًا يتصاعد عن بعد فقال عبدالله لقد صدق ظني

فقال حماد اظنها جنود المسلمين قادمة لحصار بصرى فيالينتنا خرجنا منها قبل الآن

قال عبدالله اذا لم يكن لنا بدّ من المجاء في هذه الديار خوفًا من المسلمين فان بصرى احسن المدن وامنع الحصون واسهلها يدل عليها فان لفظها في الكلدانية معناهُ الحصن المنيع (١) الم ترَ سورها من الحجر الصلد الذي لا تقطعهُ المعاول ولا تهدمهُ المجانيق (٢) وقد رأيت ابوابها فان منها يخرج اثنا عشر الف فارس دفعة واحدة عند الاقتضاء فالمسلمون اذا فتحوا بصرى هان عليهم فتح سواها فنربصنا داخل اسوارها خير لنا من الخروج الى البلقاء او غيرها وزد على ذلك ان اهل بصرى اشداء وهم اكثر الناس حرصًا على دينهم واشدهم دفاعًا عن مدينتهم فانها اعظم مراكز التجارة بين الشرق والغرب لتوسطها بين الحجاز والعراق والشام ومصر (٣)

فبغت حماد وعظم عليهِ الامر وعلم ان امرهند لا بد من تأجيلهِ ان طوعًا وان كرهًا وهب انهُ عزم الى البلقاء او دمشق فان جبلة وقبائل غسان وجنود الروم اصبحوا في شاغل يشغلهم عن كل شيء ولكنهُ اراد ان يتحقق قوّة جند الروم ليرى قدرتهم على الدفاع فقال وهو يدبر رأس جواده نحو بصرى وعبدالله يتبعهُ وما هي قوات الروم في الشام وكم مدينة مثل بصرى عندهم

قال عبدالله اعلم ياسيدي ان ولاية سوريا او هي ولاية الشام تنقسم الى ١٥ قسماً احدها بصرى (٤) وقوّات الروم كبيرة وعددهم كثيرة ولكنهم شغلوا عن دينهم بدنياهم واستولى عليهم الانقسام . ومازالوا في هذا الحديث حتى وصلوا المدينة فرأوا اهلها في هرج والجند في حركة يستعدون للدفاع فدخلوا الاسواق فرأوا الناس مجتمعين ملتي وثلاث ورباع يتساءلون عن الجند القادم وامارات الاستخفاف ظاهرة على وجوههم

فقال عبدالله هلمّ بنا الى منزلنا فانهُ عالٍ يشرف على الاسوار وما وراءها

فسارا وقال حماد ما قولك برومانوس حاكم بصرى هل هو خائف ام مستخف

فقال عبدالله لا اظنهُ خائفًا وعندهُ مثل هذه الحصون وهذه القلاع فضلاً عن العدة والرجال ولكني اظن الولاية ستخرج من يدهِ الى والٍ آخر جاء منذ ايام اسمهُ تراجان ( دبرجان ) وهو بطل محنك وقد سمعت الناس يتحدثون بنفوذ بينهما وليس هذا وقت التنافر

(١) قاموس فورست (٢) مريل (٣) جبنس جزء ٢ (٤) جبنس جزء ٢

# الفصل الخامس والسبعون

## رومانوس وتراجان

وما زالا بالحديث حتى وصلا المنزل فاطلا من بعض نوافذه فاذا بالغبار قد بان عن جند كثيف تتقدمهُ الاعلام والفرسان

ولم يكد يظهر جند العرب حتى تسابق الناس الى الاسوار ينظرون اليهم وهم يهرا ون بهم و بالسنتهم وسداجة معداتهم و بعد قليل جاء رومانوس فوقف في بعض الابراج ونظر الى جند العرب وقال لمن حولهُ من الضباط لا نرى ان نقفل ابواب بصرى امام هذا الجند الضعيف ولكنا نخرج اليهم فنحاربهم في هذا السهل ونردهم على اعقابهم . وامر بالجند ان يعسكروا خارج الاسوار مقابل معسكر العرب (١)

فلما رأى عبدالله هذا التهور خاف العاقبة لما يعلمهُ من بطش العرب وصبرهم على القتال وكانت لهُ على رومانوس دالة كما تقدم فلما علم بعزمهِ على الخروج بالجند حدثتهُ نفسه ان ينصح لهُ ان لا يفعل فسار اليهِ وحماد معهُ وقد علم انهُ توجه الى دار حكومتهِ فلما وصل الدار رآها غاصة بالجماهير من رجال الحكومة وغيرهم راضون عن رأي رومانوس ولكنهُ لم يرَ تراجان بينهم فلما رأى اجماعهم على ذلك علم انهم لن يصغوا الى كلامهِ فرأى ان يخاطب تراجان بالامر فسال عنهُ فقيل انهُ انهُ في منزلهِ فسار اليهِ وكان قد عرفهُ واجتمع بهِ مرارًا فاستأذن بالدخول عليهِ فاذن لهما فدخلا فاذا بتراجان مقطب الوجه فلما دخل عبدالله رحب بهِ تراجان وكان يعرف العربية فجلس وجلس حماد الى جانبهِ

فقال تراجان هل تعرفون هؤلاء الحجازيين

قال عبدالله اننا عرفناهم وحضرنا حروبهم غير مرة

فقال وكيف رأيتموهم

قال رأيناهم اشداء صبورين لا يعبأون بالعدة ولا بالكثرة

(١) الواقدي

قال ألا ترون الخروج اليهم خطأ

قال عبدالله بلى يا مولاي وهذا ما جئنا به اليك فكيف نخرجون اليهم فتعرضون جندكم لمبالهم وسيوفهم وقد كان لكم غنى عن ذلك بهذه الحصون المنيعة

فتنهد تراجان وقال هكذا اراد رومانوس ولقد نصحت له فلم ينتصح وكاني به يلقي بجند الروم الى التهلكة

فقال عبدالله اليس من سبيل الى اقناعه

قال كلا لانه عنيد معتد بنفسه وسيكون فشله عظيماً واذا فشل فانما يكون دمه على رأسه قال ذلك وهو يلاعب صليباً من الذهب معلقاً بسلسلة في عنقه

فآنس عبدالله في كلام تراجان لهجة الشماتة فسكت وودعه وخرج وحماد معه فلما خرجا قال حماد ما ترى من امر هؤلاء اني اخاف ان تعود العائثة على هذه المدينة فيصيبنا مما يصيب اهلها

قال وما العمل يا سيدي اتخرج الى المسلمين

قال حماد كلا ان خروجنا خيانة

قال اذن ان نتربص لنرى ما يكون من حربهم

وسارا حتى انتهيا المنزل وكان الليل قد سدل نقابه فاطلا على معسكر العرب فاذا بهم قد نصبوا الخيام واوقدوا الوقود ونصبوا الاعلام

فقال حماد ومن هو يا ترى امير هذه الحملة العلة خالد بن الوليد

قال ان خالداً في العراق على ما علمت ولكن الامراء غيره كثيرون

# الفصل السادس والسبعون

## ﴿ فتح بصرى ﴾

وباتوا تلك الليلة والجند يستعد للخروج وفي الصباح افاقوا على دق الاجراس[1] واذا بالجند خارج وفيهم اثنا عشر الف فارس والقسس امامهم بالصلبان والمباخر[2]

(١) الواقدي (٢) جبنس

فسار عبدالله وحماد الى الاسواق فرأوا الناس يسرعون الى الكنائس يقيمون الصلاة باليونانية (١) ويدعون لجدهم الاصر وصعد الكهنة على الاسوار بالصلبان والشموع ورشوا الجند بماء المعمودية واخذوا يرنمون ويشدون الاناشيد المسيحية وفيهم الرجال والنساء والاولاد يدعون بصوت واحد بالنصر لجند الرُّوم

اما جند العرب فكان قائدُ شرحبيل بن حسنة كاتب وحي النبي وبعده عبدة بن الجراح في اربعة آلاف فارس لفتح بصرى وكان عبدة قائدًا عامًا لجنود المسلمين في الشام ولاه القيادة العامة الخليفة ابو بكر الصديق

فوقعت بين الجيشين عدة وقائع ظهر فيها الرُّومانيون في بادىء الرأي ولم يعجب عبدالله اصرة الرُّوم لما يعلمه من كثرة عددهم

وفي ذات يوم التقم الجيشان فظهر الرومانيون واختل امر المسلمين حتى كادوا يعمدون الى الفرار وعبدالله يراقب حركاتهم وحماد الى جانبه واذا غبار يتصاعد من جهة الافق وبان من تحته جند عرفوا من نوع نظامه وشكل اعلامه انه جند المسلمين فعلموا انهم نجدة جاءتهم ولم يلبثوا ان رأوا في مقدمة ذاك الجند رجل ضخم عريض اللحية طويل القامة تخفق فوق رأسه راية سوداء وهو خالد بن الوليد فاشتد ازر المسلمين واعادوا الكرة فتقهقر الروم حتى دخلوا الاسوار واقفلوا ابواب المدينة فلقي : اجان رومانوس راجعًا فذكره بنصيحته فغضب رومانوس لشماتته به

فلما علم عبدالله بما تمكن من النفور بين القائدين خاف سوء العاقبة

وفي صباح اليوم التالي برز خالد يطلب النزال فنزل اليه رومانوس والناس ينظرون اليهما وما يأول اليه نزالهما وبعد اشواط طويلة عاد كل منهما الى معسكره فدخل رومانوس بصرى وعلى وجهه ما يدل على تغير في مناصحه وقد فترت همته عن الدفاع فلحظ ذلك فيه الذين يعرفون اخلاقه واما عبدالله فاجتمع بحماد وقال اني خائف من هذا الرومي فوالله لا يلبث ان يسلم المدينة لاني رأيت من مطاولته في النزال ما يوقع الشبهة فيه

فقال حماد ولقد سمعت من بعض اصدقاء تراجان اليوم انه جادل رومانوس

---

(١) وكانت خدمة الصلاة في سائر كنائس الشرق اذ ذاك باليونانية واما لغة رجال المملكة واعيان المملكة فكانت اللاتينية ولغة الشعب اللغة الوطنية او اليونانية (جبس)

وبخه وشتمه ولما آل البه خروجه فشق ذلك على رومانوس وتوعده بشر ينوبه له وقال له اذا كنت افرس مني نازلهم فاجابه تراجان وشتمه وعلا الخصام بينهما وتحزب رجال الروم بعضهم لرومانوس وبعضهم لتراجان وتوعدوا رومانوس بالقتل واتهموه بالخيانة وقالوا له لا نرضاك حاكماً علينا وقد ولينا تراجان فسكت ولم يجبهم وعلامات الغدر ظاهرة على وجهه ولكنه قال فلينزل هو ونرى بطشه

فلما اصبحوا نزل تراجان على جواده بعدته وسلاحه وطلب المبارزة فخرج اليه فارس عظيم من لباسه وكبير جثته انه خالد بن الوليد فطال النزال بينهما والجيشان ينظران وكأن على رؤوسهم الطير فمضى معظم النهار ولم ينل احدهما الآخر بشر فرجع كل منهما الى معسكره (١)

فلما رجع تراجان الى المدينة اسرع الناس للقائه وسؤاله عما لقي من عدوه وكان اول من لاقاه رومانوس وقد نظر اليه مستهزئاً ضاحكاً كأنه ينتقم منه لشماتته به قبلاً فانتهره وعيره بانه مخلوع فقال رومانوس سترى من هو المخلوع منا وتركه ومضى

وكان عبد الله وحماد ينظران الى ما دار بينهما فلما رأيا من رومانوس ما رأياه وسمعا تهديده خافا فقال عبدالله لقد زاد خوفي الآن من مقاصد هذا الرومي فلا اظنه الا فاعلاً شرًّا

فقال حماد وما شأننا في ذلك

قال عبد الله انما يعنينا من الامر المحافظة على حياتنا مخافة ان يدخل العرب المدينة فيصيبنا منهم سوء ولا طاقة لنا في الدفاع ولا جمل الانظننا كنا آمن على حياتنا لو اقمنا في دير محيرا

قال حماد وكيف نكون آمن هناك والدير لا حصن فيه ولا جند ونحن الآن في امنع مدن الشام (٢)

قال لم اقل ان الدير احصن من بصرى ولكني علمت ان خليفة هؤلاء المسلمين لما خرج لوداعهم يوم تسييرهم الى الشام اوصاهم بالرهبان والديور خيرًا فهم لا يسيئون راهبًا ولا يخربون ديرًا

(١) الواقدي (٢) جبش جزء ٢

فقال حماد لو ذكرت ذلك لفضلت البقاء في الدير ولكن الهم قد نفذ ونحن الآن في بصرى وهي في ما تراه من الحصار فما الرأي

ففكر عبد الله قليلاً ثم قال ان سر المسألة يا سيدي عند رومانوس هذا فلو استطعنا استطلاع شيء منه لعلمنا طرق النجاة فاري ان اسير اليه الليلة لعلي اتنسم خبرًا

قال حسنًا تفعل

وقضيا بقية يومهما في المنزل و بعد العشاء سار عبد الله الى دار رومانوس وبقي حماد وحده ولم يمض الاَّ القليل حتى عاد عبدالله وعلى وجهه ملامح الغبطة

فقال حماد ما وراءك

قال لا اظن الامر الاَّ عظيماً فاني سألت عن رومانوس في منزله فقيل لي انه نائم ولم اصدق انه ينام الآن فخرجت استطلع خبره من بعض الخدم فعلمت انه خرج الى حيث لا يعلم احد ويخال لي انه سار ليدبر مكيدة ويسلم بها المدينة و . . .

فقطع حماد عليه الكلام قائلاً اجل انه سيفعل ذلك لان هذا القصد كان ظاهرًا على وجهه فما الحيلة

قال لا حيلة لنا ياسيدي الاَّ التربص الى الصباح فاذا تحققنا عزمه على ذلك دبرنا حيلة نحتال بها بانفسنا

وباتا تلك الليلة على مثل الجمر

وفيما هما نيام بعد نصف الليل سمعا طارقًا يطرق الباب فهبا من رقادهما مذعورين فسألا من الطارق فسمعا صوتًا يقول افتحا اني انا خادمكما سلمان

فهرول عبد الله للحال ففتح الباب والبيت مظلم فاذا برجل عليه لباس اهل الحجاز وفي يده مصباح فبغتا لمنظره ولكنه بادرهما اني عبدكما سلمان لا تخافا ورفع العمامة عن رأسه فبان وعرفاه فصاح به حماد ابن كنت يا سلمان وما الخبر

قال جئت من معسكر خالد ولا يلبث هو ورجاله ان يستولوا على الاسوار فجئت لاعلمكم بالامر لتكونوا على بصيرة وهذا علم من اعلام المسلمين انصبوه على باب منزلكم لتأمنوا من سيوفهم اذا دخلوا المدينة

فقال عبد الله بورك فيك ايها الصديق الامين فدخلوا جميعاً واوصدوا الباب وسألهُ حماد ان يقص عليهم الخبر فجلس وهو يلهث من التعب والبغتة وقال اخبركما بالاختصار ان رومانوس صاحب بصرى خرج الى معسكرنا في هذا المساء من مكان في السور خرقهُ غلامهُ فاعتنق الاسلام وقال لخالد بن الوليد ارسل معي من تعتمد بتسليم المدينة فارسل معهُ عبد الرحمن بن ابي بكر ومئة من المسلمين فجئت انا معهم فادخلنا من خرق في السور واخذ الامير عبد الرحمن ورجالهُ الى قصره ليسلحهم ويسير بهم لقتل تراجان وقال انهُ مناظر لهُ في الحكم وكنت لما جئت مع جيش خالد كما سأخبركم سألت الراهب الشيخ عنكما فاخبرني انكما مقيمان في بصرى ودلني على هذا المنزل فهرولت اليهِ لاعلمكما بجلية الخبر واتممت بهذا العلم انصبهُ فوق الباب حماية لكما وبعد قليل تسمعان تكبير المسلمين على اسوار المدينة من كل جهاتها وهي علامة بينهم وبين الجند خارجها فيهجم الجميع وتكون مذبحة هائلة

فاثنيا على همتهِ فترامى هو على يد حماد فقبلها وقال لقد وددت لو تكونون معي في معسكر هؤلاء الحجازيين لترون ما رأينا من شجاعتهم وصبرهم واتحاد كلمتهم واعلموا ان خالداً وجنده لو لم يصلوا بصرى الآن لذهب جند شرحبيل ايدي سبا وارتدوا عن المدينة خاسرين فقد كانوا في شدة وضنك لقلتهم وكثرة الروم

فقال عبد الله وهل خالد وحدهُ من القواد العظام

قال سلمان وفيهم ايضاً عبد الرحمن بن خليفتهم ابي بكر وهو الذي جاء معنا لاستلام المدينة وغيرهُ جماعة كبيرة من الامراء والقواد

ولقد رأيت من حربهم وبطشهم في العراق ما سأقصهُ عليكما ان شاء الله

فهمَّ حماد ان يسألهُ عما فعلهُ خالد في العراق فسمعوا الضوضاء والضجيج وبين الاصوات صوت التكبير

فقال سلمان ان المسلمين الآن على الاسوار وعما قليل ينفخ اولاد رومانوس ابواب المدينة فيدخلها المسلمون فالبثا هنا لنرى ماذا يكون فما لبثوا ان سمعوا ضجيج الناس وبكاء النساء والاطفال فتحركت الشهقة في قلوبهم وثارت الحمية في رؤوسهم ولكنهم لا يستطيعون الخروج خوفاً على حياتهم فما طلع النهار الاَّ وقد فتح المسلمون بصرى واعملوا بها السيف ثم سكنت الغوغاء بعد قتل تراجان وتسليم اهل بصرى

ففتح سلمان الباب وخرجوا الى شرفة من شرفات المنزل تطل على الشارع فرأوا جثث بعض القتلى هناك بين ميت ومنازع وقد تلطخت الانواب بالدماء المسلمون قد توغلوا في المدينة وامتلكوها ولكنهم لم يقربوا منزل عبدالله لوجود العلم على بابه

وفيما هم في الغرفة ينتظرون ما تنتهي اليه حال بصرى وقد اطمأن بالهم سأل سلمان حماداً عما تم من امر هند فاخبره بجلية الخبر وكيف شغلتهم الحرب عن الافتران وعبدالله يسمع ويتجاهل حتى انتهى الى عودهم من صرح الغدير بخفي حنين وحاول حماد اذ ذاك ان يبين لسلمان ان عمه جبلة اصاب بذلك وانه لا يزال على حبه واعتباره وعبد الله لا يجيب ولا يعترض

اما سلمان فتنكدر لهذا التغيير وقال وما هو موعد الافتران يا مولاي

قال حماد لما تنتهي الحرب ويرجع جبلة واهله الى البلقاء

قال ومن يعلم متى يكون ذلك

قال الله يعلم

قال اتعلم اين هم الآن

قال اظنهم في البلقاء

قال سلمان لا اظنهم هناك فقد أنبأنا جواسيس العرب ان جبلة سار برجاله الى اليرموك لنصرة جند الروم في حرب المسلمين ولا يلبث جند خالد بعد قليل ان يذهب الى هناك لنصرة المسلمين فاذا كان جبلة في اليرموك لا اظنه يترك اهل منزله في البلقاء وهي عرضة لغزوات العرب

فقال سلمان وما ظنك يا اذاً

قال اظنه يرسلهم الى دمشق ومع ذلك فاني ارى ان اسير مع خالد حتى آتي اليرموك وابحث عن جبلة واهله واعود اليكم بالخبر او لعلي اعود اليك برسالة من هند قال ذلك وتبسم كأنه يريد ان يعبث بحماد فاجابه حماد بمثل ابتسامه وهو ينظر الى ما يبدو من عبدالله فاذا هو في شاغل عنهم ينظر من نافذة الغرفة الى الشارع والاهتمام ظاهر على وجهه وسمعا قرقعة اللجم وضوضاء الناس فالتفتا الى ما هو ناظر اليه فاول ما وقع نظرهما على راية سوداء تحتها جند من العرب في وسطهم بعض الفرسان وفي

مقدمتهم فارس كبير الجثة عريض اللحية طويل القامة بعيد ما بين المنكبين واسع الهيكل كبير العمامة واسع العينين كثيف الحاجبين على وجهه اثر الجدري[1] وقد ركب على جواد أشهب خفيف العضل يتنقل بهيئته كالعروس ويكاد الدرر يتطاير من حدقتيه ووراءه فرسان حولهم الأعلام وهم مرحون بما اوتوه من النصر فالتفت سلمان الى عبدالله قائلاً اعرفت من هو هذا الفارس يا سيدي

قال عبدالله قد عرفته من يوم كان في وقعة مؤتة وكنت انا اسيرًا عندهم اليس هو خالد بن الوليد

قال بلى هو هو بعينه انظر الى هذه القامة وتلك الطلعة ان خالدًا يا مولاي من معجزات خلق الله لم ارَ ولم اسمع بمثل شجاعته وشدة بطشه فلا غرو اذا سموهُ سيف الله لقد رأيت منه اعمالاً تعجز عن فعلها الابطال في حروبه بالعراق وسمعت من اخباره ما تذيب لهوله الاطفال فقد كان قبل اسلامه هو المقدم على خيل قريش في الجاهلية فاسلم في السنة الثامنة للهجرة مع عمرو بن العاص ولم يزل منذ اسلم يواليه الرسول اعنة الخيل في مقدمتها[2] وقد علمت ان في عمامته خصلة من شعر النبي يتبرك بها . وقد شهد وقعة مؤتة بالبلقاء وعلى اثر ما اظهره من البسالة هناك سماه الرسول سيف الله[3] ثم كان عونًا عظيماً للمسلمين في كل حروبهم حتى تولى ابو بكر فانفذه الى فتح العراق كما علمتم

فقال عبدالله وما هذه الراية السوداء

قال سلمان هذه راية ذات شأن عظيم عندهم ويقال لها راية العقاب

فقال حماد لم تخبرنا بما فعله المسلمون في العراق هل فتحوا المدائن ودوخوا الفرس

فقال سلمان لو بقوا هناك لفعلوا ذلك ولكن خليفتهم استقدمهم لحجة جند الشام ولولا قدوم خالد على بصرى لما استطاع شرحبيل فتحها فقد وصلنا اليهم وهم في شدة وجهد وضيق



(١) الواقدي (٢) اسد الغابة (٣) السيرة الحلبية

# الفصل السابع والسبعون

## ﴿ فتح الحيرة ﴾

فقال حماد اخبرنا يا سلمان عما فتح خالد من العراق وكيف رأيت حال الفرس

قال أما خالد فانه من اعظم القواد وخيرتهم وقد لقيته في الحيرة وم فتحها وكان قبل ذلك قد استولى على بلاد كثيرة بلا حرب لان العراقيين قد ملوا من حكومة الفرس وظلمهم وعتوهم واحتقروهم لاختلال امورهم . فاول مكان وصل اليه خالد بلاد بانقيا و بارسما والليس فصالحه اهلها على عشرة آلاف دينار سوى حرزة كسرى وهي فريضة كان يقتضيها الفرس عن كل رأس اربعة دراهم . ثم سار الى الحيرة وعليها اياس ابن قبيصة كما تعلمون ( قال ذلك وتنهد ) فانه تولاها بعد ما قضى الله من امر مولانا رحمة الله ( فتنهد حماد وعبدالله وها صامتان يسمعان حديث الحيرة ) فقال سلمان لم يكد يصل خالد الحيرة حتى خرج اليه اياس وسائر اشراف حكومته كأنهم كانوا منه على موعد فاستقبلهم كما يستقبل الغالب المغلوب ودعاهم الى الاسلام او الجزية او الحرب فاختاروا البقاء على النصرانية ودفع الجزية فبلغت جزيتهم تسعين الف درهم وقد اخبرني بعض رجال خالد ممن يقرأون له القرآن انها اول جزية اخذها المسلمون من الفرس . ثم تحولوا عن الحيرة وحاربوا الفرس في عدة مواضع وفازوا في اكثرها وما فازوا فيه وقعة الثني و وقعة الوجه ووقعة اللليس [1] كل ذلك قبل وصولي

أما انا فلما ودعتكم سافرت الى الحيرة فوصلتها والناس يتحدثون بما تم من صلحها واهلها بين راضٍ بالصلح وناقم على اياس وخصوصاً الفرس منهم فقد سمعتهم يتذمرون وكانوا بذلك كسرى ابرويز وكان يتولى عرش الاكاسرة اذ ذاك وشكوا ما كان من ضعف ابن قبيصة فانفذ جنداً بقيادة رجل من مرازبته اسمه الازاذبه لمحاربة العرب فوصل الجند وا في الحيرة وكان خالد قد برحها الى بلاد اخرى بالنمس

(١) ابن الاثير

الفتح ثم سمع الازاذبه بقدومو فخرج اليو وعسكر عند الغريين وخرجت انا معهم وعلم ان خالدًا ورجالهُ قادمون بالسفن ، لفرات فارسل ابنهُ ليقطع الماء عنهم فوقفت السفن على اليبس فتركها خالد وخرج برجالهِ على الخيل حتى قتل ابن الازاذبه وتقدم خالد نحو الحيرة

ومن غريب الاتفاق اننا بينما نحن في الغريين وصل ساعي البريد من المدائن بجعل كتابًا الى المرزبان فلم يكد يفتحهُ ويقرأ ما بو الا وقد تغير لونهُ واستولى عليهِ الجزع فخاف كل من رآه ولم نعلم ما دعاه الى ذلك الاَّ في اليوم التالي اذ شاع في المعسكر ان كسرى ابرويز قد مات فوقع الاضطراب في الجند وانشغل الازاذبه واضطرب ثم جاءه الخبر بمقتل ابنهِ وتقدم العرب نحوه فتاهب نحو الحيرة وعسكر العرب عند الغريين

أما انا فلما رأيت اختلال احوال الفرس قلت في نفسي لقد آن الوقت الذي فيهِ استطيع القيام بالمهمة التي جئت لاجلها فخرجت من الحيرة في ليلة لهلاء حتى اتيت معسكر العرب فالتمست الامان وان ارى الامير خالدًا فاخذو في اليو فطلبت الخلوة بهِ فخلوا فقلت اعلم ايها الامير ان حال الفرس في اختلال لموت ملكهم وانقسامهم فيما بينهم فقد صالحك ابن قبيصة وهو على صلحك مع سائر العرب واما الفرس فهم في شاغل عن الحرب بارتباك داخليتهم واطلعتهُ على خبايا كنت عالمًا بها فسرَّ بي كثيرًا واثنى عليَّ فقلت في نفسي هذه فرصة اغتنمها لحفظ ما لمولاي هناك من الاموال والعقار وكنت قد تفقدت المزارع فرأيت الجميع في انتظار عود الامير عبدالله فطيبت خاطرهم وقلت لهم اني انما اتيت الحيرة لتفقد حالهم ولوصيتهم بالعناية في استغلال الارض فلما ايست من خالد ارتياحًا الى خدمتي التمست منهُ حماية تلك المزارع فوعدني . وقبل هجومهم على الحيرة اخذت علمًا مثل الذي نصبتهُ على هذا البيت ونصبتهُ هناك وبعد قليل هجم المسلمون على المدينة ففتحوها فظللت في معية خالد حيثما ذهب

ويسرني ان اخبركم بان سقوط الحيرة كاد يقضي على دولة الفرس كلها لان الدهاقين وهم ولاة الفرس كانوا ينتظرون ما يكون من حرب الحيرة فلما علموا بسقوطها وهنت عزائمهم فجاؤوا وصالحوه وسلموا اليو فاخذ الجزية منهم وكتب الى اهل فارس يدعوهم الى الاسلام ويهددهم بالقتال فلم يكن يمرُّ يوم لا نرى الناس قادمين زرافات ووحدانًا وخصوصًا عرب العراق وهم النصارى وبعد قليل سار خالد وانا

معهُ ففتح الانبار ثم عين التمر وغيرها وقد لحظت منهُ انهُ لم يتجرأ على المسير الى المدائن قبل الاستمداد الثاني

وفيما هو في ذلك ورد عليهِ كتاب من الخليفة ابي بكر يأمرهُ بالذهاب الى الشام لنصرة جند العرب على فتحها فجئت انا معهُ حتى انتهينا بصرى وهي محاصرة وانا لا اعلم مقركما فخطر لي ان اسأل راهبنا الشيخ فاخبرني بمقامكما هنا فتربصت حتى تمَّ الفتح كما قدمت

وكان عبدالله وحماد صامتين يصغيان لما يقصهُ عليهما سلمان فلما انتهى الى هناك قال حماد وما ظنك بنهمة ثغر العراق فان خالداً لم يفتح منها شيئاً كثيراً والمدائن لا تزال على ما هي وابرس لا يزالون حاكمين

قال رويدك يا سيدي ان العرب لا يلبثون ان يعيدوا الكرة واظنها تكون الفاصلة وخالد لم يأت بصرى الا مدداً لجند الشام فطب نفساً ان الله سينتم انتقامهُ من اولئك الطغام

فقال عبدالله وما العمل الآن

قال سلمان ارى ياسيدي ان ألحق انا مع خالد كما كنت فاسير معهُ الى اليرموك فقد سمعت ان العرب معسكرون هناك يتوقعون قتالاً شديداً وسيسير خالد لنجدتهم

فقال حماد وابن اليرموك

قال هي على مقربة منا غربيّ على نهر يقال لهُ نهر اليرموك يصب في نهر الاردن وقد عسكر العرب عند مائهِ

فتنهد حماد وفي نفسهِ شيء يكتمهُ

فادرك سلمان انهُ يفكر بهند وجبلة فقال ولا بد من ان يكون جبلة مع جند الروم اذا جاء اليرموك فلا اعدم وسيلة استطلع بها مقر هند فابعث اليكم بخبرها

فقال حماد الا ترى ان نسير جميعاً مع خالد

قال سلمان لا ارى حاجة الى ذلك بعد ان اوعز اليك جبلة بالاقامة هنا ربما بعث اليكم فلعلهُ ان يعمل ذلك وانتم بعيدون عنها فتفوت الفرصة وانا اذا سرت انا وبقيتما انتما هنا فنكون قد امسكنا الحبل من الطرفين

اما عبدالله فظل صامتاً وحماد ينظر اليهِ فادرك انهُ غير راضٍ عن كلام حماد

فقال ما رأيك يا والداه

فقال عبدالله الرأي رأيك يا سيدي ولكنني ارى جبلة واهل منزلو لا يهمهم شيء من امرنا اقمنا في بصرى ام رحلنا عنها يدلك على ذلك سكوتهم عنّا وقد اصاب بصرى ما اصابها من الحرب ولولا ذلك لبعثوا يفتقدوننا

فقال حماد ولا نظنهم علموا بما آلت اليهِ حالتنا وهب انهم علموا فكيف يستطيعون الوصول الينا والمدينة محاطة بالعدو . فلما رأى حمادًا يدافع عن جبلة قال لعل لهم عذرًا وسكت

ثم خرج سلمان الى معسكر خالد ليرى ما تمّ عليهِ الامر فرأى العرب قد ولوا رومانوس بصرى [1] واخذوا يستعدون للمسير فعاد فاخبر عبدالله وحمادًا بذلك وهمّ بوداعهما فقال لهُ حماد لا ارى ان اوصيك يا فتاى خبر جبلة الينا على عجل واطلاعنا على ما تمّ لاهل بيتهِ وابنهم

قال سمعًا وطاعة وسيأتيك الخبر سريعًا ثم ودعهما وخرج

ولم يكن سلمان اقل من حماد قلقًا على هند وقد شارك عبدالله في ارتيابهِ من جبلة فعوّل على استطلاع كنهِ الامر وانفاذ ذلك الى سيدهِ وفي اليوم التالي اقلع خالد وشرحبيل وجنداهما الى اليرموك

# الفصل الثامن والسبعون

## ﴿ وقعة اليرموك ﴾

ولما تكامل جمع المسلمين في اليرموك بلغ عددهم ٤٦ الفًا منهم تسعة آلاف بقيادة خالد فيهم الف من الصحابة من جملتهم مئة ممن شهدوا وقعة بدر الكبرى [2] ومن قوّادهم ابو عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص وشرحبيل وابو سفيان بن حرب وكانت الحرب بينهم وبين الروم قبل قدوم خالد تساندًا اي كل امير على اصحابهِ لا يجمعهم احد [3]

وكان ابو بكر قد ولى خالدًا القيادة العامة على جند الشام كافة والناس يحسبون

---

(١) الواقدي (٢) ابن الاثير (٣) الواقدي

ابا عبيدة بن الجراح اولى منهُ بتلك القيادة فوقع بين المسلمين اختلاف من هذا القبيل فلما جاءهم خالد حاول جمع كلمتهم وقد ادرك ما في نفوس بعضهم فوقف في الجماهير وقد اجتمع الامراء حولهُ وقال « ان هذا يوم من ايام الله لا ينبغي فيهِ الفخر ولا البغي اخلصوا جهادكم وارضوا الله بعملكم فان هذا يوم لهُ ما بعدهُ ولا تقاتلوا قومًا على ظلم وتعبية وانتم متساندون فان ذلك لا يجل ولا ينبغي وان من ورائكم لو يعلم بذلكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما تؤمرون بهِ بالذي ترون انهُ رأي من وليكم ومحبته » فقالوا « هات فيا الرأي » قال ان الناكر لبعضنا الا وهو يرى انهُ ينتاصر ولو علم بالذي كان ويكون لما جمعكم ان الذي انتم فيهِ اشد على المسلمين مما قد غشيهم وانفع للمشركين من امدادهم ولقد علمت ان الدنيا فرقت بينكم فالله الله فقد افرد كل رجل منكم ببلد لا ينتقصهُ منهُ ان دان من الامراء ولا يزيدهُ عليهِ ان دانوا لهُ . ان تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فلعلهُ قد تهيأ لهُ وان هذا يوم لهُ ما بعدهُ ان رددناهم الى خندقهم اليوم لم نزل بردهم وان هزمونا لم نفلح بعدها فهلموا فلنتعاور الامارة فليكن بعضنا اليوم والآخر غدًا والآخر بعد غد حتى تتأمروا كلكم ودعوني انا أمر اليوم » فامروهُ وهم يرون انها كخرجاتهم وان الامر لا يطول (١)

فعجب سلمان لجسارة خالد وحزمهِ ولكنهُ اخذ منذ وصولهِ يحاول الخروج الى معسكر الروم ليرى جبلة او يسمع خبرًا عن هند فصعد الى ربوة على ضفة ذلك النهر ونظر الى معسكر الروم فرآهُ قد ملأ الفضاء وفيهِ الرايات والصلبان فامعن نظرهُ فيهِ فرأى معسكر الغسانيين منفصلاً الى جانب وشاهد راية جبلة وفسطاطهُ في وسطهِ فحدثتهُ نفسهُ ان يسير اليهِ ولكنهُ خاف ان يستغشهُ المسلمون اذا رأوهُ فيوقعوا بهِ شرًا فرأى ان يذهب اليهم بحيلة الجاسوسية فعوّل على ان يخاطب خالدًا في ذلك فسار الى فسطاطهِ فرأى الامراء تتزاحم فيهِ وقد اجتمعوا للمفاوضة في امر الحرب فهاب الدخول مخافة ان يسمع انتهارًا فصبر حتى ارتفض الجمع وبقي خالد وحدهُ فالتمس الدخول عليهِ فاذن لهُ فدخل وقبل يدهُ فقال خالد ما خبرك قال هل يأذن لي مولاي بكلمة لعل فيها نفعًا

(١) ابن الاثير

قال قل

قال هل بعثتم من يستطلع اخبار العدو ويسبر قوّاتهم ومواقعهم وعدد جندهم

قال لقد فعلنا ولكنني ارى انك اجدرهم بذلك

قال اني عبد مطيع فاذا رأيت ان اسير في الامر فعلت

قال سر وافعل

فقبل يده وخرج فتزيا بزي الغسانيين وسار حتى اختلط بالغسانية فالتقى باناس عرفهم في البلقاء فظنوه كان معهم من ذي قبل فاستطلعهم خبر هند فعلم انها مع والدتها في دمشق ثم استخبر عن قوّات الروم فعلم انهم في كثرة وفيهم عشرون راية بعضها لاهل الدولة وبعضها النجدات من الارمن [1] والسريان والمصريين وان جملة الجند ٢٤٠ الفاً ما عدا العرب المتنصرة من الغسانية وغيرهم [2] فوقعت في نفسه من ذلك رهبة وخاف انتصار الروم وتردد في الرجوع الى خالد ولكنه قال في نفسه اذهب الآن الى المسلمين فاذا رأيت فيهم تضعضعاً فررت الى الغساسنة

فلما سدل الليل نقابه عاد الى معسكر المسلمين واطلع خالداً على حال الروم

فقال خالد لا يهمنا امر كثرتهم فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله

فقال سلمان ليست القوّة في الكثرة يا مولاي ولكنها في الاتحاد فقد علمت ان هؤلاء الجند منقسمون فيما بينهم لا تختلف اغراضهم ومشاربهم . ثم ودعه وخرج وهو يفكر في طريقة يوصل بها خبر هند الى حماد

فلما اصبح الصباح سمع التكبير والاذان في معسكر المسلمين وقد قام الناس وقعدوا واخذوا يتأهبون للقتال فوقف ينظر الى كيفية نظامهم فرأى خالداً قد وقف في وسط الامراء وامر ان تنظم الجيوش كراديس ففسم الجند ٣٦ كردوساً وجعل قلب الجند كراديس واقام فيها ابا عبيدة وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وشرحبيل ابن حسنة وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن ابي سفيان وجعل على كل كردوس رجلاً من الشجعان . وفيما خالد يهيء الجند على هذه الصورة سمع بعضهم يقول ما اكثر الروم واقل المسلمين فقال خالد بل قل ما اقل الروم واكثر المسلمين انما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان فوالله لوددت ان الاشقر ( يعني فرسه ) براه من توجيه

(١) الواقدي (٢) ابن الاثير

وانهم اضعفوا في العدد وكان الاشقر قد حفي في مسيره . ثم امر ان يبدأ والقتال فحاذر سلمان ان تصيبه نبلة فتحمى وهو خائف ان تعود العائدة على المسلمين لقلتهم وكثرة الروم فوقف في منعطف يؤدي الى جند الغساسنة فرأى على مقربة منه رجالاً من جند المسلمين وقوفاً فتأملهم فرأى بينهم ابا سفيان وكان قد عرفه في بعض اسفاره مع سيده عبد الله الى الحجاز فتذكر ما كان من حديثه في بيت المقدس وكان قد رآه يوم اعتناقه الاسلام عند فتح مكة فاستغرب وقوفه هناك والحرب منتهبة فدنا منه وابو سفيان لا يراه فسمعه يخاطب رفقاءه فيقول « يا معشر قريش ومهاجري الفتح ( وهم الذين هاجروا بعد فتح مكة واسلموا ) لا يهمنا من هذه الحرب الا الانحياز الى الغالب فاذا غلبت الروم كنا معهم واذا انتصر المسلمون فاننا معهم » فعجب سلمان لكلامه وعلم انه انما اسلم خوفاً على حياته لا رغبة في الاسلام ولكنه ظل في ريب من هذا الامر فاصاخ يسمعه لما يقوله بعد ذلك فرآه اذا انهزمت العرب وتقدم الروم قال « ايه يا بني الاصفر » ( يعني الروم ) واذا مالت الروم وتقدمت العرب قال « ويح بني الاصفر »(١) ولم يكد ابو سفيان يتم كلامه حتى صاح باعلى صوته آه فنظروا واذا ببنبلة اصابت احدى عينيه فعقأتها فقال سلمان في نفسه لقد نال هذا الرجل جزاءه . وخاف سلمان البقاء هناك لئلا يصاب بنبلة فسار الى ناحية اخرى والحرب قد حميت وطيسها فرأى بريداً قادماً من جهة البقاء فعرف صاحبه وكان قد عرفه في الحجاز فعلم انه بريد قادم من المدينة بخبر جديد فتفرس سلمان في صاحب البريد فرآه مسرعاً وعلى وجهه امارات البغتة فناداه فوقف فقال سلمان هل تريد الامير خالداً فقال نعم ابن هو قال في المعمعة ولكني اوصلك الى فسطاطه فسارا معاً وعينا صاحب البريد على الجند وحركاته فلما رأى جند العرب ظافراً لم يتمالك ان قال « ألم يكن معذوراً لابي بكر ان يسمع بخبر هذا النصر قبل موته » فقال سلمان وهل مات ابو بكر

قال نعم لقد مات وانا انما جئت بخبره

فقال سلمان ومن تولى بعده

قال تولى الامام عمر بن الخطاب وهو رجل ذو بطش وقوة وحزم

(١) ابن الاثير

فبغت سلمان لذلك الخبر وقال الا نظن وفاته تؤثر شيئاً في مجرى الاحوال

قال كلاّ ولكن عمر يفضّل ابا عبيدة على خالد وقد انفذني بعزل خالد عن قيادة هذا الجند وتولية ابي عبيدة على انني لا ارى ان ابلغهم الخبر قبل انقضاء الواقعة لئلاّ يفشلوا او يختلفوا فيما بينهم . فقال سلمان حسناً تفعل فقل لي ما الذي حمل الخليفة عمر على نقل القيادة الى ابي عبيدة المالئ اشجع من خالد

قال كلاّ ولكن ابا عبيدة رجلٌ كريم الاخلاق لينٌ سهلٌ حليمٌ رؤوف وهو اقدم في الاسلام من خالد والقيادة تحتاج الى حكمة وتأنٍ اكثر من حاجتها الى الشجاعة

قال سلمان نعم ولكني علمت ان النبي سمى خالداً « سيف الله » أفليس هو احق بالقيادة . قال ولكنهُ ( صلعم ) سمى ابا عبيدة « امين الامة » وكان يحبُّ صحبتهُ والالتصاق بهِ [1] والحق يقال ان كليهما فرد ولكن للخليفة رأياً في ذلك فانهُ ساخط على خالد بسبب حكاية وقعت منهُ في ايام ابي بكر

فقال سلمان هلمَّ بنا نجلس في مأمن من ريبتنا نقضي الحرب لانهم اذا رأوك لا ينفكون عن موالك حتى تخبرهم بموت ابي بكر وعزل خالد

فاستحسن صاحب البريد الرأي وعرج مع سلمان الى شجرة ترار يا وراء جذعها فاخذ سلمان يستفهمهُ عن كيفية موت ابي بكر وولاية عمر

فقال صاحب البريد لما احس مولانا الخليفة ابو بكر بدنو الاجل وأسفاهُ عليهِ دعا كاتبهُ عثمان بن عفان وقال لهُ اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد ابو بكر بن ابي قحافة الى المسلمين اما بعد . . . . » ثم اغمي عليهِ وكان عثمان وسائر الصحابة لا يرون احق في هذه الخلافة من عمر بن الخطاب لاشتهاره بالعدل والحزم فاتمَّ الوصاية عثمان من عند نفسهِ فكتب « اما بعد فقد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً » ثم افاق ابو بكر من غشيتهِ فقال لعثمان اقرأ فقرأ ما كتبهُ فكبّر ابو بكر وقال « اراك خفت ان يختلف الناس ان متُّ في غشيتي هذه » قال « نعم » قال « جزاك الله خيراً عن الاسلام واهلهِ » ثم قرأوا هذا العهد على الناس ولما قبض ابو بكر بايعوا عمر وهو الآن خليفة خليفة رسول الله وقد سموهُ امير المؤمنين تخلصاً من تكرار لفظ خليفة لمن يتولى الخلافة بعده

(١) اسد الغابة

وفيما هما في الحديث واعينهما شائعة نحو المعركة رأيا جند الروم قد تقهقروا وعبر العرب خندقهم واستولوا على اسلابهم وفرّ الروم ومن نصرهم من العرب المتنصرة وغيرهم وتمّ النصر للمسلمين ولم يفض الاّ القليل حتى عاد المسلمون بالغنائم من الاثاث والحلى والاسلحة وغيرها . فمشى سلمان وصاحبه نحو فسطاط خالد فرأياه عائدًا وحوله الامراء على غير نظام لما دار بينهم من احاديث النصر

فحالما وقع نظر خالد على صاحب البريد عرفه فبعث اليه فتبعه الى الفسطاط فاذن بدخوله فدخل واباً خالدًا بموت ابي بكر وخلافة عمر وعزله وولاية ابي عبيدة فاوصاه خالد بكتمان الخبر عن كل انسان (١)

اما سلمان فانه عاد الى مشاغله بامر هند وشق عليه انهزام جبلة وخاف ان يكون قد قتل ثم علم ببقائه حيًا فمال بكليته للذهاب الى حماد يطلعه على ما علمه عن هند ولكنه اراد استطلاع نية المسلمين ووجهة سيرهم قبل ذهابه وقضى اياماً يبحث عن ذلك فعلم انهم عازمون على دمشق فخاف على هند لعلمه انها فيها وودّ لو يعلم اين والدها وما هو عازم عليه بعد شخوص العرب الى الشام فعوّل على استطلاع ذلك من جبلة وقد علم بانهزامه فخرج من معسكر العرب يبحث عن جهة مسيره فقيل له انه سار في جملة منهزمي الروم الى حمص والامبراطور هرقل فيها فقصد حمص

# الفصل التاسع والسبعون

## خبرٌ مفاجئ

تركنا حمادًا وعبدالله في بصرى ينتظران عود سلمان بخبر اليرموك ومقام هند . وحماد كثير القلق لا يرتاح له بال على هند وقد حدثته نفسه بسرّ اصابها او بفضل يتهددهُ على اثر ما قاساه في سبيل الحصول عليها من الاسفار والاخطار وتهيأ له انها خرجت من يده وذهبت مساعيه كلها ادراج الرياح فعظم عليه الامر فآنس في نفسه

(١) ابن الاثير وابن خلدون

ميلاً الى المسير اليها واستطلاع ما في نفسها من قبلهِ ولكنهُ لم يكن يعرف مقرها فلبث ينتظر رجوع سلمان بالخبر اليقين

وكان يتلاهى بالخروج للصيد ونحوهِ وهو لا يهدأ له بال وادرك عبدالله فيهِ ذلك وهو يتجاهل وينتظران ينفرد حماد من هند ويلتمس العدول عنها من تلقاء نفسهِ وقد فاتهُ قول القائل

واذا تألفت القلوب على الهوى * فالناس تضرب في حديد باردِ

فكان يصاحبهُ الى الصيد ويكثر من محادثتهِ في شؤون مختلفة الاَّ مسألة هند فانهُ لم يكن ينفتها قط . ولم تمض ايام حتى سمعا بانهزام الروم في اليرموك فصارا يتوقعان سرعة رجوع سلمان

ففي ذات يوم نهض حماد صباحاً واخذ يتهيأ للخروج الى الصيد وفيما هو يفتش بين اثاثهِ وسلاحهِ عثر على الدرع التي البستهُ اياها هند يوم السباق ولم يكد ينظر اليها حتى اختلج قلبهُ لما مرَّ في ذاكرتهِ من حوادث الحب فعظم عليهِ احتباسهُ في بصرى لا يعلم مقرَّ حبيبتهِ مع ما ظهر لهُ من جفاء والدها وفتور والدهِ ( عبدالله ) وما قام من الحروب مما زاد الامر اشكالاً . فوقف برهة ينظر الى الدرع ويقلبها بين يديهِ وهو غارق في بحار الهواجس حتى غلب عليهِ اليأس وكادت الدموع تتناثر من عينيهِ وكان عبد الله غافلاً او متغافلاً عن ذلك وقد خرج لقضاء حاجة لهُ وترك حماداً في الغرفة وحدهُ

فلم يكد حماد يخلو بنفسهِ حتى سمع صهيل جواد غير جوادهِ وغير جواد عبد الله فانتبه بغتة واطلَّ من النافذة فاذا براكب ترجَّل ودنا من الباب وهو في ريب من امر اهلهِ فامعن حماد نظرهُ فيهِ فلم يعرفهُ فلاقاهُ الرجل بالباب وقال هل هنا منزل الامير عبدالله العراقي

قال حماد نعم هو هنا

قال واين ابنهُ الامير حماد

قال هو انا ماذا تريد

قال ان بعض الناس في حاجة اليك ينتظرونك في دير بحيراء

فلما سمع حماد ذكر الدير خفق قلبهُ واستبشر بقدوم القادم فقال للرسول اني سائر

الى هناك على عجل فودعهُ وركب وعاد حالاً

فاسرع حماد في لباسهِ قبل ان يأتي عبدالله ولكنهُ لم يكد يخرج حتى لقيهُ عبدالله فاستغرب ركوبهُ قبلهُ فاعتذر بانهُ يود الخروج لزيارة الدير وحدهُ فاذعن لهُ وهو في ريب من الامر

فهمز حماد جوادهُ ولم يقف الاَّ امام باب الدير فرأى هناك فرساً عرف انهُ من افراس اهل صرح الغدير فاستبشر ودخل الدير يطاول بعنقهِ ويحدق بعينيهِ فرأى امرأة عرفها لاول وهلة انها من خادمات هند وهي التي حملت اليهِ الرسالة الاولى قبل ذهابهِ الى بصرى

فحيتهُ وهمت بتقبيل يدهِ فرد السلام ولسان حالهِ يقول قولي ما خبرك . فمشت امامهُ الى غرفة هناك فسعها فلما وصلا الغرفة مدت يدها الى ثيابها واستخرجت منديلاً دفعتهُ اليهِ وهي تقول ان سيدتي هنداً تسلم عليك وقد ارسلت اليك هذا المنديل . فتلقى المنديل بين يديهِ فاذا فيهِ كتابة كتبت بالدم بالاحرف النبطية وهي قولها « لم نكد نفرح بنجاتنا من ذلك الثعلب حتى عاد الى مصاحبة والدي وعاد الى مطلبهِ الاول وانت تعلم ان الموت اهون مراساً عليَّ من ذلك فادركني قبل فوات الفرصة فاني مقيمة في دمشق ولعل حامل كتابي ان يبدك ايضاحاً » فلم يفرغ من قراءة هذه الكلمات حتى ارتعدت فرائصهُ والتفت الى المرأة يستطلعها الخبر فقالت ان مولاتي هنداً مقيمة في دمشق في منزل قرب كنيسة مريم وقد بعثتني بهذا الكتاب واوصتني بان اسلمهُ اليك يداً بيد في هذا الدير فبعثتُ الرجل حتى اتى بك من بصرى وهذا هو الكتاب

قال نعم قد قرأتهُ ولكنني لم افهم حقيقة المراد فهل ثعلبة الآن في دمشق

قالت كلاَّ بل هو مع سيدي جبلة في جند الروم بحمص

قال وما الذي جمعهُ بالامير جبلة وقد كنت اعلم انهما متخاصمان

قالت نعم انهما كانا متخاصمين ولكنهما تصافيا بعد انكسار جنودها في واقعة اليرموك

فقال حماد وكذلك يتصافى العدوّان اذا اصيبا بسوء معاً . وماذا جرى بعد ذلك

قالت وكنا مقيمين في دمشق مع سيدتي هند ووالدتها وسائر الحاشية كما ذكرت لك فلم ندر الا وكتاب وارد من سيدي الامير جبلة الى سيدتي الاميرة سعدى يدعوها

بقرب قدومو مع ثعلبة الى الشام لعقد اقترانو على هند في اثناء مهادنة العرب فلم تنمالك سيدتي عند تلاوة الكتاب عن ان تخبر هندًا بو فاسرّت سيدتي هند اليّ واقعة الحال وبعثتني في هذه المهمة واوصتني ان اقفي اليك الامر كما وقع لتتدبر في انفاذها فانها تفضل الموت على الاقتران بو

فلما سمع حماد ذلك الحديث ثارت الحمية في رأسو واتقدت نيران الغيرة في قلبو ووددّ لو ان لهُ اجنحة ليطير الى دمشق حالاً ولكنهُ لبث برهة يفكر ثم قال للمرأة وابن ثعلبة الآن

قالت هو مع سيدي جبلة بجوار حمص ولكنني اظنهُ اقلع قاصدًا دمشق

فازداد قلقًا واخذ يخطر في الغرفة ذهابًا وايابًا ثم قال لها ارجعي الى سيدتكِ واخبريها اني قادم اليها على عجل وربما وصلت دمشق قبلكِ

قالت وماذا تؤكد لها اني لقيتك وقصصت عليك الخبر ألا تذكر لها علامة تبين لها ذلك

ففكر قليلاً ثم قال قولي لها ان صاحب البُرد والخاتم قادم اليكِ وهذا يكفي

فودعتهُ وركبت وركب الخادم ورجعا

اما هو فوقف يفكر في حالهِ مع عبد الله وتردد بين ان يعود الى بصرى فيخبره بجلية الخبر او ان يسير توًّا الى دمشق فلبث برهة في حيرة حتى خاف ان تفوتهُ الفرصة فذهب الى غرفة الراهب الشيخ فاذا هو متكئ فحيّاهُ فرحب بو وسألهُ عن امره فقال لقد جئتك بوصية ارجو ان تبلغها الى الامير عبد الله

قال وما ذلك

قال اذا لقيتهُ قل لهُ اني سرت الى دمشق لامر هامّ وساعود اليهِ فاذا استبطأني فليدركني هناك

قال سافعل ذلك ان شاء الله

وودّعهُ حماد وخرج على جواده قاصدًا دمشق

# الفصل الثمانون

## ﴿ هند في دمشق ﴾

فلنترك حمادًا سائقًا فرسه الى دمشق ولنذكر ما تمّ لهند بعد سفرها من صرح الغدير فقد تركناها بعد وداع حماد حائرة منقبضة النفس وقد خافت ذهاب آمالها ادراج الرياح لما آنسته من جفاء والدها على اثر ما سمعهُ عن نسب حماد . فلم يكد يتوارى حماد عن عينيها حتى احمت بانخلاع قلبها فانزوت في غرفتها وعادت الى البكاء وكان والدها في شاغل بأمر اهل القصر بالاستعداد للمسير في صباح الغد فجاءت سعدى الى غرفة هند وقد ادركت حالها وتوقعت بكاءها فاخذت تطيب قلبها وتوّعدها بالوعود وهند لا تزداد الاّ بكاء فقالت سعدى لا يفيدنا البكاء يا ولداه وانما نحن في موقف حرج لا بد لنا فيهِ من الحكمة فاصبري وتبصري عسى ان تكون العاقبة خيرًا

فتنهدت هند وصاحت بها « دعيني يا اماه لقد كفاني ما قاسيتهُ من انواع الشقاء وما سمعتهُ من الوعود فقد كان ذكركم في رمضو جهلكم نصبة ثم قبلتموهُ على غموض نسبهِ فما بالكم وقد علمتم بشريف اصلهِ تترددون اليس ذلك لسوء حظي وللشقاء الذي كتبهُ الله عليّ » قالت ذلك واوغلت في البكاء فبكت سعدى لبكائها ولكنها تجلدت وطيبت خاطرها وقالت لها اسكتي لئلاّ يسمع والدك صوت البكاء فيزيد الحرق اتساعًا اما انا فاني ضامنة لك ما تريدين فان حمادًا لك وانت لهُ فلا تجزعي واخذتْ تخفف عنها حتى سكن روعها ومسحت آلامها ولبثت صامتة وقد ذبلت عيناها وتعكرتا وتكسرت اهدابها واخذت تراجع في ذاكرتها ما مرّ بها من الاهوال بسبب الحب وكيف كانت قبل ذلك الصباق خالية الذهن ساذجة لا تعرف متاعب الهوى وكانت تتعزّى بما ترجوهُ من لقيا الحبيب ولكنها تذكرت انهُ خرج من الصرح منقبض النفس منكسر القلب فكتبت اليهِ ذلك الكتاب الى دير بحيراء تلتمس صبره

وفي اليوم التالي سافر اهل الصرح جميعًا الى البلقاء فاقاموا هناك الاّ جبلة فانهُ سار الى الامبراطور هرقل في حمص فامرهُ باعداد الرجال من غسان وغيرهم وكان

ثعلبة قد ضعف امره واهلة جبلة لما قام بينهما من الضغائن بعد وفاة الحارث ولكنه اصبح بعد ما عرفه عن نسب حماد ميالاً الى مصافاة ثعلبة لعلة يتزوج هندًا فيبقى ملكه من الخروج الى المناذرة . فلما احتاج الى الرجال من غسان اضطر الى استقدام ثعلبة فكتب اليه فجاء برجاله وانضم الى رجال جبلة وهما على ظاهر التنور ثم علم جبلة بقدوم المسلمين الى اليرموك و بصرى فخاف على اهله في البلقاء فاستقدمهم الى دمشق واسكنهم بيتًا مع نساء بعض اصدقائه من رجال الروم هناك بقرب كنيسة مريم . واشتغل هو في حرب اليرموك وغيرها فلما قضي على جنده بالانهزام في وقعة اليرموك شعر بزيادة الميل الى مصافاة ابن عمه ثعلبة وذلك طبيعي في جسم العمران بل هو جارٍ في سائر انواع الحيوان فاذا رأيت ديوكًا في منزلك تخاصم وتضارب وقد عسر عليك مصافاتها اجمعها في قفص وامنع الطعام والماء عنها فلا تلبث ان تراها قد اصطحبت وتصافت . كذلك الناس فانهم لا يزالون في خصام وبغار حتى يصيبهم سوء و يقعوا جميعًا في مصيبة واحدة فتراهم قد تألفت قلوبهم واغضوا عن السوابق . فلما اصيب الغساسنة في اليرموك اجتمع جبلة وثعلبة للنظر في احوال الجند وكان ثعلبة قد ذاق مرارة الجفاء وصغرت نفسه فلما رأى من ابن عمه مؤانسة وتقربًا زاده رقة وامتناسًا فاجتمع قلباهما . ولم تطل المصافاة قبل ان جرتهما الى حديث الافتران فتعاتبا وتشاكيا لما مرّ من الجفاء بينهما فاعتذر كل منهما عذارًا انحلها لنفسه وكان ثعلبة اكثرهما مرورًا بذلك لانه اصبح بعد موت والده ضعيفًا مرذولاً . وقد علم انه اذا تزوج هندًا كان الوارث الوحيد لرئاسة غسان جميعًا وكان قد درس اخلاق عمه جبلة وعرف اميال قلبه فتظاهر بما يطبق على نياته حتى حبب اليه مصاهرته ووعده بهند

اما جبلة فانما حمله على مصاهرة ثعلبة استبقاء الحكومة في بني غسان وانقاذها من المناذرة ولولا ذلك لما رأى في ثعلبة ما يقربه منه او يفضل به حمادًا

فلما تحقق ثعلبة رضاء عمه عنه سأله عن يوم الافتران فقال جبلة ارى ان يكون بعد انقضاء الحروب بيننا وبين المسلمين

فقال ثعلبة ولكن تلك المدة لا حدّ لها يعرف وما ادرانا متى تنقضي وكيف برتاح بالنا واهل البيت مقيمون في دمشق ونحن لا نستقر على حال فاذا رأى عمي ان نستعجل الافتران كان ذلك اقرب الى جمع الشمل

فاجابهُ جبلة الى مرامهِ وكانا بجوار حمص بعد وقعة اليرموك فكتب جبلة الى سعدى ينبئها بنتيجة ما دار بينهُ وبين ثعلبة وبين الوجه الذي حملهُ على اختياره دون حماد فقال « وفي زواج هند بثعلبة نستتبي الملك في الغساسنة ونخلصهُ من خطر الوقوع بين ايدي المناذرة » واوصاها بالذاهب لعقد الاقتران قريباً ولم تتم سعدى قراءة ذلك الخبر حتى تناثرت الدموع من عينيها لما تخشاهُ على هند اذا علمت بما نواهُ والدها واعادت تلاوة الكتاب بتمعن فادركت سبب تغير زوجها على حماد وندمت على ما فرط منها من اطلاعهِ على حقيقة نسب حماد وشعرت انها هي السبب في كل هذه المتاعب فرأت انها مطالبة شرعاً بانقاذ ابنتها من مخالب ثعلبة فضلاً عما في نفسها من الاحتقار لهُ فاخذت تفكر في طريقة تصل بها الى ذلك والوقت ضيق لا يأذن بالصبر والتؤدة وكانت هند تلاحظ فيها ارتباكاً وتسألها عن السبب فتتجاهل وما زالت سعدى في مثل ذلك يومين كاملين حتى خامت فرصات فرأت اخيراً ان تستقدم حماداً على عجل وهند لا تعلم فاذا حضر شاورتهُ في الامر . فكتبت الى حماد الكتاب الذي تقدم ذكرهُ بحبر من الدم استخفافاً لهُ على القدوم وبعثت الكتاب مع خادمة يعرفها حماد كما تقدم

# الفصل الحادي والثمانون

## ﴿ حصار دمشق ﴾

ولم يتوار حماد عن بصرى حتى ادرك صعوبة المسير الى الشام وحدهُ وهو لم يطرق تلك البلاد الاَّ قليلاً . واقرب الطرق بين هاتين المدينتين تمرُّ في حوران واللجا وكلا الصقعين وعر خطر وهناك طرق اخرى تحالف بعداً ووعورة فلم ير لهُ بدّاً من اصطحاب الدليل فاختار دليلاً من سكان بصرى فسار شمالاً يقطع الجبال والاودية والسهول والغابات لا يبالي الاَّ قليلاً ولكنهُ تاه مرة فاضاع يوماً كاملاً حتى اهتدى الى الطريق فبعد بضعة ايام اشرف صباحاً على غوطة عظيمة وقد استقبلها بوجهه والشمس من ورائهِ فظهرت لهُ ظهوراً واضحاً فاذا هي بساتين واسعة الاطراف فيها الاعناب

المشمش والرمان واللوز والبرتقان والخوخ والسفرجل والكرم وسائر اصناف الفاكهة تجري بينها الانهار وتتناغى فوقها الاطيار وظهر له من وراء تلك الغوطة ابنية تتوارث وراء الغبار . فوقف ينظر الى ما حوله وقد تعب جواده فسأل دليله عن تلك الابنية وهذه الغيطان فقال انك يا مولاي في غوطة دمشق المشهورة بغياضها وبساتينها ومياهها وما تلك الابنية التي تتبدى لك من وراء الغوطة الا دمشق الفيحاء مقر والي الرُّوم

فقال حماد وما هذا الغبار الذي يكاد يحجب المدينة عنا

قال لا ادري ما هو ولعلهُ غبار جنود الروم وقد خرجوا للسباق او هو غبار جنود المسلمين فقد بلغني بالامس من بعض القادمين من جهات اليرموك ان المسلمين لما غلبوا الرُّوم هناك عزموا على دمشق ولا يبعد انهم جاؤوها وحاصروها

فاستعاذ حماد بالله وخاف ان يكون كلام الدليل صوابًا فيمتنع عليهِ الدخول الى المدينة وربما وقع بين ايدي المسلمين اسيرًا ولا يدري ما يفعلون منهم فتذكر سلمان لاحتياجه اليهِ في تلك الحال وندم لمجيئهِ منفردًا ولم يرَ لديهِ من يستشيرهُ ويعتمد عليهِ غير ذلك الدليل وكان الدليل شابًا من عرب الغساسنة المقيمين في بصرى في العشرين من عمرهِ يتكلم العربية واليونانية فقال لهُ حماد أتعرف دمشق وهل دخلتها قبل الآن

قال اعرفها جيدًا وقد اقمت فيهـا اباماً وكثيرًا ما جئتها مع والدي لوفاء النذور او الصلاة في كنيسة ماري يوحنا المعمدان

فقال حماد وهل تعرف كنيسة مريم

قال نعم اعرفها فانها في شارع مستقيم طويل يقطع المدينة من طرفها الشرقي الى الطرف الغربي اي من الباب الشرقي الذي يستقبلنا عند اوّل وصولنا المدينة الى الباب المقابل لهُ في الطرف الآخر منها في الغرب و يقال لهُ باب الجابية

فاستبشر حماد باصطحاب هذا الدليل ليستعين بهِ في الوصول الى منزل هند فاخذ يتلطف في معاملتهِ و يسترضيهِ بالاكرام والهدايا وهو يزداد رغبة في خدمتهِ و بعد ان وقفا برهة ركب حماد وسار الدليل في ركابهِ وسارا في الغوطة والاشجار تظللها ولم يسيرا قليلاً حتى غابت المدينة عنهما ثم اشرفا على مرتفع اطلاً منهُ على سهل امام دمشق فرأيا بالخيام والاعلام والخيول والرجال قد ملأت ذلك الفضاء

فامعن حماد نظره فاذا هي اعلام المسلمين وخيامهم وتحقق ذلك مما شاهد وراءها من مرابض الجمال ومساكن النساء فايقن بعرقلة مساعيه وعلم انه لن يستطيع الدخول الى دمشق وخاف المسير الى معسكر العرب لئلاّ يستغشوه فيلحظوا به ضررًا فوقف حائرًا لا يدري ماذا يعمل وفيما هو بهمٍّ باستفهام الدليل عن سبيلٍ يدخل به المدينة سمع قرقعة لجم ووقع حوافر خيول على الحصى في جدول جفّ ماؤهُ بين الاشجار فاوجس خيفة وحوّل عنان جواده نحو الصوت وتهيّأ للدفاع والدليل فانحدر بين الاشجار ينشوف من خلالها وحماد يصيخ بسمعه فلم يكد يقف هنيهة حتى سمع صوتًا يناديه باسمه فخفق قلبه لاستئناسه بذلك الصوت فاجابه للحال « من انت » ثم ادرك انه صوت الامير عبدالله ولكنه استبعد ان يراه هناك وعهدهُ به مقيم في بصرى ثم ما لبث ان رآه قادمًا على جواده ووراءه فارسان عربيّان فخفق انه هو بعينه واحس بانفراج الازمة واستغرب مجيئه فاذا بعبدالله قد ترجل وضمّ حمادًا وقبّله

فقال حماد ما الذي جاء بك يا أبتاه

قال جئت لحراستك يا مولاي وقد علمت من الراهب الشيخ انك شخصت الى الشام فاسرعتُ اليك لعلمي بما قد تلقاه من العراقيل في سبيل الدخول اليها وقد صادف ظني محلهُ وشكرت الله لمجيئي لاني رأيت العرب محدقين بالمدينة وقد حاصروها حصارًا شديدًا ولولا سابق معرفتي بخالد بن الوليد لما تمكنت من خدمتك وقد مضى عليّ يومان اطوف هذه البقاع ومعي هذان الفارسان توقع وصولك لنسير بك الى خالد وقد امنّا ووعد بحياطتنا

فشكر له حماد واثنى على غيرته وسأله عن حال المدينة فقال انها في حصار شديد لا يدخلها ولا يخرج منها احد . وانت ما الذي جرّك الى هذه المخاطرة . فقصّ عليه حكايته واطلعه على كتاب هند والخجل ظاهرٌ على وجهه

فحدثته نفسه ان يثنيه عزمه عن هند ولكنه علم انه لن يصادف منه اصغاء فضلا عما قد يلحقه اليه من التستر في اعماله فشجعه وقال له لا بأس عليك يا ولدي فان ثعلبة لم يستطع دخول المدينة ولن يستطيعه

فقال وما الذي انبأك بعدم دخوله

قال لم يبقني احد ولكنني عرفت ان الغساسنة كلهم وفيهم جبلة وثعلبة مقيمون في حمص خوفاً من هجمات المسلمين وكان هرقل قد انضم مع جند الروم لنجدة دمشق فلم يستطيعوا دخولها فعادوا على الاعقاب (١)

قال وما العمل الآن

قال هلمّ بنا الى معسكر خالد فانهم يتوقعون عودتنا لنقيم بينهم ونكون في ذمتهم الاّ اذا احببت الرجوع الى بصرى فان ذلك آمن لنا وابقى

فصمت حماد ولسان حاله يقول « كيف اعود عن دمشق وهند محصورة فيها » فابتدرهُ عبدالله قائلاً لا بل ارى ان نقيم مع المسلمين لعلنا نستطيع امرًا ننقذ به هندًا من الخطر . فاسرعت اسرة حماد لما آنسته من مجاراة عبدالله فقال . نعمّ الرأي رأيك فهلمّ بنا . وهموا بالمسير نحو دمشق فقال الدليل هل ترى حاجة اليّ بعد الآن يا سيدي

قال حماد نعم ارى ان تدنى معنا لعلنا نحتاج اليك في شيء ونحن في مأمن ولك علينا خير مكافأة

فاذعن وسار معهم وفيما هم سائرون بين الغياض خاطب حماد عبدالله بلسان اهل العراق لئلاّ يفهم الفارسان . هل ترى جند العرب كثيرين حول دمشق

قال هم عديدون وقد تفرقوا فرقًا احداها فرقة خالد عند الباب الشرقي في الشرق والاخرى فرقة ابي عبيدة عند باب الجابية في الغرب والثالثة فرقة عمرو بن العاص عند باب الفراديس وفرقة شرحبيل بن حسنة عند باب آخر وفرق اخرى عند الابواب الاخرى وهناك فرقة يقودها جبار عبيد ينال له ضرار بن الازور تطوف حول الاسوار (٢) ويخال لي ان الروم لا يستطيعون الصبر على الحصار

وما زالوا سائرين حتى اشرفوا على معسكر العرب عند الباب الشرقي فرأوا الخيول والجمال ترعى في البساتين ومعها العبدان والخدم ورأى النساء في اخبيتهنّ يتحدثن بامر الجهاد ومنّ مختلفات الهوا شتياق الابطال الى ساحة القتال

فلما وصلوا المعسكر انوا فسطاط خالد فدخله عبدالله وحماد بلا معارض وكان خالد جالسًا في صدر المكان فرحب بهما ودعاهما للجلوس فنظر حماد الى من في الفسطاط فرأى روماس صاحب بصرى الى جانب خالد وقد تعمم بالعمامة وتزمل

(١) ابن الاثير (٢) الواقدي

بالرداء العربي وغادر القلنسوة والطيلسان وكان خالد قد استقدمه معه ليترجم بينه وبين الروم فتهيب حماد من مجلس خالد ومن احدق به من الامراء وفيهم جماعة كبيرة لم يعرفهم ولكنه رأى الشجاعة والاقدام تلوحان على وجوههم

فتقدم عبدالله الى خالد فعرّفه بحماد فاثنى خالد عليه وقال ان غلامك سيزداد زينة بالاسلام . فسكت عبدالله ولم يجب

اما حماد فلم يكن همه الاّ هند وحالها في دمشق ولو لم يطمئنه عبدالله ببعد ثعلبة عنها لما صبر على البقاء هناك ولكنه ما فتئ يفكر بحيلة يدخل بها المدينة ليرى هندًا ويطمئنها ويسعى في انقاذها

وبعد قليل استأذن عبدالله خالدًا بالخروج الى خيمة اعدت له فخرج وخرج حماد معه حتى اتيا الخيمة فقال حماد وما الرأي الآن اني ارى هندًا في خطر ونحن في مأمن فلا بد من حيلة ندخل بها المدينة

قال تمهل يا سيدي لعلنا نتوفق الى ذلك في الغد . وباتوا تلك الليلة وافاقوا في الصباح على اصوات الأذان والصلاة فقال عبدالله لا اراك تستطيع شيئًا طالما كنا في هذا المعسكر هلم بنا الى معسكر ابي عبيدة عند باب الجابية لعلنا نرى خبرًا فمشيا كأنهما من الجند وتركا الدليل في الخيمة حتى اتيا معسكر ابي عبيدة فدعاهما الى خيمته وكان عبد الله قد عرفه وسمع بسهولة اخلاقه وطول اناته ورغبته عن سفك الدماء فبعد السلام والترحاب قال عبد الله الا يرى مولاي مخاطرة هؤلاء الروم بامر الصلح عسى انهم يسلمون ويكفونكم مؤونة الحرب

قال ابو عبيدة اني ارغب الناس في ذلك ولكن خالدًا يطرب لمقارعة السيوف ومصادمة النبال

فقال عبدالله وما ضرّ لو انفذت اليهم احدًا يستطلع رأيهم وانت رئيس هذه الجنود والمتصرف فيهم

فقال لا ارى بأسًا في ذلك الاّ انهم يحسبوننا خائفين

قال ارسلوا من يستطلع رأيهم اذ قد يكونون راغبين في الصلح وهم يحسبونكم لا ترضون به فاذا صار اليهم احد فليكن كلامه من عند نفسه

قال ومن لنا بمن يعرف لسانهم

قال لا اظننا نعدم وسيلة . وكان حماد قد تعلم شيئاً من اليونانية في اثناء اقامته في بصرى وهمّ عبدالله بان يشير بارسال حماد ولكنه جزع عليه فلبث صامتاً فابتدره حماد قائلاً اني اقدم نفسي لهذه المهمة

فقال ابو عبيدة ولكنك تسير اليهم سرًّا فاذا فزت بمهمتك انحجبت الدماء على يدك والاّ فاننا باقون على حالنا من الحرب . واعلم ان قائد جند الروم هناك رجل اسمه توما هو صهر الامبراطور هرقل (١) فسر اليه واستطلع رأيه من قبلك فاذا رأيت فيه ميلاً الى التسليم انبئني

فسرّ حماد بهمته وخرج من فسطاط ابي عبيدة وعبدالله معه فناداها ابو عبيدة فعادا فقال لحماد اذا سرت انت بني والدك عندنا رهناً فان النفس امارة بالسوء . فرضيا وخرج حماد وحدهُ وبقي عبدالله هناك وقد ندم لما جرّه على حماد وعلى نفسه من الخطر وضاق صدره وخاف العاقبة

اما حماد فانه حمل علمًا ابيض وركب جواده واسرع نحو المدينة فلم يتبين الاسوار حتى رأى جماهير الناس عليها وفيهم القسس بصلبانهم والجند باعلامهم ورأى بعضهم يهمّ ان يرميه بالنبال فاشار اليهم عن بعد انه انما جاء مسالمًا فكفوا عن اذاه حتى اذا دنا من الباب هالهُ عظمهُ فقد كان عبارة عن ثلاثة ابواب صمَّا واحدًا المتوسط منها كبير ذو قنطرة واسعة والى جانبيه بابان صغيران وفي اعلى الباب صورة النسر الروماني تحتهُ كتابة باليونانية وفوق النسر جدار السور وفيه مرامي النبال والناس يتزاحمون فوقها تتلألأ البسنهم بالوانها الحمراء والزرقاء مما يدل على البذخ والترف وفوق رؤوسهم الخوذ من الفولاذ . فناداهم بلسانهم انهُ يريد الوصول الى رئيسهم

## الفصل الثاني والثمانون

### ﴿ داخلية دمشق وحال الرُّوم فيها ﴾

فنزل اليه جماعة ففتح له احد البابين الصغيرين فدخل بجواده وملاحه فاحدق به الرجال فتهيب لذلك الموقف ولكنهُ تجلد وطلب ان يرى البطريق توما فقالوا انهُ في قصره

(١) الواقدي

بالقرب من كنيسة ماري بوحنا فترجل ومشى في شارع عريض قد استطال على استقامة واحدة يمتدئ بالباب الاوسط ولا يكاد يرى آخره وارضهُ مرصعة بالحجارة الصوانية الضخمة والى كل من جانبيهِ رصيف عريض اولهُ عند احد البابين الصغيرين وعلى الرصيف عمد فخيمة من الرخام متراصة على طول الطريق . ولم يكن حماد دخل الشام قبل ذلك الحين فرأى فيها من العظمة ودلائل المدنية مالم يرَ مثلهُ في بصرى

فما زال سائرًا وحولهُ الحفر واهل المدينة يطلون من الشرفات والنوافذ ينظرون اليهِ ويتحدثون بامرهِ وهو يلتفت يمنة ويسرة لعلهُ يرى هندًا بينهم وكلما وقع نظرهُ على انثى ظنها هي وكان يخترق الصفوف بلحظهِ لعلهُ يرى قبة او كنيسة على امل ان تكون كنيسة مريم حيث تقيم هند حتى مرَّ بكنيسة علم من بعض حديث القوم انها الكنيسة المشار اليها فخفق قلبهُ وشاعت عيناه وهو يلتفت الى ما حولها من النوافذ فرأى جموعًا ولكنهُ لم ير هندًا بينهم فسار والناس حولهُ يتحادثون بلسانهم وقد علت الصوضاء بتخللها قرقعة حوافر الخيل على البلاط

وبعد ان سار ولي برهة انعطفوا الى شارع آخر فآخر حتى وصلوا الى باب كبير يحف بهِ الخدم والاعوان فوقفوا عندهُ فعلم انهُ باب القصر فانفذوا بعض الحرس يمهدُ الطريق لقدوم الرسول فاباحوهُ فامر بادخالهِ عليهِ فجردوهُ من سلاحهِ فدخل وركبتاهُ ترتعشان لهول ما يتوقعهُ بلافاة ذلك الرجل فدخلوا بهِ الى صحن الدار فاعجبهُ ما رآهُ في ارضها من النقوش الجميلة وفيها صور وقائع وهيئات آدميين وحيوانات بالفسيفساء بالوان بديعة متراصة قطعًا صغيرة بصناعة فائقة . وفي وسط الدار بركة من الرخام يتدفق الماء منها . ثم دخلوا بهِ قاعة مفروشة بالرياش الثمين ما يبهر النظر وعلى جدرانها وسقفها صُور بعض القديسين وصورة الامبراطور هرقل بتاجهِ وصولجانهِ وصور اخرى دينية . ورأى على النوافذ الاستار من الديباج والحرير المزركش بالقصب والارض مكسوة بالسجاد والطنافس عليها رُسوم الاسود والنمور والخيول في أبدع ما يكون . فدعوهُ الى الجلوس هناك ريثما يخرج اليهِ البطريق فجلس يتوقع قدومهُ وهو يهوّن على نفسهِ ويتجلد حتى سمع وقع اقدام كثيرة ورأى اهل القصر في هرج وتزاحم فعلم ان الرجل قادم ثم رآهُ وقد دخل القاعة فاذا هو طويل القامة عظيم الهامة كثير الهيبة وطيلسانهُ يكاد يجر وراءهُ وسيفهُ الى جنبهِ وهو في رداء قصير الى ركبتيهِ

كثير الالوان مزركش بالذهب . وعلى رأسهِ قلنسوة اشبه بالتاج مرصعة بالحجارة الكريمة فحالما رآه حماد وقف اجلالاً لهُ وتقدم نحوهُ متأدبًا فنظر توما اليهِ بعينين حادتين يكاد النور ينبثق منهما فهاب حماد منظرهُ ولكنهُ تظاهر بالتجلد وحيّاه بتحية الملوك وصبر حتى جلس وامر لهُ بالجلوس فجلس حماد وهو يفكر في ما يبدأ بهِ من الحديث

فابتدرهُ البطريق قائلاً العلك من هؤلاء العرب المغتربين

قال كلا يامولاي اني غريب الديار وقد وقعت بين ايديهم بالاتفاق

قال لقد لاح لي ذلك من شكل لباسك فاني اراك حسن البزة وهؤلاء على ما اعلم حماة عراة ولم يسقهم الينا الاَّ قرب آجالهم . هل انت على دينهم الجديد

قال كلاَّ يامولاي اني على دين النصرانية قال ذلك واستخرج من بين اثوابهِ صليبًا من الذهب معلقًا بسلسلة في عنقهِ

قال العلك من الغساسنة

فتحير حماد في الجواب مخافة ان يكون في تصريحهِ بالصدق ما يوغر صدر البطريق عليهِ وقال اني غريب الديار ولكني مقيم في بصرى الآن

فقال ومن اي البلاد انت

فتذكر حماد الصلح الذي ابرم بين الفرس والروم على اثر الحروب الاخيرة فقال اني من اهل العراق ولما تمَّ الصلح بين ملكنا وجلالة الامبراطور هرقل قدمت الى البلقاء

فقال توما وما الذي جاء بك الينا . قال ذلك ودلائل الاهتمام ظاهرة على وجههِ باقطاب حاجبيهِ وتفرسهِ

فهاب حماد منظرهُ ولكنهُ تذكر انهُ ملك ابن ملك فعادت اليهِ افانة الملوك فقال اذا اذن مولاي بجملة بسطت لهُ بها رأيي وكان في مجلس البطريق بعض الحاشية فاشار اليهم فخرجوا وجلس البطريق الى جانبهِ . فقال حماد اقسم لمولاي بحرمة الصليب والمعمودية اني انما جئت اليهِ انوي لهُ ولدولة الروم خيرًا

قال لقد صدقت قل ما في نفسك

قال اني رأيت معسكر هؤلاء العرب وخبرت صبرهم في ساحة القتال واستهلاكهم في سبيل الجهاد فخفت ان يطول الحصار فيصيب هذه المدينة جهدًا وقد عرفت قائد جند العرب الاكبر وهو رجل ميال الى السلم رغاب في حقن الدماء فقلت في نفسي لعلي اذا

توسطت في امر الصلح بينكما ان افعل خيرًا فاحتلت في دخول المدينة لاعرض هذا الامر عليك

فلم يكد حماد يتم حديثه حتى بدت ظواهر الغضب على وجه توما وقد اقشعر حاجباه وتململ في مقعده ونظر الى حماد بعينين براقتين يكاد الشرر يتطاير منهما وقال وحرمة الصليب وصاحب هذه الكنيسة ( واشار الى كنيسة مار يوحنا بالقرب من القصر ) ورأس الامبراطور هرقل لو لم تسبق الى اسماعي بمصارعتك لارتسمت بحقيقة مقاصدك كيف تدعونا الى صلح قوم ساقهم القدر اليها وغرهم الجهل في مبارزتنا أتخالهم يحسنون مثل حامية بصرى التي خانت ملكها وسلمت اليهم ألم تكن لهم عبرة برجوعهم عن اسوار هذه المدينة خاسرين منذ بضعة اسابيع (١) ( ثم نهض وهو يقول ) اني ساعلمهم كيف حرب الروم منذ اليوم . قال ذلك وبدأ على قبضة حسامه وهو يحطر في الغرفة قصدًا

فكبر ذلك الانتهار على حماد وجرت دماء الملوك في عروقه وحدثته نفسه ان يغلظ له بالمقال ولكنه علم اذا فعل ذلك انه ماثث لا محالة فصبر نفسه وكظم غيظه وقال ان الصلح لا يحط من قدر رجال الحرب ولا اخالك سيدي تجهل اجهل بعض الروم وشدة بأسهم ولكني ظننت في الصلح حيًا لدمائنا فاذا كنتم تريدون الحرب فانتم اصحاب الامر

وكان توما لا يزال واقفًا فلما سمع مقالة حماد جلس الى مقعده آخر ريثما لاتزول على قبضة حسامه وقال لولا اني بحسن نيتك لما اقتحمت عليك ولكنك مع ذلك مذنب في حاشيتي حتى ترى عاقبة الغرور وترى حال هؤلاء العرب في عرسنا

فاستعاذ حماد بالله من هذا السجن وكان في حسبانه ان يضاق سراحه فهمش عن هند فندم على مجيئه وظل صامتًا فسمع البطاريق ينادي بعض رجاله فلما حضروا وصاه ان يحتفظ بالرسول ويستبقيه في حاشيته ريثما يأمر امرًا آخر . قال ذلك وهو ج مسرعًا غضبًا وسيفه يقرقع على البلاط وراءه وطيلسانه يكاد يتطاير عن كتفيه وتبعه حماد وخفيره في القاعة برهة ثم اشار الخفير اليه فخرجا واختلط حماد بالحاشية كواحد منهم لا يؤذن له بالخروج من القصر الا معهم فلبث يتسقط الاخبار ويتوقع الفرج

وفي مساء ذلك اليوم سمع اهل النصر يتحدثون بصوم توما على الصلاة في كنيسة

(١) الواقدي

يوحنا في صباح الغد وهو صباح الاحد وانهُ دعا رجال حكومتهِ واعيان المدينة للاجتماع فيها فامّل حماد ان يتسم خبرًا عن هند هناك

# الفصل الثالث والثمانون

## ﴿ كنيسة ماري يوحنا ﴾

ولم يكد ينبق في صباح اليوم التالي حتى سمع دق النواقيس في سائر كنائس المدينة ورأى اهل القصر يتهيأون للذهاب الى الكنيسة فسأل خنيره عن ذهابهِ فقال تعالَ معنا ان الصلاة لا تمنع عن طالبها ولم تمض برهة حتى خرج توما باحسن ما يكون من اللباس فمشى وحولهُ الاعيان والوجهاء ورجال الدولة بافخر الابسة من الحرير المزركش على اجمل الوانهِ وازهاها

وكانت الكنيسة على مقربة من القصر فلم يكن الاَّ القليل حتى وصلوها فاذا هي محاطة بسور عظيم الارتفاع يوقع في النفس رهبة فدخلوا منهُ الى باب الكنيسة الجنوبي وهو كبير مرتفع الاعتاب فدخلوا منهُ الى صحن الكنيسة وهو فسيح مبلط بالرخام الملوَّن طولهُ نحو ٢٠٠ خطوة وعرضهُ ١٥٠ (١) وتحيط بهِ الاروقة وفيها الاعمدة الهائلة من الرخام الابيض النقي او الغرانيت الملوَّن باحسن ما يكون من الدقة تعلوها تيجان جميلة الصنعة على النمط الروماني اكثرها محلى بالذهب. حتى اذا اشرف على الهيكل حيث تقام الصلاة بهِ ما على جدرانهِ من الصور البديعة بالالوان الطبيعية وفيها الذهب فضلاً عن النقوش الجميلة من الفسيفساء البلورية بالالوان البديعة. وكان حماد كبقية النفر تمثلت لهُ عظمة الروم في ابان مجدهم فبهت لانهُ لم يشاهد مثل هذه الكنيسة قط

فادرك خنيره ذلك منهُ فقال لهُ ما بالي اراك منذهلاً. قال اني لم ارَ مثل هذه الكنيسة في الشرق الا بانطاكية من هو الذي بناها من الملوك قال انهُ بناها اقدم من النصرانية عهدًا فقد كان هيكلاً وثنيًا من ايام الآراميين الذين ورد ذكرهم في التوراة بني على اسم اله من آلهتهم اسمهُ رامون وكان لهُ مذبح جميل امر آحاز ملك يهوذا ان يبني مثلهُ في هيكل سليمان باورشليم

(١) الروضة الغناء للقسطلي

فلما استولت دولتنا الرومانية على الشام قبل النصرانية اتخذوه معبدًا لاوثانهم حتى اذا تنصرت قياصرتنا جعلهُ احدهم ارخاديوس قيصر ديسة على اسم بوحنا المعمدان وكان قد تخرّب بعضهُ فرممهُ ونقش فيهِ صور الفديسين ومن جملة ما نقشوه آيات من الكتاب المقدس ترى كثيرًا منها على الجدران والسقف واظنك قرأت ما هو منقوش على الباب عند دخولنا فقد كتبت عليهِ هذه العبارة ( باليونانية ) « ملكونك ايها المسيح ملكوت ابدي وسلطانك يمتد مدى الادوار » (١)

ولم يكد ينتهي الرجل من حكايتهِ حتى انتظم عقد الصلاة وقام الاساقفة بمباخرهم وصلبانهم وعلت اصوات الترتيل والترنيم والجدران تردد الصدى حتى صمت الآذان وتخشع الناس ونظر حماد الى الجماهير فرآهم وقوفًا وقد ولّوا وجوههم المشرق وسفي مقدمتهم توما في كرسي من العاج المرصع بالفسيفساء فوقهُ قبة من العاج بديعة النقش . ولما انقضت الصلاة حوّل توما وجههُ نحو الجماهير وبيدهِ صليبٌ من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة وامامهُ طاولة عالية فوقها كتاب مغشى بالذهب عرف حماد انهُ الانجيل الشريف والتفت توما وقد تغير منظرهُ وهو يهذي كلاما يقولهُ فاصغى الناس فمنع الانجيل ووضع يدهُ اليسرى عليهِ وفي يدهِ اليمنى الصليب يشير بهِ وهو يتكلم وقال ما معناه « اعلموا يا معشر النصرانية ان عمي ومولاي جلالة الامبراطور هرقل قد كتب الينا يستحثنا على دفع هؤلاء الاعراب عن اسوار دمشق واخراجهم من بلاد الشام فقد اقوا الفتن فيها وماموا بالحقيقة الا قوم جياع عراة سافهم قفر بلادهم وجدب ارضهم الى التماس الغزو من غياض الشام وخيراتها وقد اطمعهم فيها ما لاقوهُ من ضعف حامية بصرى وقائدها روماس اللعين الذي قادهُ الانتقام الى التسليم . اما انتم فانكم رجال اشداء قائمون على الولاء فلا يهمكم من امر هؤلاء شيء . ولا احرضكم الا على الاتحاد ونبذ الاختلافات المذهبية فقد ان لنا ان نقف حالنا ونعتبر بما صار اليهِ الناس قبلنا وما هؤلاء العرب بشيء يذكر اذا نحن اتحدنا والا فان العاقبة وخيمة فاذا رأيتم الخروج اليهم خرجنا واذقناهم مرّ العذاب »

(١) الروضة الغناء للقسطاطلي . (ولما فتح المسلمون الشام اتخذوا بعض هذه الكنيسة جامعًا ثم استقلوا بها جميعًا وعرفت بالجامع الاموي )

فقال رجل واقف بالقرب منهُ « ما لنا وللخروج اليهم ونحن آمنون في اسوارنا فلنهملهم حتى يملّوا الاقامة فينقلبوا على اعقابهم »

فتأمل حماد في حال ذلك الجمع وفيهم خيرة رجال الدولة فرأى التردد والخمول مستولين عليهم وكان يحسب كلام توما يثير فيهم حمية فاذا هو لم يسمع منهم الاّ تمتمةً ولم يرَ الاّ تقاعدًا وقد فقدوا الحمية بما انغمسوا فيهِ من الترف والبذخ والرخاء وفسدت اخلاقهم وساءت آدابهم فقابل ذلك بما آنسهُ في جند العرب من الانفة وعزة النفس والمشاطة ووحدة الكلمة فتمثلت لهُ عاقبة الامر جليًّا وأيقن انها عائدة على الروم اذا هم لم يصالحوا العرب فلبث ينتظر ما يأتي بهِ القدر

وتناول من الكبسة وهم يتحدثون بما سمعوه وحماد مشتغل بهند وقد حاول الخروج منفردًا الى كبسة مريم فلم يستطع لما ضيقهُ عليهِ توما من الحجر فان خفيرهُ لم يكن يفارقهُ لحظة وخاف اذا خرج خلسة ان يرتكب ذنبًا يستوجب عليهِ القتل فصبر نفسهُ رغمًا عنهُ . وفي صباح الغد خرج توما ومعهُ رجالهُ الاّ الخفير فانهُ بقي في القصر وحماد معهُ وآنس في خروجهم حركة غير اعتيادية فاستطلع الخبر فقال الخفير ان البطريق سار الى الاسوار يرمي العرب منها بالنبال ولم يأت المساء حتى عاد الروم وفيهم توما ويدهُ على عينهِ وقد جاءهُ الاطباء فسأل حماد عن حالهِ فقيل انهُ اصيب بنبلة من نبال العرب فنأت عينهُ [1] وانهُ تضاءم من ذلك كثيرًا فقال حماد في نفسهِ فعسى ان يرجع الى صوابهِ ويرغب في الصلح

## الفصل الرابع والثمانون

### ﴿ باب الفرج ﴾

ومضت بضعة اسابيع والحرب سجال بين الجانبين والروم ينتظرون نجدة من هرقل والنجدة تتباطأ عنهم حتى اذا كان ذات صباح وحماد جالس في بعض غرف القصر يتمشّى اسيفًا اذ جاءهُ رسول يستدعيهِ الى توما فسار اليهِ وقلبهُ يخفق مخافة ان يكون في الدعوة ما يدعو الى الخطر

(١) الواقدي

فلما دخل عليهِ رآهُ جالسًا على سريره مقطب الوجه فحياه فاجلسهُ توما الى جانبهِ وهو يبش لهُ فآنس حماد منهُ رقة لم يعهدها فيهِ . ثم اشار توما فخرج كل من في الغرفة ولم يبق غيرهما فقال توما دعني اقص عليك خبرًا اقلقني وهو حلم رأيتهُ امرأتي في منامها البارحة وهي حامل اما الحلم فانها رأت الدماء تتدفق عن اسوار دمشق والاسواق مزدحمة بالقتلى فأفاقت من نومها مرعوبة فقصت عليَّ الحلم وهي ترتعد وتقدمت اليَّ ان اقبل بصلح هؤلاء العرب حقنًا للدماء ولقد ساءني اقتراحها لاني راغب في الحرب الى آخر نسمة من الحياة ولكنها ابنة الامبراطور صاحب الامر والنهي فضلاً عن منزلتها عندي وهي حامل . واذكر انك اخبرتني عن ابي عبيدة قائد فرقة باب الجابية انهُ مال الى السلم فهل تظن اذا خابرناه يفعل ويحفظ عهدهُ

فاستبشر حماد بذلك وانفرجت كربتهُ وقال لا ريب عندي بحفظهِ العهد اذا عاهد

قال اتذهب اليهِ وتستطلع رأيهُ في ذلك سرًّا وتعود بالخبر

قال انعم ذلك مأمورًا طائعًا فأذن بمن يرشدني الى الطريق ويخرج لي من الباب وانا اسير الى الرجل واخاطبهُ

قال قد اذنَّا لك بذلك ولكني اشترط في امر الصلح شرطًا لا بدَّ منهُ

قال وما هو

قال اريد من هؤلاء العرب اذا دخلوا المدينة ان يحفظوا الارواح ويحقنوا الدماء وان يتركوا لنا كنائسنا ولا يتقصوا علينا منها كنيسة

فقال حماد لا اظنهم يخالفوننا في ذلك وعلى كل فاني اسير اليهم بالامر واعود اليك بالجواب . وكان حماد يكلم توما وهو معجب بتنازلهِ الى هذا الحد على ان حمالاً هند ما زال نصب عينيهِ فخطر لهُ ان يغتنم تلك الفرصة للاستعانة بهِ على تسهيل زواجهِ بها وقال في نفسهِ لا اخالني ارى رجلاً اقدر على مساعدتي من صهر الامبراطور وهو الآن في حاجة اليَّ فاذا استعنتهُ ووعدني فقولهُ نافذ على جبلة وغيره

فتوسم توما في حماد توقفًا وترددًا فقال لهُ ما بالك تتردد اعلمت خبث الذهاب الى العرب . قال كلاَّ يا مولاي فاني اقتحم لمخاطر في سبيل انفاذ اوامرك ولكن لي امرًا يهمني ليس هنا محل الكلام عليهِ على اني لا ارى بدًّا من استعانتك فيهِ وهو من اسهل الامور عليك فاجعل مساعدتي في اتمامهِ مكافأة لي اذا فزت في عقد الصلح على ما تريدون

فقال توما وماذا عسى ان يكون طالبك

قال اخاف اذا ذكرته ان تضحك مني وتظنني مشتغلاً بعبث الغلمان ولكن الامر يا مولاي قد اقلقني ولا ارى بدًّا من استعانتك فيهِ فاعذرني

قال قل ما هو

قال أتعرفون الامير جبلة الغساني

قال اليس هو ملك الغساسنة حلفنا

قال بلى يا مولاي هو هو بعينهِ

قال وما خبرهُ

قال حماد اقول بالاختصار اني خطبت ابنتهُ هندًا ثم ان ابن عمٍّ لها يقال لهُ ثعلبة يسعى في الحصول عليها وقد قبل والدها بهِ ولكن الفتاة لا تريدهُ . ونظرًا لما اعهدهُ من نفوذكم على جبلة ارجو ان توعز والدهِ ان يعطيني الفتاة

فبسم توما وقد تذكر ابان شبابهِ و زمن عشقهِ فعذر حمادًا وطيب خاطرهُ وقال انهُ امر سهل لك علينا قضاؤهُ . فانبسطت نفس حماد ومال الى مشاهدة هند وتبشيرها بذلك الوعد وهمَّ بالانذان توما ان يزُر بكيسة مريم اثناء ذهابهِ واذا هو قد ابتدره قائلاً « فانتقدم اليك ان تسرع في مهمتك فتسير حالاً الى مخاضة ابي عبيدة فاذا عقد الصلح وهدأت الاحوال زففها اليك هندًا رضي والدها او لم يرض »

فشكر لهُ حماد شكرًا جزيلاً وقد عوَّل في باطن سرهِ على ان يحتال في المرور خلسة ثم سمع توما ينادي اثنين من حاشيتهِ فاتيا فقال لهما اعدَّا مركبة من مركبات القصر احملا بها هذا الكتاب العراقي الى باب الجابية حالاً وافتحا لهُ الباب واركب جوادهُ هناك واما انتما فانتظرا رجوعهُ فمتى عاد ارجعا بهِ الى هنا

فقالا سمعًا وطاعة وخرجوا جميعًا وحماد آسف لمسيرهِ في المركبة اذ لا يتأتى لهُ الوقوف عند الكنيسة

وبعد برهة اعدت المركبة فركبوها فجرت مسرعة وقد تعاظمت قرقعتها على بلاط الشوارع وخصوصًا الشارع المستقيم حتى اذا دنت من كنيسة مريم خفق قلب حماد وشاعت عيناهُ بهِ يلتفت نحو النوافذ والدرفات لعلهُ يرى هندًا او احدًا من اهلها فخاب رجاؤهُ وتجاوزت المركبة الكنيسة وهو يصيخ بسمعهِ خيفة ان ينادي احد وتحول

قرقعة المركبة دون سماع النداء ولكنه ما لبث ان وصل الى باب الحامية فوقفت المركبة وكان جواده هناك فركبه وخرج والعلم معه حتى اتى معسكر ابي عبيدة فلم يستغشه احد من العرب فسار نحوًا الى خيمة عبدالله وهي في الطريق فرآه جالسًا حزينًا لاشتغال باله فعالما وقع نظره عليه نهض مسرعًا وضمه الى صدره وسأله عن سبب شهابه فقص عليه الخبر فحمد الله على سلامته ثم سأله حماد هل سمع شيئًا عن سلمان فقال لا لم اسمع عنه شيئًا ولكني ارسلت دليلنا الى بصرى لعله يراه هناك فيخبره بمقرنا ولم يعد الدليل بعد . فاشتغل بال حماد ولشدة محبة يتحادثان في امر حملة وحده فقال عبد الله اظننا اذا تم الصلح بين العرب والروم لا نعدم وسيلة في العثور على سلمان فهيا بنا الآن الى ابي عبيدة ثم نهضا معًا حتى اتيا فسطاطه فحسب لهما فقص حماد ما اشترطه تومًا من امر الكنائس والاموال فقال ابو عبيدة لقد فعلنا ذلك ولنرسل من يعتمدهم من رجاله لعقد الشروط

فودعهم حماد وعاد الى دمشق وقد مضى معظم النهار فوصل القصر فرأى اهله في هرج وضجة فسأل عن السبب فقيل له ان امرأة الطريق تومًا تمخض والطبيب عندها ينتظر ساعة الولادة (١) فقال اسقط اليه من بهجة وحوى مأتم فخرج اليه وامارات الغبطة ظاهرة على وجهه فقال ما خبرك فقال ان الامير ابا عبيدة قبل بالصلح فارسل من تعتمد لعقد . فامر منه من كبار القصر ان يجهزوا في صباح الغد ومعهم حماد وقال لهم اني مشتغل في ما تقاسيه ابنة الامبراطور من آلام المخاض وعسى ان يأتي الفرج قريبًا

## الفصل الخامس والثمانون

### صلح الشام

وكان الليل قد سدل نقابه وانوا تلك الليلة واستبعوا وقد تهيأ منهم بالالسنة الرسمية وحملوا الاعلام والصلبان وساروا حتى اتوا باب الحامية وكان حماد آكثر

(١) ابن الاثير

الناس رغبة في ذلك الصلح املاً بقرب الوصول الى هند

فلما وصلوا الباب كان بعض العرب هناك وعليهم ابو هريرة قد قاموا ينتظرون وفد الروم فأنبأهم حماد بما انوا من اجلو وفتحوا الابواب وخرج الوفد باعلامهم وصلبانهم وقد تكسرت اشعة الشمس عن خوذهم وقلانسهم واردیتهم المختلفة الالوان وصلبانهم المرصعة بالحجارة الكريمة مما يبهر الابصار ومشى ابو هريرة ورجاله في مقدمتهم حتى انوا معسكر ابي عبيدة فلما اشرفوا على المضارب اوعز اليهم ابو هريرة ان ينزعوا الصلبان[1] فنزعوها حتى وصلوا الى فسطاط ابي عبيدة فاستقبلهم بالحفاوة وعقد مجلساً امضوا فيه الشروط وفي جملتها ان يتركوا الكنائس على ما هي . وكان في دمشق عدة كنائس منها كنيسة مريم وكنيسة بوحنا المعمدان المتقدم ذكرهما وكنيسة سوق الليل وكنيسة انذار[2] فكتب لهم ابو عبيدة كتاب الصلح والامان ولم يسمّ فيه اسمه ولا اثبت شهوداً فتناولوا الكتاب ودعوه لصحبتهم ليدخلوا المدينة معاً فقام ابو عبيدة ومعه ٢٥ من اعيان الصحابة وسار الجميع وفيهم عبد الله وحماد . فلما وصلوا باب المدينة وقف ابو عبيدة وقد تذكر امراً هاماً وذلك انه لسلامة نيته رضي بالصلح وقبل بدخول المدينة مع عدوه ولم يخامره ريب من غدر او نحوه ولكنه لما وصل الابواب ورأى الاسوار وفوقها الجند بالاسلحة تخوف وتحذر فقال لمن معه من الروم اننا نطلب منكم الرهائن قبل الدخول فيبقى منكم اناس رهناً عندنا حتى اذا حدث غدر ذهبوا ضحية الغدر . فتركوا بعضاً منهم وسار الباقون حتى دخلوا الابواب واقبلوا على الشارع المستقيم وقد تزاحم فيه الناس وفي مقدمتهم الاقسة والرهبان فلما دخل ابو عبيدة استقبلوه بالاناشيد واعتذروا عن تخلف البطريق توما لانشغاله باهل بيته ثم مشوا بين يديه على مسرح الشعر وقد رفعوا الاناجيل والمباخر وفيها البخور يتصاعد دخانه حتى حجب عنهم اواخر الشارع فساروا يهتفون شكراً لله على حجب الدماء والاعلام تخفق فوق رؤوسهم وبينها اعلام المسلمين والروم معاً

وكان الدمشقيون يطلون من النوافذ وعن الاسطحة والشرفات رجالاً ونساء واولاداً وكلهم فرحون بنجاة انفسهم واموالهم لان اهل البلد اكثر الناس نفوراً من الحرب لانها عائدة عليهم بالخسارة في اي حال

(١) الواقدي (٢) الواقدي

واما حماد فكان مشتغلاً عن تلك الضوضاء بعالم نفسه بقرب اللقاء وعند الله الى جانبه وكان الموكب سائرًا ببطء فنفد صبر حماد وهو يتخوف من خلال الاعلام والصلبان الى كنيسة مريم عن بعد وقد عوّل على ترك الموكب ودخول الكنيسة خلسة ليرى هندًا ويبشرها بانفراج الازمة

## الفصل السادس والثمانون

### ﴿ خصام ابي عبيدة وخالد ﴾

وفيما هو في ذلك تراءى له في آخر الشارع جموع قادمون نحو الموكب فرارًا من اناس يطاردونهم فامعن نظره فرأى مع المطاردين اعلامًا اسلامية ورجالاً من المسلمين في ايديهم السيوف والرماح وقد امعنوا في الناس قتلاً ونهبًا ورأى في مقدمة الاعلام علمًا اسود عرف انه راية العقاب لخالد بن الوليد ثم ما لبث ان رأى الفارين يتقدمون حتى التقوا بالموكب عند كنيسة مريم ثم دنا خالد فلما رآه ابو عبيدة عجب لامره وناداه قائلاً « كف يا ابا سليمان قد فتح الله على يدي المدينة صلحًا وكفى الله المؤمنين القتال »

فصاح فيه خالد « وما الصلح لا اصلح الله بالهم وابن لهم الصلح وقد فتحتها بالسيف وخضبت سيوف المسلمين من دمائهم واخذت الاولاد عبيدًا ونهبت الاموال »

فقال ابو عبيدة « اعلم ايها الامير اني ما دخلتها الاّ بالصلح »

فقال خالد « انك لم تزل مغفلاً وانا ما دخلتها الاّ بالسيف عنوة وما بقي لهم حماية فكيف صالحتهم »

فقال ابو عبيدة « اتقى الله ايها الامير والله قد صالحت القوم ونفذ السهم بما هو فيه وكتبت لهم الكتاب »

فاعترضه خالد وارتفع الصياح بينهما وقد شخص الناس اليهما واصحاب خالد لا يزالون يقتلون وينهبون . وكانوا قد دخلوا المدينة من الباب الغربي وهم لا يعلمون بصلح ابي عبيدة ولكنهم اغتنموا الفرصة باشتغال قومها ورجالها بالقصر والولادة [1]

(١) ابن الاثير

ما نوا انه عسكة » وانتكلاه حقرت والله ونقض عهدي » وجعل يقسم على المسلمين ان لا يدخلوا ... يم نحو الطريق الذي جاء هو منه حتى يرى ما يتفق هو وخالد عليه فسكتوا عن الهجوم وانجمع رجال المسلمين هناك وتراضوا في الامر فتم الرأي على القبول بالصلح على ان يخرج توما وهو يعطي لهم على نصف الدنانير من قبل توما ) وفيما هم في الجدال جاء توما وهو يعتذر ويذكر انه ما جاء بالعهد وقالا اذا اتيتم صلحنا فانا نخرج من المدينة ونكون في ذمتكم نحن واهلنا واموالنا وبعد جدال طويل قبل خالد ذلك (١)

فاخذ توما يتأهب للخروج وكان حماد في جملة الوقوف يسمع ما دار من الحديث فلما علم بخروج توما على هذه الصورة ارتاب في امره وعلم انه لن يرجو منه نفعاً ولكنه تحوّل بطريق الى الكنيسة ومقابلة هند فاستأذن عبدالله فقال هلم ندخل معاً

ودخل الاثنان في تراجمهم وخرجوا نحو الكنيسة فاذا في مقدمه فلمسا مفتاحها فظن الرهبان انهما يريدان بها اذية فسألوهما بالعهد فقالا انا لا نريد امرًا غير الزيارة ونحن مسلمون فسكنوا وتبعوا لهما الى باب فسأل حماد عن قيم الكنيسة فتقدم اليه قسيس شيخ وكان هناك في الهيكل وهو يخاف الفتك فلما رأى الرجلين يرسمان علامة الصليب اطمأن بالهما فسألهما عن مرادهما فتقدم اليه حماد وقبل يده وقال هل يقيم في هذه الكنيسة احد من الغرباء . قال القسيس لم تجر العادة ان يقيم الناس في الكنائس

قال ولكنا نريد هل يقيم احد في بعض الغرف الدائرة للكنيسة

قال لا يا سيدي ولكن اهل ملك غسان وكلهم من النساء كنّ مقيمات عندنا ومعهم الخدم ولكنهم خرجوا جميعاً منذ بضعة اسابيع

فاضطرب قلب حماد وقال وقد ظهرت الدهشة على وجهه والى اين خرجوا

قال لا ادري ولكن رجالاً جاؤا من قبل الامير جبلة اقاموا هنا ساعات قليلة ثم خرجوا جميعاً . فوقف حماد برهة صامتاً وقد نسي موقفه وغلب عليه اليأس وجعل يفكر في ماذا عسى ان يكون سبب رجوعهم . فاعاد السؤال واوضحه فلم يفهم شيئاً آخر

فقال وهل تذكر انهم خرجوا من هذا المكان قبل حصار المدينة او بعده

قال اظنهم خرجوا قبل الحصار

---

(١) الواقدي

فبغت حماد وقد اسقط بيده ونظر الى عبدالله كأنه يستطلع رأيه فقال عبدالله اظن الملك جبلة انفذ في طلبهم لما سمع بقرب الحصار فصار والبهو

فتعاظم اليأس على حماد وفكر في الامر يسيرًا فلاح له ان هندًا لا تخرج على هذه الصورة مالم تترك له خبرًا او اشارة وخصوصًا بعد ان كنت البهو تستعجل قدومه اليها فقال للنفيس الا ترشدنا الى المنزل الذي كان يقيم به اهل جبلة

## الفصل السابع والثمانون

### الاستطلاع

قال النفيس سمعًا وطاعة وخرج بهما من بعض ابواب الكنيسة الى زقاق ضيق لكنه مرصف بحجارة عظيمة شأن ازقة دمشق على اختلاف عرضها واستطرقوا من الزقاق الى منزل لا يظهر من امره وصورته ما يلوح بسكنى الملوك على انهم ما لبثوا ان دخلوا دارهُ حتى تبينت لهم متانته من الاتقان والزخرفة ولكنهم لم يسمعوا غير خرير الماء في بركة تدلت فوقها اغصان الصفصاف وهبت رائحة الازهار لما احاطها به جوانب المكان من اغراس الرياحين فوقف حماد وهو يتوقع ان يرى احدًا او يسمع صوتًا فلم يؤانس غير السكوت فمشى الى باب رآه في صدر الدار ففتحه وصعد في سلم ومعه عبد الله فانتهى الى رواق مشى فيه فاطل من نافذة مفتوحة تطل على غرفة مقفلة الابواب فتطاول بعنقه يستطلع ما فيها فرأى شيخًا منزويًا في بعض جوانبها عليه لباس النساء فناداها فصاحت وصوتها يرتجف فقاله ليس في هذا المكان احد من الرجال فاذا كنتم تريدون النهب فاشفقوا على النساء

فاختلج قلب حماد لما سمع ذلك الصوت وتنسم منهُ شخصًا يعرفهُ فقال لا تخافي يا خالة فما نحن من الاعداء ولا نريد بك شرًا وانما نحن نسأل عن اهل ملك غسان

فلما سمعت المرأة صوت حماد دنت من النافذة وتفرست فيهِ فعرفت انها خادمة هند التي حملت اليهِ الكتاب في دير بحيراء ولما هي فحالما عرفتهُ قالت الملك سيدي حماد

فقد كدت اقنى حتفي في انتظارك

فقال افتحي الباب ولا تخافي واخبريني خبرك

ففتحت الباب وهمت بيده فقبلتها وقالت والدغة لا تزال ظاهرة على وجهها وقد امتقع لونها « لقد خرج اهل الملك من دمشق منذ اسابيع وتركوني هنا في انتظار قدومك لاطلعك على خبرهم فطال غيابك حتى يئست من لقياك ثم حوصرت المدينة ووقع ما وقع فيها من القتل والنهب . وما سمعت وقع اقدامكم الآن حسبتكم من العرب الفاتحين فخفت واختبأت في هذه الغرفة فشكر الله على ما حصل »

فقال حماد اخبريني يا خالة اين سيدتك هند

قالت لقد خرجت من دمشق مع والدتها وسائر الخدم بامر والدها قبل الحصار

قال واين هي الآن

قالت اظنها في بيت المقدس لان سيدي الملك بعد ان انفذ اليها ان تتأهب للاقتران بالامير ثعلبة عاد فكتب الى سيدتي سعدى ان تأتي سريعاً الى بيت المقدس لانها ابعد عن الخطر من دمشق والظاهر انه سمع بعزم العرب على حصارها . فدق ذلك على سيدتي وخافت ان تأتي انت ولا تعلم بها يدركها فاسة فبني هنا لاقص عليك الخبر

فنظر حماد الى عبد الله وقال ما الرأي يا امير

فقال لا حيلة في الواقع يا مولاي فان مقامنا في دمشق لا يجدينا نفعاً وارى ان نغتنم اول فرصة للخروج الى بيت المقدس

فالتفت حماد الى المرأة وقال لها وانت ماذا تفعلين

قالت اذا بقيت هنا سأذهب الى بيت المقدس

قال ان الحرب قد انقضت وتم الصلح فلا باس عليك ولكنني لا اظنك تستطيعين الذهاب وحدك وانت امرأة

قالت انما استطيع ذلك لاني امرأة لان هؤلاء العرب شديدو المحافظة على الاعراض فاذا لقيني احد منهم كان لي عوناً في ايصالي الى حيث اريد

فقال اوصيك اذا انتهيت بيت المقدس وكانت هند لا تزال هناك ان تقرئها مني السلام وتخبرها اني قادم اليها على عجل ان شاء الله

قال ذلك وتحوّل مسرعاً وعبدالله معه ثم قال علينا بالاسراع الى بيت المقدس

قال عبدالله عليها قبل الذهاب ان تحمل امتعتنا فانها في معسكر ابي عبيدة

قال لا بد لنا من الانتظار ريثما يهدأ الدل وتسكن الاحوال فودع ابا عبيدة ونشكرهُ على حسن وفادتهِ ومصرف ولعنهُ يصحبنا بمن يدفع عنا خطر الطريق

فخرجا من المنزل فقبل النحاس فودعاه وخرجا الى الشارع وكان الناس قد استأمنوا وهدأت الاحوال فسارا توًّا الى قصر الحاكم فرأيا المسلمين قد تخللوه ووضعوا أيديهم على ما فيهِ واهل تومًا يحملون الاحمال ويخرجون مهرولين وفيهم النساء والرجال فأسفا لما اصبحت اليهِ حال هؤلاء وتذكر حماد ليلة تومًا يوم لقيهُ في ذلك القصر فاعتبر وتأمل

وقضيا بقية ذلك اليوم والناس في مرج بين مهاجر ومستسلم ولم يستطيعا مقابلة ابي عبيدة ليخاطباه بشأن الذهاب

وفي اليوم التالي دخلا عليهِ فاذا هو قد ارداد رفعة بعز النصر وكان جالسًا يملي على كاتبهِ وهو يكتب الى الامام عمر بخبر الفتح فلما انتهى من الكتاب فدخلا عليهِ فرحب بهما وبش لهما وخاطب حمادًا قائلاً انك خدمت هذه المدينة خدمة تستوجب الثناء عليها لانك كنت الواسطة في حجب الدماء

فخجل حماد لذلك الاطراء وقال اني لم افعل شيئًا استوجب عليهِ ثناء وان ما حصل من الصلح انما كان من رغبة الامير في السلام ثم همَّ حماد ان يذكر لهُ عزمهُ على الخروج الى بيت المقدس ولكنهُ لم ير مبيلاً الى ذلك فصمت فادرك عبدالله ذلك فهو فخاطب ابا عبيدة قائلاً لقد انبا يامولاي نهنئك بالفتح الذي تمَّ على يدك ونسمأ ذنك بالانصراف

فقال ابو عبيدة والى اين تنصرفون

قال ان لنا في بيت المقدس اهلاً نريد النزوع اليهم

ففكر ابو عبيدة مدة ثم قال لم يأن زمن الانصراف بعد فالبثوا في ضيافتنا اياماً نحسن وفادتكم بعدما عاينتم معنا في زمن الحرب ثم تنصرفون ومعكم رجال منا حتى تبلغوا مأمنكم

فلم يجرأ عبدالله على مراجعة ابي عبيدة ولبث صامتًا على نية العود الى الاستئذان في فرصة اخرى ولكنهُ استأذنهُ في الخروج الى المعسكر ليستولي على الامتعة

فقال ابو عبيدة ان امتعكم وخيولكم في ما من مع امتعتنا في المعسكر ونحن خارجون اليها لاننا لا نحب الاقامة في القصور خوفًا من الانغماس في الترف

# الفصل الثامن والثمانون

## ﴿ مهمة خطرة ﴾

وفي الغد خرج الجميع الى المعسكر وقد اقتسموا الغنائم ونزل كل في خيمته وكان عبد الله ينتظر عود الدليل من مهمته التي سار فيها الى بصرى فلم يعد فعلم انه انما رغب في الذهاب فرارًا من غائلة ذلك الحصار هو وهما قلقان على سلمان وهند فحاولا مخاطبة ابي عبيدة مرة ثانية في المسير الى بيت المقدس فلم يجدا فرصة لانشغاله في تعبير الجند لفتح سواحل الشام وغيرها من البلاد. فصبرا ريثما تسنح الفرصة فمضت ايام وهما على ذلك حتى اصبحا ذات يوم وهما على مثل الجمر في انتظار الخروج الى بيت المقدس يتوقعان حملة يخرجان بها فرأيا بعض الجند في هرج ومسارعة فخرجا فاذا هما بهجان قد دخل المعسكر وعليه غبار الاسفار فعرفا انه رسول من الامام عمر الى ابي عبيدة ثم رأياه ترجل ودخل فسطاطه فلبثا ينتظران ما جاء به

وبعد هنيهة خرج الرسول وجاء بعض القائمين في خدمة ابي عبيدة والتمسوا من عبد الله وحماد الذهاب الى فسطاط الامير حالاً. فاوجسا خيفة لئلا يكون في تلك الدعوة ما يدعو الى التأجيل

فلما دخلا رأيا ابا عبيدة في صدر الفسطاط والى جانبه خالد بن الوليد وعمرو ابن العاص وغيرهما من الامراء فحيياهم فامرهم بالجلوس

ثم قال لهما مخاطبًا عبد الله «لقد انبأني اخي (واشار الى خالد) انكم من اهل العراق ولم اكن اجهل ذلك ولكني علمت منه انكم من امراء العراق العارفين باحوال تلك البلاد وقد شاهدنا من اخلاصكم في خدمتنا ما دعانا الى تكليفكم امرًا تستوجبون عليه الاجر والثواب

فازداد عبد الله خوفًا من تلك الدعوة ولكنه تظاهر بالارتياح وقال اننا في

خدمة الامير طوع ارادتو

فقال لقد جاءنا رسول مولانا امير المؤمنين الآن يدعونا الى نصرة اخوانا في العراق وان ننفذ اليهم جنداً ممن خبروا تلك الارض (١) فما يريد ان تسيروا مع تلك النجدة وفي ذهابكما خير لكما وخدمة لجند الجهاد

فقال عبد الله ان امر مولاي الامير مطاع ولو انه دعاني الى جهنم اراد لفعلت ولكنني خرجت من العراق منذ اعوام ولا ادري ما طرأ عليها من التغيير والتبديل فاخشى ان لا يكون في ذهابي فائدة لكم . وزد على ذلك انا مشتغلون المال على بعض اهلنا في بيت المقدس

وكان خالد مصغياً لما يبدو من عبد الله وكان يتوقع ذلك الجواب منه فقال له لقد سمعت من خادمك سلمان يوم صالح الحمرة انك صاحب عقار وكلمة نافذة وقد حميا لك مالك واهلك في ذلك الصلح فكيف تعتذر عن الذهاب . فابدى خالد ذلك وعلامات الغضب تكاد تظهر على وجهه فخاف عبد الله عاقبة اعتذاره فاندره قائلاً اني لا اعتذر عن الذهاب فان ذلك فرض عليّ ولكني اود ان اسعد الذين في بيت المقدس ايضاً

فقال ابو عبيدة فليذهب اسلك حماد الى بيت المقدس ونحن نصحبه بن يوصله اليها وسر انت الى العراق وكن واثقاً اننا نحافظ على اهلك و ولدك محافظتنا على اهلنا لانك في ذمتنا واعلم ان سعرك الى العراق لا يطول لان الفتح قريب ان شاء الله

فاذعن عبد الله صاغراً لعلمو ان تردده ربما هاج غضب خالد مما يعلم من شدتو ونسارعو

اما حماد فشق عليو فراق عبدالله ولكنه تأسى بقرب مشاهدة هند

فقال عبدالله هل يأمر مولاي بتسيير والدي هذا قبل خروجي

قال نعم سنسيره في الغد واما انت فلا بد من قمائك بضعة ايام ريثما يتأهب الجند للذهاب

ثم خرج عبدالله وحماد الى الخيمة لا يلويان على شيء وباتا تلك الليلة لا حديث لهم الا حديث ذلك الفراق وفكرا طويلاً في الفرار ولكنهما خافا العاقبة فضلاً عما

(١) ابن الاثير

حسباه من نجسس العيون وما قد تكون عاقبة الفرار لو قبض عليهما . ولو كان حديثهما مع ابي عبيدة لهان الخلاص لما يعلمانه من سهولة اخلاقه اما خالد فانه سريع الانتقام

وفي الغد ركب حماد وودع عبدالله وتواعدا على اللقاء في بيت المقدس واذا اضطر حماد للخروج قبل مجيء عبدالله فليترك له خبرًا في كنيسة القيامة هناك . ثم سار حماد الى ابي عبيدة فودعه فقال ابو عبيدة وهو يتبسم سر بحراسة المولى ونرجو ان نلاقيك قريبًا في بيت المقدس وقد نحتاج الى حضورك هناك مثل حاجتنا اليها في دمشق . فادرك حماد انه يشير الى قرب ذهابهم لحصارها فتجاهل ولم يجب فامرا وعبيدة ببعض الرجال يسيرون معه لحمايته اثناء الطريق فسار وعينا عبدالله تراعيانه حتى توارى

اما هو فلما ابتعد عن دمشق تذكر هندًا وحالها وخيل له انها تزوجت بغلبة فارتعدت فرائصه ولكنه قال في نفسه انها لو كانت تقبل به لما انفذت في طلبي الى دمشق ثم استبقت خادمتها لاستقدامي الى بيت المقدس ثم فكر في طول مدة غيابه فخيل له انها يئست من قدومه فاضطرت لمجاراة والدها والقبول بغلبة فمضى معظم الطريق في مثل هذه الهواجس

# الفصل التاسع والثمانون

## ﴿ خيبة المسعى ﴾

وصل حماد بيت المقدس فنزل في دير بالقرب من كنيسة القيامة حتى اذا استراح قليلاً خرج للبحث عن هند في دير القيامة نفسه فاخذ يفتش ويستطلع لعله يقتبس خبرًا فلم ير احدًا يعرف جبلة ولا اهله ولم يكن حديث القوم الا الحرب وعواقبها وكلهم خائفون مما سمعوه عن سقوط دمشق فقال في نفسه لأذهبن الى قيم ذلك الدير لعله يتيقنا نبأ وكان يونانيًا فسار اليه وقال له القيم ان اهل الملك جبلة نزلوا هنا اياماً ولكنهم سافروا منذ اسبوع

فاعتل حماد وقال هل سافروا جميعًا نساء ورجالاً

قال لقد كان النساء فقط عندنا ولكن رجالهم اتوا منذ اسبوع واقاموا هنا ساعات قليلة ثم اقلعوا جميعًا الى حمص لا يعلم احد

فقال حماد ألم يتركوا شيئاً من امتعهم هنا . قال تركوا منها ما لا قيمة له من ثقيل الاحمال هيبة المدبر ولم يأخذوا الا ما خف حمله وغلا ثمنه

فبهت حماد لذلك الخبر وقال في نفسه وهل ثعلبة معهم ثم لم يرَ بدًّا من اعادة السؤال فالتفت الى القيم وقال له اتقدم اليك ان تعبرني سمعك ولا يثقل عليك سؤالي لان هؤلاء القوم يهمني امرهم وقد كنت في دمشق اقاسي عذاب الحصار فلما تم صلحها انبت لاتفتش عنهم فهل عرفت اشخاصهم جيدًا

فاهتم القيم لحديث حماد عن حصار دمشق وكان شديد الرغبة في سماعه

فقال له وهل عاينت الحصار بنفسك و رأيت جند العرب رأي العين

قال نعم رأيتهم واختلطت بهم وسمعت احاديثهم

قال الا قصصت عليّ حديث الحصار

فاضطر حماد ان يقص عليه الخبر مختصرًا استجلابًا لرضاه لعلة يصبر على استتمامه فلما انقضى الحديث امتقع لون القيم وهو راهب طاعن في السن فقال وما ظنك بهم هل يأتون الينا

قال اظنهم يأتون اذا لم يجدد الامبراطور هرقل الهمة في التجنيد والترميم فان هؤلاء العرب اشداء صبورون على القتال ولكن الله يحمي عباده . فاخبرني الآن عما تعرفه من امر اهل الملك جبلة

قال اما وقد افضيت لي عن رأيك بعد ان خبرت الامور فاخبرك يا والدي ان سقوط دمشق اوقع الرعب في قلوب رجالها فاصبح كل منهم خائفًا لا يأمن على نفسه ولا اهله وكذلك جبلة فانه امسك اهله في هذا المدبر و في عزمه ان يعقد لابنته الوحيدة على ابن عمها . . . فهل بينك وبينهم قرابة

قال ليست بيننا قرابة ولكن لي مع الامير جبلة شغلاً هامًّا فدل ذاك وهو ينتظر بقية الخبر ليرى ماذا تمّ من امر الافتران

فقال الراهب ولكني لحظت من الفتاة نفورًا شديدًا من ابن عمها هذا وكان والدها قد كرهني باقناعها

فثارت الغيرة في قلب حماد واصبح كله آذانًا ليسمع نهاية الحديث فقال وهل اقتنعت

قال كلا يا ولدي لانها كانت شديدة الغيرة وكنت اذا سألتها اجابتني والدموع ملء عينها تعتذر والدتها لا تلومها

ولم يتم الراهب كلامه حتى تناثر الدمع من عيني حماد فتغافل باصلاح كوفيته اخفاء لعواطفه وقال لعل عيني ابرهة اتتاه وارى من الظلم ان تجبروها على الاقتران برجل لا تريده

قال الراهب لقد صدقت يا ولدي ولذلك فان العناية الصمدانية حلت هذا المشكل على نحو سهل

فقال حماد وكيف ذلك

قال الراهب ان ابن عمها المغوار الذي قتل في بعض المواقع الاخيرة

فاجفل حماد اجفالة اخرى وقال هل تيقنت ذلك يا مولاي لعل الذي قيل هو غير المخاطب

قال بل تحققت انه هو لان معتنقي يعتقدون بحكايته وكأنهم يهنئون هندًا بذلك

فقال حماد لا تذكر اسمها

قال اذكر ان اسمها هند

فايقن حماد بفوات امر ذلك الخاطب ولكنه ما زال في ريب من مقر هند ووالدها فقال وماذا تعلم عن ذلك

قال انهم نزلوا هنا عندنا بعد ذلك ايامًا حتى شاع سقوط دمشق وبصرى المسلمين فوقع الرعب في قلوب الناس وجاء جملة ومعه بعض الحاشية من رجاله فاسرعوا في حمل امتعتهم على حقب جملة رحلاتهم وخرجوا خروج الهاربين من الموت ولا ادري الى اين

فوقف حماد صامتًا وقد تحير في امره لا يدري ماذا يعمل فشعر بافتقاره الى عبد الله وسلمان وهو بعيد عنهما فاظلمت الدنيا في عينيه وضاق صدره فنهض للحال فودع الراهب وانصرف الى حجرته وهو غارق في لجج الهواجس لا يفقه جهة مسيره

# الفصل التسعون

## ﴿ سلمان ﴾

وكان حماد في اثناء مسيره الى الدير تائهاً في بحار الهواجس يفكر تارة في هند وطوراً في سلمان وآونة في عبدالله حتى عظم عليه الامر وخيل له ان الممالك سدت دونه فضلاً عما كان يعترض سبيله من احوال الحرب وقد اصبح اهل الشام في هرج على اثر سقوط دمشق واخذ في الهاجرة زرافات ووحداناً الى مصر او بلاد الروم او غيرها

فوصل الدير وهو لا يدري انه وصل حتى اذا كان على مقربة من غرفته رأى بابها رجلاً كان جالساً ثم هم مسرعاً للقائه وحالما وقع نظره عليه علم انه سلمان فناداه باسمه فترامى سلمان على يده يقبلها ويشكر الله على لقياه فقال حماد اهلاً بك ايها الصديق لقد اطلت الغياب علينا واذقتنا من الوحدة مالم يبق لنا صبراً عليه

فخجل سلمان لذلك الاطراء وقال لقد غمرتني ايها الملك بفضلك فدعوتني صديقاً لك وما انا الا من بعض خدمك

فلما سمع حماد لفظ الملك تمثلت له حالته وتذكر حكاية الذنر والانتقام وما شغله عن ذلك من شواغل الغرام وما انتهت اليه حالته من اليأس حتى كأن الايام قد كتبت عليه الشقاء فلا يكاد يقترب من نصيبه حتى يفاجئه عارض يحول دون مرامه وأفضت به الحوادث الى ضياع كل آماله بفرار جبلة واهله الى حيث لا يدري احد . ولكن ظلمات تلك المخاوف كان يخللها بعض النور مما يتوقعه من مساعدة سلمان ومشورته فزاد استئناسه به ولما رآه يفكر عليه ذلك الاطراء مال اليه وصافحه وقال له لا بل انك صديق واعز من الصديق وما نحن في معرض الانساب وانما يفضل احدنا الآخر بما طبع عليه من مكارم الاخلاق والشهامة وصدق المودة ولقد رأيت فيك من ذلك ما يعز مثاله

فاطرق سلمان خجلاً وعمدا الى حجرة وكل منهما يتوقع سماع حديث الاخر فلما استقر بهما المقام قال حماد اين كان مقامك كل هذه المدة وما الذي جاء بك

الى هنا حتى التقينا على هذه الصورة

قال سلمان ان لقاءنا يا سيدي لم يكن على سبيل الصدفة ولكنني قطعت القفار واطلتُ البحث حتى علمت بمقرك وجئت على ما ترى . وقبل سرد حديثي الطويل ابشرك بموت ثعلبة

فتنهد حماد وقال لقد عرفت ذلك ياسلمان ولكنه جاءنا متاخرًا وقد كادت تنقطع منا الآمال

فقال سلمان وكيف ذلك

قال لانني سمعت بمقتل ثعلبة وفرار جبلة في وقت واحد في هذا اليوم

قال سلمان واي فرار

قال لقد تحققت فرار الامير جبلة من بيت المقدس باعلم الى حيث لا يعلم احد وقصَّ عليهِ مختصر الحديث من يوم مجيئهِ الى دمشق وسقوطها وسماعهِ بمقام هند في بيت المقدس وما سمعهُ من قيم الدير

وكان سلمان شاخصًا ببصره مصيخًا بسمعهِ حتى اتى على آخر الحديث فامتقع لونهُ وظهرت عليهِ مظاهر الاسف والذهول ولبث صامتًا كانهُ اصيب بصدمة وكاد الدمع يتناثر من عينيهِ ثم تنهد وقال الم تعلم الى ابن سافر جبلة ياسيدي

قال كلاَّ ولولا ذلك لهان الامر

قال سلمان لا تيأس يا مولاي اني غير تارك وسيلة لا استخدمها في سبيل البحث عنهُ وبكفينا الآن اننا تخلصنا من ثعلبة

فقال حماد وكيف عرفت بمقتلهِ ومن هداك الى مكاني

قال ستعلم ذلك من سياق حديثي عن سبب تغيبي عنك

قال اقصص عليَّ خبرك

قال تركتكم في بصرى وجئت اليرموك فشهدت حربها وكان جبلة في الامير جملة المحاربين فلما عقد لواء النصر للمسلمين وقد علمتُ ان هدًا في دمشق هممت بالمسير اليكم ثم حدثتني نفسي ان استطلع مقاصد جبلة وكان قد فرَّ الى حمص برجالهِ وفيهم ثعلبة فما التقيت بهم حتى آمروا بالمسير للالتقاء المسلمين في اجنادين فسرت اليها وشهدت موقعة هائلة وقعت بين الرّوم والعرب هناك تقسم لهولها الولدان وفي

تلك الواقعة قتل ثعلبة وفشل جند الروم وفر الغساسنة . وكنت قد سمعت بحصار دمشق فآن لي ان اسير اليكم بالخبر فاسرعت الى بصرى فلم اجد احدًا منكم فظننت الراهب الشيخ ينعشي بخبركم فسرت اليه فاذا هو قد مات فاسفت لوفاته لعلمي انهُ لو كان حيًّا لهداني الى مقركم فمكثت في بصرى مدة ابحث عنكم واسأل كل من عرفتهُ فلم يرشدني مرشد فظننت انكم في دمشق ولكنني استبعدت ذلك لما علمت من حصارها ثم ما لبثت ان سمعت بسقوطها فهممت بالمسير اليها لعلي ارى احدًا استطلع منهُ خبركم وفيما انا افكر بذلك رأيت جندًا من المسلمين قادمًا الى بصرى فقلت لعلي اتسم منهُ خبرًا فلقيت اميرهُ مالك بن الحارث بن هشام وقد وجههُ ابو عبيدة اميرًا على حوران بعد سقوط دمشق (١) وكان الحارث بن هشام والد الامير مالك قد جاء مع ابي عبيدة اميرًا في بني مخزوم لحصار دمشق (٢) فقتل في بعض الوقائع فلما سقطت دمشق تعين ابنهُ مالك اميرًا على حوران لينجد الجند الذي يقوم من الحجاز مددًا لابي عبيدة في حروبهِ بالشام (٣)

فلما وصلَ هذا الجند الى بصرى تمكنت اطراق مختلفة من الاجتماع بالامير مالك فاخبرني عما كان من نزولكم على ابي عبيدة في الجابية والمهمة التي انتدبك بها هذا الامير الى حاكم دمشق الى ان انبأني بخروجك الى بيت المقدس وخروج الامير عبد الله الى العراق فهرولت حتى اتيت هذه المدينة وما زلت ابحث عن مقرك حتى علمت اليوم انك مقيم في هذا الدير وانك خرجت منذ الصباح فاقمت هنا في انتظارك حتى اتيت فاحمد الله على سلامتك وارجو ان تلتقي بسيدي الامير عبد الله قريبًا

فقال حماد لقد نفد الصبر يا سلمان واحتملت من غدر الزمان ما تعلم وانني قد مللت هذه الحياة المحفوفة بالمكاره الممزوجة بالمشاق ويخال لي ان الله لم يكتب لي نصيبًا بهند مع ما تعلمهُ من تعاقد قلبينا . قال ذلك وترقرقت الدموع في عينيهِ . فثارت الحمية في رأس سلمان حتى كاد يتقد غيرة ونظر الى حماد وقال دع ذلك الي يا مولاي وانكل على الله واذا كانت لك على ابي عبيدة دالة فلنذهب اليهِ لعلنا

---

(١) تاريخ الاعيان في جبل لبنان (٢) الواقدي (٣) والحارث بن هشام هو جد الامراء الشهابيين من عشائر لبنان ويقال انهم سموا بالشهابيين نسبة الى قرية شهبا من قرى حوران اقام بها مالك بعد ذلك (ذكره تاريخ الاعيان نقلاً عن سجلات محكمة صيدا الشرعية)

نستطلع منهُ خبرًا

فقال حماد ان لي عليهِ دالة عظمى ولقد اصبح بعد ما تم على يدي من صلح الشام كثير الوثوق بي حتى اشار يوم قدومي الى بيت المقدس الى انهُ ربما يحتاج اليَّ فيها مثل حاجتهِ في دمشق فلا اظنني اذا استعنتهُ في البحث عن جبلة الاَّ فاعلاً ما اريد

قال سلمان وابن هو الآن

قال تركتهُ في دمشق يبعث العيون لفتح ما بقي من بلاد الشام

قال اذا اذنت ان نذهب اليهِ غدًا فعلنا

قال حسنًا

فقال سلمان والاهتمام ظاهر على وجههِ انتقدم اليك يا مولاي في امر ارجو ان تطيعني فيهِ

قال وما هو

قال ارجو اذا نحن ظفرنا بجبلة هذه المرة ورأينا منهُ ترددًا او سمعنا منهُ وعودًا ان لا نضيع الوقت في الانتظار والمماطلة عدنًا

قال حماد وما معنى ذلك

قال معنى ذلك يا سيدي ان نأخذ هندًا من بين يديهِ اراد هو او لم يرد

فضحك حماد وكان قد قضى زمنًا لا يضحك وقال سنرى في ذلك يا سلمان .

وقضيا بقية ذلك اليوم في الاحاديث المتنوعة وباتا على نية الاهتمام في الركوب الى دمشق في الصباح

# الفصل الحادي والتسعون

## ﴿ حصار بيت المقدس ﴾

ولما اصبحا أخذا يهتمان في الخروج وكان ذلك اليوم من الآحاد فقال حماد هلمَّ بنا ندخل كنيسة القيامة نتبرك بسماع الصلاة قبل ذهابنا فخرجا حتى اتيا الكنيسة فرأيا جماهير الناس في صحنها ينتظرون قدوم البطريرك لاقامة الصلاة فوقفا بينهم فلم ينتبها

من احاديثهم الا ما يتوقعونه من قدوم العرب لفتح بيت المقدس ثم ماج الناس وتزاحموا يسابق بعضهم بعضاً فعلما ان البطريرك قادم ولم تمض برهة حتى اطلّ بموكبه يتوكأ على عكازه يحف به الاساقفة والقسيسون وقد اوقدت الشموع وفتح الناس طريقاً في وسطهم مرّ بها البطريرك وهم يتبركون بلمس ردائه حتى دخل الكنيسة فتبعوه حتى وقف عند الهيكل فبدل ثيابه بما يلبسه البطاركة اثناء الصلاة وعلى رأسه تاج مرصع بالحجارة الكريمة وعلى كتفه قباء مزركش بالذهب والفضة وفي عنقه صليب مرصع يتدلى على صدره بسلسلة من الذهب وقد اوقدت الشموع واحرق البخور وعلت اصوات المرنمين والمصلين . ثم وقف البطريرك على عرشه وهو كرسي من العاج مزين بالفسيفساء الجميلة والتفت نحو الجماهير فعلموا انه يهمّ بالكلام فاصغوا اليه فقال بعد البركة

« اعلموا معاشر النصرانية ان رجال العرب الحجازيين الذين قد سمعتم بقدومهم هذه البلاد واحتلالهم على بصرى ودمشق قد استفحل امرهم حتى فتحوا حلب وحمص وبعلبك وقيسارية وقنسرين وانطاكية [1] وغيرها وقد بلغني في هذا الصباح انهم قادمون الى هذه المدينة المقدسة بجند كبير . وقد بلغكم على ما اظن خروج مولانا الامبراطور هرقل من بلاد الشام الى القسطنطينية لأحوال اقتضت ذلك وقد فوض الينا التصرف في امر هذه الحرب بالتي هي احسن فتفاوضنا حاكم هذه المدينة فرأينا من الحكمة ان لا ندع لاولئك العرب سبيلاً لتخريب شيء من ابنيتها المقدسة فان فيها كنوز النصرانية بل ندافعهم بالامر الممكن فاذا رأينا خطراً في مقاومتهم عقدنا معهم صلحاً نحفظ به الارواح والاموال ونسلمهي كرامتنا لا كما فعل اهل دمشق . فما علينا الا ان نصلي الى الله ان يؤيدنا بالنصر في الدفاع عن قبر ابنه الخلاص وهذه حصوننا منيعة وعندنا العدة والرجال فانبذوا الشقاق واطيعوا اولي الامر واعلموا ان الله لم يمكن هؤلاء العرب من بلادنا الا لما اردناه من الانغماس في دنيانا والانشغال عن طاعة الله بالشقاق والانقسام فلتجتمع قلوبكم ولندافع جهد طاقتنا والله يفعل ما يشاء . »

فلما انهى البطريرك من خطابه ضج الناس وهم بين مصوّب ومخطّئ أما حماد فلما انقضت الصلاة خرج وهو يقول لسلمان لم تعد ثمت حاجة بنا الى دمشق فاننا لا نلبث ان نرى ابا عبيدة هنا ويلوح لي انني سأخدمه في هذه المدينة خدمة اعظ

(١) ابن الاثير

شأناً من خدمتي في دمشق لان اهلها على ما يظهر اقرب الى الصلح من الدمشقيين . وسارا الى مرتفع من المدينة يطلّ على ضواحيها وقضيا بقية ذلك اليوم يتشوفان لعلمها بريان جند العرب قادمين واهل المدينة يتأهبون للدفاع وفي صباح اليوم التالي رأيا الغبار يتصاعد في الافق وبانت من تحته اعلام المسلمين وفي مقدمتها راية العقاب فعلم حماد انهم رجال خالد بن الوليد وفي اليوم التالي جاءت فرقة اخرى نزلت في جانب آخر من المدينة وما زالوا يرون كل يوم فرقة تأتي باعلامها وخيامها وتنزل في ناحية من المدينة حتى صارت عدة الفرق سبعاً كل واحدة منها خمسة آلاف وجملة الجند ٣٥ الفاً عليهم سبعة قوّاد عرف حماد بعد ذلك انهم خالد بن الوليد وشرحبيل والمرقال ويزيد والمسيب وقيس المرادي وعروة بن مهلهل [1] فلما تحقق حماد وسلمان انحصار المدينة على هذه الصورة جعلا يبحثان عن ابي عبيدة لعلمهما جاء معهم فلم يريا راينة هناك ولكن حماداً كان يظن ان لابد من حضوره فتح تلك المدينة

وقضيا اياماً يترددان بين اسوار بيت المقدس والدير يستطلعان مقاصد الروم فرأيا الخوف مستولياً على الخاصة أما العامة فكانوا لا يزالون مصرّين على الدفاع فرموا المسلمين بالنشاب عن الاسوار فاجابهم المسلمون بمثلها ومضت ايام والحرب سجال بين الجانبين حتى ملّ حماد الانتظار وعوّل على الخروج الى الشام للاقاة ابي عبيدة وسؤاله عن جبلة فقال له سلمان ان الطريق لا يخلو من الخطر يامولاي واخشى اذا خرجنا من المدينة ان يستفشنا اهلها فيريدوا بنا سوءاً والاّ فليكن خروجنا بحيلة فتربصا بضعة ايام وهم في كل يوم يقفان في مشارف المدينة يطلان على ما وراء الاسوار من السهول والمسالك فرأيا يوماً جيشاً جديداً قادماً من جهة دمشق عرفا انه جند ابي عبيدة وفيهم راينة فاستبشر حماد وقال قد آن الوقت يا سلمان فلنسعَ في سبيل الى الخروج فما الرأي

قال الرأي ان نحرض حاكم المدينة على محاربة العرب بشأن الصلح فلعله ان يأذن بخروجنا او يخرج احدنا للمحاربة

قال حماد ومن يوصلنا اليه وانا لا اعرفه ولا هو يعرفنا ولا يأتي بنا

---

(١) الواقدي . وذكر ابن الاثير عمرو بن العاص وبين روايته ورواية الواقدي تباين وكان ذلك في السنة الخامسة عشرة للهجرة

قال سلمان دع ذلك اليّ ماني ادبره باذن الله . واطلعهُ على ما ينوي اجراءه

# الفصل الثاني والتسعون

## ﴿ صلح بيت المقدس ﴾

ورجعا الى الدير ولبس سلمان احسن لباس عنده وصار يلتمس الحاكم فقيل لهُ انهُ عند البطريرك في الكنيسة فسار اليهِ فرأى الخدم والحاشية وقوفاً امام غرفة الاستقبال لا يأذنون لاحد بالدخول فتقدم الى كبيرهم وقال لهُ اني آت بهمة ذات بال الى حضرة الحاكم فاستأذنهُ بالدخول عليهِ . فاستأذنهُ فأذن لهُ فدخل سلمان فاذا هو في غرفة قد خلا فيها البطريرك والحاكم وعلى وجههما دلائل الغبنة وكأنهما كانا في جدال فسجد بدخولهِ امام البطريرك ففبل يديهِ ثم قبل يدي الحاكم ووقف متأدباً فاذن لهُ بالجلوس فجلس فقال لهُ الحاكم وهو مقطب الوجه ما غرضك

قال ان غرضي يامولاي سلامة هذه المدينة من سلاح الاعداء وصيانة قبر السيد المسيح من الاهانة والاحتقار

قال ومن انت

قال اني تابع لامير من امراء العراق كان في جملة من شهد فتح دمشق وتوسط في صلحها بين الروم والعرب ولولا توسطهِ لاهرقت الدماء وخربت تلك المدينة ولهُ مع امراء جند المسلمين معرفة ودالة

فقال الحاكم اتريد ان نلتمس الصلح من عند انفسنا ونحن لم نبدِ دفاعاً بعد

فقال سلمان كلاَّ يا سيدي انما اعرض عليكم الامر عرضاً ولا غرض لي فيهِ سوى حجب الدماء

فقال البطريرك بورك فيك يا بني ولكننا لا نرضى بما رضي بهِ اهل دمشق فان بيت المقدس قبر سيدنا ومخلصنا وما تسليمها بالامر السهل

فقال سلمان اذا امر مولاي بسماع رأيي لا اظنهُ الاَّ رضيَ بهِ

قال قل

قال اوى انكم اذا حاربتم هؤلاء العرب بامر الصلح ان لا ترضوا بعقدهِ على يد احد

منهم اجلالاً لمقام هذه المدينة المقدسة وحفظاً لمنزلتكم ولكنكم تطلبون ان يتم ذلك على يد امير المسلمين الاكبر وهو سلطانهم وخليفتهم ومقامهُ في يثرب بالحجاز فاطلبوا ان يكون الصلح على يده فاذا رضيَ بهِ وأتى الخليفة بنفسهِ من كرسي ملكهِ الى هنا كان في ذلك حفظ لكرامة هذه المدينة وامتيازها عن كل ما فتح من مدن الشام قبلها

فامعن البطريرك بفكرتهِ قليلاً ثم قال اين هو مولاك الامير

قال هو في منزلهِ هنا فاذا امرتم باستقدامهِ فعلت

فامرهُ باستقدامهِ فذهب سلمان وقد سرَّ بنجاح مهمتهِ حتى اتى حمادًا وكان في انتظاره فلما قص عليهِ ما دار من الحديث نهض فلبس لباس الامراء وسار مع سلمان حتى دخل على البطريرك والحاكم فلما رأياه استأنسا بطلعتهِ وما يتجلى في وجههِ من المهابة والجلال فاذنا بجلوسهِ ثم قال البطريرك هل تعرف قائد جندهؤلاء العرب

قال نعم اعرفهُ جيدًا ولي معهُ صداقة

قال هل انبأك تابعك بما استقدمناك بهِ أنهُ

قال نعم وهو الامر الذي اراه انا ايضاً وقد شهدت حرب هؤلاء في دمشق وبصرى وغيرها ورأيت من ثباتهم وصبرهم ما لا اقول ان الروم يعجزون عن مثلهِ ولكنهم قد يفلتون راحة الناس فتنف حركات الاعمال بلا فائدة وخصوصاً بعد ان رسخت أقدامهم في كثير من البلدان وزد على ذلك ان السبيل الذي تطلبون مخابرتهم بهِ يحفظ مقام هذا المدينة وكرامتها الى الابد اذ لا يخفى على حضرتكم ان امير المسلمين المقيم في يثرب رجل عظيم جدًّا قد اقر بعظمتهِ القريب والبعيد وهو عندهم في ارفع منزلة بعد نبيهم لانهُ خليفتهُ والقائم بأمرهِ ولم يسبق انهُ قدم هذه البلاد لمثل هذا الشأن فقدومهُ بنفسهِ على ما ذكرت امتياز خاص ونظرًا لما لي من الصداقة لدى الامير ابي عبيدة كبير امراء هذا الجند سأحبب اليهِ ان يجيب طلبكم ولا اظنهُ الاَّ فاعلاً

فالتفت البطريرك الى الحاكم كأنهُ يستشيرهُ فقال الحاكم لا بأس من ذلك غير اني لا ارضى ان يفهم هؤلاء اننا خائفون او اننا نطلب الصلح لعجزنا عن القتال

فابتدرهُ حماد قائلاً لا تخف يا مولاي فاني اذا خابرتهم انما اجعل ذلك من عند نفسي على اسلوب ليس عليكم منهُ بأس غير اني التمس أن يصحبني من يخرجني من الاسوار لئلاَّ يعترضني احد من رجالكم

فقال الحاكم لك علينا ذلك ونحن نطلب ان يبقى تابعك هذا هنا ريثما تعود

قال لا بأس بذلك وخرج حماد حالاً فركب جواده ومعهُ بعض اهل القصر حتى اوصلوه الى باب المدينة فخرج الى معسكر ابي عبيدة فلما رآه ابو عبيدة استقبلهُ باسماً ورحب بهِ وقال لهُ ألعلك جئت بهمة اخرى

قال اني لا آلو جهدًا يا مولاي في كل ما يأول الى حجب الدماء

فقال ابو عبيدة هل جنح اهل بيت المقدس الى السلم

قال نعم يا سيدي اظنهم يريدون الصلح ولكنني فهمت انهم رفعة لمقام هذه المدينة المقدسة يريدون ان يكون صلحها على يد خليفتكم الامام عمر بن الخطاب ألا ترى انهُ يقدم اليها بنفسهِ وهي مدينة مقدسة يحترمها كل طوائف الناس

قال لا اظنهُ الاَّ قائلاً بذلك . وما بعد قولهِ

قال اذا اكدت لي قبولهُ جعلت المخاطرة في ذلك رأسًا بينكم وبين حاكم المدينة او بطريركها على مشهد من الناس واني انما جئت توطئة للامر بهمة خصوصية

فأثنى ابو عبيدة عليهِ وقال لهُ لقد سعيت سعيًا حسنًا بورك فيك واذا تمَّ الصلح وقدم امير المؤمنين الى هنا سأقدمك اليهِ واذكر لهُ شهامتك

قال ان ذلك شرف كبير احسبني سعيدا اذا حصلت عليهِ واتقدم الى مولاي الامير بسؤال ارجو ان لا يثقل عليهِ

قال قل وما هو

قال اتعرف جملة من الايهم امير الغساسنة الذي كان يحاربكم مع الروم

قال نعم اعرفهُ وما حديثهُ

قال ان لي معهُ امرًا يهمني وكنت احسبهُ في بيت المقدس فجئت كما علمت فلم اجدهُ ولا احدًا من اهلهِ وقيل لي انهم كانوا هناك وخرجوا خروج الدارّين لا يعلم احد بمقرّهم فهل يعلم مولاي شيئًا عن هؤلاء الغساسنة

قال ابو عبيدة ان الذي اعرفهُ من امر هذا الامير انهُ خرج من بلاد الشام جملة هو واهلهُ وقد بعثت العيون عليهِ فاذا عرفت مقرّه انبأتك بهِ او ربما سمعت بقتلهِ بسيفنا الاَّ اذا سلَّم صاغرًا

قال وكيف نقتلونه وهو انما يحارب بسيف مولاه الامبراطور ولعله اذا خيّر لا يختار غير التسليم

قال اما اذا سلم فهو في ذمتنا له ما لنا وعليه ما علينا والاّ فان السيف بيننا و بينه واخشى مع ذلك ان يكون قد قتل في بعض الاماكن ولم يعلم به احد

فاضطرب قلب حماد وخاف ان يدلك المحازمون جبلة واهله اذا التقوا بهم في مكان فوقع في حيرة ونظر الى ابي عبيدة وهو يهم ان يحاطبه في الامر و يوقفه الحذر فلحظ ابو عبيدة ذلك فيه فقال ما لي اراك تحاذر ان تخاطبني فهل يسوءك قتل جبلة

قال نعم يسوءني يا سيدي

قال وهل بينكما قرابة

قال وقد تلجلج في الجواب نعم بيننا شبه قرابة

قال واي قرابة بينكما وانت من لخم وهو من غسان فالظاهر انها قرابة المصاهرة

فقال وهو مطرق نعم يا مولاي ثم رفع نظره اليه وقال هل يأذن لي الامير بأمرٍ أتقدم اليه فيه

قال قل ما بدا لك

قال ان امر جبلة يهمني كثيرًا وحياتهُ اعدها لحياتي

قال وما معنى ذلك اني لم افهم السرّ فاذا كانت بينكما هذه العلاقة فما بالك لم تدافع عنهُ في شيء ولا ذكرتهُ امامي في مثل هذا المعرض قط

قال ان الاحوال لم تلجئني الى ذلك قبل الآن اما وقد آنست فيك هذا الانعطاف فأتجاسر في شكك امرًا يهمني كتمانهُ الآن ولكني اسئلك لديك عساه ان يعود عليّ بالفائدة

قال قل ما هو

قال اعترف لمولاي الامير ايده الله ان لي في جبلة مأربًا يهمني كثيرًا ولا اخفي عنك اني خاطبت استهُ وقد قضيت بضعة اعوام في انتظار وقت القران فحالت الحروب بيني و بينهُ وكان آخر عهدي بالامر ان اجتمع بهِ و بأهلهِ في بيت المقدس فلما جئتها رأيتهم قد رحلوا الى مكان لا يعلمهُ احد فجئت استفهم عن مكانهم . قال ذلك وقد ظهرت على وجههِ علامات الاهتمام يمازجها الحياء

فقال ابو عبيدة وهو ينظر الى وجهه يراعي حركاته « كيف هان على ملك غسان ان يروجك ابنته وانت غريب ولست من سلالة الملوك »

فتغير حال حماد وعلا وجهه الاحمرار لما تذكر من حقيقة نسبه ولكنه تجاهل وقال « لقد عانيا في سبيل ذلك مشقة ولعله السبب في تأخير الاقتران الى اليوم »

فقال ابو عبيدة طب نفساً يا حماد واعلم اني نصيرك في الحصول على مرامك ولا يحق لجبلة ان يماخرك في النسب وانت شهم همام قد رفعتك همتك الى اعلى من مقام الملوك وها اني باث العيون والارصاد للبحث عن جبلة وساحملهُ على ما تريد قهراً

فأثنى حماد على غيرته وشكر له وهم بوداعه على ان يعود الى حاكم بيت المقدس (١) نتيجة الرسالة . فقال له ابو عبيدة تمهل ريثما اشاور الامراء في الامر

وامر فجاء خالد وسائر الامراء وخرج حماد فعقد ابو عبيدة مجلساً شاور فيه اصحابه فلما انعقد المجلس استدعى حماد فدخل على ابي عبيدة ولم يكن في الخيمة غيره فرآه عابساً فقال له ما بال مولاي مقطب الوجه

فقال ليس بي بأس ولكني لقيت من الامراء رغبة في اجراء الصلح على يدنا استعجالاً للفتح . لان استقدام الخليفة من المدينة يستغرق زمناً طويلاً وقد يمنع عن الحجي، لما يحول بينهُ وبين ذلك من الشاغل الهامة

فادرك حماد ان النادي في ذلك الرأي خالد بن الوليد لما يعلم من عجلته وزعته في البحر فقال اظن الامير خالداً اكثر الامراء ميلاً الى هذا

فلم يجب ابو عبيدة في بادىء الرأي فصمت حماد ولبث ينتظر الجواب فقال ابو عبيدة عُد الى حاكم ايلياء (١) وقل له اننا قبلنا باجراء الصلح على يد امامنا الخليفة امير المؤمنين واذا جاءهم احد من الامراء يغير ذلك فهم مخيرون في القبول او عدمه

فنهض حماد مودعه واوصاه بالسعي في البحث عن جبلة ثم خرج يريد بيت المقدس فلقيهُ حماد فأخبره الخبر فسرَّ لنجاح مهمته وقال له هلم بنا الى الحاكم فسارا اليه فلما اقبلا عليه استطلعهما الخبر فقص حماد ما دار بينهُ وبين ابي عبيدة

فقال الحاكم لا نصالح احداً غير الامام

(١) بيت المقدس

فقال البطريرك ( وكان حاضرًا ) وكيف نميز بين الامام واحد الامراء لو جاء باسمهِ

فقال سلمان اني عالم بصفة امامهم وقد شاهدتهُ بنفسي غير مرة في المدينة يوم شهدت فتح مكة وكان لا يزال اميرًا كسائر الامراء

وفي اليوم التالي صعد البطريرك والحاكم الى اسوار المدينة ومعهما حماد وسلمان متنكرين فلبثوا ينتظرون ما يكون من امر العرب فجاءهم رسول على جواد خاطبهم من اسفل السور يطلب اليهم التسليم فقال البطريرك انا نقبل بالصلح اذا كان على يد اعظم امرائكم

فمضى الرسول وبعد برهة عاد ومعهُ فارس آخر علموا من لباسهِ وحالهِ انهُ من الامراء فقال الرسول هذا هو كبير امرائنا فصالحوه

فنظر حماد فاذا هو ابو عبيدة بنفسهِ فعلم ان رأي امرائهِ غلب على رأيهِ فجاء يطلب الصلح بنفسهِ فلما رآه البطريرك استطلع رأي حماد عن الرجل فقال هذا هو ابو عبيدة كبير امراء جند الشام

فقال اليس هو ملكهم الكبير

قال كلاَّ

فنظر البطريرك الى ابي عبيدة وقال اما لا نصالح احدًا غير خليفتكم المقيم في المدينة فاستقدموهُ واحقنوا الدماء

فعاد ابو عبيدة وفي اليوم التالي جاءهم خالد بمثل ذلك فأبوا مصالحتهُ (١) واصروا الاَّ ان يأتيهم عمر بنفسهِ وكان الفصل شتاء وقد تكاثرت الامطار والعواصف فامتنع على المسلمين الثبات هناك مثل ثباتهم في دمشق الشام لان اهل بيت المقدس مقيمون في البيوت والعرب في الخيام على انهم صبروا على مناجزتهم اربعة اشهر بين حرب ونضال ومحاصرة والروم مصرُّون على ان يكون الصلح على يد الامام عمر فلم ير ابو عبيدة بدًّا من استقدامهِ فكتب اليهِ بذلك

اما حماد فكان يتردد الى معسكر ابي عبيدة يستطلع ما حدث من امر جبلة ويستحث ابا عبيدة على استقدام عمر قيامًا بوعده فمضت الاشهر الاربعة ولم يقف لجبلة على خبر

(١) الواقدي

اما سلمان فانهُ لم يطق صبرًا في انتظار ابحاث ابي عبيدة فخرج بنفسهِ يستخبر الناس ممن ظن انهم يعلمون شيئًا عن حبلة واهلهِ فلم يسمع الاَّ اخبارًا متضاربة بين قائل انهم فروا الى العراق او مصر او غيرها وقال آخرون انهم لا يزالون مختبئين في بعض بلاد الشام ولكن الاكثرين على انهم فروا الى العراق فعاد الى حماد بتلك الاخبار المتضاربة فلم تغنهِ شيئًا فاشتد اليأس وضاقت دونهُ السبل ولم يكن يرَ تعزية الاَّ بلقاء ابي عبيدة . ففيما هو عندهُ ذات يوم وسلمان ينتظر خارجًا اذ دخل عليهِ رجل منبسط الوجه كأنهُ جاء بشارة فقال ابو عبيدة ما وراءك

قال ان بالباب رسولاً من امير المؤمنين جاء بحبرا بقدومهِ

قال فليدخل فدخل الرجل وآثار السفر بادية على وجههِ وعلى ثيابهِ

فقال لهُ ابو عبيدة اين تركت امير المؤمنين

قال تركتهُ راكبًا من دمشق واسرعت لبشارتكم

فقال ابو عبيدة ما بالهُ ابطأ علينا

قال انما ابطأ لما اعترضهُ في طريقهِ من المسلمين يستفتونهُ ويتقاضون اليه وهو لا يرى الاَّ سماع اقوالهم والعدل بينهم

قال هكذا يكون الامراء بورك سلطان حملك يا عمر . ثم بعث الى خالد وسائر الامراء فجاؤهُ فأنبأهم بقدوم عمر وقال فلنذهب للقائهِ والتفت الى حماد وهمس في اذنهِ هلمَّ بنا لعلنا نسمع من اهل المدينة خبرًا عن صاحبك حبلة

فركب الامراء وركب حماد ومعهُ سلمان وقد شعلهُ ركوبهُ هذا عن اهتمامهِ بحبلة وخبره وكان الامراء بلباس الديباج والحرير (١) وقد امتطوا خيولاً فوقها السروج الفضة (٢) ما غمهوهُ من دمشق الشام وغيرها الاَّ ابا عبيدة فقد كان على قلوصة ( ناقة ) وفوقهُ عباءة قطوانية وخطام الناقة من الشعر وساروا وقد تركوا الجند في مكانهم حول اسوار بيت المقدس . وكان حماد مشتاقًا لمشاهدة عمر بعد ان تولى امر المسلمين وهو يتوقع ان يراه في موكب حافل كما تعوَّد ان يرى او يسمع عن ملوك الروم والفرس مما يبهر النظر ويستوقف البصر فكان كلما مشوا قليلاً تشوف عن بعد لعلهُ يرى الغبار او نحوهُ مما يتقدم المواكب فلم ير شيئًا

(١) ابن الاثير (٢) الواقدي

# الفصل الثالث والتسعون

## ﴿ الامام عمر بن الخطاب ﴾

وفيما هو يتشوف رأى هجمًا قادمة فقال في نفسهِ هذه هي طليعة الموكب قد جاءت ببشارة فلما اقتربت رأى في مقدمتها هجينًا احمر عليهِ من الجانبين غرارتان وامام الرحل قربة الماء ووراءه جملة للزاد وقد امسك بخطام الناقة بدويٌّ ماشٍ . وعلى الناقة رجل ابيض الوجه مع حمرة تعلوه شديد حمرة العينين حسن الخدين والانف خفيف العارضين ضخم الكراديس على رأسهِ عمامةٌ وعلى كتفيهِ عباءة من صوف عليها بضع عشرة رقعة بعضها من الجلد والبعض الآخر من الصوف [1] يحمل بيده درة هي عبارة عن سوط عريض من الجلد . فتحير حماد في امر هذا الهجان والتفت الى سلمان وابتدره قائلاً هذا هو الامام عمر يا مولاي ثم ما لبث ان رأى ابا عبيدة ترجل عن ناقتهِ واسرع نحوه وترجل عمر ايضا ونعانقا فتحقق حماد انهُ الامام عمر فعجب لزهده ثم ما لبث ان سمع عمر ينتهر بعض الامراء فتقدم ليسمع كلامهُ فاذا هو يؤنبهم لما اتخذوه من لباس الديباج والحرير وقال لهم ما بالكم تمسكتم بالدنيا وغفلتم عن الآخرة ما هذه الملابس انها لبسة اهل الترف وانتم في سبيل الجهاد قال ذلك وحسا عليهم التراب فقال ابو عبيدة انهم يا امير المؤمنين انما اتخذوه كساء خارجيا وتحتهُ السلاح [2]

ثم نادى ابو عبيدة حمادًا فاقبل فقدمهُ الى عمر وقال لهُ انهُ شاب من امراء العراق كان لنا نصيرًا في حصار الشام و واسطة في صلحها

فرحب بهِ عمر والتفت الى ابي عبيدة وقال لقد اذكرني بجبلة بن الايهم الغساني ألم يصالك كنانبي بسأ بهِ

قال كلاَّ يا مولاي وما خبره

قال لهُ خبر طويل سأقصهُ عليك بعدئذ وهلم بنا الآن الى بيت المقدس وركبوا جميعًا

أما حماد فلما سمع اسم عمهِ جبلة خفق قلبهُ وتاق لسماع حديثهِ ولكنهُ لم يجسر على

---

(١) الواقدي (٢) ابن الاثير

الناس ذلك فاضطر للانتظار الى فرصة اخرى

وما زالوا سائرين حتى اشرفوا على بيت المقدس وحولها معسكر العرب ورأوا الاعلام عن بعد ولما اقتربوا من الخيام سمعوا ضجيج الناس ورأوا جماعات منهم مهرولين للقاء عمر فرحب بهم واثنى على غيرتهم وشكرهم لحسن جهادهم وذكر ما فتح من المدن على ايديهم حتى اذا وصلوا معسكر ابي عبيدة نزل عمر في فسطاط من شعر نصبوه له هناك ونزل الامراء معه وتزاحم الناس للتيمن بمشاهدته وسماع كلامه . اما هو فجاس على التراب وجلس الجميع معه وحماد يعجب لزهده وتواضعه

ثم نهض والقى عليهم خطابًا ثم جلس الجميع يتحدثون بامر الفتح وما لقوه من الجهد وما كان من فوزهم وكلهم فرحون واما رات الافتخار ظاهرة على وجوههم

وكان حماد ينتظر ان يجري حديث جلة لعل عمر ان يقص خبرهُ فاشتغلوا عن ذلك باحاديث الفتح ثم بودي بالصلاة

فخرج حماد وقد ملَّ الانتظار فقال ماقولك ياسلمان هل نسأله ليقص علينا خبر جلة

قال لا حاجة بنا الى ذلك واما يكفينا ان نسأل ابا عبيدة وهو يطلب اليه

قال حسنًا وسارا الى ابي عبيدة بعد الصلاة فلما وقع نظره على حماد قال له عدًا نسمع حديث امير المؤمنين عن جلة واهل بيته اما الآن فاطلب اليك ان تسير الى حاكم هذه المدينة فتسلمه مفدوم امير المؤمنين وقل له ليخرج للصلح ومتى عدت من هذه المهمة قدمتك الى مولانا الخليفة فتنال منه بركة وحظوة

فخرج حماد وسلمان فاسأذا الحاكم والبطريرك بقدوم عمر فخرج البطريرك على الاسوار وطلب ان يرى عمر رأي العين

فعاد حماد باخبر فركب عمر بافته ومرقعته وتقدم نحو الاسوار وابو عبيدة الى جانبه وكان حماد قد عاد الى الاسوار واشار الى البطريرك انه هو الرجل فاستغرب ما رآه من سذاجة لباسه وكثرة زهده واعتبر بما انعمس فيه الروم من الترف والرخاء وما اراد الله من خضوعهم لاولئك العربان ثم نظر الى اعيان المدينة وكانوا وقوفًا معه على الاسوار وقال « اليكم يا اهل بيت المقدس هذا هو الرجل الذي تفتح البلاد على يده فاخرجوا اليه واطلبوا صلحه واعقدوا معه الامان والذمة [1] » ففتحوا الابواب وكانوا

(١) الواقدي

قد ضاقوا ذرعا عن احتمال الحصار وخرجوا افواجا وفيهم الرجال والنساء والشيوخ والاطفال وصاحوا بصوت واحد يستغيثون فلما رآهم عمر على هذه الحالة تخشع لله وسجد وهو على قتب بعيره ثم اناخ ناقتهُ ونزل وقال للناس عودوا الى منازلكم ولكم الذمة والعهد

فعادوا ولم يقفلوا الابواب وعاد عمر الى معسكره وفي صباح الغد دخل عمر المدينة والناس يرحبون بهِ وقد رفعوا اصواتهم بالترنيم والترتيل وفيهم القسس في ابديهم المباخر حتى اتى سراي الحاكم قرب كنيسة القيامة واجتمع اليهِ الحاكم والبطريرك وكبار اهل الدولة وعقدوا صلحًا اقرُّوا بهِ على اداء الجزية واوصى بهم الامام عمر خيرًا وهدأت الاحوال وسكنت القلوب [1] الاَّ قلب حماد فانهُ ما زال يتقلب على جمر الانتظار والتردد

# الفصل الرابع والتسعون

## ﴿ جبلة بن الايهم ﴾

ومكث عمر في بيت المقدس عشرة ايام لم يخل يومًا واحدًا من الوفود من سائر انحاء سوريا وخصوصًا عظماء البلاد التي خضعت للمسلمين فانهم كانوا في اشتياق لرؤية الخليفة . وفي اليوم الخامس من دخولهِ وهو يوم الجمعة خط عمر محرابًا في المدينة وفي موضعه بني جامعه بعد ذلك ففي ذلك اليوم سار حماد الى ابي عبيدة وشكا اليهِ قلقهُ ورغبتهُ في سماع حكاية جبلة عن لسان الامام عمر فاستمهلهُ الى المساء وقال لهُ ان امير المؤمنين سيخرج من المدينة بعد صلاة العصر ليصلي العشاء مع باقي الامراء في فسطاطه وسنقضي السهرة هناك فيقص علينا الخبر

وفي العصر خرج حماد وسلمان الى معسكر ابي عبيدة حتى اذا كان العشاء وصلى المسلمون سارا الى خيمة الامام عمر فلقيهما الحاجب فاستاذن لهما فدخلا وجلسا في بعض جوانب المكان وكانت الخيمة كبيرة وفيها زهاء خمسين رجلاً

(١) فتحت بيت المقدس سنة ١٥ هـ ( ابن الاثير )

وكان الجميع جلوساً على الثرى تمثلاً باماهم الخليفة وبعد ان قرأ القراء بعض السور وتبرك الناس بذلك المساء تقدم ابو عبيدة الى الامام عمر ان يقص عليهِ حكاية جبلة بن الايهم ملك غسان وما كان من امره

فقال الامام عمر ماذا تعلمون عنهُ انتم

قال ابو عبيدة نعلم انهُ فرَّ باهل منزلهِ الى مكان لا نعلمهُ

فتبسم عمر وقال انهُ لم يفر ولكنهُ جاء المدينة بعد فتح دمشق يلتمس الدخول في الاسلام فقبلتُ منهُ ذلك فاعتنق الاسلام واقام بيننا في اهل منزلهِ معززاً مكرماً واذنَّا لهُ ان يبقى على ما اعتادهُ من فاخر اللباس من الحرير والديباج وركوب الخيل مسرجة بالسروج الثمينة عليها سلاسل الذهب في اعناقها واذا ركب وركبت حاشيتهُ عقدوا اذناب الخيل فسارت تخطر بهم حتى لا تبقى واحدة من نساء المدينة الاَّ وتخرج لمشاهدتهم (١)

ولكننا ما برحنا نرى فيهِ روح الاستبداد والظلم مما يأنفهُ عدل الاسلام لان هؤلاء العرب المنتصرة عاشروا الروم واعتنقوا ديانتهم وتخلقوا باخلاقهم ولا يخفى عليكم ما في دولة هؤلاء الروم من التفاوت بين طبقات رعاياهم فيما كل القويُّ منهم الضعيف بغير وجه الحق فاراد جبلة ان يسير على ذلك فاوقفناه عند حده

ومما دعانا الى ايقافهِ خاصة حادثة جرت لرجل من فزارة مع جبلة وذلك اننا خرجنا مرة للحج وفيما نحن نطوف في البيت ومعنا جبلة وجمع غفير من المسلمين وفي جملتهم رجل من فزارة فوطئ الفزاري آزار جبلة فانحل الازار فغضب جبلة ورفع يدهُ وضرب الفزاري فهشم انفهُ فجاء في هذا الرجل يشكو ما الم بهِ فبعثت الى جبلة فاتى فقلت ما هذا قال نعم اني هشمت انفهُ لانهُ تعمد حل ازاري ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيهِ بالسيف

فلما قال ذلك علمت انهُ يريد الاستبداد فقلت اعلم يا جبلة انك مخطئ وقد اقررت بما ارتكبتهُ فعليك اما ان ترضي الرجل واما ان يفعل بك مثل فعلك بهِ فعظم ذلك على الفساني واستغربهُ وقال وما ذا . قلت آمر بهشم انفك كما فعلت

(١) الاغاني جزء ٣

فقال كيف ذاك يا امير المؤمنين وهو سوقة وانا ملك

قلت ان الاسلام جمعك واياه فلست تفضله بشيء الاَّ التقى والعافية

فقال وقد خاب ظنهُ «كنت ظننت يا امير المؤمنين اني اكون في الاسلام امنع مني في الجاهلية»

فقلت دع عنك هذا فانك ان لم ترضِ الرجل اقدتهُ منك

فقال اذًا انتصر

فقلت لهُ ان تنصرت ضربت عنقك لانك قد اسلمت فان ارتددت قتلتك

فلما رأى ابن الايهم ما صممت عليهِ سكت ثم قال لي اني ناظر في ذلك ليلتي هذه

قلت انظر ما شئت ثم انصرف ولم اعد اراه ولا ادري مقره . وقد كتبت اليك بشأنهِ والتمست ان تبحث عنهُ فهل علمت عنهُ شيئًا

قال ابو عبيدة كلاَّ يامولاي انا قضينا اشهرًا ونحن نبحث عنهُ فلم نقف لهُ على خبر

# الفصل الخامس والتسعون

## ﴿ مشورة وذكرى ﴾

وكان حماد يسمع حديث عمر وهو شاخص ببصره يتطاول بعنقهِ وقلبهُ يخفق في انتظار آخر الحكاية فلما اتى عمر على آخر كلامهِ انقبضت نفس حماد وعظم عليهِ الامر وهم بمخاطبة عمر يستطلعهُ رأيهُ في مصير جبلة واهلهِ فاقعدتهُ هيبة المجلس ومقام الخليفة وماصدق ان ارفض الجمع حتى خلا بسلمان ووقفا بالقرب من معسكر ابي عبيدة فقال حماد ما رأيك يا سلمان

قال لقد هان الامر يامولاي والرأي عندي ان نبحث عن جبلة في الطريق بين المدينة والشام اذ لا اظنهُ اذا فرَّ من الحجاز الاَّ قادمًا الى اطراف الشام او البلقاء او مكان آخر لم يفقههُ المسلمون او لعلهُ يختبيء في بعض الديور ولا بد لهُ في كل حال من المرور بدير بحيرا ولو متنكرًا فلنبحث عنهُ ونستخبر اهل الدير واذا اشكل الامر اكثر من ذلك قصدنا ناسك حوران فان لهُ معرفة وكرامة

فتأفف حماد وتذمر ولكنهُ فكر في الامر فرأى كلام سلمان معقولاً فظل صامتًا برهة وسلمان ينظر اليهِ ويتأمل حالهُ فرآه غارقًا في بحار الهواجس وقد تولاه الانقباض وغلب عليهِ اليأس فقال لهُ ما بال مولاي لم يعتد بكلامي العلي مخطئ في ما اقول

قال لا اقول مخطئًا ونعمَّ الرأي رأيك ولكني افكر ياسلمان فيهند كيف طال هذا الامد ولم يصلني منها علم ولم اسمع عنها خبرًا مع علمها بذهابي الى بيت المقدس بعد فتح الشام

قال لا تلمها يا سيدي ألا تعلم انها فتاة لاتستطيع المجاهرة بامرها فضلاً عما كانوا فيهِ اثناء فرارهم من الخوف والاهتمام واقاموا في المدينة غرباء ثم عادوا فارين كما قد رأيت فهل تستطيع هند امرًا

فقال حماد لا ادري ولكنني اراني مقيد الفكر مغلول اليدين والامير عبد الله بعيد عنا لا نعلم خبرهُ ولا ما لاقاه في العراق

قال سلمان اما الامير عبد الله فانت تعلم انهُ من الحكمة والتعقل في ما لانخشى عليهِ معهُ بأسًا ولا بلبث ان يعود الينا وقد نال حظوة في عيني المسلمين ولكن . . . وصمت

فقال حماد ما بالك صمتَّ قل ما في نفسك

قال سلمان ماذا اقول ونحن كما قلت مقيدو الفكر مغلولو الايدي

قال وما ذا تعني

قال اعني يا مولاي اننا شغلنا بحروب الشام والتماس ملك غسان عن امرائنا اتينا هذه البلاد من اجلهِ ولولاه لكان مقامنا في العراق معًا ندافع عن دولة الفرس دفاعنا عن انفسنا

فانتبه حماد الى حكاية الذر وحقيقة نسبهِ وما لهُ من الثأر على الفرس فقال لقد صدقت يا سلمان اننا تقاعدنا عن ثأرنا وانشغلنا بهام انفسنا عن وصية والدي ووالله لواني فرغت من مشاغلي المتواترة وخلوت بنفسي يومًا واحدًا لما بقيت في هذه الديار بل كنت اول شاخص الى العراق اشهد فتح المدائن عاصمة تلك الدولة الظالمة واني لواثق بقرب سقوطها لما نعلمهُ من بطش العرب وفساد احوال الفرس وانقسام حكامهم بعضهم على بعض

فقال سلمان اذًا نسير الى العراق ...

قال حماد بصوت مخنوق ونفس صغيرة « وهند » ونظر الى سلمان فكان لنظرته وقع السهام على قلب سلمان فنظر اليهِ وتبسم ثم همّ بهِ وضمهُ الى صدره وقال لهُ ان هندًا في المقام الاول يا مولاي ثم الثأر

فتنهد حماد وقال لابل الانتقام للملك النعمان قبل كل شيء هكذا اوصانا بصوتهِ المنبعث من ظلمات القبر ولكن ..... قال ذلك وترقرقت الدموع في عينيهِ

فابتدره سلمان قائلاً ان كلا الامرين مستدرك فلنبحث اولاً عن مقر هند فاذا التقينا بها وكان السفر الى العراق مستعجلاً وكان اجل الفرس قريبًا أجلت الاقتران الى ما بعد الرجوع منها وسقوط دولة الفرس والاَّ فانك تتزوج ثم نسير. فقم بنا الى بيت المقدس وغدًا نستطلع اخبار العراق ثم نسير للبحث عن جبلة واهلهِ في اطراف الشام وحوران ويفعل الله ما يشاء

فقال حماد حسنا نرى ولكن ذهابنا الى بيت المقدس في هذا الليل لايخلو من المشقة فضلاً عن الخطر وقد دعانا ابو عبيدة للمبيت عندهُ فلنبت هنا الليلة وغدًا لناظره قريب

قال حسنًا وتحولاً نحو الفسطاط وقبل الوصول اليهِ سمعا اصواتًا عرفًا انها اصوات القراء يتلون القرآن والناس يصلون فتنحيا برهة حتى فرغوا من الصلاة فدخلا على ابي عبيدة فقال لهما اين ذهبتما وانا ابحث عنكما منذ خروجنا من مجلس الخليفة

فقال حماد لقد كنا في شأن جبلة وخبرهِ ولم يزدني حديث امير المؤمنين الاَّ تلبكًا فلا ادري اين هو هذا الرجل الآن

فقال ابو عبيدة سنبحث عنهُ في سواحل الشام لعلهُ يقيم في مكان هناك او اذا كان قد خرج منها الى بلاد الروم او مصر او غيرها عرفنا خبره

فقال سلمان ونحن نرى ان نفتش عنهُ في اطراف الشام وحوران لعلنا نسمع عنهُ شيئًا في بعض الدبور . قال ابو عبيدة نعم الرأي رأيت وسيكون بحثنا وبحثكم معًا فمن استطلع امرًا اطلع الآخر عليهِ

فقال حماد وماذا تعلمون من اخبار العراق وفارس فان والدي لم يكتب اليَّ شيئًا منذ سفرهِ

فقال ابو عبيدة ان ما اتانا به مولانا امير المؤمنين يسرُّ كل مسلم فان النصر معقود لواؤه لجنود المسلمين حيثما ولوا وجوههم وقد كان الامام عمر على موعد من موقعة هائلة بين المسلمين والفرس في القادسية فخرج من المدينة وهو في انتظار البريد يخبرها وقد ابطأ عليه فاوعز الى نائبه في المدينة اذا جاء بريد العراق ان ينفذه اليه في بيت المقدس حالاً فنحن ننتظر ورود البريد (١) انتظار الظمآن لموارد الماء. وكلنا على يقين من نصرة رجالنا مهما تكاثرت جنود الفرس وافيالهم ودوابهم فما هم اشد وطأة من الروم بل نحن اشد وطأة على الفرس منا على الروم لان هؤلاء اهل كتاب قد اوصينا بهم خيرًا واما الفرس فانهم مجوس يعبدون النار (٢) فضلاً عن اختلال احوال مملكتهم وتنازع دعاة الملك على كرسيهم فقد توالى على ايوان كسرى بضعة ملوك في عام واحد بعضهم نساء والبعض الآخر من الرجال وملكهم الآن يزدجرد بن شهريار ابن كسرى انوشروان وهو ضعيف الرأي لا يستطيع القيادة فهل يعقل ان جندهُ يغلب جند امير المؤمنين عمر بن الخطاب وعلى كل حال ان موعدنا من اخبار النصر قريب ان شاء الله

ثم امر بعض رجاله فاعدوا خيمة للضيفين فباتا تلك الليلة واصبحا وقد قام الامام للخطابة والصلاة فاذن المؤذنون وصلى المصلون فتنحى حماد وسلمان ومشيا خارج المعسكر يتحدثان في تلك الشؤون فوقع نظرهم على هجين قادم من عرض الافق بسرعة البرق فقال سلمان هذا هو صاحب البريد على ما اظن فوقفا فاذا به دار حتى اتى معسكر ابي عبيدة وترجل عند فسطاطه فاسرعا الى الفسطاط فرأيا ابا عبيدة خارجًا من خيمته ومعهُ الهجان وهو لا يزال بغباره وقد مشى وهجينهُ وراءه حتى اتوا فسطاط عمر فدخلوا جميعًا ودخل حماد وسلمان معهم فرحب عمر بهم وخاطب صاحب البريد قائلاً ما وراءك يا رجل. فقال ما ورائي الاَّ الخير. ومد يده فاستخرج من بين اثوابه صندوقًا فتحهُ واستخرج منهُ ملفًّا من جلد ناولهُ الى الامام عمر ففضهُ ودفعهُ الى بعض خاصتهِ وقال اتلهُ علينا لنرى ما كان من امر المسلمين في العراق

فتناول الرجل الكتاب ووقف واخذ يقرأ والناس سكوت فاذا فيهِ :

(١) ويقال ان معاوية اول من رتب البريد (٢) ابن خلدون جزء ٢

# الفصل السادس والتسعون

## ﴿ وقعة القادسية ﴾

« الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب من سعد بن مالك امير جند العراق اما بعد فاني اكتب اليك تفصيل واقعة القادسية التي فاز بها المسلمون على اهل فارس واليك هي · جئنا ياامير المؤمنين بجنود المسلمين ممن تعلم مع ما انضم اليهم من جند الشام وجملتهم جميعاً ٣٥٠٠٠ ونزلنا في القادسية بين العقيق والخندق بجبال القنطرة والقادسية يا امير المؤمنين واقعة في راس بحيرة وراءها مضيق من البر ينفصل بين البحيرة والفرات فاقمنا هناك شهرين ندافعهم تارة ونطاردهم اخرى حتى ملوا منا فكتبوا الى ملكهم يزدجرد وشكوا ما يقاسونهُ وقالوا اننا اخربنا ما بيننا وبين الفرات ونهبنا الدواب والاطعمة · فبعث يزدجرد الى رستم كبير قواده والحّ عليهِ ان يقدم هو بنفسهِ لقتالنا فجاء وعسكر في ساباط · وقد كتبتُ اليك بذلك في حينهِ فكتبتَ الينا ان لا يكربنا ما يأتينا عنهم فاستعنّا الله وارسلنا نفرًا من المسلمين الى يزدجرد في المداين يدعونهُ الى الاسلام او الجزية او السيف فاستقدم رستم اليهِ واستشاره فيما جاؤوا من اجلهِ فلما سمع مقالهم تهددهم وتوعدهم ثم وعدهم بقوت ومالٍ وكساء فاجابوهُ بكلام شديد فاخرجهم من المداين مهانين فلما رأينا ذلك منهم جعلنا نغزو ماحولنا من البلاد والقرى نسوق اغنامها وانفارها واسماكها وابلها · فلما بلغ رستم ذلك حمل بجند عدده مئة الف وعشرون الفًا (١) اربعون منها يقودها رجل اسمهُ الجالينوس والباقون يقودهم رستم فجاؤونا في هذا الجند الثقيل ومعهم الفيلة والخيول وكانوا لا يمرون ببلدة الاّ اساؤُا اهلها وشربوا خمورها واكثروا من الفساد فيها فنقم الناس عليهم وقد علمنا من بعض اسراهم انهم قضوا في انتقالهم هذا من المدائن الى القادسية اربعة اشهر فلما وصلوا القادسية عسكروا بجبالنا ورأينا معهم فيلة بعضها مشهور عندهم بالفتك كالفيل المسمى فيل سابور الابيض وغيره · فنظم رستم جيشهُ فجعل من الافيال ١٨ في الوسط و١٥ في المجنبتين ثم انفرد هو في مكان مشرف ينظر منهُ الى جندنا وبعث الينا ان

(١) ابن الاثير

نوافيهُ برجل منا بكلمة فارسلت اليهِ واحدًا فاخبرني لما عاد انهُ دخل على رستم فاذا هو جالس على سرير من الذهب وبين يديهِ البسط والنارق والوسائد المنسوجة بالذهب فلما وصل رسولنا نعباءتهِ ودرعهِ وسيفهِ لم يبهرهُ ما رآهُ هناك من بهارج الدنيا فقاد جواده فوق البسط وشق وسادتين ربطهُ بهما فسألوه ان يضع سلاحه فأبى حتى اقبل على رستم فانتدره ترجمانهُ وهو من اهل الحيرة واسمهُ عبود فسألهُ عما جاء من اجلهِ . فاجابهُ بالدعوة التي تعلمونها فعظم ذلك عليهم وقالوا « كيف نطلبون قتالنا او الجزية وقد كنتم في قشف ومعيشة سيئة لا نراكم شيئًا وكنتم اذا قحطت ارضكم استعطيتمونا فنأمر لكم بشيء من التمر والشعير ونردكم ولا نظنكم قادمين علينا الا من الجهد فاما آمر لامبركم بكسوة وبغل والف درهم ولكل منكم وقر تمر وتنصرفون عنا » فاجابهُ الرسول بما اسكتهُ وبعد جدال طويل غضب رستم واقسم ان النهار لا يطلع قبل ان يقتلنا اجمعين فقال لهُ الرسول من يُقتل منا يدخل الجنة . وارسلت اليهِ رسلاً آخرين يدعونهُ الى ما هو خير لنا ولهُ فاجابهم بمثل جوابهِ الاول فلم يجدنا ذلك نفعًا

« وفي اليوم التالي جلس رستم على سريرهِ وضرب عليهِ طيارة وعبّى الافيال كما ذكرت واتخذ في ايصال خبر الحرب الى ملكهِ يزدجرد طريقةً اعجبتني ولعلي متخذها في بعض حروبي ان شاء الله وذلك انهُ جعل بينهُ وبين يزدجرد رجالاً على كل دعوة رجلاً اوّلهم على باب ايوانهِ في المدائن وآخرهم عند رستم فكل مافعل رستم شيئًا قال الذي معهُ للذي يليهِ كان كذا وكذا ثم يقول الثاني ذلك للذي يليهِ وهكذا الى ان ينتهي الى يزدجرد في اسرع وقت . وكنت يا أمير المؤمنين مصابًا بدمامل وعرق النساء فلا استطيع الجلوس وانما كنت اجلس مكبًا على وجهي وصدري فوق وسادة على سطح القصر اشرف على الناس واري قتالهم ولكن الله اعاننا بمنهِ وكرمهِ فاننا لما رأينا الفرس يتهيأون للقتال بعثنا الخطباء في الجند وقرأنا سورة الجهاد ثم صلينا الظهر وكبرنا اربعًا فزحف الجند وتلاحم الجيشان ووالله يا امير المؤمنين لقد كنت ارى جند فارس يتهالون كالسيل وفيهم الافيال كالامواج المتلاطمة وهي تثور فتلتقف الرماح والنبال بخراطيمها وتدوس الناس والخيول بخفافها فهالني امرها فقلت يا قوم اما من حيلة لها فرماها بعض المسلمين بالنبل فتقتل ركابها وتقدم آخرون فازاحوا عنها

توايتها فتلبكت حركاتها وفسد نظامها فجاء المساء وقد قتل من الفرس جند كبير وفي اليوم التالي وصلتنا نجدة اهل الشام التي ارسلها ابو عبيدة فهاجمنا الفرس حتى كدنا نقبض على رستم ولكنهُ نجا وفي اليوم الثالث لقي الجندان شدة وجهدًا اما نحن فواصلنا العمل في الليل وكانت ليلة سميناها ليلة الهرير لان رجالنا لم يكونوا يتكلمون وانما كانوا يهرون هرًّا فنقلنا الجند الى مكان يأخذ العدو من خلفهم ففعلنا ذلك وهم لا يعلمون

« ولما اصبحنا هاجمنا اعداء الله من كل جانب فنشلوا واختل نظامهم ووصل بعض رجالنا الى سرير رستم وقد اطارت الريح الطيارة عنهُ فاستظل بظل بغل فقتلوه وقتلوا الجالينوس فانهزم الفرس شرّ هزيمة فتعقبتهم رجالنا وغنمنا اسلابهم وانتصرنا نصرًا مبينًا (١) ونحن سائرون الآن لفتح المدائن بعون الله تعالى » انتهى

فما فرغ القاوي من قراءة الكتاب حتى ضج المسلمون بالتكبير والشكر لله على ذلك الفتح اما حماد فانهُ صبر على سماع الخبر رغماً عنهُ فلما تفرق الناس خرج حماد وسلمان فقال سلمان يظهر ان اجل الفرس قريب وسيفتح المسلمون عاصمتهم فيندك عرشهم ويكون ذلك جزاء ما كسبتهُ ايديهم من قتل الابرياء

فقال حماد ولكننا لم نستفد شيئًا عن الامير عبد الله ولا عن جبلة ألا تظن صاحب البريد يعلم شيئًا عن ذلك

قال ربما كان على علم فهلم بنا نستطلعهُ وسارا يبحثان عنهُ فاذا هو قد خرج الى خيمة بعض الجند للاغتسال والوضوء وتناول الطعام

فقال سلمان اظن صاحب البريد يحتاج الى الراحة بعد سفره الطويل فلندعه وشأنهُ على ان نعود اليهِ في صباح الغد

قال حماد لقد احسنت رأيًا وانصرفا الى خيمة للاستراحة



(١) قيل كانت هذه الواقعة سنة ١٦ للهجرة وقيل ١٥ وقيل ١٦

## فتاة غسان

# الفصل السابع والتسعون

## ويأتيك بالاخبار من لا تسائله

تركنا حماداً وسلمان وقد انصرفا الى خيمة يلتمسان الراحة ريثما يتمكنا من مقابلة ساعي البريد واستطلاع خبر جبلة وعبدالله . وفيما هما صائران الى الخيمة رأيا عموراً حدباء عليها سمات الفقر وغبار الاسفار قادمة نحوهما تتوكأ على عكاز وقد أمّت راسها بجمار فظنّاها من المتسولات فلم يعبأا بها وظلاّ في طريقهما حتى دخلا الخيمة وليس فيها سواها وما لبثا ان جلسا حتى رأيا تلك العجوز قد شنّت حجاب الخيمة بعصاها ودخلت بلا استئذان فصاح بها سلمان ما غرضك يا خالة

فلم تجبهُ وظلت داخلة حتى دنت من حماد وحسرت اللثام عن وجهها فاذا هي خادمة هند التي لقيها في دمشق محمق قبلهُ لرؤيتها وشعر بانعطاف نحوها وقد تنسم منها رائحة حبيبتهِ فصاح بها ما خبرك وابن هند

قالت تمهّل ريثما استريح فاخبرك الخبر وقد جبت البلاد وتفحصت العباد وانا في هذا الزيّ ابحث عنك فلم اقف لك على خبر وقضيت حول هذه المدينة اياماً لايجرؤ احد عن مقامك ولا انا استطيع المجاهرة باسمك لان حالنا تدعو الى الاستتار . قالت ذلك وهي تبحث عن وسادة تجلس عليها وتنظر الى خارج مخافة ان يسمعها احد فجلست وعينا حماد تراعيانها وقد اشتد صبره في استطلاع حال هند فقال لها اخبريني عن هند قبل كل شيء هل هي في خير

قالت كن مطمئنًا انها في خير وسلامة لاترجو الاّ لقاءك

فقال اين هي

قالت لا ادري اين هي الآن ولكني اعرف الخطة التي سنسير فيها فاذا قصصت عليك الحديث من اوله هان عليك فهم الحقيقة

قال قولي باختصار . ولبث صامتًا مصغيًا لما تقوله

فقالت تركتني في دمشق بجوار كنيسة مريم فاسرعتُ الى ما بين يديّ ما

نُحمل وكتربت بغلة ركبتها حتى اتيت بيت المقدس . وكانت سيدتي هند واولادها وسائر اهل القصر مقيمين في ديرهم المدينة فاستأنهم بستوطد دمشق فخافوا ولكني طمأنت هندًا واهلتها بقرب مجيئك فهان عليها كل عسير ولبثنا ننتظر ذلك اليوم . ولكن الامر جاء بالعكس فان سيدي الملك جلة بعث الينا في اليوم التالي ان نتأهب للرحيل سرًّا ثم جاء هو وامر ان نسير على عجل بما خفَّ حملهُ وغلا ثمنهُ ولم يحسر احد من اهلهِ ان يسألهُ عن جهة المسير ولولا ذلك لقلت انا هنا لاحرك بمكانهم فمرحبا وقد اسرَّت مولاتي هند الي انها حالما تعرف المكان الذي ستنيم فيهِ تبعث بخبره اليك

فسرنا ايامًا وليالي ولم نحط رحالنا الاَّ في المدينة مقام خليفة المسلمين الذي سمعتم الكتاب يتلى بين يديهِ الآن وقد كنا في خوف عظيم ولكننا آنسنا اكرامًا وحسن وفادة وبلغني ان سبب سلامتنا اعتناق سيدي الملك ديانة هؤلاء الناسكين . فلما ظننَّا المقام استقرَّ بنا لم يبق على سيدتي الاَّ ان تبعد اليك بذلك وقد فاتني ان اخبرك وفاة ثعلبة او لعلك سمعت بهِ قبلاً

قال حماد لقد سمعنا خبره رحمهُ الله

قالت ولم نكد نتوسم الراحة ونحيي الامل حتى جاء سيدي الملك بحملة وبغتة كما فعل يوم خروجنا من هنا فتأهبنا وخرجنا في ليل دامس خفنا فيهِ خوفًا شديدًا ولكن بعض جيراننا اليهود من اهل المدينة كانوا قد الفونا في مسيرنا الى ما وراء اسوارها . وفي اليوم التالي تحققنا اننا قاصدون بلاد الشام فرأيت في سيدتي هند ارتياحًا الى هذه الوجهة على رجاء ان نقرب ملك فتصيبا في طريقنا هذه مقاتال امدها ونحن نسير ليلاً متنكرين ونختبئ نهارًا ولا ننيم الاَّ في الديور لانها أأمن مبيت او مقام لاهل النصرانية وكنا نمكث في بعضها اياماً واسابيع . قالت ذلك وخنقت صوتها لئلاَّ يسمعها احد وجعلت تتطلع من باب الخيمة خوفًا من يتجسس او يتسمع . فقال لها سلمان تكلمي لا تجزعي فان ليس في هذا المعسكر من يعلن ما سوءًا ولكن اخفضي صوتك

قالت وآخر مكان اقمنا فيهِ دير بحيراء ولا تسل عن حالنا لما اطللنا قبل ذلك على صرح الغدير وبستانهِ وميدانهِ وما استولى عليهِ اولئك المجازيون من المغارس والابنية التي بناها الملوك الغساسنة مد اجيال وقد رأيت في وجه سيدي الملك علامات الغضب والغيظ حتى كادت الدموع تتناثر من عينيهِ لولا عزة النفس . اما

سيدتي سعدى وهند فقد بكتا واما هند انما بكت لتذكرها امرًا وقع لها في ذلك الصرح . والخلاصة انه لم يصل دير مجيراء حتى اخذ اليأس من سيدي الملك كل مأخذ لما ذاقه من دل التنكر في بلاد كانت طوع اشارته لا يمرّ بها الاّ محفوفًا بالجنود والاعوان فتنصب له الاعلام ويحتفل اهلها بقدومه فكيف يمرّ الآن متنكرًا يخاف ان يعرفه احد ! قالت ذلك وشرقت بدموعها فمسحتها بطرف خمارها ) . فتأثر سلمان وحماد لكلامها وتعمم عليهما ما آلت اليه حال الغساسنة وتصوّر حماد ان حال ملوك الحيرة ستؤول الى مثل ذلك فشكر الله في باطن سرّه لان ستوطهم سيكون على يد غير يده

واتمت المرأة حديثها فقالت . فبي دأت ليلة دعا سيدي الملك سيدتي سعدى وهندًا وخلا بهما في حديث طويل وفي الصباح التالي دعاني سيدتي هند واسرّت اليّ ان ابحث عنك في بيت المقدس فما حولها حتى اقف على مكانك واطمئنك عنها واخبرك انهم ساروا الى العراق وسيقيمون في دير هند بعيدين عن التنام والبلغاء لانهم لا يستطيعون صبرًا على ما حرج من ايديهم ان يروهُ كل يوم رأي العين وايدي الغاليين فوقه

فلما سمع ذكر دير هند احمل وقال اي دير تعنين

قالت دير هند في ضواحي الحيرة

فنظر الى سلمان وقال اعهد دير هند في الحيرة وليس خارجها في هذا الدير

فقال سلمان ان في الحيرة ديرين ينسبان الى هند احدهما الاصغر وهو في الحيرة والآخر في ظاهرها اما الاول فقد سمي باسم اختك هند بنت لما قبض كسرى على المرحوم والدك الملك النعمان في اوائل حكمه وحسبة قبل ان تولد انت باعوام وخشيت شقيقتك هند ان ردّه الله الى ملكه ان تبني ديرًا وتسكنه حتى تموت فلما انطلق سبيل والدك فعلت ذلك ومكثت في ذلك الدير (١)

واما الدير الاكبر وهو ما يسمونه دير هند الكبرى فقد بنته هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي ظاهر الحيرة (٢) وهي من كندة ولبست من لخم والدير كبير اذكر اني زرته غير مرة وكان رهبانه يتداولون على سؤال سيدي الدير عبدالله المدلوله يتولون نعلق بملاك له هناك . يأمّ هذا الدير اناس من جهات

(١) ياقوت (٢) المشترك

العراق وغيره يقيمون فيهِ اياماً وفيهِ ما يحتاجون اليهِ من الزاد ونحوه

فنظر حماد الى المرأة وقال هل تظنين هدأً في ذلك الدير الآن

قالت لا ادري اذا كانت لا تزال هناك لانها اوصتني بما تقدم منذ بضعة اسابيع قصينها في البحث عنك . ولكن سيدتي سعدى اسرَّت اليَّ بعد خروجي من بين يدي هدان مولاي الملك جبلة انما يريد التخوض الى القسطنطينية ليقيم قرب امبراطورهِ هرقل معزَّزاً مكرَّماً وانهُ سيجعل طريقهُ في الفرات ومنهُ برًّا في البلاد التي لم يصل سيف المسلمين اليها اما سواحل الشام فانها في ايديهم لا يخلو المرور بها من الخطر . وقالت لي انها اقنعتهُ ان يقيم في دير هند مدة ليرى ما يكون من حال جند العراق . فاذا طال غيابي عنهم اظنهم يقصدون القسطنطينية وذاك آخر مكان يقصدونهُ فافعل ما يبدو لك

فلما سمع حماد ختام الحديث انقبضت نفسهُ مخافة ان يقصد العراق فيذهب سعيهُ ضياعاً وادرك سلمان فحوى ذلك فقال لهُ الا ترى يا مولاي ان يسيرنا الى العراق ونحن حمرٌ فنصيب صيدين لم نكن في حاجة للبحث عن سيدي الامير عبد الله في العراق فسيرنا الى هناك يجمعنا بهِ وبهند ان شاء الله

فقال حماد الم تسمع ما تلي علينا اليوم من خبر واقعة القادسية وهي بالقرب من الحيرة الا تظن على الحيرة خطرًا

قال سلمان ان الحيرة يا مولاي دخلت في صلح المسلمين منذ اعوام وكنت شاهداً صلحها بنفسي ورد على ذلك ما نعلمهُ من صيانة الدبور عند المسلمين

فقال حماد وهل تعرف الطريق الى الحيرة

قال نعم

قال وانت ماذا تفعلين يا خالة

قالت لا اظنني استطيع المسير معكما لما انهما فيهِ من الاستعجال ولكني اسعكما في طريق آخر واني في دير بحيراء انتظر خبرًا من عندكم

# الفصل الثامن والتسعون

## هند في دير هند

دير هند الكبرى بناه واضع شادته هند بنت الحارث الكندية بحجارة ضخمة في بستان خارج الحيرة يشرف عن بعد على بحيرة كانت هناك وفي احدقة انواع الرياحين والازهار وحولها كروم العنب والتين وغيرها من الفاكهة . يأوي اليه الرهبان من اهل العراق وفيه منازل للاضياف هي دار الضيافة ينزل فيها الغرباء من المارة او نحوهم يقيمون اياماً ثم ينصرفون . ورئيس الدير راهب شيخ سرياني اصله من ساباط . وقد جاء حد المسلمين العراق وحرى ما حرى لهم من الوقائع والدير في مأمن لم يمسه سوء واهله آمنون

ومن يستقبل باب الدير وجهه يقرأ على عتبته نقشاً هذا نصه « بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الملكة بنت الاملاك وام الملك عمرو بن المذرا مة المسيح وام عدي وبنت عبيد في ملك ملك الاملاك خسرو انوشروان في زمان مار افريم الاسقف فالاله الذي بنت له هذا الدير يغفر خطيئتها و يترحم عليها وعلى ولدها ويقبل نقومها الى اماثة الحق و يكون الله معها ومع ولدها الدهر الداهر » (١)

في ذات ليلة بعد انقضاء واقعة القادسية وسكون الناس الى الراحة سمع اهل الدير قرع الاجراس وهي اجراس تعلق بمبنى بعض الديور حتى اذا مرّ غريب دقها فيفتحوا له فيبيت هناك يتناول الطعام او نحوه . فلما سمع خدم الدير الدق هرول بعضهم الى الباب وكان الباب ثقيلاً مضخماً بالحديد وفيه المسامير الضخمة فاطل من فوقه من غرفة صغيرة فرأى ركباً على افراس ومعهم الخدم بالامتعة فنزل الى الباب ففتحه ورحب بالقادمين واسرع الى قيم الدير يجمعُ مقدوم ركب كبير فدخلوا وفيهم المشاة والفرسان فلما وصلوا الى ساحة الدير ترجل الفرسان وتقدم بعض المشاة فامسكوا بازمة الخيل ووقفوا جامدين لا يفوه احد منهم بكلمة . فلما ترجلوا جميعاً تقدم واحد منهم وهو لا يزال ماشياً حتى دنا من قيم الدير فهمس في اذنه فاسرع وسار الكل

(١) دائرة المعارف . ويلوح لنا انها كانت مكتوبة بالسريانية خطأ ولغة

وراءهُ الى غرفة باتوا فيها تلك الليلة واهل الدير يتحدثون في من عسى ان يكون هؤلاء الناس الذين لثامهم لايعرف النساء فيهم من الرجال . ولكنهم عرفوا من قيافتهم وسروج افراسهم انهم من اهل الشام وكانوا قد سمعوا بحروب المسلمين هناك فترجح لديهم انهم بعض كنار الغساسنة وهم بالحقيقة جبلة واهلهُ فاقاموا هناك مستترين

اما حماد وسلمان فلما عزما على العراق سارا لوداع ابي عبيدة فاذا هو يتأهب لوداع الامام عمر وقد هم بالرجوع الى المدينة فوقفا ريثما ودعهُ فامتطى عمر جملهُ وركب معهُ بعض الامراء وودع الناس وتحول نحو المدينة وسلمان وحماد ينظران اليهِ ويعجبان بما اوتيهِ من رفعة المنزلة مع رغبتهِ في الزهد والاقتصار على بسائط الاشياء

ولما توارى الامام عاد الامراء الى معسكرهم وفي مقدمتهم ابو عبيدة فانتظر حماد وسلمان ريثما خلا بنفسهِ فسارا اليهِ واستأذناهُ بالانصراف

فقال الى اين

قال حماد اننا سائرون الى العراق لعلنا نلتقي بوالدي فقد طالت غيبتهُ

قال ثقوا بسلامتهِ وصحتهِ فانهُ مقيم على الرحب والسعة وهل سمعتم خبرًا عن جبلة

قال لم نسمع خبرًا بعد ولعلنا نعرف عنهُ شيئًا هناك

( قال ذلك وهو يعلم ان ابا عبيدة اذا علم بمكانهِ بعث من يقبض عليهِ عملاً بارادة الامام عمر فانكر مكانهُ )

فقال ابو عبيدة اظنكما تعثران عليهِ في العراق فقد سمعت من بعض الناس انهُ سار الى هناك وربما يقيم في دير هند الكبرى خارج الحيرة

فلما سمع حماد ذلك اجفل ولكنهُ تجلد وتجاهل وقال سنبحث عنهُ جهد الاستطاعة وهل تقبض عليهِ بأسًا اذا عرف مكانهُ

قال ان امير المؤمنين كتب الى عمالهِ في الشام وفلسطين والعراق كافة ان يقبضوا على الرجل حيثما وجدوهُ لانهُ اسلم وارتدَّ وخرج من المدينة فارًّا

فشكر حماد لهُ نفسهُ لانهُ لم يبح بمكان جبلة ولكنهُ خاف عليهِ من الرقباء ومال الى العجلة في المسير الى العراق فاستأذن ابا عبيدة وودعهُ سلمان وسارا الى عمالهِ وغيرهم من الامراء وودعاهم وخرجا يتأهبان للمسير

# الفصل التاسع والتسعون

## ﴿ وادي الفرات ﴾

و بعد بضعة ايام حملا ما استطاعا حمله من المتاع وخرجا من بيت المقدس وفيما هما في الطريق قال حماد لانطونيا اذا اتينا العراق عائدين الى هذه البلاد فلنأخذ امتعتنا التي تركناها في بصرى وخصوصاً الدرع فانها كنز ثمين عندي وقد احتاج اليها في دفاع او هجوم . ومرّا ببصرى فنزلا البيت حملا منهُ ما طاب لهما من خفيف الحمل وعالي الثمن وخرجا الى دير بحيرا ودخلا الصومعة قبّلا ايقوناتها فتذكر حماد اياما مرت بهِ هناك فهاجت فيهِ ذكرى هند وتنبهت اشجانهُ وناقت نفسهُ الى العراق للاقاة حبيبتهِ قبل ان يصيبها سوء ولقيا في دير بحيراء خادمة هند فسألاها عن حالها فقالت انها ستسير في اثرها مع قافلة من قوافل العراق

اما هما فاصطحبا خادمًا او دليلاً يسوس الخيل و يدلهما على الطريق وسارا وهما تارة بمران بغياض وطورًا برمال وآونة بجبال واودية وتارة بصخور وعرة وكان اكثر البقاع مشفة عليها صحراء الشام وفيها بقايا مدينة تدمر العظمى و بعد بضعة عشر يومًا اطلاّ على وادي الفرات من قمة مرتفعة فاذا هو سهول منبسطة يخترقها الفرات وفيها القنوات والبحيرات بينها المغارس والمساتين . والمزارع وكان وصولهم الى هناك قبل الغروب فوقفا والخادم ينصب الخيمة على بقية المبيت فوق ذلك التل اما حماد فوقف وهو على متن جواده والتفت الى تلك السهول الخصبة وما يخللها من القرى والمدن وفيها الماشية عن بعد وشجر النخل كانهُ جند واقف لالقاء التحية فتذكر والدهُ النعمان وقال في نفسهِ هذه هي البلاد التي كان يحكمها والدي . ومرّت بذاكرتهِ خيالات جمة اكثرها مخيف ولكن صورة هند كانت تظللها كلها فتزيل المخاوف على انهُ ما لبث ان تصورها في حال الضيق فهبَّ من اعماق تصوراتهِ وعاد الى قلقهِ

أما سلمان فكان يساعد الخادم في نصب الخيمة واعداد معدات الراحة فلما فرغ من ذلك جاء الى سيدهِ وطلب اليهِ ان يترجل فترجل فساق الخادم الفرس ووقف حماد وسلمان ينظران معًا الى وادي الفرات

فقال حماد واين موقع الحيرة يا سلمان

قال ان الحيرة اول مدينة تستقبلك قبل وصولك الفرات واظننا نشرف عليها غدًا وبينها وبين القادسية نحو سبعة عشر ميلاً

ثم جلسا للعشا وانصرفا بعدهُ للرقاد لان التعب اخذ منهما مأخذًا عظيماً . وفي الصباح التالي بكرا وركبا وحماد لا يصدق انهُ يشرف على الحيرة ويرى دير هند ولو عن بعد . وبعد طويلة ذلك اليوم اشرفا على بحيرة من الماء كبيرة ظنها حماد لاول وهلة بحرًا فقال ما هذا ياسلمان قال هذه بحيرة النجف يامولاي وعلى ضفافها جرت واقعة القادسية التي سمعنا خبرها في معسكر ابي عبيدة ووراء هذه البحيرة شمالاً مدينة الحيرة مقام المناذرة اجدادك ووراء الحيرة شرقًا نهر الفرات واما دير هند فهو خارج الحيرة وربما أطللنا عليهِ بعد قليل . ولا يخفى عليك ان معظم الكروم والبساتين المجاورة للدير في ضواحي الحيرة هي من املاك الامير عبد الله ولا ندري ماذا جرى فيها بعد واقعة القادسية واذا كان مولاي الامير ممن شهدوا الواقعة فاظنهُ يتذكر في حفظها وحمايتها

فقال حماد الا ترى اذا اطللنا على الحيرة الآن ان نبيت في الدير الليلة

قال لا اظننا نستطيع ذلك والمسافة بعيدة ولا ندري ما هنالك من العقبات فقد نبيت الليلة في مكان على مقربة من الحيرة وفي الغد نسير الى الدير

قال حسنًا وفي الغروب ظهرت لهما الحيرة بابنيتها ولكن الظلام غشيها قبل ان يتبيناها فباتا تلك الليلة واصبحا وحماد لم ينم الاَّ قليلاً لشدة قلقهِ ونشوقهِ فكان كلما تصور ملا فؤادهُ هندًا اختلج قلبهُ فوصلا ضواحي الحيرة عند الظهيرة فاطلاَّ على دير هند فلما رآهُ حماد تذكر انهُ يعرفهُ من دير قبل ولكنهُ لم يدخلهُ فمشيا بين الكروم ومغارس الفاكهة والزيتون وسلمان يدلهُ على ما يملكهُ الامير عبد الله منها وحماد يزيد استئناسًا ولكنهُ ما زال هاجسًا بهند لا صبر لهُ على لقائها ثم وصلوا الى قناة من الماء تظللها شجرة عظيمة وحولها الاشجار يانعة يمرُّ بها النسيم اللطيف فتسمع لاوراقها حفيفًا يطرب السمع بما يمازجهُ من خرير الماء الجاري فوق الحصباء فتقدم سلمان الى حماد ان يستريحا هناك ويتناولا الغداء وفي الاصيل يدخلا الدير

فقال حماد لا صبر لي على ذلك كيف نكون بقرب الدير ولا نسرع اليهِ

قال سلمان اري والامر لمولاي ان تستريح انت هنا والخادم يدبر لك الطعام واذهب انا الى الدير ابحث عن هند واعود اليك بالخبر

قال لا ارابي قادرًا على ذلك ولا بدَّ لي من المسير معك فاترك احمالنا تحت هذه الشجرة مع الخادم وتذهب الى الدير

قال افعل ما بدا لك فشربا وغسلا ايديهما ووجوههما من الغبار وهمَّا بالمسير

## الفصل المئة

### ﴿ المشل ﴾

ركبا وسارا بين الاشجار والشمس فوق الرؤوس فلم يغنهم ظل الاغصان الاَّ قليلاً حتى انتهيا الى باب الدير وحماد قد بدا صبرهُ . وكان سلمان عارفًا الجرس المعلق هناك فجذب الحبل فدق الجرس ودق قلب حماد معهُ فوقفا برهة لم يقع لهما احد فاعاد الدق وبعد قليل اطلَّ من فوق الباب راهبٌ وقال مستفهماً . من انتم

قال سلمان زوَّار للدير

قال من اين انتم قادمون

قال من جهات الشام

فقال الراهب بلهجة النفور « لا محل للزيارة عندنا » وتحوَّل الى داخل الدير فناداه سلمان فلم يجب فكلمهُ بلسان اهل الحيرة فعاد الراهب وقد تذكر انهُ يعرف ذلك الصوت فاطلَّ ثانية من اعلى الباب وقال من انتم

قال سلمان لسنا من اهل الشام وانما نحن عراقيون مثلكم افتحوا لنا فتنفس الراهب في وجه سلمان برهة ثم جذب سلسلة مشدودة بالناقوس ففتح الباب فدخل حماد وسلمان وفرساهما وراءهما فاخذ الراهب يرحب بهما ويبطر الى سلمان لعلهُ يعرفهُ

فقال لهُ سلمان اتعرف هذا الشاب يا حضرة الاب . واشار الى حماد

فالتفت اليهِ وقال اليس هو الامير حماد بن الامير عبد الله

قال بلى هو نفسهُ رأيت والدهُ في هذه الاثناء

قال رأيتهُ مرارًا وهو الآن مع جند المسلمين في خير ولولاه لأصابنا ضنك وربما

قتلنا فقد كان لنا عونًا ومجنًا سورك فيهِ ومرحبًا بابهِ

وما زالوا سائرين حتى اتوا دار الضيافة وحماد ينظر يمنة ويسرة وقد شاعت عيناه لعلهُ يرى شيئًا يتسم منهُ رائحة هند فلم يرَ الاَّ رهبانًا وفعلة فدخلوا دار الضيافة وتناول الفرسين بعض الخدم فساقوهما الى الاسطبل وبعثوا من يدعو الخادم ليأتي بالاحمال

اما حماد فتعاظم قلقهُ ولم يعد يستطيع صبرًا فادرك سلمان فيهِ ذلك فابتدر الراهب بالاستفهام عما معهُ من فتح الباب فلما حالاً وما الذي يحافوهُ من اهل الشام

فقال ملتمس من الامير حماد عذرًا على توقفنا عن استقبالهِ برهة وما ذلك الاَّ لاننا وقعنا منذ ايام في ورطة بسبب ضياف نزلوا عندنا وكانوا قادمين من الشام

فقال سلمان ومن هم اولئك الاضياف

قال جاءنا جماعة نزلوا في هذا الدير شهرًا ونحن نحسبهم من اعيان الشام فما لبثنا ان عرفنا انهم جبلة بن الايهم وامرأتهُ وابنهُ وبعض خدمهِ

فلما ذُكر جبلة واهلهُ خفق قلب حماد وخاف ان يسمع خبرًا يسوؤهُ وقد عودتهُ حوادث الايام ان يسيء السائل في كل مستقبل فاصاخ بسمعهِ ليرى ما تمّ لهم واكتفى باصغائهِ حالاً للراهب على اتمام حديثهِ . وكان بعض الرهبان قد جاؤا بالمواعين فيها الماء ليغتسل الضيفان فلم يلتفت احد منهم اليها وظلَّ مصغيين

قال الراهب . واقام الملك جبلة بيننا اياماً على الرحب والسعة ونحن لا نحسبهُ الاَّ من بعض امراء الشام . على اننا كنا نعجب لاحتجابهِ في الدير واحتباسهِ عن العيون ونحن نتوسم من خولهِ وخدامهِ انهُ محبٌّ للصيد والفروسية . ولكن الامر انكشف لنا بغتة فجاءنا جماعة من جند المسلمين في عصارى بعض الايام وفيهم الفرسان والمشاة وقرعوا الباب فتحنا لهم ونحن غير خائفين لما نعلمهُ من العهود التي خصصوا الديور والكنائس بها . فخرج الرئيس المحترم لاستقبالهم فقالوا لا خوف عليكم ولكن عندكم عدوًّا فرَّ منا في حرب الشام وكان قد اسلم ثم ارتد فلا بد من القبض عليهِ وسوقهِ الى الامير سعد بن مالك

فسالهُ الرئيس عن ذلك العدو فقال انهُ جبلة بن الايهم ملك غسَّان وكان جبلة قد رأى الرجال وعلم انهم قادمون للقبض عليهِ فتربص ولو كان وحدهُ لتمكن من

الفرار ولكنهُ لم يجد اليهِ سبيلاً . فقضوا عليهِ وساقوهُ حالاً ولم يهلوهُ ريثما يلتفت وراءه

فقطع سلمان الحديث قائلاً هل ساقوه وحدهُ

قال ساقوا معهُ امرأتهُ والخدم

قال حماد وماذا جرى لابنتهِ . قال ذلك وهو مضطرب الحواس

قال الراهب اما ابنتهُ هند فكانت قد خرجت في صباح ذلك اليوم لزيارة دير هند الصغرى في الحيرة على ان تقضي نهارها هناك وتعود في المساء . ولما أخذ والدها لم تكن هي هنا فلما جاءت في المساء اخبرناها بما كان فاجهلت ولطمت خديها وبدت والدها ثم وقفت تبكي تارة وتفكر أخرى حتى قاربت الشمس الزوال ونحن نخفف عنها فسألتنا عما قالهُ لنا والدها قبل ذهابهِ فاعتذرنا بانهُ لم يستطع كلاماً لفرط ما انحنى عليهِ بالذهاب . فاسرعتْ الى جواد لها كان باقياً هنا فركبتْ وترملت بعباءة من الحرير المزركش كأنها فارس مغوار واستنهضت عن الجهة التي ساروا فيها بوالدها فاشرنا اليها فهمزت الفرس وخرجت تنهب الارض نهباً ونحن لا نعهد مثل ذلك في البنات . ثم لم نعد نعلم عنها خبراً

فما اتى الراهب على تمام الحديث حتى انقبضت نفس حماد وانقدت الغيرة في قلبهِ وتولاه اليأس فاستاء صامتاً كأنهُ اصيب بصدمة ثم التفت الى سلمان فاذا هو صامت يفكر واستغرب الراهب ما الم بهما من الغيظ وعهدهُ بالمحبين يسرون بما يسوء الغساسنة لما بينهما من الضغائن القديمة فقال لهما ما بالي ارى حديث حنة قد همكما الى هذا الحد وهو غساني العلكما من غسان

فقال سلمان لم يهمنا حديثهُ ولا يهمنا امر الغساسنة كلهم ولكننا نفكر في تلك الفتاة المسكينة . فهل مضى على ذهابهم مدة طويلة

قال لا تزيد على بضعة عشر يوماً

قال وهل سمعتم عنهم شيئاً بعد ذلك

قال سمعنا اخباراً منضاربة ممن قائل ان سعداً امير جند المسلمين قتلهم حالاً وقائل انهم قتلوا قبل وصولهم اليهِ وقائل انهم لا يزالون احياء

فازداد اضطراب قلب حماد وهمَّ بالنهوض فاقعدهُ سلمان وقال للراهب مهلاً وماذا سمعتم عن ابنتهِ المسكينة

قال لم نسمع شيئاً عنها منذ خروجها ولعلها اقتصت آثارهم الى معسكر المسلمين

فلم يعد حماد يستطيع صبراً فمضى الى جواده وتبعه سلمان . وكان خادم حماد قد وصل الدير بما معه من الامتعة وجعلها في مأمن . فانفرد في مكان

فلما خلوا قال حماد دعني يا سلمان اقتني أثر حملة فقد ضاق صدري وتحدثني نفسي بسوء اصابهم جميعاً . امدد نهاية آمالي ونجعة اتعابي . قال ذلك وحرق اسنانه وتلألأت الدموع في عينيه ولكنه تجلد تجلد الرجال وقال عليا السعي يا سلمان وعلى الله التدبير . فما الرأي

قال الرأي ان نقصد معسكر المسلمين وندخل على سعد بن مالك اميرهم فنسأله عن مولاي الامير عبدالله وهو عنده من كبار المشيرين كما تعلم فاذا لقياه اعاسا في البحث عن جملة واهله واذا كان حملة لا يزال حيًا وسلطا الامير عبد الله بالعثور عليه

فقال نعم الرأي رأيك ولكن هدئ اين هي

قال نظنها معهم وهبْ ان والدها قتل فهي لا تقتل لان المسلمين لا يؤذون النساء فقد تكون عندهم في حفظ وخصوصاً اذا كان سيدي الامير عبدالله قد رآها او عرف مقرّها

فقال حماد الا نظنهم يتخذونها سبية . . اعوذ بالله قال ذلك وهمّ بالجواد بركبه فقال سلمان تمهل يامولاي ريثما نلاقي رئيس الدير ونسأله عن معسكر المسلمين لئلاّ نذل السعي والوقت عنّا . قال حسنًا وتجادا ودخلا على الرئيس وكان قد عرف قدومهما فرحب بهما وقبل حماداً وامر لهما بمائدة فقالا لا نستطيع طعاماً لانا خارجان على عجل لامر هامّ لنا وقد جئنا لوداعك . قال اتودعاني قبل ان نلتقي

قال كذلك قضى علينا وانتم تعلمون ان سيدي الامير عبد الله في معسكر المسلمين وفي بيننا ان نذهب اليه فاين هو معسكرهم

قال ان المسلمين معسكرون الآن تجاه المدائن في بهر شير [1] واظنكم تعرفونها وهي بالحقيقة قسم من المدائن فانها في الغرب والمدائن في الشرق وبينهما دجلة . فقد نزل المسلمون على بهر شير وحاصروها شهرين ورموها بالنبال والمجانيق حتى فتحت . فاحتلوها وهم عاملون على فتح المدائن [2]

(١) ( كتيسيفون ) (٢) الطبري

فقال سلمان انى أعرف بهرشير حيدٌ ويسهل علينا الوصول اليها اذ لا يحول بيننا وبينها الا الفرات وبعض السهل

## الفصل الحادي بعد المئة

### فتح المدائن

ودعا الرئيس وبرز الى الغرفة التي أودعا الامتعة فيها فلبس حماد درعهُ ورداء والده الملك النعمان وجعل خاتمه بين ازراره وسلمان ينظر اليهِ فسألهُ عن سبب لبسه ذلك الرداء فتنهد وقال . السنا ذاهبين الى المدينة التي قتل فيها والدي النعمان

قال بلى

قال ألسنا في شك من بقاء هند حية

قال الله اعلم

قال حماد ونحن نعلم ايضاً انها قد تكون حية او ميتة اذ لا يعرف احد مكانها وقد سبق والدها الى القتل لا محالة فاذا كانت لحقت بهِ فلا يحلو امرها من احد خطرين اما ان تكون سبية او قتيلة وكلاهما موت فهل الموت بعد ذلك في الحياة وقد آن الوقت الذي يجب عليَّ ان ننتقم فيهِ لوالدي وهند حسود المسلمين على ابواب المدائن فاني محاربهم حتى ادخل الايوان بسيفي فاقتل كسرى بيدي فاذا قتلت فما انا خير من هند ولا عيش لي بعدها . واذا حييت فذلك امر الله نقدرهُ لحكمة لا نعلمها . قال ذلك وقد علاه الغضب وتحلت في وجههِ مهابة الملوك فاغضب اسرته وما زال يلبس درعهُ وصليل حديده مسموع الى الخارج فنهض سلمان من مضجعهِ ولبث صامتاً لا يدري مايقول ثم قال الا ترى يا مولاي ان تتكرى في المسلمين لئلا يستفسروا في وسط المعركة فيحسبوا من الفرس او من عرب الحيرة احلافهم

قال لقد رأيت حسناً . وكان بين ثياب سلمان كثير من تلك الالواب لما كان يحتاج اليهِ من التنكر فاستخرج توبين لبس كل منهما توباً ونعمد بعمامة لعل الحجار حتى لا يشك الناظر اليهما في انهما حجازيان

وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل وهمّ اهل الدير بتهيئة طعام المساء فشاهدا جماعات منهم عائدين باحمال الاثمار والاخشاب من بساتين الدير

ثم ركنا واطلقنا الاعنة للجوادين فقضيا مدة صامتين وافكارهما سابحة في ما سمعاهُ يستوقف مجاريها اصوات حوافر الخيل والغام وقعها بين قرقعة على الحجارة وهمس على الرمال وهما لا يتكلمان . فامسى عليهما المساء وراء الحيرة فبانا في كنيسة هناك واصبحا راكبين فمرّا بجيش بعضهم رعيل خيول وجمال والبعض الآخر جثث آدميين مبعثرة في تلك السهول لم يبق منها غير العظام الضخمة التي لم تقدر على قضمها النسور فتذكرا ما وقع هناك من الحروب الهائلة بين المسلمين والفرس . ثم قطعا الفرات على جسر من السفن وفي اليوم التالي اشرفا على المدائن وقصورها عن بعد فرأيا فوقها ضبابا كثيفاً يكاد يحجبها عن الابصار فقال سلمان لقد همني امر هذا الضباب فاني اظنهُ غبار الحرب ويخال لي ان المسلمين يهاجمون المدينة في هذا الصباح . ثم وخزا الجوادين حتى وصلا بهرشير فاذا هي في هرج والناس فيها بين فارس وماش يهرعون نحو النهر فسألا عن سعد بن مالك فقيل لهما انهُ بحوض النهر بحيثهِ اتخ المدائن والمسلمون يقتحمون اثرهُ فقتشا عن الامير عند الله فلم يتنبها بخبره احد فصعدا الى اكمة اشرفا منها على المدائن ودجلة فرأيا المسلمين يقطعون النهر بافراسهم والرماح مشرعة في ايديهم (١) وبعضهم قد بلغوا الضفة الاخرى يحملون الاعلام . ونظرا الى المدائن فاذا بعض حاميتها قد خرجوا من الاسوار بافيالهم وافراسهم واعلامهم يتأهبون للقاء المسلمين وقد علا الضجيج حتى استكت المسامع وتصاعد الغبار حتى حجب السماء . فهاجت عواطف حماد وجرى دم الملوك في عروقهِ وثارت الحمية في رأسهِ فنظر سلمان اليهِ فرآهُ قد احمرت عيناهُ وهو يتفرس في ساحة القتال كأنهُ يهمُّ بالوثوب اليها فقال لهُ ما بال سيدي في شاغل

فنظر حماد اليهِ وقال « اراني يا سلمان راغباً في دخول هذه الساحة فقد آن ساعة الانتقام لوالدي . هؤلاء هم قتلة النعمان بن المنذر قد رأوا لقتال المسلمين فلا اراني صابراً عن منازلتهم ووصية والدي خارجة من ظلمات القبر . ولا ريب عندي يا سلمان ان تقاعدي عن القيام بتلك الوصية من اول الامر هو الذي عرقل مساعيَّ

(١) ابن الاثير

وحرمني من هند لان طاعة الوالدين واجبة وقد تهاونا في هذا الواجب فحوزينا بالتعب والشقاء والفشل والقنوط . لم تكن هند طوع ارادتنا لم يكن والدها راضياً بي ينتظر ساعة القران . فما بالك بحجم وتغير من يوم قرأنا تلك الوصية المقدسة وعولنا على اعمالها ذلك اول قصاص شاء وما زالت تتوالى علينا الاحن ونقف في سبيلنا العقبات من ذلك الحين حتى خرج الصيب من ايدينا اوكاد وكأن الله سبحانه وتعالى قد جرّنا الى هذه الساحة ليذكرنا بما ارتكبناهُ لعلنا نرعوي ونصدع بالامر وكأني بوالدي ينادينا باعلى صوته من اعماق قبره واطلة ما انك بفعل ذلك منذ اعوام ولكنا كنا بعيدين عن مدفنه فلم نسمع النداء . وتحدثني نفسي يا سلمان ان ما زال هؤلاء الفرس في جملة المحاربين وعليّ رد العنان عن المنذر وبيدي خاتمهُ فاما ان أُقتل شهيد الثار المقدس واما ان احيا بعد النصر واظفر بخصمي فيطيب لي القران عملاً بوصية والدي فقد اوصاني ان لا اقضي امرًا مثل هذا الأ بعد الانتقام لهُ »

وما اتى حماد على آخر كلامهِ حتى ارتعشت انامله وبارت عواملهُ وهم بالكلام عن ان هجر حوادهُ نحو النهر فحاض الماء وخاضهُ وسلمان في اثرهِ حتى اتيا الضفة الاخرى فرأيا المسلمين يطاردون الفرس حتى دخلوا المدائن فدخلوها في اثرهم . واوغل المسلمون في المدائن وحماد في حملتهم حتى اتوا ايوان كسرى فدخلوا حديقتهُ وخيولهم تدوس الازهار والرياحين ورماحهم تخترق اغصان الغيون والازدرخت حتى وصلوا باب الايوان فكان حماد اول داخل وقد عوّل ان يقتل كسرى بيده . والايوان قاعة كبيرة (١) طولها مئة ذراع وعرضها خمسون مبنية بالآجر والجص سقفها عقد واحد قائم على عمد من الرخام المنقوش وفي صدر الايوان عرش يجلس عليهِ كسرى تعلوهُ قبة مرصعة في داخلها مروحة من ريش النعام وإلى جانبي العرش مجالس الاعوان والوزراء من المرمر والكهنة وجدران الايوان وسقفهُ مزينة بالرسوم وفي جملة ذلك رسم كسرى انوشروان وغيره من الاكاسرة العظام وابيات من الشعر الفارسي مكتوبة بالحرف الكلداني وفي سقف الايوان رسوم الافلاك والاجرام

فلما رأى حماد نفسهُ في وسط الايوان ووقع نظرهُ على ذلك العرش اسرع نحوهُ وهو يحسب كسرى جالساً عليهِ فاذا هو خالٍ وليس في المكان احد من الفرس لفرارهم

(١) راجع الفصل السابع والعشرين من هذه الرواية

جميعًا الى حلوان [1] ولم تمض لحظات حتى امتلأ الايوان بالمسلمين وقد اخذوا في تكسير التماثيل وتمزيق الصور وكان الفرس قبل خروجهم قد حملوا معهم ما خف حمله وغلا ثمنه وبقي مع ذلك ما لا يقدر قيمته من الذهب والجواهر الكريمة والثياب المزركشة والاسلحة المذهبة والتيجان المرصعة

اما حماد فحالما تحقق سقوط المدائن لم يعد يشعر شاعل عن الناس الامير عبد الله فلم يرَهُ بين الهاجمين فاشتغل باله عليه فاوعز الى سلمان ان يساعدهُ في طلبهِ وكان سلمان اكثر قلقًا عليهِ من حماد فقال حماد لا تبتعد انت عن هذا الايوان فاني ذاهب الى سعد بن مالك امير هذا الجند لعلي اسمع منهُ خبرًا عن سيدي الامير

قال حسنًا وبقي حماد في حومة الجند لا يستعمهُ احدٌ حتى سكنت الغوغاء وهو ينظر الى ما يحملهُ الهاجمون من تحف الغنيمة وفيها التيجان والسيوف المرصعة فسمع قائلاً يقول هذا هو سيف النعمان فلما سمع ذلك خفق قلبهُ وود لو يناله هو ولكنهُ لم يجسر على التماسهِ فقال في باطن سره هذا هو سيف النعمان وهذا ابن النعمان وهذا ابن النعمان وهذا خاتمه قد شهدوا حرب الفرس معًا ورأوا سقوط دولتهم رأي العين وذلك ما تمناه والدي ولم يبق لي في الحياة مأرب الا اذا طلبت بثأري وشفى اربي ولم يكد يتذكر هذا حتى عادت اليهِ شجاعتهُ وحسي موقفهُ والناس في شاغل عنهُ فهمز جوادهُ واخذ في البحث عن عبدالله فتذكر موعدهُ مع سلمان فوقف حتى عاد سلمان فاذا هو منغمس الوجه فقال لهُ حماد ما وراءك قال لبيت بعض حاشية سعد بن مالك وسألتهم عن الامير عبد الله فقالوا انهُ كان معهم ولكنهُ خرج من المعسكر اول البارحة ولم يعد

فقال هل سألتهم عن حملة

قال سألتهم فقالوا ان سعدًا امر بقتلهِ منذ قبض عليهِ

فقال هل علمت اذا كانت هند معهُ عند قتلهِ وما ذا جرى لها

قال علمت انها لم تكن معهُ ويظهر انها لم تصل اليهِ فقد قال لي مخبر ان حملة سبق اسيرًا ومعهُ امرأتهُ فقط وعلى كل حال لا بد لنا من تبيين الحقيقة الا من سيدي الامير عبد الله

(١) الطبري

وتركا المدينة والمسلمون يحسبونهما من جملة جندهم لما تنكرا به من الزي الحجازي حتى اذا صارا خارج المدائن قال حماد لقد قضي الامر باسلمان وسقطت عاصمة الفرس وان يكن ملكها يزدجرد فرّ ولم يقتل بعد ولكنهُ مقتول لامحالة فها قد انفذنا وصية والدي ولكنا ما لبثنا ان سمعنا بمقتل جبلة ونحن في ريب من امر اهلهِ ولا نعلم مقرّ هند . قال ذاك وحرك اسمائهُ واطرق

فقال سلمان لا اظن هندًا الاَّ في بعض الديور وعلى كل حال انا لا نستطيع امرًا قبل مواجهة الامير عبد الله

قال حماد وما العمل

قال ارى ان نفتش عنهُ

قال اخاف ان يكون قد اصاب حتفه ايضًا

قال لا اظن ذلك لانهُ لم يكن في المعركة وقد علمنا انهُ كان في المعسكر قبل الهجوم فلعلهُ التجأ الى مزرعة من مزارعهِ خوفًا من الحرب

قال أتعرف لهُ مزرعة قريبة من هذا المكان

قال اعرف مزرعة لهُ على بضعة اميال منَّا فلنذهب اليها لعلنا نقف على خبرهِ من بعض الفلاحين هناك

قال حماد سر انت في هذه المهمة ودعني اعود الى الحيرة اجدد البحث عن هند لعل احدًا من اهل الدير ينبئني بخبرها ولنضرب موعدًا نلتقي فيهِ بمكان بعينهِ

قال لقد رأيت رأيًا حسنًا وأرى ان نلتقي في دير هند الصغرى في الحيرة بعد ثلاثة ايام فمن استطلع خبرًا قصهُ على الآخر . وافترقا



# الفصل الثاني بعد المئة

## ﴿ أين هند ﴾

فاطلق حماد لجواده العنان وعاد فخاض دجلة واغرب يلتمس الفرات فقطعهُ وسار قاصدًا دير هند الكبرى و بات في الطريق ليلة و زل على الدير في اصيل اليوم التالي فقرع الجرس ففتحوا له وهم بحسبونهُ مسلمًا لتنكره بلباس الحجازيين فرحبوا بهِ ولبثوا ينتظرون ما يبغيهِ فلم يكلمهم وظل قاصدًا الرئيس وقد عرف غرفتهُ فاستقبلهُ احسن استقبال و بالغ في اكرامهِ فلم يصبر على تنكره فاطلعهُ على حقيقتهِ فسألهُ عما لقيهُ فقص عليهِ خبر المدائن وفتحها فذكر الله وقال لقد توسمنا قرب سقوط الفرس منذ اشهر لانهُ سبحانهُ وتعالى لا يبقي على عدة النار فان هؤلاء الفاتحين وان لم يكونوا نصارى فهم يعبدون الله و يوحدونهُ ويؤمنون بالانبياء والرسل ويذكرون عيسى ومريم بالخير في انتصارهم نصرةٌ للدين القويم

ولم يكن هذا الحديث ليهمّ حمادًا ولكنهُ صبر حتى فرغ الرئيس من كلامهِ فقال لهُ هل سمعتم شيئًا عن جبلة بعد ذهابي

قال لم نسمع عنهُ شيئًا ولكنا سمعنا خبرًا عن ابنتهِ

قال وماذا سمعتم عنها

قال ان بعض رهباننا يبرحون الحيرة مرتين في الاسبوع يحضرون سوقها يستبدلون ما يفضل عندنا من علات ارضنا بما نحتاج اليهِ من الانسجة او الآنية او نحوها فاتفق للذين نزلوا على اثر خروج جبلة واهلهِ انهم رأوا تلك الفتاة في بعض طرق الحيرة على انهم اختلفوا في حقيقتها فانكرها بعضهم واصرّ الاخرون على انها هي هي بعينها فلا ندري ايهما مصيبًا

فلما سمع حماد ذلك قال الا يتنازل حضرة المحترم لاستقدام اولئك الرهبان لعلي اتحقق الامر بنفسي

قال حبًّا وكرامة . وصفق فجاء راهب فامرهُ ان يدعو راهبين سمّاهما و بعد هنيهة جاء الراهبان فسألهما حماد عن تلك الفتاة فقال احدهما رأيناها قبل ان ندخل الحيرة

تقرب بحيرة هناك ويحال لي انها ابنة جبلة ولكن اخي هذا ينكر عليّ ذلك

فقال الآخر لا اظنها هي لاني لم انوسم فيها ما عهدناه من الابنة والعزة فقد عرفناها هنا وفي وجهها مهابة الملوك ومارقتنا على جواد كأنها من امهر الفرسان والفتاة التي شاهدناها لا اقول انها لا تشبهها ولكنها اشبه بعامة الناس منها بالملوك او الامراء

فلما سمع حماد كلامهما تحير في امره ومال بكليته للمسير الى الحيرة يتفقد هندًا بنفسه فتظاهر بالاكتفاء بما سمعهُ وهمّ بالنهوض فدعاه رئيس الدير للمبيت عندهم تلك الليلة فاعتذر بما يدعوه الى سرعة المسير وودعهُ وخرج والشمس قد مالت نحو المغيب وجعل الحيرة وجهتهُ ولم يكد يتوارى عن الدير حتى اشرف على الحيرة ورأى عذيرها المتصل بالحيرة وقد غابت الشمس واخذت الكواكب في الظهور فاظلمت الدنيا في عينيهِ فالتفت فاذا هو على ميل وبعض الميل من المدينة ثم اشتد الظلام ولم يعد يرى الطريق فتبين لهُ عن بعد نور مردوج عرف من خفقانهِ انهُ وقود عند الشاطئ انعكس نوره في الماء فظهر مزدوجا فقصده وقبل ان يصلهُ سمع صوتًا بنادبه بلغة العراق

« من أنت »

فقال غريبٌ لا اعرف الطريق ومن أنت

فقال يا هلا بالضيف يا هلا بالفارس

ثم راى حمادُ الرجل قادمًا وبيده خشبة مشتعلة يستضيءُ بها فتفرس فيهِ فاذا هو شيخ طاعن في السن قد استرسلت لحيتهُ وشاب شعره ولكنهُ لا يزال في نشاط الشباب عليهِ عباءة خفقة وبيده عصا كبيرة فعرف حماد من مجمل منظره انهُ راع على انهُ ما لبث ان شم رائحة الزربية وسمع معاء الماعز فتحقق ظنهُ ولكنهُ لم ير حولهُ بناء ولا خيمة فترجل وسلم والراعي يتفرس فيهِ وينظر تارة الى وجهه وطورًا الى لباسه

ثم قال لهُ ما بالي ارى لباسك حجازيًا وكلامك عراقيًا

قال ابي من كليهما . وقطع الكلام . فسكت الراعي وتقدم الى الفرس فقاده بعنايةٍ وليس في ذلك المكان غيرهما فمشيا لا يسمعان صوتًا غير معاء الماعز ونقيق الضفادع حتى انتهيا الى كوخ صغير مبني من سعف النخل وقد ربض عند بابهِ كلب كبير الجثة ظل رابضًا هادئًا كأنهُ ادرك ان النازل ضيف لا خوف منهُ على القطيع

# الفصل الثالث بعد المئة

## ﴿ أين الشجي من الخلي ﴾

اما حماد فلما وصل الكوخ واشتم رائحة الرعاة استنكف من الدخول اليهِ فقال الشيخ دعنا نجلس ههنا فان ذلك افرج لنا

قال مرحبًا بك حيثما جلست . واتاه بفروٍ من جلد الماعز جلس عليهِ وذهب الشيخ بالفرس الى عمود وراء الكوخ شدَّهُ اليهِ واخذ في نزع السرج . وفيما هو يفعل ذلك سمعهُ حماد يتمتم و يقول اقوالا لم يفهمها

فناداه فلم يجبهُ فاعاد النداء فجاء الشيخ واللجام بيده فنظر حماد اليهِ فاذا هو يتبسم فبانت لثتهُ ولم يبق فيها الاَّ سن بارزة الى الاعلى

فقال لهُ حماد ما يضحكك يا اخا لخم

قال انما اضحكني ما رأيتهُ في عدة هذا الجواد مما يشبه عدة فرس تعودت ان اراه كل ليلة من ليالي الاسبوع الماضي بركبهُ فارس قد اعجبني فيهِ ما اعجبني فيك

قال من هو ذلك الفارس وما الذي اعجبك فينا

قال لقد اعجبني فيكما التنكر فان ذاك كان يأتيني في كل صباح ملثماً وعليهِ عباءة من الحرير فيكلمني بصوت النساء وعليهِ رداء الرجال . واست جئتني بلباس الحجار وكلام العراق فلا ادري تغيرت الارض واختلط الناس ام كيف

فتذكر حماد هندًا وما سمعهُ من ترملها بالعباءة يوم خروجها من الدير فاستأنس بحديث الرجل فهمَّ باستيضاحهِ فاذا هو قد تركهُ وتحوَّل نحو الزريبة فاستقدمهُ فاجاب انهُ آت على عجل فلبث حماد كأنهُ على مقالي الجمر حتى عاد الراعي وفي يده قصعة من الخشب قد اكمد لونها من توالي السنين على استخدامها بلا غسل وفيها لبن حلبهُ من ماعزه وقدمها لهُ ليشرب

فاعتذر حماد بانهُ لا يحتاج الى طعام

فقال الشيخ لقد نزلت ضيفًا فما عليك الاَّ ان تتناول الطعام واذا كنت ملآن الجوف تمهل ريثما آتيك ببعض الخمر قال ذلك وتحوَّل نحو الكوخ وعاد بقصعة فيها

خمر فقدمها لحماد وهو يقول اليك هذه الخمر فانها من غلة كرمنا هذا العام . فتناول حماد القصعة لا رغبة في الشرب ولكنه خاف اذا اعتذر ان يأتيه الشيخ بشيء آخر

ثم جلس الراعي بجانب كلبه ويده على رأس الكلب يلاعب اصبعه بين اصابعه وهو ينظر الى حماد

فابتدره حماد قائلاً ذكرت لي الفارس المتنكر ولم تتم حديثك

قال هذا هو كل حديثي عنه . فانه اتاني منذ بضعة عشر يوماً فاوقف جواده عند هذا الكوخ وسألني الذهاب الى دير هند لاستفهم له على الناس قادمين من الشام هل نزلوا الدير ام لا . وكنت اذا نظرت اليه رأيته فارساً ملثماً فاذا تكلم خلته امرأة فسألته ان يحسر اللثام عن وجهه فأبى ودفع اليّ ديناراً فاطعت امره ووعدته بالجواب في المساء فعاد في المساء وهو يطلبني ذهبت لانشاد مهنته ولم يدر انى لا استطيع التخلي عن ماشيتي وليس عندي من اعهد امرها اليه . فلما سألني اجبته اني سألت اهل الدير فقالوا انه لم يأتهم احد . وما زال يكرر زياراته ودفع الدنانير واما اجيبه جواباً منشابهاً حتى اذا كان منذ بضعة ايام استقبلني بدر الماشية والسيدة مريم ان آتيه بالخبر اليقين . فسرت الى الدير فسألتهم فقالوا انهم لم يأتهم احد وهب ان احداً من اهل الشام جاءهم فلا يقبلون زيارته . فلما احست الفارس هذا الجواب غضب وتمتم وكاني سمعته يلطم ثم تحوّل عني ولم اعد اراه من ذلك اليوم فدمت لاخلاص الخدمة والوفاء المنهة بالصداقة . فلما رايتك وآنست ما آنسته من المشابهة بينكما تحركت وعوّلت على ان لا اصدُق في خدمتك

فلما سمع حماد ذلك تحقق ان السائل هند بعينها فقال للشيخ ألم تعلم الجهة التي سار فيها ذلك الفارس

قال لا . وهب اني اعلم فما انا صادقك

فمد حماد يده واستخرج دينارين دفعهما اليه فتناول الشيخ النقدين وهو يتمرس فيهما ويضحك ثم قال اما اذا شئت ان اصدقك الخبر فاعلم ان الفارس سار محاذياً لهذا الشاطئ قاصداً الحيرة فلما بعد عني وصار على مقربة من المدينة رأيته نزل ووقف مدة فظننته عائداً اليّ فاشغلت عنه برهة ثم التفت فلم أرَهُ

فاستولى القلق على حماد وعجب لتردده ووقوفها ولبث صامتاً يفكر ثم قال وهل

حدث ذلك

قال حدث منذ اسبوع

اما الشيخ فلما آنس من حماد بذلاً حاول المبالغة في اكرامهِ فجعل يقدم لهُ الخمر واللبن فلما رآهُ لا يشرب شيئًا وقد مضى بعض الليل دعاهُ للرقاد في الكوخ فقال حماد لا احتاج الى رقاد

فقال اذا كنت تحتقر كوخي وقد تعودت المنام على الاسرة فابي معدٌّ لك فراشًا من الحرير . ودخل الكوخ ثم عاد وفي يدهِ ملاءة فرشها لهُ فعجب حماد لوجود تلك الملاءة عنده فتفرس فيها فاذا هي عباءة مزركشة فأجفل لرؤيتها ومد يدهُ فتناولها ونظر اليها بضوء القمر فاذا هي عباءة هند وكان كثيرًا ما يراها عليها اذا ركبت فصاح في الرجل وأنّى لك هذه العباءة . فضحك الراعي ضحكة يمازجها خوف ولم يجب

فندم حماد على ما بادأهُ بهِ من الجفاء وقال يهدئهُ لقد اعجبني لطفك وحسن وفادتك فاني يا عماهُ لا استطيع القيام بحق شكرك على هذا الاكرام الا تخبرني ممن ابتعت هذه العباءة

فسكن روع الشيخ واشار الى كلبهِ وقال انها من صيد هذا الكلب

قال وكيف ذلك

قال افتقدتهُ ذات صباح فلم أجدهُ وكان قد تعود السرح في بعض الايام ثم ما لبث ان عاد وقد عض على هذا الرد . بعدهِ وجاء يجرهُ وراءهُ

فازداد قلق حماد وقال ومن اي جهة قدم بهِ

قال من جهة الشاطئ

فقال الا تظنها العباءة التي كان ذلك الفارس ملتحفًا بها

فتنحنح وتشاغل عن الجواب وحرك حاجبيهِ وكتفيهِ كأنهُ يقول لا اعلم

# الفصل الرابع بعد المئة

## ﴿ المناجاة ﴾

فتحقق حماد انها عباءة هند فخاف ان يكون لوجودها هناك سبب محزن فخفق قلبهُ وتشاءم وحدثتهُ نفسهُ ان يتتبع الشاطئ لعلهُ يقف على اثر آخر ثم تردد مخافة ان يتوه عن الطريق والوقت ليل فحاول الانتظار الى الصباح ولكنهُ نظر الى السماء وتأمل مواضع الابراج فعلم انهُ في نصف الليل فاستبعد الأجل . وكان القمر قد طلع حتى تكبد السماء فانار البحيرة وشاطئها وامية الحيرة . وفي اول تلك الاسية قصر الخورنق الشهير معوّل على مغافلة الراعي والمسير على الشاطئ فتظاهر بالصبر والقلق وقال لهُ اراني لا استطيع رقادًا الآن واحفظ بالفرس ريثما أتمشى على هذا الشاطئ برهة لعل النعاس ان يأتيني واعطني العباءة التحفها فتقيني من البرد

فقال افعل ما بدا لك

فتناول حماد العباءة ونزل بها وسيفهُ الى جنبهِ فرفعهُ وعلقهُ بمنطقتهِ لئلاَّ يطرق الارض فيحدث صوتًا يعترض مجاري تصوراتهِ وسار الهوينا مجاذيًا للشاطئ وقد سكن الهواء وأوت الطيور الى اوكارها فبعد ان مشى برهة وقف والتفت وراءهُ فاذا بالزريبة قد توارت عنهُ فنظر الى ما حولهُ فعلم انهُ على مقربة من الحيرة و بينهُ و بينها المغارس والكروم وامامهُ البحيرة وقد هدأ ماؤها وبور القمر ينعكس عن سطحها فيتلألأ كالزجاج والطبيعة هادئة ساكنة لا يخلل سكونها الا نقيق الضفادع . فجلس على صخر هناك واطلق لتصوره العنان فكر في ما هو فيهِ من الهواجس وتصور هندًا وعباءتها وما الذي اوصل ذلك الكلب اليها . فاعترضهُ فكر اقشعر منهُ بدنهُ وخيل لهُ ان هندًا لما يئست من لقائهِ القت بنفسها في ذلك الماء فبقيت العباءة على الشاطئ حتى حملها الكلب الى الزريبة ولما تصور ذلك انقبضت نفسهُ واحس كأنهُ صبت عليهِ ماء باردًا وهمَّ بالعباءة يقبلها و يتنسم رائحة هند منها فغلب عليهِ الوجد فاخذ في البكاء وجعل يخاطب العباءة وهو يبكي ويتنهد و يقول

اخبريني يا عباءة هند اين تركتِ هندًا هل انت خلعتها ام هي خلعتك وقد غ . . . ذا الماء وتركتكِ نذيرًا بمصيرها آه من طوارق الحدثان آه من تقلبات

الزمان اين هند الآن أَلعلها لا تزال في قيد الحياة ام هي غارقة في هذا الماء وقد اكلت لحمها الاسماك ... كيف تموت هند وحماد حيٌّ يرزق .. وسكت برهة ثم قال العلي قصرت في البحث عنك حتى بتُّ من لقائي من يخبرني اين انت ... هند هند ... اين انتِ أألسني درعا لتقيني وتقتلي نفسك قبح الله رأي والدك وضعف عزيمتهِ لقد جرَّ عليا الشقاء سامحهُ الله اذا كان لا يزال بين الاحياء . من يخبرني ان هندًا حية او ميتة فاذا تحققت موتها استودعت الدنيا ولحقت بها لعلنا نلتقي في ظلمة الابدية ... ثم سكت برهة ومسح دموعهُ ونظر الى ما حولهُ فاذا هو منفرد ليس من يسمعهُ او يراهُ فاطلق لنفسهِ عنان البكاء وعاد الى العباءة فلفَّ بها وجههُ وجعل يشمها ويقبلها ويشهق في البكاء حتى كاد يغمى عليهِ

ثم رفع العباءة عن وجههِ ووقف بغتة والتفت نحو الحيرة فاذا ببيوتها ساكنة هادئة فقال ... هؤلاء اهل الحيرة نيام لا يزعجهم طيف ولا يقلقهم خيال هل يعلمون ان على شاطئ بحيرتهم ملكًا يبكي كالطفل هل يعلمون ان ان ملكهم النعمان صبٌّ هائم يبحث عن حبيبتهِ في اكنافهم هبُّوا ايها الراقدون اخبروني اين هي هند اين انتِ يا هند اين قامتك ابن عيناك اين انت اجيبيني فاخبرك ان دولة الفرس قد سقطت وانتقمتُ لوالدي تعالي نجتمع وننسى الاحزان والاتعاب لقد آن زمن الراحة ...

ولكن آه ابن الراحة من فتى مات والدهُ قبل ان يولد هو وانقضت زهرة عمرهِ وهو لا يعرف نفسهُ حتى اذا عرفهُ وآن لهُ ان يستريح نكبهُ الزمان بضياع حبيبتهِ آه ... يا ليتني لم اعرف ذلك السبب فان معرفتهُ حرمتني كل هذا الهناء ... ما احلى الحب وما اسعد الحبيبين اذا التقيا ولو عاشا في كوخ مثل كوخ هذا الراعي واوغل في البكاء وهو يقلب العباءة بين يديهِ يقبلها ويشم رائحتها حتى بللها وقد تعب وخارت عزيمتهُ فانكبَّ على الصخر فعفرهُ الدرع فتوسد الثرى والقى رأسهُ على حجر فغلب عليهِ التعب والنعاس فغمضت اجفانهُ وهو بين اليقظة والمنام

ثم استيقظ مذعورًا كأنهُ سمع صوتًا يناديهِ فنظر الى ما حولهُ فلم يرَ احدًا فعلم انها احلام اقتضتها هواجسهُ وشكوكهُ . ولكن ذلك الصوت ما زال يرن في اذنيهِ وقد اضطربت حواسهُ وخيل لهُ لهدوء المكان وسكون الطبيعة انهُ في عالم الارواح وان ذلك الصوت خارج من القبور فاقشعر جسمهُ

وكان البرد قد قرسهُ والتعب انهكهُ على اثر ما قاساهُ من الركوب نهارهُ كلهُ مع ما المَّ بهِ من التهيج والكدر في ذلك الليل فالتفَّ بالعباءة جيدًا ونهض ومشى بالشاطئ وهو يحاذر ان تسمع خطواتهُ كأنهُ يخاف احدًا. ثم رأى النجوم تتوارى رويدًا رويدًا حتى لم يبق منها الاَّ القليل وقد تضاءل ضوءها فعلم ان الفجر قريب ثم بدا الشفق من وراء الافق يطارد اشعة القمر وهو سابح في الفضاء كأنهُ يودع الليل على موعد. ورأى الاطيار خارجة من اوكارها بين مغرد ومرنم ومصفق ومرفرف ومحلق فشدَّ حمادٌ العباءة على رأسهِ وقد فسد هندامها لما قاستهُ من صدمات العباءة اما العباءة فجعلها على كتفيهِ وشدها على صدرهِ يتقي البرد بها ولم تمضِ برهة حتى سمع دق الاحراس من كنائس الحيرة واديرتها فاخذ يتمرس في الشاطئ لعلهُ يقف على اثر آخر من آثار هند ثم خاف ان ينزل احد من اهل الحيرة ليغتسل او يستقي فيراه في تلك الحال فهمَّ بالرجوع وفيما هو يتحوَّل سمع وقع حوافر فأجفل والتفت فرأى فارسًا خارجًا من سور الحيرة كأنهُ يطلب الجزيرة ولم يقع نظرهُ على الفرس حتى خفق قلبهُ لانهُ يشبهُ فرس هند ولكنهُ لم يرَ فوقهُ سرجًا وقد ركبهُ غلام يشبه ان يكون خادمًا فوقف حتى دنا الفرس منهُ فتأملهُ فاذا هو فرس هند بعينهِ فصفت واستبشر وصاح في الغلام فوقف

فقال لهُ الميَّ يا غلام

فلما رأى الغلام العمامة الحجازية خاف واسرع نحوهُ

فقال لهُ لمن هذا الفرس

قال هو للامير فلان

قال ومتى اقتناه

قال اول البارحة

قال وممن اشتراه

قال من بعض الرهبان عرضهُ للبيع في سوق الاربعاء

فقال وانَّى للرهبان مثل هذا الفرس وهو من خيول الشام

قال لقد تعودنا مشاهدة مثل هذهِ الخيول يا سيدي منذ قامت الحرب فكل قبيل لم يكن لهُ وارث وُهبت امتعتهُ واسلابهُ للاديرة تنفقها في سبيل البر فكم من

فارس قتل وظل فرسهُ تائهًا فاستولت عليهِ الديور وباعتهُ

فلما سمع حماد ذلك ايقن بموت هند غرقًا في تلك البحيرة وتحوَّل عن الغلام خشية ان يرى بكاءهُ واطلق لدموعهِ العنان والشمس لم تشرق بعد . اما الغلام فلم يصدق انهُ نجا من ذلك المحازي فحوَّل عنان الفرس وكان قادمًا ليسقيهُ فعاد ولم يسقهِ

فلما خلا حماد بنفسهِ وقف عند الماء والعباءة تظلله ونظر الى السماء وتنهد وقال أأطمع بعد ذلك بالبقاء . . لمن احيا وقد فقدت حياتي أأشرب الماء وقد غرقت فيهِ حبيبتي . . . ما الذي حملك على الانحدار يا هند أيأسك من لقائي فتعجَّلت اللحاق بي الى دار الابدية وقد ظننت اني سبقتك اليها . فنحن على كل حال لاحق اثر سابق ولكن ويلاهُ انتزق اعوامًا ونحن في جهاد وشقاء فاذا آن اللقاء وزالت العراقيل امتنعت علينا الحياة . . . ثم سكت ونظر نحو الشمس فاذا هي لم تطلّ بعد فقال أأنتظر شروقكِ لعلك تأتيني بشارة ام انت لا تحملين الاَّ البلاء والشقاء . دعيني اتوسد الماء قبل ان ارى وجهك . ونظر الى الماء امامهُ فاذا هو رقيق لا يغرقهُ فتحوَّل الى صخر رآهُ ناتئًا فوق الماء على مقربة منهُ وقال الاولى لي ان القي نفسي من فوق ذلك الصخر فمشى نحوهُ وفيما هو ذاهب شعر بجاذب في نفسهِ يمسكهُ عن الانحدار فاعتبر ذلك من قبيل الضعف الذي يتولى الانسان اذا تحقق دنو الاجل

## الفصل الخامس بعد المئة

### ﴿ لقاء هائل ﴾

فلما وصل الصخر صعد اليهِ ومشى نحو حافتهِ فزلَّت قدمهُ وتعثر باذيالهِ فوقع وفيما هو يتخبط للنهوض حاست منهُ التفاتة فرأى اشباحًا خارجة من ضواحي الحيرة تطلب البحيرة فقال في نفسهِ فلا عجلنَّ الاجل قبل وصولهم فتقدَّم فاحسَّ بما يمسكهُ عن ذلك العمل واستولى عليهِ الضعف الطبيعي فتجلد ونظر الى تلك الاشباح فرآها تقترب نحو الشاطئ فتأملها فاذا هي اشباح نسوة احداهن تحمل جرةً والاخرى سلاًّ واخرى تسوق بعيرًا وكلهن في زيٍّ واحد فاستغرب البسنهنَّ المتشابهة وكلها سوداء وعلى رؤوسهن اغطية سوداء فهمَّهُ امرهن وعلم ان تلك الالبسة لا تكون الاَّ في الديور . فخيل لهُ انهن راهبات خرجن قبل

الجر للاستقاء وقطف الاثمار والقبول من مزروعات الدير فحسدهن على سذاجتهن وخلوّ قلوبهن من لواعج الحب ورأى حاملة الجرة تقترب نحو الشاطىء ثم ما لبثت ان دنت منهُ حتى كرت راجعة كأن احدًا يطاردها فاستأنس بخطواتها لمشابهتها خطوات هند ولكنها اضعف منها كثيرًا فعلق ذهنهُ بتلك الفتاة وود لو انهُ يراها لحظة اخرى فظل يتبعها بنظرهِ حتى رآها وقفت الى رجل يخطب فخاطبتهُ واشارت الى حماد فاشتغل بال حماد ومال الى معرفة سر ذلك الخطاب ثم رآها آتيين معًا الفتاة بجرتها والرجل بفاسهِ

فلبث ينتظر وصولها فتقدم الرجل اولاً وحيّا حمادًا وتلطف في السلام عليهِ وحماد ينظر الى الفتاة وهي منصرفة نحو الشاطىء لتملأ جرتها فقال الرجل لحماد اتأذن لي بسؤال . قال قل قال من اين اشتريت هذه العباءة

قال وما يعنيك من امرها

قال لانها مسروقة من صاحبها فاما اخبرتنا عمن باعك اياها طالبناهُ بها

قال وما ادراك ان هذه هي بعينها ان العبي قد تتشابه

قال ان صاحبها رآها بعينهِ وعرفها ولهُ فيها علامات

قال ومن هو صاحبها

قال الفتاة التي رأيتها الآن فانها حالما رأتك عادت اليّ بالخبر وقد كنا قضينا ثلاثة ايام ونحن نبحث عنها

فلما سمع ذلك الكلام ظن نفسهُ في منام فمسح عينيهِ والتفت الى ما حولهُ واستشهد وجدانهُ فتحقق انهُ في يقظة ونظر الى حاملة الجرة فرآها قد ملأت جرتها وعادت الى رفاقها فجعل يتأمل خطواتها فاذا هي خطوات هند ولكن الجسم نحيل فقال للرجل ما بال صاحب العباءة لا يطالب بها بنفسه

قال لان صاحبتها من راهبات دير هند الصغرى ولا يؤذن لمن بمخاطبة الرجال واما انا فمن خدمة الدير المكلفين بمثل ذلك

فقال حماد (وقلبهُ يكاد يطير من الفرح وهو يمسك نفسهُ ويتجلد) وهل صاحبة هذه العباءة قديمة في سلك الرهبنة

قال لا تزال حديثة وقد دخلت في طور الابتداء فاذا مضى عليها بضعة اشهر

تحت الاختبار رسموها ولذلك فقد وهبت الدير كل ما كان معها من الثياب والمصاغ والدواب فايقن حماد انها هند ولولا عمامتهُ ولباسهُ الحجازي لعرفتهُ لاول نظرة وهي اولا ثوبها الاسود ونحولها لعرفها . فلما ايقن انها هي بنفسها ارتعدت فرائصهُ لما كان فيهِ من الخطر وحمد الله لنجاتهِ على هذه الكيفية وحدثتهُ نفسهُ ان يسرع الى هند فيطلعها على حقيقتهِ فخاف عليها من البغتة مع ما آنسهُ من ضعفها فصبّر نفسهُ . وخاف من الجهة الثانية ان تكون قد نذرت العفة فلا يبقى لهُ اليها سبيل فقال للرجل وهل نذرت العفة

قال لا تنذرها قبل ان تنقضي مدة الابتداء

فاطمأن بالهُ ونظر فاذا بالفتيات لا يرين في شواغلهن بعيدات لا يسمعن ولا يرين وصاحبة الجرة قد وضعت جرتها على الارض وجلست على حجر مسرودة تنتظر رفيقاتها ليرجعن الى الدير معًا

فقال حماد للرجل اذهب الى صاحبة العباءة وقل لها اني لا اعطي العباءة الاَّ تسليماً بيدها

قال قلت لك يا مولاي انها لا تستطيع ذلك

قال اليك هذا البرد . وخلع برد الاعمال عنهُ من العباءة ادفعهُ اليها بدلاً وقال فتناول البرد ونأملهُ فاذا هو ناءٍ من العباءة كثيرًا فاسرع بهِ حتى أتى الفتاة وهي لا تزال جالسة وحدها فدفعهُ اليها وقال لم يعطني العباءة ولكنهُ دفع اليَّ هذا البرد . فحالما رأتهُ صاحت لخال حماد حماد . . . وتركت الجرة واسرعت نحوهُ وكان هو يراقبها ليرى ما يبدو منها فلما رآها نهضت واسرعت نحوهُ لم يبق عندهُ ريب بشأنها فاسرع لملاقاتها وقد نزع العمامة عن رأسهِ فلما التقيا وقعت هند مغميًا عليها فاستلقت على جنب حماد فانهضها وكان خادم الدير قد رآها تسرع نحو حماد فلما اغمي عليها اسرع بالماء ورشَّها فأفاقت وهي تقول حماد حماد حماد . . . وهو يقول هند هند حبيبتي هند أانت حية واما احسك غريقة في هذا الماء ولو تأخر قدومك لحظة اخرى لذهب حماد طعامًا للاسماك

قالت حماك الله يا حبيبي . ثم غلب عليها الحياء فغطت رأسها بالنقاب الاسود وجلست متأدبة وقد امتقع لونها وتولاها الهزال . فقال لها ابن والدك ياهند قالت اما سمعتم خبرهُ انهم قتلوهُ واطنهم قتلوا والدتي آه من نقذات الايام . واوغلت في البكاء

قال هل تحققت مقتله

قالت لم ارهُ ولكني سمعت هو ولولا ذلك لرأيتني معهُ حيث كان لاني لما قضوا عليهِ وعلى والدتي استطيت جوادي ونعقت فرسها فوصلت الخيمة قبلهُ في هذا الدير وقد كنت اتردد اليهِ قبلاً فاشارت عليَّ الرئيسة ان ابقى عندها وابعث من يستطلع الخبر فعاد المخبرون وقد اكدوا مقتلهما ولم يبق لي نصير الا حبيبي حماد ومن يخبرني بقدومهِ فان الخادمة التي كنت ارسلتها لبحث عنك في بيت المقدس لم تعد بعد واستخدمتُ راعيا بالقرب من هذه المدينة كنت اتردد اليهِ مذكرة ليسأل عن قدومك الى الدير فقطع املي من دخولك الدير لان اهله لا يقبلون فيهِ واحداً من الشام فصفت ذرعاً واستولى عليَّ اليأس ولم يبق لي في الدنيا مطمع بعد فقد والدتي وضياع حبيبي وزوال عز الملك وخسارة الاموال والعقار ولا اكثر عليك الى هممت بالانتحار غير مرة ولكن قلبي لم يطاوعني لاني لم ايأس من لقائك بعد فلم اجد وسيلة غير الترهب في دير اعرف رئيسته وبعض راهباته فصلت ذلك فقبلوني مبتدية تحت الخبرة فوهبتهم كل مالي من الثياب والفرس ولم احفظ شيئاً غير الاساور وهي عربون المحبة فانها معها بين اوراقي وكنت قد اصبحت عاملي هذه الثياب وخوفي المرة الاخيرة من عبد الراعي الذي قلقني وهو احرص على اخبارها اياي بما يأتي به من خبر الدير فوقعت العباءة التي وجدته فجئت بها في اليوم الثاني ولم اجدها وهو اليوم الذي طلبت فيه الانضمام الى الرهبنة فاخبرتهم اني فقدت هذه العباءة فاذا عثروا بها كانت حلالاً للدير وهذا هو اليوم الثالث من دخولي وقد كلفوني تحارب كثيرة فحملت الاحمال واشتغلت الاشغال الشاقة فرادني ذلك ضعفاً على ضعف

## الفصل السادس بعد المئة

### ديرهند الصغرى

وكان الخادم واقفاً وقد ذهل لما رآهُ فتقدم الى هند فاومأ اليها ان عملها هذا مخالف لشروط الرهبنة فقالت دعنا نذهب الى الرئيسة فنهضت ونهض حماد ومشيا لمقابلة الرئيسة وفيما هما في الطريق سألتهُ عن سبب تنكره وما مرَّ بهِ فاخبرها حكايته

بالاختصار حتى اتى الى حديث المدائن والبحث عن والدها فلما بلغ الى هناك تنهدت هند وقالت آه يا حبيبي الى سعيدة بلقياك ولكن حظي غير نام لما قاسيتهُ من فقد والديّ

فقال لها اما لم نحقق مقتلها وقد كلفت سلمان بالبحث عنهما وموعدنا الالتقاء في دير هند هذا في الغد وهو اليوم الثالث من افتراقنا ومن عرف خبرًا اطلع الآخر عليهِ فقد فزت بطريدتي فعسى هو ان يفوز بمن يبحث عنهم والامير عبد الله معهم

وكانا ماشيين في وسط المدينة لا يهمها استغراب الناس لسيرهما معًا بل كانا في شاغل من تجاذب القلوب لا يكادان يريان الطريق فلما وصلا الدير اسرع الخادم الى الرئيسة فانبأها بما شاهدهُ من جرأة ذلك الحجازي على الراهبة المتعبدة مما يخالف العهود المعطاة من المسلمين. فاطلت الرئيسة من باب الدير فرأت هندًا وحمادًا قادمين وكان حماد قد نزع عمامتهُ فعرفت من ملامح وجههِ انهُ عراقي فارادت استطلاع السر فدخلت بهما الى غرفة منفردة فهمّ حماد فقبل يد الرئيسة فعرفت انهُ مسيحي فسألتهُ عن امره

فقال اذا ادنت فاخبرك ان هذه الفتاة خطيبتي منذ اعوام وقضت حروب الشام بافتراقنا لا يعلم احدنا بمكان الآخر حتى اذن الله باجتماعنا على يدك

وتأملت الرئيسة بوجه حماد وهو يكلمها فآنست في وجههِ هيبة وجلالاً فقالت الست عراقيًا

قال نعم ومن بني لخم

قالت و يخال لي ان جدًا شامية من غسان

قال نعم

فقال وكيف اجتمعتما

قال كذلك قدّر الله

اما هند فتذكرت اول معرفتها حمادًا وتذكرت والدها ويأسها من حياتهما فبرقت الدموع في عينيها

فلحظت الرئيسة فيها ذلك فقالت لها ما بالك تبكين يا ابنتي وكان حماد قد ادرك سبب بكائها فقال اطنها تبكي لضياع بعض اقاربها في اثناء حرب الشام

فجعلت تخفف عنها وتعزيها. وتذكّر حماد الامير عبد الله وسلمان فصبر نفسهُ ليرى

ما يأتي به الغد وقال للرئيسة على ترين ما يمنع خروج هند من سلك الرهبنة

قالت لا ارى مانعاً لانها لم تنذر العفة بعد

قال فلتتفق اذاً يوماً آخر في ضيافتك لاني على موعد مع خادمي باللقاء هنا غداً وقد ذهب للتفتيش عن ضائع لنا فاحتفظي بها ربما اعود فاني ذاهب الى راعٍ في ضاحية الحيرة تركت فرسي عندهُ البارحة

ثم نهض فلبس العمامة لئلا يبكرهُ الراعي وترك العمامة عند هند وهمَّ بالخروج فامسكتهُ قائلة لاتذهب فاني لست تاركتك لحظة بعد هذا اللقاء فقد كفاني ماقاسيتهُ فلا يفرق بيني وبينك الاَّ الموت

قال والفرس

قالت دعنا من الافراس او ارسل من يأتي به فما انا راضية بذهابك ولا تخرج من هذا الدير الاَّ معًا اما الى القتل واما الى الحياة

فعذرها والتفت الى الرئيسة فطلب اليها ان تنفذ رسولاً من قبلها يستخلب الفرس فبعثت واحدًا يعرفهُ الراعي ويثق بهِ واطلعهُ حماد على علامة يتقدم اليهِ بها ويعطيهِ اليهِ دينارين وليبث ينتظر عودته

اما الرئيسة فقالت لحماد لا يخفى عليك يا سيدي اننا في دير راهبات لا يؤذن للرجال دخولهُ الاَّ اذا تراءوا في دار الاضياف واما اجتماعهم بالراهبات فمحظور فاذا رأتك الراهبات مع هند وهن لا يعرفن علاقتكما ساء ما الظن فهل تنفصل فتنزل في دار الاضياف ريثما يأتي الغد

قال أفعل ما تأمرين . وودع هندًا ونزل يصحبهُ الخادم الى دار الاضياف فمرَّا بمربط الخيول فرأى افراساً شاهد بينها فرساً يشبه فرس سلمان فاستبشر واسرع الى الدار فلقيهُ سلمان فهمَّ احدهما بالآخر وهما يبتسمان فاستبشرا معًا فقال سلمان هل ظفر سيدي بهند

قال نعم ولكنها راهبة في هذا الدير

قال وهل نذرت العفة . فضحك حماد وقال لا والله هل ظفرت بالامير عبد الله

قال ظفرت به وبجبلة وامرأته

قال اين هم

قال سيصلون الينا الليلة او غدًا وسيأتون متنكرين لانهم كانوا مختبئين عند سيدي الامير عبد الله ولولا لكان جميعهم في عالم الاموات ولكن الامير عبدالله عالما علم بالقبض عليهِ ارتضى الذين امسكوهُ واظهر للناس انهُ قتل وخبأهُ في منزلهِ بتلك المزرعة ريثما يتمكن من العثور على هند او الاجتماع بك فلما وصلت اليهم وأنبأتهم بحركك امدني لاحتمالك وساعدك في البحث عن هند ريثما يقدمون هم الينا

فانشرح صدر حماد ايما انشراح وحمد الله على انقضاء الازمة التي هي احسن ولم يملك صبرًا عن تبشير هند ببقاء والدها حيًّا

وهمَّ بالرجوع الى الدير فرأى هندًا واقفة في الشرفة تطل على دار الضيافة لانها لم يعد يرتاح بالها بعد حماد الا اذا كان امامها فلما رأته عائدًا وعليه امارات الدهشة اومأت اليهِ فنظر اليها وضحك فضحكت هي وقد اشرق وجهها وسيت كل متاعبها وقالت ما وراءك

قال همسًا ان والدك ووالدتك قادمان الينا غدًا

فارتفت اسرَّتها واسرعت لاقائهِ عند الباب ولم تعد تعبأ بقوانين الدير . فلما لقيتهُ مدت يدها اليهِ وصافحتهُ وضغط كل منهما على يد الآخر ضغطة ما ادراك ما وراءها ولا تسل عن حديث القلوب وحواذب العيون

فقالت هند هل انت تحقق قدوم والدتي

قال هذا سلمان قد جاء بالخبر اليقين ولكنهم قادمون ومعهم الامير عبدالله متنكرين فاحذري ان يلحظ احد ما نحن فيهِ لئلاَّ نقع في شرّ اعمالنا فتكون البلية الثانية شرًّا من الاولى

قالت وسأخبرك خبرًا جديدًا حدث ساعة خروجك من غرفة الرئيسة

قال وما ذلك

قالت ان خادمتنا الامينة التي كانت تسعى في اجتماعنا ولولاها لا ادري ما تمَّ لنا قد وصلت الدير الآن بعد ان قصت اياماً بالبحث والتفتيش ولم تكن عالمة بوجودي هنا ولكنها جاءت تتسمع الاخبار من الراهبات فلقيتني وسررت بها لانها ذات فضل علينا

قال لقد اذكرتني بفضل سلمان اشهم العبور فلا ادري بماذا اكافئهُ على مروءتهِ وحسن صنيعهِ . ثم قال فاذهبي الآن الى الرئيسة ودّعيها على ان نفارقها غدًا بعد

وصول والديك والامير عبدالله واحذري ان تسمي اسم احد منهم
قالت لا تخف من ذلك
وتحولت وتحوّل هو الى دار الضيوف ومكث هناك الى صباح اليوم التالي

## الفصل السابع بعد المئة

### ﴿ قرانٌ سعيد ﴾

فاستحسن حماد الخروج للاقاة القادمين في الطريق فخرج وسلمان معهُ على الخيول وهند لا تعلم وقطعا مسافة حتى وصلا عين ماء لا بد للقادم من المدينة الى الحيرة من الوقوف عندها فترجلا وجلسا ولم تمض برهة حتى رايا هندًا وخادمتها قادمتين مسرعتين على الاقدام وهند تنوبها الاسود الجديد فيهتا وصاح حماد ما الذي اتى بك يا هند قالت سامحك الله الم اقل لك اني لم اعد استطيع البعاد عنك لحظة مخافة ان تعود الى ما كنّا عليهِ من الفراق . فشكرها وجلسوا وهم يكد يستقر بهم الجلوس حتى راوا الغبار يتصاعد من جهة الفرات فتقدم سلمان لتحقق القادمين فعاد ضاحكًا مبشرًا فنهضوا جميعًا وتهيأوا لاستقبال القادمين ولكن سلمان عاد فاخبر الركب ان حمادًا وهندًا ينتظرانكم هنا فقبل وصولهم الى العين ترجلوا جميعًا وهمّ جبلة مسرعًا الى حماد فضمهُ الى صدره وجعل يقبلهُ والدموع تتساقط من عينيهِ واسرعت سعدى الى هند وجعلت تقبلها وتبكي ثم تبادل جبلة وسعدى فقبلت سعدى حمادًا وجبلة هندًا واما عبدالله فظلّ واقفًا يتأمل في ذلك المنظر المؤثر فلما انتهت سعدى من تقبيل حماد تقدم اليهِ وضمهُ الى صدره وجعل يقبلهُ ويبكي بكاء مرًا ولم يستطع احد ابعاده عنهُ حتى خافوا عليهما وهم لا يعلمون سبب ذلك وبعد برهة انفصل عنهُ وقد تبالت عيناهُ وقال لا تلوموني على ما رايتم من شدة تعلقي بحماد وان ما ترونهُ من دموعي انما هو دموع الفرح فان حمادًا ملكي وولدي وصديقي وفخري وسندي وما زادني تعلقًا بهِ قد انتقم لوالده وشهد سقوط دولة الفرس ومحا العار عن لخم ورفع ثقلاً عن عاتقي حملتهُ منذ بيف وعشرين سنة ثم تقدم عبدالله الى هند فقبلها والجميع يبكون بكا الفرح وسلمان ينظر اليهم وقلبهُ يكاد يطير فرحا فلما سكت الجميع وهدأ روعهم

وقف سلمان وقال اتسمحون لي بكلمة اقولها بين ملكين وملاكين . لقد شاركتكم في فرحكم بهذا الاجتماع السعيد فشاركوني بفرحي بمقتل ثعلبة الخائن الذي كان سبب كل هذه الاتعاب . ثم نهض جبلة والدموع لا تزال في عينيهِ وقال اما انا فلا اقدر اصف خجلي من ولدي حماد لما سببتهُ لهُ من الشقاء وما بذلهُ هو ورفيقهُ او قل والله الامير عبد الله من الجهد في انقاذنا من الموت فنظر سلمان الى جبلة وقال الا تزال سيدتي هند تمتع على سيدي حماد ومن يا ترى افضل لديك حماد ام ثعلبة . فضحكوا جميعًا

ثم نهض عبد الله وقال اعلموا ايها السادة اننا في خطر عظيم الآن ولم يعد يحلو لنا المقام في هذه البلاد لانا اعداء الفرس بالطبع واعداء المسلمين بالفعل لما ارتكبناه من مخالفة اوامر اميرهم فلا شك انهم سيجحون عنا و يبذلون كل سعي في القبض علينا

فقال سلمان لقد نطقت بالصواب وازيد على ذلك انا لا نبرح الحيرة قبل ان نعقد للعروسين ثم نذهب حيثما تشاؤون ولو زعل حماد وهند . . . فضحك الجميع

فقال جبلة ذلك هو الرأي الصواب واذا استحسنتم فلتكن وجهتنا القسطنطينية دار الامبراطور هرقل نقضي بقية العمر هناك اذ لم يبقَ لنا مقام في الشام ولا العراق قالوا حسنًا ونهضوا الى كنيسة بقرب الدير عقدوا للعروسين بالاختصار

ولا يحتاج القارئ الى تقدير قيمة تلك الساعة السعيدة فانها من ساعات العمر و بعد الاكليل ركب الجميع وساروا متكرين نحو القسطنطينية فوصلوها بعد بضعة عشر يومًا واقاموا فيها حتى قضى الله بما شاء

تمت الرواية